



المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الدراسات العليا
المعهد العالي للدعوة الإسلامية

منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي
على ضوء ما جاء في سورة المبررات

إعداد

محمد بن محمد بن الأمين الأنصاري

لنيل درجة الماجستير من قسم الحسب ووسائل الدعوة

إشراف

الدكتور / صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٥١٤٠٢



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا للاسلام وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا
وأنعم علينا بنعمة الايمان وفضلنا على كثير من خلق تفضيلا بفضيلة الاسلام
وسمانا مسلمين .

أشهد بأنه لا اله الا هو وأصلي وأسلم على رسوله الكريم وصفيه المختار المبعوث
إلى الناس كافة رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم . شهادته أتقدم بها إلى الله
العلی القدير راجيا أن تكون لى شفيعا عنده سبحانه وتعالى يوم لا ینجوا الا من
أتى الله بقلب سليم وعمل عملا صالحا .

ومعد :

فانى أرجو أن يكون عملى هذا خالصا لله تعالى ونافعا للاسلام
والمسلمين ومن جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى أمرنا الله به وأوجبه
علينا وكان نظاما للحياة الاسلامية المستمدة من الكتاب والسنة وخلقنا لكل مسلم
سليم القلب أسلم كل شىء لله عز وجل بفطرته أولا ثم بإيمانه الذى يزيده
ولا ينقص وعمله الذى يتبع فيه ولا يبتدع .

هذا وقد مارست هذا الموضوع زمنا لا يستهان به وتأملت هذه السورة
العظيمة وتدبرتها ، وسيرت الفكر فيها وتجولت ، وكانت حديث النفس لى على
أية حال كنت منذ فكرت فى أن أكتب فيها وأجلى عما تضمنته وحوته من منهج
الدعوة الاسلامية لتربية المؤمنين وارشادهم إلى سوا السبيل ،
وكان من أسباب اختياري لهذه السورة الكريمة بعد تأملها وتدقيق أسسها
واستقراي لمنهجها أنى وجدت بها خاصة بالمجتمع المسلم ذلك المنهج الذى تكوّن

(ب)

بنظامه ونما بدستوره السماوى ولم يكن هو الذى أوجد نظامه كما هو حال المجتمعات الجاهلية . . إن هذا المجتمع النبيل الأصيل تهاوى اليوم في كثير من جوانبه ، فما أوجهه إلى تأمل ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واستدرار الرشد منها واستكشاف الحق من نورهما ، فالواجب على أبناء هذا المجتمع الا يذهب وقتهم بدرا وتنفق أعمارهم الا فيما يصلح هذه الامة ويربطها بالمصدرين الشريفين " الكتاب والسنة " وفي نفس الوقت يقدمون دراسات اسلامية لمن يريد أن يتعرف بدين الاسلام ويستوضح حقائقه . وهو واجب شرفنا الله به نحن المسلمين لتبليغ الدعوة الاسلامية بأى وسيلة من الوسائل التى لا تتنافى مع منهجها من هذه الوسائل الدراسات المتخصصة التى يجب على الباحثين من الجامعيين وغيرهم أن يوفروها واضحة لدى مجتمعهم الاسلامي دائما لتبقى الصلة بينه وبين سلفه الصالح الذى كان اتصاله بالقرآن والسنة اتصالا وثيقا ورباطه رباطا قويا .

ومن الأسباب التى دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع هو أن خدمة القرآن والسنة من أعظم النعم على الباحثين أن هداهم الله إلى إنفاق وقتهم في دراستهما وتأملهما وبيان ما فيهما من الخير وينطويان عليه من العزة والقوة واليقظة ، ومن الواجب أن تكون الصحة الاسلامية من هذا المنطلق الذى نصيد به عصافير ليس بعصفورين فقط . .

وكل ذلك شجعني على الضى في دراسة هذه السورة دراسة موضوعية متخصصة في منهج الدعوة الاسلامية ، ومع ذلك فإن المنغصات أو العقبات لا بد منها وهي كلها أمام الباحث تكون في المراجع ، فالتفسير وهي مراجعي الاولى ومشكلتها تكمن في أنها تبدو وكأنها نسخة واحدة والنسخة الواحدة

لا يصنع منها البحث بالسهولة ، فالغالب في مادة التفاسير أنها صورة واحدة شكلا ومضمونا يتناقلها المتأخر عن المتقدم بل قد وصلت الحالة بالمفسرين في هذا إلى حد أنهم يتواطون على الكلام في آية واحدة دون بقية الآيات أو في آيات معدودات في السورة دون بقية السورة ، ولما نجد في التفاسير محاولة تربط جميع أحداث الحياة بآية أو سورة مع أن هؤلاء المفسرين يؤمنون بأن القرآن شامل لكل شيء فتعميم الفكرة وتأصيلها في جميع الجوانب قليل جدا عند المفسرين .

وأما المراجع الأخرى غير التفاسير فالصعوبة تتسل في أنها لا تذكر الآية إلا للاستدلال أو التمثيل بها فقط دون التعرض لوجه الاستدلال والتحليل لجزئيات الدليل ما جعل الباحث في هذه المراجع يحتاج إلى تخمين كثير لعله يصنع من الخشبة الواحدة سفينة ذات الواح ودرر .

أما المراجع الحديثة فهي مشكلة ولاشك لأنها لا تخلو من أمرين :
الأول - سرد ما عند المتقدمين فقط دون تمييز وتمحيص سردا مملا وهذا أكثر ما وجدته عند المفسرين المحدثين أكثر من فئات أخرى من الكتاب المحدثين . . . ! !

الثاني - عندما يشذ بعض المحدثين فيخرج بالبحث عن الطريق المعهود منذ قرون ويقطع صلته بالماضي ويجحد ما للاقدمين ويحرف الكلم عن مواضعه ، وكان النصوص القرآنية والنبوية ككلامه هو وأمثاله يصرفها بالعقلانية المطلقة كيف شاء . وهذا الصنف من الكتاب يشغل الباحث أكثر مما يفيد . . . ويشكك أكثر مما يشجعه .

هذا ولما كان هدفنا في السورة هو دراسة منهج الدعوة الإسلامية في تربية المجتمع المسلم رأيت أن أضف السورة إلى موضوعات حسب ما ورد فيها وأقدم بعضها عن بعض ليكون البناء الاجتماعي مرتب الحلقات بدءاً بالبنية الأولى وانتهاءً إلى الأخيرة ومع هذا فإن السورة مرتبة ترتيباً بديعاً خيراً من هذا ، ولكن هدفنا فيها يتطلب كذلك وليس التفسير التحليلي واللغوي والفقهية أو التاريخي . . كما هو مادة المفسرين في تفاسيرهم وإنما هذه وسائل من منهجي للوصول إلى ما قصدت وهو منهج فكري لبناء المجتمع المسلم والرسالة تتكون من ستة فصول وتمهيد وخاتمة . فالتمهيد خصصتها للتعريف بالسورة ومضمونها وعلاقتها بالسورة التي قبلها . وأما الفصول فكالآتي :

١- الفصل الأول : الوحدة البشرية في النشأة ووحدة الخالق " وهو بالنسبة

للآية " الثالثة عشرة من السورة "

٢- الفصل الثاني : دور الإيمان في بناء المجتمع المسلم " وهو بالنسبة للآيات

من الرابعة عشرة إلى نهاية السورة الثامنة عشرة .

٣- الفصل الثالث : العمل بالكتاب والسنة " وهو بالنسبة للآية الأولى من السورة .

٤- الفصل الرابع : الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً " وهو

بالنسبة للآيات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة "

٥- الفصل الخامس : أسباب الفرقة وعلاجها " وهو بالنسبة للآيات :، السادسة

والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة .

٦- الفصل السادس وهو : التدابير الوقائية لبقاء الروابط بين أفراد المجتمع

المسلم وحمايته من سوء الأخلاق " وهو بالنسبة للآيتين :

الحادية عشرة والثانية عشرة .

واما الخاتمة فهي كلمة موجزة في خلاصة السورة والاشارة الى بعض النتائج التي توصلت اليها في بحثي ،

وبعد ذلك وضعت فهرسي واكتفيت بالمفيد منها وهي :

- ١- فهرست للغريب الذي يحتاج إلى توضيح وبيان .
- ٢- فهرست للتراجم الواردة في الرسالة .
- ٣- فهرست للمصادر والمراجع
- ٤- فهرست للموضوعات .

وبعد :

فإنني أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة شخي الجليل الدكتور صالح الفوزان الذي قبل الاشراف على رسالتي رغم كثرة مشاغله الادارية والعلمية والذي أعطاني من وقته الثمين الشيء الكثير فوجهني كيف أكتب وأرشدني إلى المنهج الذي ينبغي سلوكه في البحث ثم صبر على عناء قراءة كل فصل من فصول هذه الرسالة قراءة متأنية ، ثم يوجهني بعد ذلك بالملاحظات التي لا يكتفي فقط بأن يكلمني فيها وإنما يكتبها عند مكانها ، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجز له الثواب ويبارك في حياته للاسلام والمسلمين وأن يجعل الجنة مأواه والصالحين اخوانه وحسن أولئك رفيقا . {

محمد بن محمد الأنصاري

الرياض

في ١ / ٨ / ١٤٠٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التمهيد

قبل أن أبدأ في تفصيل ما أردت وقصدته في السورة ، يحسن بنا أن أهد
لذلك بتعريف مجمل بالسورة الكريمة ، وتصنيف آياتها حسب الموضوعات التي تضمنتها
وحواها منهجها لبناء المجتمع المؤمن وتربيته .

فأقول : إن هذه السورة لا تتجاوز آياتها ثمان عشرة آية ، وكلها مدنية بالإجماع
ويشهد لهذا ما سأبسطه من سبب النزول لكل آية في مكانها .

كما أن الضوابط والمميزات التي ذكرها أهل العلم في علوم القرآن للقرآن
المدني تميزه عن القرآن المكي ، تنطبق كل المطابقة على هذه السورة وآياتها
كـ " يا أيها الذين آمنوا " فإن هذا النداء بهذا الأسلوب ورد في السورة خمس
مرات ، وكاختصاص السورة بكاملها بتوجيه المؤمنين بأحكام وآداب تخصهم وحدهم
وإنما كان غيرهم تبعاً لهم في ذلك .

وكالكلام على المنافقين كما يفهم بعض المفسرين في قوله قالت الأعراب آمنا " (١)

وإن كنت لا أميل إلى هذا الرأي كما سنعرف في الفصل الثاني من هذه

الرسالة .

هذا وقد ورد في الحديث تقسيم سور القرآن إلى أربعة أصناف كما روى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ،

(١) الآيات ١٤-١٨ .

وأعطاني المثين مكان الإنجيل ، وأعطاني مكان الزبور المثاني ، وفضلني ربي بالمفصل" (١)
 فمن أي الأقسام الأربعة تكون سورة الحجرات ؟ لقد اختلفوا في أي القسمين
 الأخيرين تكون أم من المثاني أم من المفصل وهل هي خاتمة الأول أو بداية الثاني
 أو غير ذلك ؟ (٢)

وقد رجح أنها خاتمة المثاني أو أول المفصل سورة "ق" والدليل هو
 ما روى من قصة الأصحاب رضي الله عنهم في تحزيب القرآن فجاء في الخبر ثلاث
 وخمس وسبع وتسع وأحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده" (٣) فثلاث هي
 البقرة وآل عمران والنساء ، وخمس من المائدة إلى براءة ، وسبع من يونس إلى النحل ،
 وتسع من الإسراء إلى الفرقان ، واحد عشرة من الشعراء إلى يس ، وثلاث عشرة
 من الصافات إلى الحجرات ، ثم حزب المفصل من "ق" إلى آخر القرآن
 الكريم . (٤)

وسميت هذه السورة بسورة الحجرات ومأخذ ذلك من الآية الرابعة "ان الذين
 ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون" والمراد بالحجرات حجرات أزواج
 النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا الأسلوب في تسمية السور متبع شامل لسور

-
- (١) رواه الإمام أحمد في المسند عن واثلة بن الاسقع ١٠٧ هـ . ٤ ، والطبري في التفسير
 : ٤٤ ط ١ هـ ١٣٧٣ هـ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٨ هـ ٠٧ .
 (٢) أنظر زاد المسير لابن الجوزي في أول تفسير الحجرات .
 (٣) رواه أبو داود في باب تحزيب القرآن رقم ١٣٩٢ هـ ٠ طبعة السعادة في
 القاهرة سنة ١٣٧١ هـ .
 (٤) انظر تفسير ابن كثير في أول تفسير سورة "ق"

القرآن فتسمى كل سورة باسم أو بكلمة تدور عليها قصة في موضوع من موضوعاتها البارزة أو تسمى السورة بمضمونها كمسورة الإخلاص وهذه دقيقة من دقائق القرآن ولطائفه - الله أعلم بها - في تطابق اسم السورة بمضمونها كليا أو جزئيا وتسميته كلام الله وغيره من الاسماء التي بلغت كما احصاها بعض العلماء خمسة وخمسين اسما ولكنها تطابق مضمون هذا الكتاب العزيز . وفي ذلك تعليم للمؤمنين بهذا القرآن أن تطابق تسميتهم بالمسلمين حقيقتهم الكونية والشرعية فلا يتناقضون ولا يتوزعون بين الايمان والنفاق والكفر^(١) .!

وذلك خلاف ما تربي عليه القوانين الوضعية المؤمنون بها وتصوغ به المتحمسين لها بلافتات وشعارات براقه ومضمونها يناقض عناوينها ، ومتضارب في نفسه يلعن بعضه بعضا وتكذب ظواهرها خفاياها وخفاياها ظواهرها ، فتأثر بهذا التلغيق والخلط والجنون اولئك المفتونون بالقوانين الوضعية فاذا هم في الارض فتنة تمشى وامراض تعدى ويدع تفكك بالخلق وتهدم الاستقامة وتسوس الضمير . . . !!

قال بعض الكتاب " سى الله كتابه اسما مخالفا لما سى العرب به كلامهم على الجملة والتفصيل " وتفصيل ذلك هو انه سى كلامه جملة قرآنا وسى بعضه سورة وبعض السورة آية وآخرها سماه العلماء فاصلة . " وأما العرب فسماوا كلامهم ديوانا وبعضه قصيدة وبعض القصيدة البيت ونهاية البيت القافية " (٢)

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢٧٠-٢٧٢ ج ١ ط ٢١
والانفان للسبوطي : ١٥٠-١٦١ ج ١ ط ١١ ١٣٨٢ هـ

(٢) الانفان للسبوطي : ١٤٣ ج ١ - وأسند هذا القول الى الحافظ .

” مناسبة السورة وعلاقتها بالسورة التي قبلها “

إن كتاب الله تعالى في غاية الحكمة والإحكام ، في أسلوبه وتشريعاته ، وفي ترتيب سورته وآياته ، وموضوعات سورته ، وهي حكمة قد يدركها الناس أو يدركون بعضها أو لا يدركون منها شيئا ، والمطلوب الإيمان بغيب حكمة الله تعالى ما ظهر منها وما بطن ، والإيمان هَذَا في حد ذاته إيمان وعمل . . . ! وأما الذين يخوضون ويلعبون حول هذه الحكم وتلك الأسرار في كتاب الله ، إذا ظهرت لهم أخذوا بها بدعواهم ، وإن خفيت عليهم أنكروها وجحدوها ، بعقولهم المحدودة وذهبوا يخوضون في الغيبيات والأسرار خوضا يخرجهم من ثناء الله تعالى على المؤمنين بالغيب ، إن هؤلاء فتنة قديما وحديثا في شريعتنا واسلامنا يجب الحذر منهم على كل حال في كل زمان ومكان ، وهم من جملة من تناولته الآية الكريمة في قوله تعالى : وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ” (١) وقوله تعالى : ” وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ” (٢)

والمناسبة بين السور وإن لم يأت نص يبين حكمة ترتيبها ، فإنها ما يستخرجه أهل التأويل بالإجتهاد ، وقد ذكروا مناسبة وعلاقة بين سورة الحجرات وسورة الفتح التي قبلها .

(١) الآية من سورة النساء : ١٤٠

(٢) الآية من سورة الانعام : ٦٨ .

وخلاصة ما قيل في ذلك كالتالي :-

- ١- السورتان مدينيتان ومشتملتان على أحكام ، سورة الفتح فيها أحكام قتال الكفار والحجرات فيها قتال البغاة من المسلمين .
- ٢- سورة الفتح ختمت بالذين آمنوا وأوصافهم " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماً بينهم . . الآية " والحجرات أفتتحت بالذين آمنوا " يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله " .
- ٣- سورة الفتح تضمنت تشريفا وتعزيضا وانتصارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحجرات كذلك في مطلعها تضمنت توقيرا وتجيلا له والأدب معه صلى الله عليه وسلم .
- ٤- في آخر سورة الفتح ذكر الله تعالى الصالحين وما وعدهم من الثواب " وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما " وربما صدر من المؤمنين العالمين الصالحات بعض الشيء ما ينكر ويستهجن وينهى عنه كرفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم وسابقته في الكلام والعمل أو سابقة القرآن وسنته المطهرة ، فقال عز وجل ناهيا عن ذلك " يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله " إلى آخر السورة . (١)

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١١٠ ج ٢٨ ط ٢ طهران - وغرائب القرآن ورفاهها - الفرقان للنيسابوري : ٥٥ ج ٢٦ ط ١١ سنة ١٣٨٩ الحلبي وروح المعاني للالسوس ١٣٣ ج ٢٦ - دار الطباعة المنيرية . . وانظر تفسير القرآن الكريم للخطيب الشربيني ٥٩ ج ٤ ط ٢ - التفسير المفيد للقرآن المجيد لمحمد عبد المنعم الجمال ٢٩١٦ ج ٤ .

موضوعات السورة

إنها سورة عظيمة جليلة بين الله سبحانه وتعالى فيها البناء للمجتمع المسلم المؤمن بقرآنه ورسوله ، المجتمع الذي يصدر عن عقيدته الإسلامية ، ويوقر كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويصدر منها في سرائه وضرائه ، وفي قوته وضعفه ، وفي سكونه وحركاته ، وفي ليله ونهاره ، مع نفسه ومع عدوه .

ان سور القرآن الكريم لتستقل كل سورة بالاسس المفصلة أو المجطة المحيطة بقواعد الإسلام وفروعه ، فكل سورة ضمنها الله سبحانه وتعالى ما ضمنه بقية السور ، فإذا فهم التفاوت بين مضمون السور فإنما هو في نوع الإجمال والتفصيل وأداء الأسلوب الخاص بالسورة ، والمضمون واحد في كل سور القرآن ، وهذا ما يدل على أن هذا القرآن إنما كان مصدره واحدا وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، مع كونه نزل في مناسبات مختلفة زما ومكانا . وما روى عن الإمام الشافعي رحمه الله (١) في إحاطة وشمول سورة العصر. وفي الإمكان أن يقال هذا عند كل سورة أو أغلب سور القرآن وآياته ، لو تدبرها الناس حق التدبر وعملوا بها حق العمل...!

وهذه السورة " الحجرات " بين الله عز وجل فيها أسس وقواعد ثابتة للأمة الإسلامية لو تأملها المسلمون لعقلوا تعاليم الإسلام كاملة ، وقد أدب الله بهذه الآداب الجماعة المؤمنة فأحسن تأديبهم ، وفي نفس الوقت هي حقيقة الإيمان ومستلزماته ، والعمل به الذي تعرف به زيادته وعكسه نقصانه ، وقد جاءت في السورة

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي . من آل البيت - ولد بغزة بفلسطين سنة ١٥٠ بعد سنتين من ملاده . عادته والدته إلى موطن أبائه مكة المكرمة كان الشافعي فصيحاً ذكياً فقيهاً لغوياً وناظراً قوياً ومن أجل من أخذ عنهم الإمام مالك وأجل من أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وهو أول من كتب في أصول الفقه ألف كتابه المشهور "الرسالة" وتوفي عصر سنة ٢٠٤ وقد ترجم له كثيرون . أنظر: وميات الأعيان

لابن خلكان رقم ٥٥٨ ج١ وتذكرة الحفاظ : ٣٥٤ ج١ وتهذيب لابن حجر : ٢٥ ج ٩

(٢) تفسير ابن كثير عند تفسير السورة ط ٣ سنة ١٣٧٣ هـ مطبعة الاستقامة : القاهرة .

منسقة تنسيقاً فريداً أخذنا بعضها ببعض ومرتببة ترتيباً بديعاً ينبىء عن اعجاز
تشريعى وبلاغى وأدبى ، لا يصدر إلا من كلام علام الغيوب وبارى النفوس وواهب
الرشد والتوفيق .

فالسورة " جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ،
ومن حقائق الوجود والانسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة وتشير
فى النفس والذهن خواطر عميقة ومعانى كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ،
وقواعد التربية والتهديب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ، ما يتجاوز حجمها وعسدد
آياتها مئات المرات " والسورة فى منهجها الفريد لبناء المجتمع المؤمن وتقوية
روابطه بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالوحي من الكتاب والسنة ثم بالمؤمنين
بعضهم ببعض يتجلى منهجها فى أمرين عظيمين لمن يتدبر ويتفكر :

الأول : أنها خاصة بوضع منهج كامل متكامل فى الحياة الإسلامية لمجتمع فاضل كريم
سليم من العيوب ونظيف من كل شوائب الجاهلية وهو المجتمع المؤمن الذى تستقل
شخصيته ومنهجه فى الحياة عن غيره ، وله قواعده وأصوله ومبادئه ومناهجه التى
يقوم عليها .

الثانى : أن هذا المجتمع المؤمن نتيجة جهد ضخم ثابت صابر ، وهو ما تمثله
" توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة لإنشاء وتربية تلك الجماعة
المسلمة . . . فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولا حلماً طائراً ، يعيش
فى الخيال " وإنما هو الجهد المتواصل والعناية الساهرة والصبر الطويل
" فى التهديب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتشبيث " . . وفى
هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة - على علم - لحمل
هذه الأمانة الكبرى ، وتحقيق شئنة الله بها فى الأرض . . . وبهذا كله

أُشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية ، ووجدت هذه الحقيقة التي تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب ، أو رؤيا مجنحة في خيال^(١)

فالسورة إذا ترشد إلى مكارم الأخلاق وجلائل الآداب وروائع النظم لجماعة المؤمنين ، وكل آية فيها تستقل بمكرمة من ذلك أو مكرمات وتوجيه وتوجيهات تكوّن لبنة من لبنات بناء منهج الدعوة الإسلامية لهذا المجتمع الرفيع ندى شخصية فريدة وحياة كريمة .

فهى " فصول تأديبية وتعليمية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وسلوكية فيما يجب على المسلمين تجاه النبي صلى الله عليه وسلم وتجاه بعضهم ، وفيها مشهد من مشاهد الأعراب في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وتبجحهم بالإسلام ، وميزان لصدق إيمان المؤمنين وإفصاح المجال للأعراب لدخولهم في حظيرة الإسلام والدولة الإسلامية " (٢)

وهذه الموضوعات التي تستقل كل بموضوع منها أو موضوعات لا تخرج عن تربية المؤمنين على التهييب والإجلال لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وألا يتقدم المؤمنون على أمر من الأمور دون الإحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، إستجابة للوحي وإتباعا لتعاليمه ، ثم تخلية المؤمنين بترك الرذائل وتحليتهم بالفضائل^(٣)

(١) ظلال القرآن للسيد قطب ٢٣٣٥-٢٣٣٧ هـ ٢٦ المجلد السادس ط ٤ سنه ١٣٩٧ هـ دار الشروق .

(٢) التفسير الحديث لمحمد عزه دروزة ١١٨ هـ ١٠ ط سنه ١٣٨٣ هـ الحلبية .

(٣) انظر الجواهر في تفسير القرآن الكريم لطنطاوى جوهرى ١٤٣-١٤٥ هـ ٢١ ط ٢ سنه ١٣٥٠ هـ الحلبية ،

والتفسير الفريد للقرآن المجيد لمحمد عبد النعم الجمال ٢٩١٦ هـ ٤

والتفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازى ٥٥ هـ ٢٦ ط ٥ سنه ١٣٩٥ هـ .

وتفسير المراغى : ١٤٩ هـ ٢٦ ط ٤ سنه ١٣٩٣ هـ الحلبية - القاهرة .

- ولتصنيف هذه الموضوعات مفصلة حسب ما ورد في السورة نلخصها فيما يلي :
- ١- الأدب مع الله تعالى بالتأدب مع كتابه العزيز ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين .
 - ٢- الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ويتناول شخصه وسنته ، فلا ترفع الأصوات عليه حيا وميتا ، ولا يتقدم على سنته ويرغب عنها وهي شرح القرآن الكريم .
 - ٣- الإحتراز من نيا الفاسق لئلا تكون الفتنة والإفتان بسبب الإصغاء للكذب .
 - ٤- سؤالية المؤمنين إذا احتدم الإختلاف بين فريقين من المؤمنين بأى شكل من الأشكال .
 - ٥- تقدير المؤمنين بعضهم بعضا في حضورهم فلا يوعظون ولا يزدري بهم بسخرية ولا لمز ولا تنابز بالألقاب ، وتنقيص باسم أو صفة أو نسب أو هيئة ، ولغة ولون ووطن .
 - ٦- وتقديرهم في حالة غيبتهم فلا يظن فيهم إلا خيرا ولا يتجسس عليهم ولا يفتابون وتمزق أعراضهم وتوكل لحومهم .
 - ٧- البشرية بعضها من بعض وأكرمهم أتعاهم .
 - ٨- الإيمان بالقلب واللسان والعمل بالجوارح معا يزيد وينقص ودرجة الاسلام دونه . (١)

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١١٨-١١٩ ح

الفصل الأول

الوحدة البشرية في النشأة ووحدة الخالق

• الآية الثالثة عشرة •

قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ، مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

• ما قيل في سبب نزول الآية •

- ١- قيل إن بلالا^(١) أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن على ظهر الكعبة يوم مكة ، فوجد بعض الناس من أنفسهم شيئاً فقالوا مقاتلتهم فنزلت .
- ٢- قيل نزلت في شأن رجل لم يفسح له في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبر بأنه ابن فلانه .
- ٣- قيل نزلت في شأن عبد أسود مرض فعاده النبي صلى الله عليه وسلم ثم توفى ففسله وكفنه ودفنه ، فوجد بعض الناس من أنفسهم شيئاً .^(٢)
- ٤- قيل نزلت في أبي هند^(٣) عندما امتنع بنو بياضة أن يزوجه ، فأمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بتزويجه فقال : **أَنْكِحُوا أَبَا هِنْدٍ**

(١) بلال بن رباح مؤمن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عذب في الله بحكة قبل الهجرة ، وشهد المشاهد كلها ولم يؤمن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا مرة بالمدينة فغلبه البكاء وغلب الناس معه . وسكن الشام ومات سنة ٢٠ هـ ، انظر ترجمته في الإصابه ١٦٥ - ١ ط ١ صورتها ،

وخلاصة التهذيب للخزرجي ٥٣ ط ٢ .
(٢) انظر أسباب النزول للواحدى في الأقوال الثلاثة الأولى ٢٢٤-٢٢٥ ط ٢ سنة ١٣٨٢ هـ ، الحلبي ، القاهرة .

(٣) أبو هند الحجام مولى بنى بياضة من الأنصار وقيل اسمه عبدالله أو يسار =

وَأَنْكَبُوا إِلَيْهِ . (١)

تلك أقوال يذكرها كثير من المفسرين من خطاب ليل بلا سند ويسندوها إلى بعض الصحابة والتابعين . (٢)

والأولى أن يقال : إن الآية عامة في خطابها وإن وافق نزولها حادثة معينة ما قيل أو ما لم نطلع عليه أو نزلت بلا سبب فهذه الأقوال وما مثلها تعميها الآية، ومن الواضح في بعض هذه الأسباب أنها لا تصدر من الصحابة كاستنكار أن يؤمن بلال وكان مؤمن رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكاستنكار أن يعود الرسول عليه الصلاة والسلام رجلاً مرض ويصلى عليه ويدفنه ولو كان عبداً أسود .

أسالم تخلف عن بدر ولقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطريق بحبس وشهد المشاهد بعده وحجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي حلق رأسه في عمرة الجعرانه . قال صلى الله عليه وسلم فيه : من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند ،

أنظر الإصابه في الكني : ٢١١ ج٤ والإستعاب لابن عبد البر على عاش الإصابه .

(١) رواه أبو داود رقم ٢١٠٣ ج٢ وابن جرير وذكره ابن عبد البر في ترجمة أبي هند .

وانشر تفسير القرطبي ٣٤ ج٦ ؛ مصورة : الطبعة عن دار الكتب القاهرة .

(٢) كالخازن والشعبي والزخشرى وابن الجوزى والسيوطي عند تفسير هذه الآية فسي

تفاسيرهم .

”ارتباط الآية بما قبلها“

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات قبل هذه الآية آداباً وضيئة ، في نداءات متكررة ، يصف الله بها المؤمنين النادين بالآيمان ، ليكون ذلك الوصف المحبب إلى النفوس رادعاً يردعهم عما نهاهم عنه ، وداعياً يدعوهم إلى التمسك بما أمرهم الله به ، ورباهم عليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك جاء النداء الأخير فـسـى السورة ” يا أيها الناس “ وصفاً شاملاً لبني البشر ، وكأنه عموم بعد خصوص ، فالذي نهى الله عنه المؤمنين بصفتهم مؤمنين ، نهاهم عنه بصفتهم بشر مع البشرية جمعاء ، لأنه ليس هناك مبرر له لا من العقل ولا من الفطرة البشرية ، فقد طالبهم بتلك الآداب والأخلاق التي نظمتها السورة في نسق فريد معجز ، وسياق متماسك الحلقات جميل النسيج .

وكان النداء الأخير هذا ” يا أيها الناس “ دليل لتلك الدعوة المتكررة في النواهي والأوامر في الآيات السابقة ، وهي دعوة مرشدة إلى رواء الأخلاق وفضائل الأعمال . . . كما هو العادة في أسلوب القرآن الكريم في دعوته واقناعه ، إنه لا يطالب البشرية بشئ إلا واستدل الله للمخاطبين بأدلة يعترفون بها وتقبلها المعقول ، وتطابق الفطرة السليمة ، ولا يسع ، العقلاء غير قبولها . . . !

وكانه يقول : إن من أدبكم بتلك الآداب وألزمكم إياها ، وحملكم بها الأمانة ، وألف بين قلوبكم هو الذي وحد عضركم ، وماده خلقكم ، فخلقكم من أصل واحد ، فأنتم من نفس واحدة ، ولخالق واحد ، وإن كنتم شعوباً وقبائل ، فليس ثم ما يدعو إلى الاختلاف والفرقة ، ويسوغ العصيان والعدوان على بعضكم من بعض ، ولا ما يدعو إلى التجسس والغيبة والسخرية ، فإنكم في التركيب هيئة واحدة من عنصر واحد فما يبيح عنه بعضكم ويستخرجه من البعض الآخر يوجد فيه مثله من مناقب ومثالب ، خلقكم

الله عليها ، ويكره أن يبحث فيه ويحسد عليها أو يذم بها .

فلا تضيعوا حياتكم في الفخر الكاذب ولا تفسدوا مادتكم الخلقية والخلقية ، ووظيفتكم من العبودية للهِ تعالى ، بدعوى الأفضلية ، وزعم التفوق والكمال ، وتنقيص بعضكم وعيه . . إذا ثبتت هذه الحقيقة للبشرية وفي الناس جميعا ، وجب رعاية المطلوب ليس في المؤمنين فحسب بل لا تجوز السخرية وأى عدوان على أى من الناس مؤمنين وكافرين . . فالاية تعقيب على كل ما مر في السورة وعالج الله به المجتمع المسلم ، حتى لا يتعلق أحد بأى زعم ودعاية بلا تقوى ضد أخيه الانسان. (١)

(١) التفسير الكبير للرازي ١٣٦ هـ

وتفسير ابن كثير ٢١٢ هـ ٤

وتفسير المراغي ١٤٢ هـ ٢٦

وتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤٥٢ هـ ٢٦ ط السنة المحمدية.

” يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . ”

لواستعرضنا خطاب الله للناس في القرآن ، وأنباءه عن نفسه وهو المتكلم به ، وعن سبق نزول القرآن من الناس ، منذ الإنسان الأول - آدم - واستقرأنا هذه الظاهرة في القرآن ، لوجدنا كل ذلك صدر من معلوم ومعروف لكل الناس ، وليس في الكتاب العزيز ما يتنافى مع ذلك . إن هذه الكلمات الثلاث كليات كبرى ، تعبير عن حقيقة إذا وعتها النفوس وعيا كاملا لا شبيهة فيه ، ورعتها أم الرعاية في فكرها دونما جدل ، فإن عاينها لا شك أنه عبادة الله التي خلق البشر لأجلها ، والتفكير حقا يورث إلى هذه النتيجة المستهدفة في الإنسان حتما . . !

فالكلمة الأولى تفيد عموم الناس في هذا الخطاب ، ولا أحد من بني البشر ينكر أنه من الناس أو يشك ،

والكلمة الثانية أفادت الربوبية لأن الناس لا يوجدون بلا رب وهم مقرون أنهم محدثون فوجب إقرارهم بوجود المحدث .

والكلمة الثالثة تحدد القدرة الربانية : المادة التي خلق منها الناس والستى كانت أصلا لنشأتهم وهي من الذكر والأنثى ” آدم وحواء ” وثانيهما مخلوق من الأول والأول من التراب . . !

كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهَبَّ مِنْهَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . (١)

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

وسأدخل في بيان الكلمات الثلاث التي يضع الله فيها اللبنة الأولى في بناء المجتمع المسلم ،

في هذه السورة ، اللبنة التي نريدها في هذا الفصل " الوحدة البشرية فـسـى
النشأة والخالق " ،

والتقصود أن هذا الأسلوب " يا أيها الناس " في القرآن عام شامل لكل الناس ومن الأساليب التي يجدر بكل داعية أن يقنع بها المدعوين لعموم الرسالة ، وأن القرآن في الأصل يخاطب البشرية جمعاء بخطاب واحد ويناديها الله بمثل هذا النداء كقوله تعالى : " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " (١)

ولا يمنع هذا أن كلمة الناس ترد لمعاني في القرآن ، فتكون حسب القرائن خاصة . (٢) وقد تكون هذه القرينة سبب نزول فتكون الكلمة خاصة وإن كان المعنى عاما ، لان سبب النزول لا يخصه الحكم كما هو مقرر في أصول التفسير ، وإن كان السبب يدخل فيه دخولا أوليا . (٣)

وهنا شيء يدعو إلى التفصيل ، يرد في كتب علوم القرآن ، لما فيه من الوهم ، وإن لم يكن وهما في ذهن مؤلفي هذه الكتب ، وهو تخصيصهم " يا أيها الناس " بما كان خطابا لغير المؤمنين ، و " يا أيها الذين آمنوا " للمؤمنين . (٤) والتحقيق أن هذا إذا كان مرادهم فيه تحديد ضوابط غالبية لما نزل في مكة أو قبل الهجرة - وإن كان

- (١) الآية من سورة الاعراف ١٥٨
(٢) انظر الوجوه والنظائر في القرآن لحسين محمد الدامغانى ٤٦٩-٤٧٠ ط ١ سنه ١٣٢٠ هـ بيروت .
(٣) انظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيميه ٤٧ ط ١ سنه ١٣٩٠ هـ دار القرآن ، الكويت .
(٤) انظر الكشاف للزمخشري ٢٢٤ - والأخيره سنة ١٣٩٢ هـ - والبرهان في علوم القرآن للزركشي ١٨٧-١٨٩ ج ١ ط ٢ .

يدخل فيه المؤمنون - فلا مانع ولا إشكال واطن هذا هو مقصدهم ، وإن كان مقصدهم
أن ما كان " يا أيها الناس " يخص خطاب الكفار دون المؤمنين ، فليس هذا بمسلم
لأن المؤمنين يقال لهم الناس ويدخلون في عموم كلمة الناس .

• عموم النداء " يا أيها الناس " (١)

أسلوب النداء هذا كثير في القرآن الكريم ، وهو لا يخص جنسا دون جنس ، ولا يتقيد ببشرية زمان ومكان دون أزمته وأمكته أخرى ، فهو عام لذرية آدم بل وللجنس . من كان موجودا ومن سيوجد منهم ،

وقد قرر الفقهاء : أن خطاب المشافهة يتناول القاصرين عن درجة التكليف ، فينظم في سلوكهم من الحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة ، أو هو بطريق تغليب الموجودين على من لم يوجد ، كما غلب الذكور على الإناث في قوله " اتقوا ربكم " لإختصاص اللفظ بالذكور وجمع المذكر وعدم تناوله حقيقة الإناث عند غير الحنابلة " (٢)

ومع أن المتبادر من روح الآية أن الخطاب موجه في الدرجة الأولى إلى المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن ويتلقون ما جاء فيه من الهدى وكله هداية ، وهم أهل الدعوة إلى تقوى الله ، والسورة بأكملها تخاطب المجتمع المسلم ، وأسباب النزول التي ذكرت للآيات كلها في المؤمنين ، ومع هذا فإن لفظة " الناس " لا تخلو من معنى جليل في صدد الدعوة التي هي حق مشترك للمجتمع البشري جميعا . (٣)

(١) الناس : من الإنس والجن ، وأصله أناس فخفف ولم يجعلوا الألف واللام فيه عوضا مع الهمزة المحذوفة وهو جمع أنس ومن أسماء الجمع ، والنوس أصله : تذبذب الشيء وتحركه ، ويقال نوس بالمكان تنويها أقام . ويقال للغصن الدقيق إذا هبت به الريح فهزته فهو ينوس

انظر لسان العرب ٢٤٥ ح ٦ صورة الطبعة الأولى - دار صادر بيروت .

والقاموس لغيروز آبادي ٢٦٦ ح ٢ ط ٢ سنة ١٣٢١ هـ .

(٢) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان ١٩٢ ح ٢ طبعة العاصمة

القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ والاحكام في أصول الاحكام لابن حزم ٣٢٤ و٣٣٠ و٣٣٨ ح ٢ ط ٢ سنة ١٣٨٠ هـ القاهرة .

(٣) انظر التفسير الحديث : محمد عزه دروز ٦٥ ح ٩ -

بل قد يطلق الله سبحانه وتعالى في كتابه كلمة الناس ويريد بها المؤمنين وحدهم تعريضا بالكفار بأنهم ليسوا بأناس كقوله تعالى : " وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس . . . " (١) وقوله تعالى : " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " (٢)

عند من يرى أن الكفار غير مخاطبين بالفروع ، ومن يرى أنهم مخاطبون فكلمة الناس تشملهم (٣) ،

وكقوله تعالى : " أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " (٤) وقوله تعالى : " نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام " (٥)

وقد صرح في كم آية بأن القرآن هدى للمتقين الذين هم المؤمنون ، فليكن الناس في الآية هم المؤمنون . والهدى بهذا الاعتبار يراد به الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الله الحق ، لا الهدى العام الذي هو إيضاح الحق. (٦)

ومثل هذا ما جاء في الهداية المنفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " (٧) فهذه

- (١) سورة البقرة الآية ١٣
 (٢) الآية من سورة آل عمران ٩٧
 (٣) انظر الأحكام في اصول الأحكام للاموي ١٤٤-١٤٧ هـ ١ ط ١ سنة ١٣٨٢ هـ الرياض ، وانظر : الموافقات للشاطبي ٢٦٧-٢٦٨ هـ ١ ط ٢ سنة ١٣٩٥ هـ القاهرة .
 (٤) الآية من سورة آل عمران ٨٧
 (٥) الآية من سورة آل عمران ٤٣ ، ٤٤
 (٦) انظر اضاء البيان لمحمد الأمين الشنفتي ٤٥ هـ ١ ط ١ سنة ١٣٧٨ هـ ،
 (٧) الآية من سورة القصص ٥٦ .

هداية توفيق وتخص الله سبحانه وتعالى . والهداية المثبتة له صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى " وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم " (١)

فالهدياء هذه هداية تبليغ وإرشاد وهي وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم. (٢)
 وعلى كل فصيح القرآن الكريم والسنة النبوية يرد تخصيص هذا الأسلوب " يا أيها الناس " بالكفار دون المؤمنين كآية الجبرات التي معنا ، وما شابهها في القرآن الكريم من هذا الأسلوب ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعمل هذا الأسلوب في أقواله وخطبه وإرشاداته للمؤمنين ودعوتهم للناس جميعا ، وخاصة في خطبه لما فيها من العموم ، وقد يخص بقرينة ... (٤)

بل إن ما يلاحظ أن كل نداء بهذا الأسلوب " يا أيها الناس " في القرآن عام لا يخص أحدا دون أحد من المؤمنين والكافرين ، ولكنه يخاطب البشرية جميعا .. (٥)

فإن كانت كلمة " الناس " بغير النداء " فحينئذ ترد لعان خاصة بدلالة ، وإن كان الأصل العموم في مادة " الناس " من الناحية اللغوية .. وما يدل على عموم هذا النداء أن الله سبحانه وتعالى بعد تقسيم المعاصرين لنزول القرآن ،

- (١) الآية من سورة الشورى ٥٠ .
 (٢) انظر : تيسير العزيز الحميد لسليمان آل الشيخ ٢٥٩ ط دار الافتاء ،
 وفتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ٢١٧ ط ٥ سنة ١٣٩١ هـ .
 (٣) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن لمديق حسن خان ٦٦ ط ٩
 (٤) انظر الطبقات لابن سعد (١ - ٢١٦ و ٢٣٥) (١٨٤ و ١٨٥ و ٢٥١ ط ٢)
 (٢٤ و ٦٤ ط ٤) (٤٩ و ٤٢ ط ٦) (٥٢ ط ٧) (٣٠٧ ط ٨) طبع سنة ١٣٩٨ هـ ، الطباعة دار بيروت .
 (٥) ذكر هذا الأسلوب في السور التالية (سورة البقرة ١٣ وسورة النساء ١ و ١٧٤ وسورة الاعراف ١٥٨ ، وسورة يونس ٢٣ و ٥٧ و ١٠٤ ، وسورة الحج ١ ، ٤٩ و ٧٣ وسورة لقمان ٣٣ وسورة فاطر ٣ و ٥ و ١٥) .

والذين كانوا سلفا لمن بعدهم من بنى البشر وخلفا لمن قبلهم - بعد هذا التقسيم وجه الله سبحانه وتعالى إلى المؤمنين والكافرين والمنافقين وخلفهم إلى يوم الدين - نداء واحدا بهذا الأسلوب فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعِدُّوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * (١)

إن هذا النداء للناس كلهم لعبادة ربهم ، الذي خلقهم والذين من قبلهم ، ربهم لذي تفرد بالخلق ، فوجب أن ينفرد بالعبادة وللعبادة في هو لا جميعا هدف يرجى أن تنتهي إليه البشرية جميعا . (٢)

وليس في القرآن نداء بـ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعِدُّوا " غير هذا في سورة البقرة لان العبادة في الآية التوحيد والتوحيد أول ما يلزم العبد من المعارف ، فكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس في القرآن فخطبهم بما ألزمهم أولا ، ثم ذكر سائر المعارف ، ونهى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات .

واعتبار هذا النداء أول ما خاطب الله به الخلق ، إنما هو مبنى على أساس ترتيب السور التوقيفي عند الله في اللوح المحفوظ ، والبقرة ثان سورة في القرآن ، وإن كانت في ترتيب النزول سبقت بكثير من السور ، والترتيب هذا مراعى في القراءة ، وقد فسره قوله تعالى : وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * (٣) بقراءته على هذا الترتيب من غير تقديم وتأخير ، ولو نزل القرآن جملة كما طلب بعض المعاندين في قوله تعالى :

(١) الآية من سورة البقرة ٢١

(٢) انظر : ظلال القرآن للسيد قطب ٤٦ ح ١

(٣) الآية من سورة الزمل ٢٤ .

• لولا نزل عليه القرآن جملة^(١) لنزل على هذا الترتيب ، وإنما تفرقت سورته وآياته نزولا لحاجة الناس حالة بعد حالة ، ولأن فيه النسخ والنسوخ ، ولم يكونا لهجتماعا نزولا^(٢) .

هذا وقد اختلفوا في ترتيب السور ، هل كان توقيفيا كالآيات ، أو اجتهاديا أو هما معا ؟ :

١- فذكر كثير من العلماء أن الترتيب كان بالاجتهاد بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي ولم ترتب السور ، وأن مصاحف لدى بعض الصحابة مختلفسة الترتيب .

٢- وذكر آخرون أن بعض السور كان ترتيبه توقيفيا ، وبعضها ترتيبه بالاجتهاد منهم .

٣- وقال آخرون كثيرون : إن الترتيب كان توقيفيا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمره جبريل أن توضع السورة في مكانها كما يعلمه مكان الآية ، وطم الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ذلك ، وطمه ألف القرآن ورتبت سورته ثم اثبتت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ من عند الله سبحانه وتعالى . وهذا القول أقرب إلى الصواب وإليه تميل النفس وأقرب

(١) الآية من سورة الفرقان ٥٢

(٢) اسرار التكرار في القرآن لمحمود حمزة الكرمانى ٢٢-٢٣ ط ١ سنة ١٣٩٤ هـ ، دار الاعتصام - القاهرة .

إلى الأدلة العقلية والنقلية . (١) من هذه الأدلة ما روى عن أوس بن حذيفة (٢) أنه كان في وفد من أسلموا من ثقيف الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم " فكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء قال : قلنا ما أمكثك عنا يا رسول الله قال : طرأ عنى حزب من القرآن فاردت الآخـرج حتى أقضيه فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبحنا قال قلنا كيف تحزبون القرآن قالوا نحزبه ست سور وخمس سور وتسع سور واحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل حتى نختم " (٣) .

-
- (١) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢٥٦-٢٦٢ ج ١ والاتقان للسيوطى :
١٢٦-١٢٩ ج ١
- (٢) أوس بن حذيفة الثقفي ويقال فيه ابن أبي أوس وهو جد عثمان بن عبد الله ووالد عمر توفى سنة ٤٩ هـ - انظر الاصابه : ٨٢-٨٣ والاستعاب على هامشه : ٨٠ ج ١
- (٣) رواه الامام احمد فى المسند ٣٤٣ ج ٤ .
والحديث قال فيه ابن عبد البر " ليس بالقائم " عند ترجمة أوس فى الاستعاب .

إقرار الفطرة بالخالق

• إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ •

إذا كانت كلمة الناس في الآية جمعت في مدلولها البشرية كلها ، ودلت على النوع دون إستثناء ، وتساندت الدلالات اللغوية والاصطلاحية والعرفية على شمولها للنوع البشرى . فإن الصيغة التي ذكرت بعد كلمة الناس ، واقتربت بها للخالق وحده ، وهي كلمة " الخلق " فالله سبحانه وتعالى هو الخالق المصور المبدع ، إذا أراد شيئاً قال له : كُنْ فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيَمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١) • " الْآلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ " (٢) ، وصفه " الخلق بالألف واللام لا تجوز لغير الله تعالى . وأصل الخلق التقدير فهو باعتبار ما منه وجودها ، وباعتبار للايجاد على وفق التقدير خالق ، والخلق في كلام العرب ابتداء الشيء على غير مثال لم يسبق إليه ، وهو على وجهين : الإنسان والتقدير " والخلق يقال للكذب والإفتراف والإفك ، قال تعالى : وتخلقون إفكاً " (٣) وقوله : إِنَّ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الْأَوَّلِينَ " (٤) فالله هو الذي خلق الأشياء كلها من العدم وقدرها . (٥)

وما يلاحظ إستعمال هذه الكلمة لدى كثير من الكتاب دون تحفظ واعتبار ما كان لله خاص كقولهم : الخلق الأدبي والخلق الوطني والخلق الإجتماعي ، وكل ذلك لا يليق وإنما هو من الأساليب العلمانية . . . !

-
- (١) الآية من سورة غافر ٦٨
 (٢) الآية من سورة الاعراف ٥٤
 (٣) الآية من سورة العنكبوت ١٧
 (٤) الآية من سورة الشعراء ١٣٧
 (٥) انظر لسان العرب لابن منظور في مادة خلق ٨٥-٩٢ ح ١٠

وهل ينازع أحد من الخلق بفطرته وسجيته في أنه الخالق لكل ما كان وسيكون .. ؟
وهل ثم عقل يستطيع أن يقنع عقول من سواء ، ويبرهن على أن هناك خالقا سواء سبحانه
وتعالى ؟ !

" إن العالم كله بعلويه وسفليه يشهد بإثبات صانعه وفاطره ، وإنكاره فـسـى
العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده .. بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال
على الفعل ، والصانع على أحوال المصنوع ، عند العقول الزكية المشرقة والفطر الصحيحة ،
أظهر من العكس ، فالاستدلال بالله على أفعاله وضعه والاستدلال بأفعاله وضعه
على الله طريقان ثابتان صحيحان " (١)

وقد جاءت الآيات من كتاب الله تعالى تشهد لهذه الحقيقة التي لا تقبل
جدلا ويرد عليها شك . كقوله تعالى : **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَدَأُوا
إِلَى نِزَى الْعَرْشِ سَبِيلًا . سُبْحَانَ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .** (٢)
وقوله تعالى : **أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَسَلًا
لَا يَوْمَعْتُونَ .** (٣)

وقوله تعالى : **قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .** (٤)

-
- (١) مدارج السالكين لابن القيم ٥٩-٦٠ هـ ١ ط المحمديه سنة ١٣٢٥ هـ القاهرة .
(٢) الآيات من سورة الاسراء ٤٣-٤٥ .
(٣) الآيات من سورة الطور ٣٥-٣٦ .
(٤) الآية من سورة ابراهيم ١٠ .

والاستفهام هنا في هذه الآية يحتل أمرين كلاهما يدل على أن الخالق ثابت في فطرة كل شيء لا ينكر ولا يجحد :

الأمر الأول : أن الرسل واجهوا أممهم بأن الله تشهد كل فطرة بوجوده ومجبولته على الإقرار به ، وذلك ضروري في الفطر السليمة ، وإذا شك بعضها فإنها تفعم بالدليل الذي لا يتردد فيه أحد كقوله تعالى : " فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " (١) الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء والهه ومليكه .

الأمر الثاني : أني إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له .

والقول الأخير أحب إلي لأن الأم مقرة بربوبيته ، وأنه الصانع ، ولكنها عبادت معه أندادا واعتقدت وسائط . (٢)

" فقد بطل إذن قول من قال : إن الطبائع خالقة أو الأفلاك أو النور أو الظلمة أو العرش ، فلما فسدت جميع هذه المقالات لقيام الدليل على حدوث ذلك كله ، وافتقاره إلى محدث لاستحالة وجود محدث لا محدث له ، وكتاب الله شاهد بذلك . . استدل بآيات السموات والأرض على وحدانيته وقدرته ، وأنه الخلاق العظيم وأنه خلاق سائر المخلوقات " (٣)

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر ٢

(٢) تفسير ابن كثير ٢٢٥ - ٢٢٦

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٤٠ - ٤٤١

إن وجود الله وأنه هو الخالق هو فطرة الكائنات من الحيوانات والجمادات ، ولا مجال لانكار هذه القدرة الكونية فهي كفلق الصبح . وكل ما في الكون من سواد وعاصر يشهد بأن له خالقا ومدبرا ، فالترابط الوثيق ، والتوازن الدقيق ، السدى يولف بين هذه العوامل ، ويحكم أمرها - ما هو الا آية وجود الله ، ومظهر تفرد الخلق ، ولا يتصور العقل أن توجد هذه الأشياء بدون موجد ، كما لا يتصور أن توجد الصنعة بدون صانع . (١)

إن أحدا من الطوائف البشرية التي عبدت المخلوق دون الخالق ، وأخذت منه وسائل ، لم يناقض هذا الجانب في الربوبية فيما يظهر ، ولم يثبت عن أحد ممن نصبوا أنفسهم آلهة من دون الله أن زعم أنه يخلق بالبرهان المقنع والدعوى القاطعة ، ولم يعتقد أحد منهم أن ما عبده من دون الله يخلق كخلق الله . . . ! وما من أحد من البشرية الا وفكر أو سيفكر في مصيره ، وفيما وراء هذا الكون الضخم ونظامه العجيب . . . إن المؤرخين للاديان مجتمعون على أنه لم تكن هناك أمة أو جماعة إنسانية ظهرت وعاشت ، ثم بادت دون أن تفكر في مصير الإنسان ومبدأه ، وتفكر في تحليل ظواهر الكون وأحداثه ، ودون أن تاخذ لنفسها رأيا في ذلك خاصا لتفهم به القوة التي يخضع لها الكون ويعود إليها كل شيء ، وهي أراء لا يعتقد أصحابها سلطانا للمعبودات إلا على العالم المادي ، كما في الديانة الهندية البوذية التي تهرب من العالم المادي بالموت الأبدى . . . ! (٢)

-
- (١) انظر العقائد الاسلامية للسيد سابق ٣٧ ط ٣ سنة ١٣٩٦ هـ مطبعة حسان القاهرة .
 (٢) الدين للدكتور محمد عبدالله دراز بتصرف ٣٤ ط سنة ١٣٨٩ هـ مطبعة السعادة القاهرة .

إن تأملا استقرائيا في كتاب الله تعالى يرشدنا إلى هذه الحقيقة الكبرى من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق من ذرية آدم ، بأنه خالقهم ، وأشهدهم على أنفسهم وخلقهم مطّورين على ذلك ومطبوعين عليه ، سواء كان هذا الميثاق أخذ من استخراج من صلب آدم أو من صلب كل أب من ذرية آدم . كقوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مَبْنُوعِينَ بَعْدَهُمْ فَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** (١)

فأشهد عليهم السماوات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليهم أباهم آدم ، ليقطع عليهم الأعداء لثلا يقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا فكانه سبحانه وتعالى يقول : **إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** (٣)

كقوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** (٣)

(١) الآيات من سورة الاعراف ١٧٢-١٧٣

(٢) تفسير ابن كثير ٢٦٣ - ٢٦٤

(٣) الآيات من سورة من الاحزاب ٧-٨ .

وأما الميثاق الأول العام إذا مات المولود قبل أن يصله الميثاق الثاني الخاص،
بقي المولود على الفطرة ، وإن أدركه الثاني وقبله نفعه الأول والثاني معا ، وإن غاند
ابن آدم في مهمة الميثاق الثاني فإن الأول لا ينفعه . (١)

وقد جاءت نصوص أخرى من الكتاب والسنة تشهد بميلاد هذه الفطرة مع كل
مولود يولد ، وأن لديه قابلية للخير ، ولولا أثر المعرفين لهذه الفطرة لما غاند
مخلوق ربه فيما أرسل به رسله ، ولأدل على هذا ما جاء في الصحيحين أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ * وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى
هَذِهِ الْمِثَاقِ * فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِهِ أَوْ يَهَيْسَانِهِ كَمَا أَنْتَجَّ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعًا *
هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءِ * (٢)

ثم قال أبو هريرة (٣) راوى الحديث * (أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ) * فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * (٤)
فكل مولود يولد على فطرة الله تعالى والإقرار به فليس أحد يولد إلا وهو يقر بأن له
صانعا وأن سماء بغير اسمه أو عبد معه غيره * وهو حسب ما هيى له من الظروف
فإذا كانت سليمة بقيت الفطرة ونمت سليمة ، والا انحرفت وماتت واستبدلتها الشياطين
بغيرها . (٥)

وكما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه :

(١) تفسير ابن كثير بتصرف ٢٦٢-٢٦٣ ج ٢

(٢) رواه البخارى في كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين * وسلم في كتاب القدر .

(٣) أبو هريرة كنية كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اختلف في اسمه إختلافا كثيرا
وأقرب الأقوال أنه عبد الرحمن بن صخر الدوسي وهو زهراني أسلم سنة ٧ هـ عام خميس
وتوفى سنة ٥٧ هـ وإتفاق على أنه أكثر الصحابة رواية لعديت الرسول صلى الله عليه وسلم
ولهذا كان هدفا لأعداء الله من المستشرقين . . . ترجمة في الإصابه : ٢٠٢-٢١١ ج ٤
والإستعاب على هامشه

(٤) الآية من سور الروم ٣٠

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٢٠٨ ج ٦ ط ٢ سنة ١٣٩٢ هـ .

يقول الله إنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ
 وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ * (١)

(١) رواه مسلم - النووي على صحيح مسلم في أبواب الجنة والنار : ١٩٧ ج ١٨ ط ٢

الوجه الثاني : ورد في القرآن والسنة قصة حدوث الشرك الأولى في البشرية مع قصة أول رسول بعد حدوث الشرك وهو نوح عليه السلام ، وقد اتخذ قومه وسائط وشركاء ووردت أسماءهم في القرآن كقوله تعالى : " وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا " (١)

وروى : أن هؤلاء أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عدت " (٢)

وهذا يدل على بداية الشرك في ذرية آدم ولم تكن الوثنية والمجوسية الا بعد ذلك بدهر طويل خلافا لما يزعمه الفرس الوثنيون . . . (٣) فالقصة بكل أطرافها تدل

لدلالة واضحة على أن الشرك الأول إنما هو شرك في الألوهية لا في الربوبية وإن كان الشرك في الألوهية يستلزم الشرك في الربوبية ، كما أن الربوبية تستلزم الألوهية . . (٤)

وأما آخر الرسل وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد حدثنا القرآن كذلك عن نوع الشرك الذي حدث في قومه فإذا هو كملفه شرك في الألوهية . قال تعالى :

" وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى " (٥) وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (٦)

-
- (١) الآية من سورة نوح ٢٣
 (٢) رواه البخارى عن ابن عباس عند تفسير سورة نوح .
 (٣) فتح البارى على صحيح البخارى ٦٦٧-٦٦٩ ج ٨ .
 (٤) انظر تفسير العزيز الحميد للشيخ سليمان : ١٧ ط دارالافتاء ،
 وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد ١٤-١٦ ط ٥ سنة ١٣٩١ هـ .
 (٥) الآية من سورة الزمر ٣ .
 (٦) الآية من سورة لقمان ٢٥ .

وقوله : قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (١)

وخلاصة القول أن في كتاب الله تعالى بيانا لهداية الشرك ونوع الشرك الذي حدث في ذرية آدم فبعث الله أول الرسل ، وتتابع بعده المرسلون من الله سبحانه وتعالى لسبب هذه الفتنة التي حصلت في سلالة النبوة وهم بنو آدم عليه السلام ، كما تتابعت الأمم المشركة منذ قوم نوح على هذا النوع من الشرك وإن تفاوتوا وتنوعت مشاربهم في الشرك .

إنه تاريخ مستد متناسك الحلقات وإنها لفتنة قرآنية دقيقة في الجلاء عن هذه القضية قضية العقيدة والعبودية !!

(١) الايتان من سورة المؤمنون ٨٤ - ٨٥ .

الوجه الثالث : من وجهة أخرى العناية في القرآن الكريم في بيان حقيقة دعوة الرسل وتحديد جوهرها ، وقد شرحها ، وحدد معالمها ، ومقاصدها ، فإذا هي دعوة واحدة ، تتأزر أطرافها وتتماسك حلقاتها وكلها إلى العبودية والمحبة والخضوع والإخلاص لله وحده تدعو . . ولم يرسل الله رسولا قط إلى الناس ليقول لهم إن لكم خالقا، فيما حكاه لنا الله في القرآن ، ولكنه أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليخصصوا الخالق الرازق المحي المميت المعروف لدى الجميع دون سواء بالعبادة .

هذا موضع الإتفاق وهذا هو أصل الدين وجوهر رسالة الرسل جميعا واطنبا وظاهرها ، وقد وصلت العناية في القرآن بهذا إلى أن أجمله الله في آيات وفصله في آيات وجمع بين الإجمال والتفصيل في آيات أخرى . (١)

وذلك كثير في القرآن الكريم ولتوضيح ذلك بالأثلة نقول :

١- فأما الإجمال فلقوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ . (٢)

وقوله : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي . (٣)

- (١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٢٣-٢٤ هـ ٤-٢١٠ - ٢١١ هـ ١ مطابع المجد التجارية، والحسنة والسيئة له ١٢٨-١٢٩ مطبعة المدني القاهرة ، ومدارج السالكين لابن القيم : ١٠١ هـ ١ ، وتيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان آل الشيخ ١٢-٢٥ ، وفتح المجيد للشيخ عبد الرحمن حسن آل الشيخ ١٤-١٧ .
- (٢) الآية من سورة النحل ٣٦
- (٣) الآية من سورة الانبياء ٢٥ .

٢- وأما التفصيل فقد تواترت هذه الجملة في كلمات الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي قوله تعالى : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (١)

فقد استهل بها دعوته كل من نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم بل هي أصل الدعوة وأساس الدين عند الله .

وأما الخليل إبراهيم عليه السلام فقد جاء في القرآن قوله لقومه من نحو ذلك : وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢)

وجمع بين الإجمال وخطاب رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فقال : وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٣)

وقد أفاضت كلمات علماء الملة قديما وحديثا في وصف مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبيان أن ما يتعلق بالربوبية لم يجده أحد ولم ينازع فيه ، بل أقرت به الأمم ، وطبعت عليه الفطر ، والجملة فالله سبحانه وتعالى يحتج دائما في كتابه على كل من يمانع عن الإيمان المطلوب ، والعبودية التي أرسل الله بها رسله ، يحتج عليهم بالربوبية التي أقرها بها فطروا عليها . . (٤)

يقول الشيخ سليمان (٥) في وصف العبودية : وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره ، وموطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ، وهو معنى لا إله إلا الله ،

(١) الآيات من سورة الاعراف ٥٩-٦٥-٧٣-٨٥

(٢) الآية من سورة العنكبوت ١٦

(٣) الآية من سورة الزخرف ٤٥

(٤) انظر تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ٨-١٠

(٥) هو العلامة الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ولد سنة ١٢٠٠

واستشهد على يد ابراهيم باشا سنة ١٢٣٣ هـ ،

انظر ترجمته في مشاهير علماء نجد لعبد الرحمن بن عبد اللطيف ٤٤ ط ٢

سنة ١٣٩٤ هـ .

فإن الإله هو المألوه المعبود ، بالمحبة والخشية ، والإجلال ، والتعظيم ، وجميع أنواع العبادة ، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وه أفرق الناس ، إلى مؤمنين وكافرين ، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار . . وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله ، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من معاني الكتاب والحكمة . . . (١)

وشت ظاهرة هامة في عناية الله تعالى في القرآن في تحديد دعوة الرسل فيما يتعلق بالعبودية وهي الاستدلال في القرآن بالربوبية ومظاهرها على الألوهية وتلك ظاهرة جديرة بالعناية وخاصة في مواجهة من يزعم أن الربوبية والتسليم بها مهمة الرسل فقط . .

وفي هذه الآيات التي نحن في صددنا هذا المنهج واضح ، فلننظر إلى شطريها : الأول ما قبل التعليل وهو ما يتعلق بالربوبية ومظاهرها ولا جدال فيها ولكنها سبقت ليستدل بها لما بعد التعليل " لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وفي نفس الوقت لتعليل لتلك المظاهر الربوبية ، وهدف من أهداف تحقيق العبودية لله تعالى .

ان الاستدلال في القرآن لكل قضية يدعو إليها الناس منهج من مناهج الدعوة الإسلامية ، ذو أهمية وانه بجانب هام للدعوة والداعية في ميدان الأداء والتوجيه ،

(١) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله ٢٠-٢١

فلا بد من الدليل ومحاولة الإقناع به ، وقد رسخت الدعوة الإسلامية في القلوب وعقلتها العقول وتقبلتها لقوة الإقناع بذلك ووضح هذه الأدلة التي لا يعارضها عقل سليم . ونحن نعلم أن الدليل يجب أن يكون معروفاً بين الطرفين ومقبولاً ليقرَّبهما إلى الهدف ويتفقا ، والا فليس بالدليل ، ولنا في منهج القرآن والسنة أسوة في عرض الحقائق بالبرهان وجدال الناس بالحق واستمالة المعارضين بالدليل . . .

إن الاعتراف الذي سجله القرآن فيه الكفاية في رسوخ هذه الفطرة التي خلق الله عليها خلقه جميعاً ، و" لا يرجع هذا الاعتراف فقط إلى بعض الآثار المحفوظة عندهم من ديانة إبراهيم وإسماعيل . وإنما توجد نواته في أعماق النفس الإنسانية ولكن هذا التوحيد أو هذه الديانة الفطرية كما يسميها القرآن ^(١) لم تكن إلا فكرة نظرية محجوبة ومغمورة في الواقع تحت معتقدات وعبادات كانت توهم إلى عدد لا يحصى من الالهة ، فهم لا يدعون الله الواحد إلا إذا ألم بهم خطر كبير ولا يقدمون له — القربان إلا ما قل وحقر " ^(٢)

ومن الواضح ان ذلك الاعتراف يخص الكمال المطلق والقوة المطلقة للخالق

سبحانه وتعالى . قال تعالى مسجلاً اعترافهم :

" وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ " ^(٣) وقوله : " وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُمُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ " ^(٤) وقوله : " قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ " ^(٥)

(١) كقوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ٣٠ الآية من سورة الروم

(٢) مدخل إلى القرآن للدكتور محمد عبدالله دارز ٧٤ ط ٢ سنة ١٣٩٤ هـ ، دار القلم الكويتية

(٣) الآية من سورة الزخرف ٨٧

(٤) السابقة ٩ ، (٥) الآية من سورة المؤمنون ٨٦ .

وإنه من العجب أن تكون الآلهة ملوكة لله تعالى وفي نفس الوقت شريكة له . ١١ !
وكيف اتسعت عقولهم لذلك وفي نفس الوقت تضيق للوحدة كما يقولون في حكاية الله
تعالى عنهم . ١٢ !
« أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ » (١) وهذه العقيدة الفاسدة
وهي الشرك في العبودية أخذت مكانها في النفوس رغم أصالة العقيدة الأولى في
الفطر .

وقد كان السند في هدم العقيدة هذه هو تلك العقيدة الفطرية الربوبية
« إنه يأخذ باعتراف خصومه هو لا » ليثبت لهم وجودهم بهذا الإشراك وهذا الخلط
فضلا عن منافاة ذلك للعقل . فالوحدة الدينية التي يدعو إليها القرآن تنبئ على
فكرة كانت موجودة من قبل وقائمة بالفعل ، ولكنها كانت مغمورة تحت أنقاض الأفكار
المتناقضة . فيستخرجها القرآن من بين هذا كله ويعيد إليها صفاها ويتقنها من
كل شائبة . (٢) .

إن تقرير ما ذكرنا وهو أن الصانع الخالق في فطرة كل مخلوق ، وأن الذهن
الذي وجد إنما هو في العبودية والمحبة . إنما حينما نقرر ذلك متخذين القرآن
والسنة رادين وسندينا لنا وإن ذلك يدعونا إلى تساؤلات تفرض نفسها اليوم وهي :-
ما موقف الدعوة الإسلامية من يزعمون لانضمام حصول الإيمان المطلوب شرعا بسبب أنهم
اهتدوا إلى أن لهذا الكون خالقا من خلال البحوث العلمية الدقيقة والفحص الشامل

(١) الآية من سورة ص ٥

(٢) المرجع السابق ٧٦ .

الذى أجروه على الكائنات من حى وجماد ، وفى الأرض وطبقاتها ، وفى الفضاء
ونجوه ، ؟!

وهل الاعتقاد أو مجرد الفكرة بأن لهذا الكون خالقا ؟ يرشح لهؤلاء العلماء
مع اختلاف تخصصاتهم وأخلاقهم ووجداناتهم الدينية ، للإيمان الذى تعنيه الرسائل
عليهم الصلاة والسلام ، وأرسلهم الله لأجله ، ولو لم يوحدوا الله فى العبادة ويحكموه
فى كل صغيرة وكبيرة ، ويصدقوا فى اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ويقبلوا كل ما جاء
به القرآن والسنة على الإطلاق ، ويقتنعوا بهما عن إيمان ويتخلقوا بأخلاقهما . وهل
إذا لم يكن ذلك ولم يفعلوه واعتقدوا بأن للكون خالقا يكونوا مؤمنين الأيمان
المطلوب منهم . . ؟!

إن هذه الدعوى من البلايا التى يحاول الفكر الغربى الزاحف أن يقنع بها
كثيرا من يزعمون الإيمان والتفكير ، وهى فى الواقع زعم باطل ومغالطة ولنغو فعلوه
لعلهم يغلبون . . !

وما يؤسف له أن كثيرا من الكتاب المنتمين إلى الاسلام متساهلون فى هذا
الجانب المعلوم من العقيدة بالضرورة ، فنقرأ ونسمع كثيرا اطلاقهم الإيمان على من كفر
برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن بتحريف رسالة موسى وعيسى عليهما السلام . . .
بل اعجب من ذلك الإشادة بإيمان الباحثين فى الكون واعتباره إيمانا ولو لم يشهدوا
إلا إله الا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والغريب أن يصدر هذا من الدعاة الذين نعتبرهم فى المقام الأول فى الدعوة إلى
الله وفهم مقاصد العقيدة . . كالشيخ أبى بكر الجزائرى فى مناقشته مراتب المؤمنين ،
فذكر المرتبة الأولى وهم علماء الكونيات ، الذين تحلهم بحوثهم على الإقرار بخالق
مدبر وينقصهم الإيمان بكتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم يقول فضيلة الشيخ :
وهؤلاء قد ينفعهم ايمانهم فى الحياة الدنيا بقدر ما أثمر لهم من تعظيم الله تعالى ،

ومحبة فيه ، وقد ينفعهم في الآخرة بتخفيف العذاب عنهم !!^(١)

ما نوع هذه المحبة وكيف هذا التخفيف ؟ وقد كفروا بكتاب الله ورسوله كما قرر الشيخ نفسه .!! وعلى أي دليل من كتاب وسنة ! اعتد في حكمه هذا ! انه لأمر عجب لمت أدري من أين أتى هذا الداعية وكيف التبس عليه الأمر ؟

إن الايمان بواحد من أركان الإيـمان المعروفة^(٢) أو الايمان بجميعها باستثناء واحد منها ليس بالايـمان المطلوب والـكامل بل الايمان المعتبر هو الايمان بكل هذه الأركان فهي لا يغنى بعضها عن بعض . فكيف من لم يؤمن بواحد من هذه الأركان ايمانا صحيحا ؟

والشيخ الجزائري يرد على نفسه في مناقشته توحيد الألوهية إذ اثبت أنه هو الذي بعث الله به الرسل ويقول فيه : إن توحيد الألوهية ، العباد ، - جزء هام من عقيدة المؤمن إذ هو شرة توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وجناء الطيب ، وبدونه يفقد توحيد الربوبية ، والأسماء ، والصفات معناه ، وتعدم قائده^(٣)

إن الاعتراف بالخالق دون العبودية لا يجعل المعترف مؤمنا ولا ينفعه ، وقد كثرت كلمات العلماء في ذلك " ولو أقر رجل بتوحيد الربوبية ، الذي يخوض فيه كثير من الفلاسفة والمناطق والصوفية وجعله غاية ، دون توحيد الألوهية ، لم يكن غير مشرك من جنس المشركين " (٤)

(١) عقيدة المؤمن ٤٥ ط الأولى سنة ١٣٩٧ هـ مطبعة النهضة الجديدة بالقاهرة .

(٢) كما جاء في حديث جبريل عليه السلام : قال فأخبرني عن الايمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت

شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٧ ط ٢ ح ١ .

(٣) عقيدة المؤمن لابي بكر الجزائري ٩٩

(٤) شرح الطحاوي ٢١

ويقول ابن القيم ^(١) : ومن كان توحيد الربوبية والفناء فيه هو غايته ، إنسلخ من دين الله ومن جميع رسله وكتبه إذ لم يتميز عنده ما أمر الله به ما نهى عنه ولم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين محبوبه ومبغوضه ، ولا بين المعروف والمنكر ، وسوى بين المتقين والفجار ، والطاعة والمعصية ، وإنما وصل المسكين إلى الحقيقة الشاملة ، التي يدخل فيها إبليس وجنوده أجمعون ، وكل كافر ومشرِك وفاجر ، فإن هو لا كلهم تحت الحقيقة الكونية القدرية ^(٢) .

ويقول المقرئزي ^(٣) :

" ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون ، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض ، والقائم بمصالح العالم كله وإنما أنكروا توحيد الالهية والمحبة ...

فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها . وتوحيد الالهية مفرق الطرق بين المؤمنين والكافرين والمشركين . ولهذا كانت كلمة الاسلام : لا اله الا الله . ولو قال : لا رب الا الله . لما اجزاء عند المحققين فتوحيد الالهية هو المطلوب من العباد " ^(٤) .

- (١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي العلامة أبو عبد الله ابن قيم الجوزية ولد سنة ٦٩١ هـ وكان محيطاً بالعلوم الجمة مناظراً وداعياً حمل لواء الدعوة بعد شيخه ابن تيمية وكان من أبرز طلابه وله كتب كثيرة كلها في خير ونصرة للاسلام توفي سنة ٧٥١ هـ . أنظر ترجمته في الدالكاني لابن حجر: ٣٣-٣٤ ج٢ البدر الطالع للشوكاني : ١٤٣-١٤٦ ج١ ط١ سنة ١٣٤٨
- (٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١٦٠-١٦١ ج١
- (٣) هو العلامة تقي الدين أحمد بن عبد القادر المقرئزي نسبة لمكان بيعه لمكان وكانت نشأته في مصر ، وهو مؤرخ ومحدث ولد سنة ٧٦٦ هـ وتوفي سنة ٨٤٥ هـ . أنظر ترجمته في البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع : ٢٩-٨١ ج١ - والاعلام للزركلي .
- (٤) تجريد التوحيد المفيد للمقرئزي ٨-٩ طالمدني القاهرة .

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ :

• وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الاسلام بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الالهيه ، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده (١) .

قال تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَبْطِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَمَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢)

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : (٣)

• وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية . وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد ، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه . وأقر بأنه وحده خالق كل شيء . لم يكن موحدًا حتى يشهد الأله إلا الله وحده . فيقر بأن الله وحده هو الاله المستحق للعبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له (٤) .

ولا ننكر ان ذلك طريق ودليل قد يوصل إلى الإيمان الصحيح الذي يكون من عاينه الإقرار بالغييب والبعث والنشور ، والتعلق بالله في كل ما ينفع ، والرغبة منه في كل

(١) تيسير العزيز الحميد ١٧

(٢) سورة يونس آية ٣١

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب العلامة من اجلى الى مصر بعد تدمير الدرعية وطاد الى بلاده في عهد الامام تركى سنة ١٢٤١ هـ ولد سنة ١١٩٣ هـ وتوفى سنة ١٢٨٥ هـ / مشاهير طما نجد : ٢٨-٩٢

(٤) فتح المجيد ١٦

ما يضر ، وأداء أركان الإسلام بعد الشهادتين بوجه أكمل واخلاص لله ، ثم تحريم ما حرمه الاسلام وتحليل ما أحله بالدليل من الله ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا من العقل وحده ، وما لم يتجه علماء الكونيات هذا الإتجاه فى الايمان ، ويكسون هدفهم تلك الأهداف ، فإنهم لم يأتوا بشئ جديد ، ومن الخطأ بل من الجرم والافتراء على الله سبحانه وتعالى والتعدى على أصول الدين ومقاصد الشريعة أن يلقب هؤلاء بالمؤمنين ويرجى لهم الثواب فى الآخرة . . . ولو كان ثم أحد من البشرية غير المسلمين يجوز تقييه بالمؤمن لكان أهل الكتاب أولى بذلك لأنهم يؤمنون بكل ما آمن به المسلمون ما عدا نية محمد صلى الله عليه وسلم . وقد لقبهم القرآن بالكفر ولم يطلق عليهم الايمان فى أى آية . قال تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) وقال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٢) وقوله : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدِهِمْ صَاغِرُونَ (٣)

إن الحقيقة التى لا مرية فيها هى أن من استجاب للظفرة وآمن بالله دون البحث العلمى وقبل ما جاءت به الرسل دون معارضة أرسخ إيماننا وأقوى من الذى لم يؤمن - حسب تعبيرهم - الا بعد البحث والفحص والشكوك والفروض التى تعود من حيث بدأت . . . !!

- (١) الآية من سورة البينة : ١
 (٢) الآية من سورة البينة : ٦
 (٣) الآية من سورة التوبة : ٢٩ .

ولقد وصل الغلو بكثير من الباحثين في الماديات الكونية إلى درجة أنهم لا يكادون يطلقون كلمة " العلماء " الا على أنفسهم وأستشرى هذا العرض والاستفسزاز والإعجاب بالنفس ثم انتقلت العدوى إلى بعض من يحسبون في الفكر الاسلامي ، وبدأت كلمتا " العلم والعلماء " تحرف كل واحدة من أصلتها العرفية والاصطلاحية في فكر حضارتنا الاسلامية وتنتقل إلى اولئك الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون واتخذ من هذا المؤولون المحرفون الكلام عن مواضعه منطلقا لتفسير كل كلمة وردت بذلك ، تحت هذا المجهر العلماني الذي يحاول صراحة أو ضمنا أن يقع الفطرة البشرية بأن الخالق كان مجهولا ..، تعالى الله عما يقول الظالمون فاشتبا وجوده بالابحاث العلمية ، وكفانا هذا من الايمان . . . ! . . . ويمتد ذلك الغلو والتعاضم إلى السخرية من الدين وتحقير علماء الوحي من أئمة التفسير والحديث والفقه واللغة العربية وما تبع ذلك من الفنون والعلوم التي ترجع إلى القرآن والسنة وتخدم قضية واحدة وهي أن هذا الكون كله لله ويجب على البشر عبادة الله بما جاء به المرسلون .

إن كل ما توصل إليه الباحثون في الظواهر الكونية لا يزيد عن أنهم تأكدوا على أن ما في الفطرة حق وصدق من الاعتراف بالخالق ، وكان ذلك ما زاد كفرهم إن لم يؤمنوا الايمان المعني والمقصود ولو كان الاقرار بالخالق يكفي فلو أن يوصف المقربة بالايمان ويعد من المؤمنين ، الذين تعنيهم دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، لكانت كل البشرية مؤمنين فالذين عبدوا من دون الله غيره ، لم يعتقدوا يوما أن هذه المعبودات تخلق .

بل (إن كلمات الباحثين في نفسيات المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على أنه ليس هناك دين أيا كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف عند ظاهر الحس ، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأنه ليس أحد من عباد الأصنام والأوثان كان

هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى في مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التمجيل والتكريم ، وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطا لقوة غيبية ، أو رمزا لسر غامض ، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ . . . وأن تلك المواد المشاهدة ما هي في اعتقادهم الا مظهر ومطلع يطل منه هذا الروح الخفى ، ويبارك من يتسح بتلك الهياكل التي اتخذوا له مظهرا ومزارا (١)

إن هذه الحقيقة في حد ذاتها ، يترتب عليها أمر هام وتستلزمه وهو أن هؤلاء الذين اتفقت كلمات الباحثين في حد عبادتهم ما يعبدون من دون الله ونظرتهم العامة إلى المعبودات هذه ، ايا كان نوعها ، يستلزم هذا الإجماع منهم الاتفاق على أن الخالق لا يتعدد في فكر أئمة مهما كانت في التسك بالخرافة والاشراك بالله تعالى . وقد يختلفون في تسميته وفي التعبير عنه والتعلق به ويتراوحون بين المستويات والدرجات ، كما هو شأن من ليس لهم عقيدة سماوية تنظم عبوديتهم الإلزامية تلك . والقصد أن عباد الاشباح المادية او الأرواح ان ثبت أنهم لا يقصدون هذه المعبودات ففى حد ذاتها ، فقد ثبت كذلك ان الخالق الذى أقروا به فى فطرتهم ، ويبحثون عن الطريقة اليه من باب أولى الا يتعدد فى عقائدهم .

وقد جاء دليل التمانع وفيه ما يمنع تعدد الالهة عقليا ونقليا . (٢) كقولـــــــــــــــــه
تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . (٣)

-
- (١) الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ٣٨-٣٩
(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ١٦-١٧، ٢٠، ٢٤، ٢٥
(٣) الآية من سورة الاسراء ٤٣ .

وقوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون* (١)

إن أصد العقائد وأبعدها عن التصور العقلي عقيدة النصارى* وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا ، بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين* ونتيجة هذا أنه لا يمكن أن يتفق النصارى على شيء من هذه العقيدة . (٢) بل هي في حكم المنوع عقلا وشرعا . كقوله تعالى : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ* (٣)

ان هذه العقيدة الفاسدة أقرب العقائد الباطلة في أسلوبها ومنهجها واختلاف أصحابها إلى تعدد الأرباب ، بسبب هذه الفكرة العجيبة ونصب المخلوق خالقا . ومع هذا فإن الحقيقة الكبرى لا تزال جلية وثابتة في فطرة عباد الصليب ومعتقدي التثليث وهي أن الخالق واحد ، وإن تدنسنا هذه الفطرة بطقوسها ومعتقداتها في الألوهية والتشريع . (٤)

ونحن نصل بعد هذا كله إلى ان البشرية كل ما وقعت فيه من الحاد وشرك إنما هو يعود إلى تساهلها في شأن العبودية وخصائصها وتعطيل مستلزمات الربوبية ودلالة اسماء وصفاته سبحانه وتعالى .
* ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنه لم يعرف الألحاد بانكار الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ،

-
- (١) الآية من سورة الانبياء ٢٢
(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الاسلام ابن تيمية ١٥٥٦ ج ٢
(٣) الآية من سورة المؤمنون : ٩١ .
(٤) المصدر السابق ٣٧٧ ج ١ : ٩٠-١٠٤ و ١١٢ و ١٢٥ و ٢٤١ و ٢٦٦ و ٢٧٨ ج ٢
و ٤٥ و ١٢٥ و ٢٦٠ ج ٣ .

وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعي الماركسي^(١) المدمر والذي نكبت به أوربنا
وانحاء كثيرة من العالم فإنه وإن كان هناك كفر بالله تعالى وشرك به بين الأمم
والشعوب البشرية غير أن الشعور الفطري قائم في كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان
غيبى هو سلطان الله تعالى والناس يتوسلون إليه بشتى الوسائل إستجلابا للخير
منه ، ودفعاً للشر بواسطته . ان كل الالهة التي أوجدها الانسان وقدم لها مختلف
العبادات ، وتقر بشتى القرب ، الأصل فيها الشعور الفطري بوجود الله الخالق ، المدبر
للخلق ، والكون معا .^(٢)

وحتى هذه الالهة المنصوبة للتقديس ما كانت مقصوده في حقيقة الأمر بالعبادة ،
وإنما المقصود شئ آخر لم يحسنوا التقرب إليه ، أو تحكّم التقليد بلا بصيرة
جعلهم يظنون هذه الظنون . وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده ، إنما عابد
هواه وهو ميل نفسه إلى دين آباءه ، فتبع ذلك الميل وميل النفس إلى المولفات أحسد
المعاني التي يهيم عنها باتباع الهوى . . .
وأقل ما يقال أن هذه المقدسات إن أثبتوا لها صفة الربوبية أو نصبوها آلهة حقيقة
فإنهم لم يزعموا أنها تكافئ الخالق الأكبر .^(٣)

بل إن هذا التقديس ليس لآى ذات مهما كانت وإنما هو لذات خاصة لها صفات
معينة ، وأبرزها أنها لا يقع عليها الحس ولا تدخل في دائرة المشاهد الحسية

(١) وحتى المجتمع الشيوعي لولا الكبت الذي فرضه الحزب الحاكم لما تنكر احد لوجود
الخالق وما حمل الحزب الشيوعي على هذا الا لمصارعة الدين في الفطرة ،
وكذلك لم يقدموا دليلا واحدا يثبته من يريد ان يثبته وهذه الجماهير الشيوعية
كل يوم نسمع بافراد وجماعات منها هاربين لا لاجل المادة والطعام فقط إنما
لدافع هذه الفطرة المكبوتة .

(٢) عقيدة المؤمن لابي بكر الجزائري ٨٩

(٣) تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ٨ - ١٠ .

للمتدين فهي شيء لا يدرك الا بالوجدان والعقل ، فهذه حقيقة تلتقى عندها كل الأديان ، وهي الغيب ، غيبة ما وراء الطبيعة وهو غيب ذو قوة فعالة مؤثرة ، ويعتقد المتدينون أن هذه القوة لا تنفصل عن العالم بل تدرك الآمه وآماله وتستطيع قضاء الحاجات اذا شاءت . ولا يناقض هذا عباده الاوثان فهذا المناط اتفق عليه الجميع وهوذات غيبية لا تراها العيون تؤثر في المعبودات المختلفة . (١)

ومع هذا فإن اماننا عقبه لا تساعد في عموم ما قررناه ، وهي أولئك الذين نقل عنهم أنهم ادعوا الربوبية ، ونازعوا في أمرها ، وخرجوا عن الاجماع البشرى الذى أقر بوجود الخالق وإن اختلفت أساليبهم ، وهو لا يخرقوا سنن الفطرة التى خلق الله عليها كل البشر ، والواقع أن هؤلاء لا يكونون عقبه تهدم وتنقض ذلك الإجماع الفطرى ، بل داخلون في هذا وإن تظاهروا بالجمود وحاموا حول الحمى ، وزعموا مغالطين أنهم أرباب لا يعترفون بخالقهم إنهم في هذا شوان ، ويمثلون شيئاً يلاحظ في كل أمة من هذه الأمم التى لم تكن لها رسالة ، وهى أنها لا تخلو وأديانها من الخارجين عما تواطأ عليه السواد الأعظم وتعارفت عليه الأمم . ففى استسلامها لقوة كبرى تدير هذا الكون ، ذلك لأن عموم الأديان لكل أمة لا يعنى عمومها لكل أفرادها .

" فإنه لا تخلو أمة من وجود " ذاهلين " قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها

(١) الدين للدكتور عبدالله نراز بتصرف ٢٧-٢٨ .

إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رؤسهم للنظر في تلك الحقائق العليا . كما لا تخلو أمة من " منكرين ساخرين " يحسبون الحياة لهوا ولعبا ، ويتخذون الدين وهما وخرافة ، لكن هؤلاء دائما ، هم الأقلون في كل أمة وهم في الغالب من المترفين الذين لم يصادفهم من عبر الحياة وازماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضع ، وما ينبه عقولهم إلى التفكير في البدايات والنهاية وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفي كون الغريزة الدينية بصفة عامة فسي طبيعة النفس الانسانية " (١)

ان هؤلاء المتشككين قلة نقل الله سبحانه وتعالى في القرآن ما يشير إلى أفرادهم في هذا الشذوذ وهم نمرود الذي حابه ابراهيم عليه السلام ، وفرعون ، والدهريون .

فأما الاولان يبدو أنهما ارادوا بحكم السلطان أن يقنعا قومهما بهذه الفكرة الساذجة ولكنها أخفقا ، وأما الدهريون فأمرهم غير واضح في الإنكار كما سبأين فهم لم يخرجوا عن المألوف وكان أسلوبهم في التعبير عن الخالق هو هذا . وفيما يلي بعض البيان في شأن هؤلاء :

(١) - نمرود الذي حاه ابراهيم عليه السلام في ربه . (٢)

فقد جرت مناظرة بينه وبين ابراهيم عليه السلام بهت فيها وافحه الخليل عليه

(١) المرجع السابق : ٨٣

(٢) وهو ملك بابل النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح وكان أحد ملوك الدنيا ويقال انه استمر في ملكه أربعمائ سنه ، وقد سلب عليه ذبابا من البعوض غذبه به في الدنيا حتى مات ، ويقال انه ناظر ابراهيم بعد خروجه من النار وقيل غير ذلك .

انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١٤٨-١٤٩ ج ١ .

السلام والزمه الحجة كما ذكر الله تعالى في قوله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ
فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أَحْيِي
وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ
الَّذِي كَفَرَ - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * (١)

هكذا اخبر الله تعالى عن جدله ودعواه الباهته ، وكانت هزيمته بادئة في أول
الأمر ، ولذا انتقل الخليل عليه السلام من المثال الأول إلى مثال آخر يزيد الحجة
إيضاحا وللمهزوم هزيمة وفضيحة لمغالطته .

والإنتقال هذا ليس الى حجة او دليل آخر بسبب أن الطك يستطيع ان يحضر
رجلين استحقا القتل عنده فيقتل أحدهما ويعفو عن الآخر . . بل الانتقال إلى مثال
له علاقة بالحجة التي لا تزال قائمة بدون جواب من الطك . وفي آداب البحث والمناظر
لا يجوز الانتقال من حجة إلى أخرى الا بعد الإجابة عليها أو ابطالها . وابراهيم
أراد إمامة وهي سلب الحياة واحياء وهو خلق الحياة في الاجساد ! (٢)

وقد استنتج الدكتور زاهر بن عواض الالمعي جدلا يرى أنه في سر انتقال
ابراهيم عليه السلام إلى الحجة الثانية . فقرر الدكتور أن قوم ابراهيم عليه السلام
يعتقدون في الكواكب والشمس كما هو معلوم ومعروف فلو أن الطك زعم لهم أنه يستطيع
الاتيان بالشمس ، " لقال ابراهيم عليه السلام مادمت أنت المدبر لهذه الأفلاك والمسير
لها فكيف يعتقد قومك بأنها الهة يعبدونها من دونك فهل يكون الاله مديبرا

(١) الآية من سورة البقرة ٢٥٨

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٣١٣ هـ ١ والبداية والنهاية له : ١٦١-١٦٢ هـ ١

وتفسير الرازي : ٢٣-٢٦ هـ ٢

واستخراج الجدل في القرآن لابن حنبلي : ٦٨-٦٩ ط ١ .

او مسيرا، وهذا امر يستلزم بطلان اعتقادهم في هذه الكواكب* ثم قال الدكتور
: ولم أر من أشار إلى هذا المأخذ من المفسرين رغم أصالته في السياسة الجدلية* (١)

وفي الحقيقة أن قصد ابراهيم عليه السلام واضح وهو ابطال دعوى الطك من
أنه يشارك الله في تصرفه بدليل قوله* حاج ابراهيم في ربه*

بل إن الانتقال إلى المثال الثاني إن كان بهدف أن يوضح لهم أن هذه
الكواكب لله تعالى فإن زعم الملك أن الامامة والاحياء صادران من الشمس
والكواكب فإنه يلزمه أن الحركة والاحداث منها إنما هي اكتسبتها من الخالق ولا تنحها
نفسها ، فبطلت عبادتها من دون الله تعالى وأن لها أثرا فيما يجرى في الكون ،
ولعلمه بذلك بهت . (٢)

والمفسرون لم يقفوا أمام هذه الهزيمة من الملك والانتقال من ابراهيم عليه
السلام من المثال الأول إلى الثاني إذا في استنتاج طرق الجدل ، وهم كذلك
قدروا سواها وجوابا في القضية واستخلصوا شيئا بهابسه الملك ويتوقعه ، وهو
* فان قيل كيف بهت وكان يمكنه أن يعارض ابراهيم فيقول له سل أنت ربك حتى
يأتي بها من المغرب ؟ قيل إنه لم يقفه لانه خاف أن لو سأل دعا ابراهيم ربه
فكان زيادة فضيحته وانقطاعه* (٣)

وإذا تأملنا قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه في القرآن بعد ذلك فإننا نجدها

(١) مناهج الجدل في القرآن للدكتور زاهر ١٤٦ ط ١
(٢) انظر البحر المحيط لابي حيان ٢٨٩ ح ٢ طابع النصر الحديثة بالرياض ،
وغرائب القرآن و غرائب الفرقان للنيسابوري ٢٨ ح ٣ ط ١ سنه ١٣٨١ هـ الحلبية
القاهرة .

(٣) معالم التنزيل للبغوي على هاشم الخازن : ٢٣٠ ح ١ .

لا تخرج عما عرف من الأمم من أنها أوتيت من قبل الألوهية لا الربوبية وملكهم هذا شذا ولكنه بهت في دعواه وهونغمه لا يريد غير لجاهه ومكابرة، ومن قصة ابراهيم عليه السلام في القرآن قوله تعالى : **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (١) .

فلاستثناء في الآية الثانية متصل وذلك يدل على أن قوم ابراهيم يعرفون الخالق ويعتقدون بوجوده وإنما كانت فتنهم في توحيد العبودية كما هو مشكلة غالب البشرية .

وقصة ابراهيم وقومه في القرآن تنحو هذا المنهج والملك المكابر من جملتهم .

(١) الآيتان من سورة الزخرف ٢٦-٢٨ .

٢- فرعون : (١)

ومن هؤلاء الذين شذوا في دعواهم وجحدوا فطرتهم فرعون الذى تظاهر بالانكار ويدعوى الربوبية وكان ذلك منه تجاهل العارف ، وفي نفسه الخبيثة مقر بأنه عبد مربوب كما هو واضح فى الحوار الذى بينه وبين نبي الله موسى عليه السلام وحكاه الله سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء . (٢) ودعواه الربوبية جاء فى قوله :
أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى . (٣)

وقوله : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . (٤)

فهو يدل على هاتين الآيتين يدعى الربوبية والالوهية وهما اذا اجتمعتا افتترقتا واذا افتترقتا تلازمتا ، وهو ما دعاه فرعون فى الآيتين وفى مناسبتين له مفترقتين ، ولما جاء موسى عليه السلام اخبره بمن ارسله اليه اخبارا عن معروف ، ولم يطلب منه موسى أن يعترف بوجود الخالق ثم يخبره ثانية بما أرسل به ، بل قال له موسى : وَقَالَ يَا فِرْعَوْنُ إِنَّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (٥) وسأل فرعون عن العلامة لدعوى موسى ، ولم يسأل عن رب العالمين حينئذ فقال : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (٦) ، ولكنه عندما استفحل الجدل وعظم جدية موسى فى الأمر

(١) فرعون : هذا لقب لكل ملك عند المصريين قبل الاسلام وقد تنازع الناس فى اسم فرعون موسى ومن عجب التسميات ما قيل ان اسمه " الوليد بن مصعب " ويقال انه من العماليق او من لخم الشام والاقرب ما قيل : انه من الاقباط من ولد مصر ابن بيصر .

انظر : مروج الذهب للمسعودى ٣٥٨ - ١ ط ٤ سنة ١٣٨٤ هـ مطبعة السعادة بمصر .

(٢) الآيات من سورة الشعراء ١٨-٦٨

(٣) الآية من سورة النارعات ٢٤ (٤) الآية من سورة القصص ٣٨

(٥) الآية من سورة الاعراف ١٠٤ (٦) الآية من سورة الاعراف ١٠٦ .

ولم يقو على رد المعجزات والعلامات التي جاء بها موسى عليه السلام وافتضح امره الذي ادعاه لقومه من أنه الهمم هنا لجأ الخبيث الى السؤال متظاهرا بالتجاهل وهو يعلم أن هناك خالقا فقال : **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ^(١) . فلهذا بين لهم موسى أنه معروف ، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر واشهر من أن يسأل عنه بما هو ؟ بل هو سبحانه وتعالى أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل ، بل معرفته مستقر في الفطر أعظم من معرفة كل معروف ^(٢) .

تلك الدعاوى التي لفقها فرعون يعلم أنها باطلة كلها وانما هي زعم السلطان وسقطة من سقطات جبروته ، وهو فيها معاند ويدرك انه عبد مربوب وان الله هو الخالق البارى المصور . وقد أجابه موسى بقوله كما حكى الله في القرآن **رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ^(٣) .

وهو جواب جامع فيه ان الكون كله بسماؤه وارضه وما فيها وما بينهما انما خالقه هو الخلاق العليم ، ولما اقيمت عليه الحجج بالادلة الكونية ، والتي يعرف فرعون انها لا يمكن ردها باخرى ولا ابطالها عقليا ، وقد استمر الحوار بين فرعون وبين كليم الله تعالى موسى عليه السلام ، وبدأت هزيمة فرعون واضحة ومراوغته فاضحة ، ولا أحد من قومه يشهد له بأنه إله على الحقيقة وان شاركوه في العناد وحلهم على ما لا تقربسه فطرتهم وتأباه عقولهم . فجعل يلتبس من قومه من يشهد له ضد موسى عليه السلام

(١) الاية من سورة الشعراء ٢٣

(٢) شرح الطحاوية ١٥ ط ٣

(٣) الاية من سورة الشعراء ٢٤ .

ويسخر منه ، ويتهكم به ، ويرميه بالجنون ، بل ويهدده بالسجن . . ويلفت انظار
 قومه الى مآلديه من المظاهر المادية وما منعه الخالق من السلطان ولا احد من العقلاء
 يدعى أن هذا يوءهله ليكون خالقا فيقول تعالى حاكيا دعوى فرعون " قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ
 اَلَا تَسْمَعُونَ . قَالَ رَبِّكُمْ رَبُّ اَبَائِكُمُ الْاَوَّلِينَ . قَالَ اِنْ رَسُوْلُكُمُ الَّذِي اَرْسَلَ اِلَيْكُمْ
 لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا اِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ : لَئِنْ اِتَّخَذْتَ
 اِلَهًا غَيْرِي لَاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوْنِيْنَ . الْاَيَاتُ " (١)

وقال تعالى : وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ اَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ
 الْاَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي اَفَلَا تَبْصُرُونَ . اَمْ اَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مِنْ وَاوَالِيٍّ وَلَا يَكْفُرُ
 بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ اَسُوْرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ اَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِيْنَ فَاَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
 فَاَطَاعُوْهُ اِنَّهُمْ كَانُوْا قَوْمًا فٰسِقِيْنَ فَلَمَّا اَسْفَوْنَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَغْرَقْنَاهُمْ اٰجْمَعِيْنَ " (٢)

وكل ذلك إنما هو وسيلة المنهزم ، ونهاية المفضوح الذي لا يملك لنفسه شيئا
 فمن أين يكون ربا . (٣)

إبي فرعون يدرك أن ادعائه للربوبية ، ليس أمرا سهلا تهضمه العقول وتستسيغه
 الأذواق ، ولا سيما أنه يعرف أن من الحاضرين من هو أكبر منه سنا ويعرف متى ولسد
 ووجد بعد أن كان في العدم ، وكيف نشأ ١٢٢

-
- (١) الآيات من سورة الشعراء ٢٥-٢٩
 (٢) الآيات من سورة الزخرف ٥١-٥٥
 (٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٣-٢٧٥ ج ١ واستخراج الجبال
 لابن الحنبلي ٦٩-٧٢ .

ولكنه في الواقع يريد التضييل والتغطية على عقول الناس بدعواه هذه ليصدهم عن الايمان بموسى عليه السلام ، وهذا مانجده واضحا في دعواه ، فهو يقول : ما علمت لكم من اله غيري " فلم يجزم وحصر الدعوة في علمه هو فقط ، وكأنه يتوقع ان يكذب ، ويقول : وانى لظنه من الكاذبين " ولم يجزم كذلك لعلمه بانه لا يقدر على زعم خلق السموات والارض ، وتسيير قوة الكون في العالم . وان المتأمل لقصته في القرآن يلمس تقلباته في الكلام ومراوغاته في الجدال ودلالة ذلك على ما تنطوى عليه نضه من الخداع والتستر ليحول بين الناس وبين الحق ، لبقاء استعبادهم وهو يتقمص اثواب الالهية ليخيف ويهيب لا غير .

ومع ذلك فهو اذا شعر بفجوة بينه وبين الناس فانه يحاول ان يستميلهم ، وفي نفس الوقت فهو يشعر بخيبة الامل ومغبة التكبر والفساد في الارض وان ما يقوله غير ما يدرك حقيقته في قرارة نفسه ^(١) كما جاء في القرآن : ^دفَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا ^دمِصْرَةً ^دقَالُوا هَذَا سِحْرٌ ^دمُبِينٌ ^دوَجَحَدُوا ^دبِهَا ^دوَاسْتَيْقَنَتْهَا ^دأَنْفُسُهُمْ ^د(٢)

(١) انظر سناهج الجدال في القرآن للدكتور زاهر عواض الالمعي ١٤٧-١٤٨

(٢) الآية من سورة النمل ١٣-١٤ .

٣- الدهريون : (١)

ان هؤلاء يعتقد انهم ينكرون الخالق ، وان الدهر هو الذي يهلكهم
كما في قوله تعالى : " وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ،
وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " (٢)

والآية فيها اشارة الى انهم يموتون ويعيش آخرون ولا ثم معاد ولا قيامة ، وكذلك
ينكرون ان الله هو الذي يميتهم ويحييهم كما هو ظاهر هذا الاعتقاد " وهذا يقوله
مشركوا العرب المنكرون المعاد وتقول الفلاسفة الدورية المنكرون للصانع المعتقدون
ان في كل ستة وثلاثين الف سنة يعود كل شيء الى ما كان عليه ، وزعموا ان هذا
قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول " (٣)

وقد جاء في الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى
يَوْمَ يَنْبِئُ ابْنُ آدَمَ سَبَبَ الدَّهْرِ وَأَنَا الدَّهْرُ ، بِيَدِ الْأَمْرِ أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ " (٤)
وفي رواية " لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ " (٥)

ان تلك النصوص ناقشها ائمة التفسير لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله
عليه وسلم ولم يفسروها بتعدد الارباب ، واحسن ما قيل في تفسير ذلك ما ذكره
الحافظ ابن كثير (٦) واختاره فقال : كانت العرب في جاهليتها اذا اصابهم شدة
او بلاء او نكبة قالوا يا خيبة الدهر فيسندون تلك الافعال الى الدهر ، ويسبونه

(١) قالوا بقدوم الدهر وأن المادة لا تغني وأن كل ما جد في العالم انما يرد الى فعل القوانين
الطبيعية أي الى حركة الافلاك ويقال انهم ينكرون المعقولات ولا يؤمنون الا بالمحسوسات
ويمكن ارجاع أصل الدهرية الى مدارس الفلسفة الاغريقية .

انظر دائرة المعارف الاسلاميه : ٣٣٧ - ٣٤٠ ج ٩

(٢) الاية من سورة الجاثية ٢٤

(٣) ابن كثير في التفسير ١٥٠ ج ٤

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب التفسير . وسلم في كتاب الجبر والصله

(٥) عند مسلم .

(٦) الحافظ المفسر البار والمؤرخه الثبت ، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير
البصري ثم الدمشقي وكان من تلامذة ابن تيمية متأثر بنهجه ، وله تصانيف كثيرة كتفسيره
والبدايه والنهايه ، ولد سنة ٧٠١ بالبصرة ونشأ بدمشق وتوفي في شعبان سنة ٧٧٤ هـ ،
ترجمته في الدور الكائن لابن حجر : ٣٩٩ - ٤٠٠ ج ١ ، والبدري الطالع للشوكاني : ١٥٣ ج ١

وانما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم انما سبوا الله عز وجل لانه فاعل ذلك فى الحقيقة
 فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لان الله تعالى هو الدهر ، الذى يعنونه
 ويسندون اليه تلك الافعال هذا احسن ما قيل فى تفسيره وهو المراد والله
 اعلم . (١)

وعلى كل فهم لا يريدون غير الخالق الحقيقى وانما عبروا عنه بالدهر ، لانهم لا
 يعلمون وفى الاية ما يدل على هذا ولكن الفطرة لا تدعهم يجحدون الخالق لان الاعتراف
 به فيها ثابت ، وهم لا علم لهم بذلك وانما هم يظنون ظنا ، فاطلقوا مقالتهم تلك
 على عواهنها ، فالقول بغير حجه ولا بينة باطل فاسد ، ومتابعة الظنون لا تقع فى
 الحقائق ، ولا تقاوم ما ثبت فى سنن الكون من ان الخالق اجل واكبر من ان ينكر وجوده ،
 وتفرد به بالخلق ، وكان ذلك مطابق لفطرة كل الكائنات . . (٢)

فالنظرة السطحية لا تتجاوز المظاهر عند هؤلاء ولا تبحث عن الاسرار ، وتتعمق
 فى الحقائق ، ولو كانت لا تهتدوا الى غير هذه النظرة السطحية ، التى تتجاهل
 مصدر الحياة . ومصدر الموت الذى لم يكن خاضعا لنظام الايام فظنوا ان مرور
 الايام هو الذى يسلب الحياة ، فلو كانت هناك عقول تعقل لاتضح ان الموت يقع على
 الاطفال كما يقع على الشيوخ وينزل بالاصحاء كما ينزل بالمرضى وبالاقوياء كما يموت
 الضعفاء * ولا يصلح الدهر اذن تفسيرا للموت عند من ينظر الى الامر نظرة فاحصة ،

(١) تفسير ابن كثير (١٥١ هـ - ٤)
 وانظر القرطبي (١٧١ هـ - ١٦ ط صورة عن طبعة دار الكتب القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ .
 (٢) انظر التفسير الكبير للرازي (٢٧ هـ - ٢٧ والطبرى ١٥٣ هـ - ٢٥ .

ويعاود ان يعرف ، وان يدرك حقيقة الاسباب . (١)

ان الدهرية بهذه الظنون التي لا تقرب الى بداية اليقين لم تكن طائفة ذات اعتبار تقر بخالق غير الله خالق الكون ، هذا بالاضافة الى التفسير الذي يشهد له الحديث المذكور في سب الدهر " ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون " .

(١) ظلال القرآن للسيد قطب ٣٢٣٢ المجلد ٦ ص ٢٤ الشروق .

ومعد :

ان تأملا هادئا وتدبرا في كتاب الله تعالى وتفكيرا واعيا ، يرشد الداعية المسلم الى حقائق ذات حسمان ونتائج تكون له برهانا ورائدا لا قناع من يبدو متكبرا او متجاهلا " الخالق " سبحانه وتعالى .

ان الله سبحانه وتعالى لم يحك لنا في كتابه من لديه شك في قضية الربوبية غير نمرود وفرعون ، فلو ثم احد من الامم اشد منها غلوا في هذا الشذوذ او مساويا لهما لحكاه الله سبحانه وتعالى .

وان نمرود وفرعون لم ينكرا وجود الخالق وانما زعا هذه لنفسيهما او المشاركة فيها ولا ينفيان الخالق مطلقا .

انهما في هذا شانان فرديان بدليل ما حكاه الله في كتابه عن قوم ابراهيم عليه السلام والملك منهم من انهم يعتقدون الوسائط فقط . وما حكاه عن مؤمن آل فرعون وما آل اليه امر السحرة .

ان دعواهما غير يقينية كما بينت سابقا - بالنسبة لهما ولكنها محاولة لصد الناس واسكات الدعاة بحكم السلطان .

ابراهيم وموسى عليهما السلام كلاهما ناظر خصمه بالادلة الكونية الدالة على الخالق ، وذلك لاعتراف فرعون ونمرود بان هذه الادلة من خلق ذلك الخالق الذي جحداه ولا يستدل الخليل والكليم عليهما السلام للخصوم الا بما يعترف به الطرفان معا .

ويبدو من قصة نمرود وفرعون انهما لم يدعيا الربوبية الا على من كان تحت قبضتهما في الحكم ، وهذا يكفي في سقوط دعواهما ، لان الكوى لا يتجزأ لدليل التمانع .

اذا ثبت هذا فان زعمها لا يعدو ان يكونا فيه محاولين ان يغيرا من قبل رعيتهما من الوسائط التي تعبد من دون الله ويتمكنا بحكم هذا من تسخير من يريدان تسخيره .

واما ما يقال من ان هناك ملاحظة ، اثبتوا وجود المادة من نفسها دون موجد . . فاقول لو ثم احد اشد من فرعون ونمرود والدهريين من الجماعة البشرية ، لحسكاه الله في القرآن . . ولكنى فيما افهم ان الالحاد هذا انما هو ناشئ اساسا من اسراف بعض من عبد من دون الله تعالى غيره او اعتد بنفسه اعتدادا فوق ما تعارفت عليه البشرية ، فزعم الا وجود لشيء غير المادة لقصر نظره الذي وصل به الى حسد انه لا يصدق الا بما تحت مجهر الحاسة ، ناسيا نشأة هذا المحسوس من المادة ونضه ، من العدم ، وهو يعترف انه وجد بعد الم يكن موجودا . . . !!

وهو^١ من المجموعات البشرية عند التحقيق لا يخرجون عما سبق ان قلنا ان الغالب بل والعام في كل من تورد على الخالق فادعى ما شاء او ادعى له ، الا ان سألة الخالق يقف ذلك كله دونها ، فتبقى على اية حال فطرة لا ينفك عنها المخلوق ولو ادعا وزعم وقيل عنه ما قيل ان صدقا او كذبا .

ولكن هو^٢ الماديين المفرطين في انكار او الشك فيما ليس محسوسا لديهم لو قابلناهم بمن يفرطون في انكار المحسوس واعتبار ما غاب عن حاستهم لوجدنا ان القضية قد انحلت بين الفريقين ، لان هو^٣ الماديين المتشددين في اعتبار المحسوس ، لم ينكروا ان هذه المادة وجدت من العدم ، فهي اذن تدل على الموجد لها ولا توجد نفسها . . . واما الفريق الثاني فقد اثبت باتجاهه الذي ينكر المحسوس ويبحث عن غيب ويهرب منه ، ان المادة لا تخلق ولا يخرج من الفريقين احد ، فهذان الفريقان على القمة في الطرفين . المتشددون في اعتبار المادة المحسوسة وعدم اعتبار

ما غاب عنهم ، والمتشددون في انكار الحقائق والمحسوسات ، ومن بين الفريقين اشكال والوان من الخلط بين الفريقين بالتساوى او بالتفاوت . . .

والمستثنون من هذا العموم وليسوا من هؤلاء ولا اولئك وفيهم المؤمنون حقا الذين عرفوا من في الغيب بآثاره وصفاته ، فأضوا به خالقا والها ، وعرفوا عالم الشهادة ولم ينزلوه غير منزلته ، فأرجعوه الى منشئه وفاطره سبحانه وتعالى " الاله الخلق والامر " ،

هؤلاء هم همزه وصل بين الفريقين وهم المرتاحون فكرا والمنضبطون سلوكا وعملا . . . !
 ونحن بهذا نقرر ان الشعور بالخالق ، والاحساس بحرارة الفطرة ومثلها في النفس الانسانية ، قاسم مشترك ، ما من نفس الا ولها فيه نصيب ، ومقام معلوم ، ونياً ظاهر او باطن . . . وان هذه الفطرة سر في داخل كل نفس ، من احسن من الدعاء تسديد الادلة اليه وتوجيه كلمة الحق فانه يظهر لا محاله ؟ !
 ويعلن عن نفسه انه مريب لخالق معبود حي لا يموت . . . ان هذا الرجوع الى الفطرة لا ينتظر مناسبة غير ذلك ، وما مثله الا كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال انسى
 يَحْيَىٰ هَذِهِ اللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَامَاتَهُ اللّٰهُ مِثْقَةَ حَامٍ (١) . . . الاية " وكاعلان سحرة فرعون ايمانهم وما كان فرعون يتوقع لولا ان عاجله انفجار الفطرة التي تأبى بكل صلابته وأصاله ان تقول لفرعون انت رب ، وكتحويل قلب عمر بن الخطاب من اللات الى الله وهو يبحت عن رسول الله ليقته . . . ! !

(١) من الاية من سورة البقرة ٢٥٩

• آدم أصل البشرية •

• إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى •

لم يدع الله في القرآن مجالاً لاية نظرية تخوض في اصل الانسان ومداية خلقه، ولم يترك هذه المادة التي خلق منها الانسان في بدايته في ابهام واجمال منفلتسين دون العقل البشري وفكره . . .

ولكن الله سبحانه وتعالى بين بكل وضوح وجللاء العنصر الذي خلق منه الانسان الاول " آدم " وهو التراب . . والعنصر الذي استمر منه خلق ذريته الى يوم انقراضهم . . وهذه هي المرحلة الاولى للانسان والتي نعتقد جازمين بانها لم تسبق بمرحلة غيرها ، ولا بوجود انساني بشري قبلها . . ! !

ومن الانسان الاول ، وهو آدم وزوجه حواء بدأت المرحلة الثانية في تكوين الانسان بقدرته المصور المبدع سبحانه وتعالى . وهي أنه كما تقرر الآية : من ذكرر وانثى " ولم يستثن من هذه القاعدة الكونية والارادة القدريية - بعد آدم الذي خلق من غير أب وأم وحواء التي خلقت من آدم عليهما السلام - غير عيسى ابن مريم عليه السلام الذي خلق من طرف واحد فقط من بين ذرية آدم وحواء ، وهو من ام فقط، ولكن هذه الام نفسها من ذكر وانثى ، ولم يخرج عيسى عليه السلام ، من العموم السذى في كتاب الله تعالى من أن البشرية أصلها الثاني بعد التراب " الذكر والانثى " ، فما تشير إليه الآية هنا في قوله تعالى : إنا خلقناكم من ذكر وانثى " هو حقيقة المرحلة الثانية للانسانية والتي ربطت قدرة الله الخلاق العظيم بها ايجاد الانسان من العدم الى الوجود ، بسبب لقاء " ماء الرجل " و" ماء المرأة " في الرحم فنهما يخلق الولد جميعاً .^(١)

(١) انظر الطبرى ١٣٨ - ٢٦٦ ط ٢ سنة ١٣٧٣ هـ الطبعة الحلبية القاهرة.

وهذه هي وحدة البشرية في اصل نشأتها ومادتها .

وليس هذا للكائن البشرى فحسب ، بل للكائنات الحية كلها ، من كــــل الحيوانات في الأرض ، كلها تخلق بقدرة الخالق بسبب لقاء بين الذكر والانثى . وهاتان الكلمتان لهما كما في تفسير المفسرين معنيان يلتقيان في حقيقتهما ويهدفان الى نتيجة واحدة ، يخاطب الله بها البشرية جمعاء :

احدهما : من آدم وحواء .

ثانيهما : كل واحد منكم خلق من أب وأم .

فالاول : يدعو الى الا يتفاخر أحد على أحد ، لأن الجميع أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ،

والثاني : يستلزم أنهم من جنس واحد ، فكل واحد خلق ما خلق منه الآخر .^(١)

ولكن هذا الاختلاف في المراد بالذكر والانثى ، تضيفه وتحسمه آيتان أخريتان ، وتبينان بكل تحديد أن البشرية من نفس واحدة ، خلق منها زوجها ، وأن الله نشر البشرية منها ، ذكورها واناثها ، وهذه النفس الواحدة لا تكون غير آدم وزوجــــه حواء :

الآية الأولى قوله تعالى :

” يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .“^(٢)

(١) التفسير الكبير للرازي ١٣٧ - ٢٨

(٢) النساء الآية الاولى .

والآية الثانية :

" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَا لَعْنًا " أُنْتِنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ لَهُ شُرَكَاءَ " فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، " أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ " (١)

ان الايتين اوضح في تحديد المراد ، واعتبار آدم اصل البشرية من آية الحجرات ، فلم تتركنا فرصة ، لاختلاف المختلفين ، وتأويل المتأولين ، فقد اشارتا الى آدم بالنفس الواحدة ، وبالوصف الذي يقوم مقام التصريح بالاسم .

ونصت الايتان على خلق زوجه منه وهي " حواء " التي خلقت من ضلع آدم الایسر ، فوجدها في جانبه ، واعجبته فانس اليها وانست اليه (٢) ، ولم تقف الايتان عند هذا الحد من البيان والاشارة الى آدم وحواء ، بل نصت آية النساء زيادة في التوضيح على نشر الرجال والنساء منهما ، وما اجمل وابلغ كلمة " البت " في دلالتها على تدفق البشر من اصلهم الاصل الاول ، وانتشارهم في اقطار الدنيا وقد امتدوا وكثروا من النفسين الاوليين ، على اختلاف اصنافهم ، وصفاتهم والوانهم ولغاتهم والى بارئهم يعودون يوم المعاد . (٣)

(١) الايتان من سورة الاعراف ١٨٩-١٩١

(٢) وقد اخرج البخاري ما يشير الى هذا المعنى عن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خُلِقَتْ مِنْ ضَلْعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيْمُهُ كَسَسَتْ رَتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ")

الفتح ٣٦٢ و ٢٥٢ و ٢٥٣ ج ٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٨ ج ١ .

ولكن آية الاعراف لم تسلم من تأويل المتأولين حتى من المفسرين المتقدمين ، بسبب اقترانها بالاية التي بعدها وتلازمها في الاسلوب ، وفي الاية الاخيرة نص يشعر ان الزوجين اشركا لله تعالى ، وتحاشيا من نسبة الشرك الى نبي الله آدم وزوجه ، وقد تابا من ذنبيهما وهودون الشرك ، اول بعض المفسرين الاية بأن المراد بالنفس وزوجها كل زوجين مشركين من ذرية آدم ، والتشبيه المراد بها جنس الذكر والانثى (١) .

وقد حاول بعض المتأخرين ان يحمل الاية على ان المراد بها حواء دون آدم ، واجاب عن التشية بانها قد ترد في اللغة ويراد بها المفرد وقد ورد في القرآن (٢) واستدل بالأثر عن سمرة (٣) قال : لما حملت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث فعاش ذلك وكان ذلك من وحو الشيطان وامره (٤) فالحديث في حواء لا يتناول آدم وبعضه ظاهر القرآن من اطلاق العثنى واردة الواحد ، " والذهاب الى ما ذكرناه متعين تبعاً للكتاب وصونا لجانب النبوة عن الشرك " (٥)

وبعض هذا ما ذكره كثير من المفسرين من ان الشرك الذي حصل في قوله " جعلناه " انما هو شرك في التسمية لا في العبادة (٦) وكان اصحاب هذا التفسير

- (١) الطبري ١٤٨ ج ٩ وابن كثير ٢٧٤ - ٢٧٥ ج ٢ والرازي ٨٨ ج ٥٥ والقرطبي ٣٣٨ ج ٣ .
 (٢) كقوله تعالى : فلا جناح عليهما فيما افتدت به " وقوله : نسيا حوتهما " وقول الشاعر : قفا نيكى من ذكرى حبيب " توفي سنة ٥٨٨ أو سنة ٥٥٩ هـ : انظر في الاصابه ٧٨ سيرته بن جند رضى الله عنه من عطفان
 (٣) والاستعاب على قماش الاصابه ٧٧ ج ٢
 (٤) أخرجه الترمذى في سننه وقال : حديث حسن غريب : رقم ٢٠٧٧ ط ٢ سنة ١٣٩٥ الحلبيه
 (٥) صاحب فتح البيان صديق حسن خان ٤٧٥ - ٤٧٨ ج ٣

- (٦) الطبري ١٤٨ ج ٩ والرازي ٨٨ ج ١٥ والقرطبي ٣٣٨ ج ٧ .

لا يرون مانعا في ان يحصل هذا النوع من الشرك الاصغر من حواء ، ولكن يقال هل
يسمح آدم ؟ وهونبي الله بذلك . والشرك هذا شرك في الالهية لانه شرك ففسى
الطاعة لكنه شرك اصغر .

والقول المحمود في هذا - والله اعلم - هو ان المراد بالنفس الواحدة وزوجها
عند جميع المفسرين " آدم وحواء " واما ما يتعلق بالشرك فالمقصود به المشركون من
ذريتهما لبرائتهما من الشرك . كما هو القول الاول الذي ذكرنا وهذا ما ايسره
المحققون من المفسرين وهو ، وان المعنى بذلك آدم وحواء لاجماع الحجة من أهل
التأويل على ذلك " وان الخبر عن آدم وحواء انقطع عند قوله تعالى " جعلناه شركاء " (١)
وقد ذكر ابن كثير تفسير الحسن (٢) للاية راوى الحديث المذكور (٣) عن سمرة ، فيذكر
ان المراد بمن وقع منه الشرك ذرية آدم من اهل الطل (٤) ومن اشرك منهم بعده
واليهود والنصارى ، ثم يقول : وهذه اسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه
انه فسر الاية بذلك وهو من احسن التفاسير واولى ما حطت عليه الاية ، ولو كان هذا
الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره
ولا سيما مع تقواه لله وورعه ، فهذا يدل على انه موقوف على الصحابي ، ويحتمل انه
تلقاه من بعض اهل الكتاب من آمن منهم . . الا اننا برئنا من عهدة المرفوع ،

(١) تفسير الطبرى : ١٤٨ ج٩

(٢) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى كان أبوه من سبي ميسان بالعراق وهو مولى لزيد
بن ثابت الانصارى وانه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهو من سادات
التابعين وجمع كل فن ووزعه وعبادة وفصاحة توفي سنة ١١٠ هـ عن ٨٨ سنة . انظر ترجمته : في
الطبقات لابن سعد : ١٥٦ ج٨ ونذكره الحفاظ للذهبي : ٧١ رقم ٦٦ ج١ ووفيات الاعيان لابن
خلكان : ٦٩ ج٢ وميزان الاعتدال له : ٢٧٥ رقم ٩٦٨ ج١ وتهذيب التهذيب : ٢٦٣ ج٢ .

(٣) الحديث يقول فيه ابن كثير مظلوم من وجوه ثلاثة :

١ - عمر بن ابراهيم في سند الحديث هو البصرى قال فيه ابوجاتم : لا يحتج به .
٢ - جاء عن سمرة انه ليس مرفوعا كما عند ابن جرير .
٣ - يقسم الشهرستاني الاسم الى اهل الديانات والملل وهم المجوس واليهود والنصارى -
والمسلمون والى اهل الأهواء والنحل وهم الفلاسفة والدرهية والمائبة وعبدة الكواكب
والأوثان والبراهمة " الطل والنحل ١٢ ج١ ط ٢ سنة ١٣٩٥ هـ

ويقول : واما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا وانه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء^(١) وانا المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال تعالى : فتعالى الله عما يشركون^(٢) ثم قال : فذكر آدم وحواء اولا كالتوطئة لما بعدها من الوالدين وهو كلاستطراد من ذكر الشخص الى الجنس^(٣)

يقول ابن كثير : فالله تعالى انما خلق آدم وحواء ليكونا اصل البشر وليبيت منهما رجالا كثيرا ونساء ، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر فى هذا الحديث ان كان محفوظا ؟ والمظنون بل المقطوع به ان رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم خطأ ، والصواب وقفه . . ثم قد كان آدم وحواء اتقى الله ما ذكر عنهما فى هذا فان آدم ابوالبشر الذى خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، واسجد له ملائكته وطمه اسما كل شىء واسكنه جنته^(٤) .

وقد قرر العلامة ابن القيم ذلك فى كلامه على قوله تعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ^(٥) فبعد حديثه عن حالة القلب وتوكله على الله ، واستطراد الآية بعد ذلك الى انه لم يجعل زوجة الرجل أمه ولم يجعل دعيه ابنه فقال ابن القيم : فانظر ما احسن هذا التاصيل وهذا الاستطراد الذى تسجد له العقول والالباب وله نظائر فى القرآن عديدة فمنها " وذكر آية الاعراف التى معنا فقال : فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء ، واللذان جعللاه شركاء فيما اتاهما المشركون

(١) برید سياق الآیه الثانیة من سورة الاعراف : ١٩١

(٢) تفسير ابن كثير : ٢٧٤ ج ٢

(٣) البدايه والنهائيه لابن كثير : ١٦ ج ١

(٤) الآیه من سورة الأحزاب ٤

من اولادها ، ولا يلتفت الى غير ذلك ما قيل ان آدم وحواء لا يعيش لهما ولد
فأتاهما ابليس . . . (١)

قال ابن حزم (٢) : وهذا الذى نسبوه الى آدم من انه سمى ابنه عبد الحارث
خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ، ولم يصح سندها وانما نزلت
الاية فى المشركين (٣)

وقد اتضح ما سبق عرضه ان الاية الاولى المعنى بها آدم وحواء عند جميع
المفسرين ، وان الثانية التحقيق فيها ذرية آدم من اشرك . . . والذين يرون انها
فى آدم وحواء يقولون ان هذا الشرك مجرد التسمية لم يكن كما يقصد ابليس شرك
فى العبودية " وهو محمل حسن يبين ان ما وقع من الابوين من تسميتهما ابنيهما عبد
الحارث انما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده ، لغير الله " (٤)

واما المحدثون من المفسرين ، فكثير منهم يروقه القول الذى يزعم انه ليس فى
الآية ما يدل على ان المراد بالنفس الواحد آدم وزوجه ، بل ان كثيرا منهم فى
احتفائهم هذا لا يستندون الى دليل ولا يذكرون غير رأيهم هذا وكأنه لا شئ
سواه . (٥)

وكان تأويل هؤلاء الذين لا يراعون النهج العلمى ، والامانة العلمية ،

(١) روضة المحبين لابن القيم ٢٨٨-٢٨٩ مطبعة الفجالة سنة ١٣١٣ هـ القاهرة .

(٢) ترجمته ص ٩٤ .

(٣) الفصل فى الملل والاهواء والنحل ٣٢ ج٤ المجلد ٢

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن حسن آل الشيخ ٤٥٧

(٥) انظر تفسير المراغى ١٧٥-١٧٧ ج٤ ، ١٢٧-١٢٨ ج١

والتفسير الحديث لمحمد عزه د روزه ١٩٦-١٩٧ ج٢

وتفسير القاسمى ١٤١ ج٩ ط٤ سنة ١٣٨٩ هـ

ومع الانبياء فى القرآن الكريم لعفيف عبد الفتاح طبار ٣١ ط٤

ويفرطون في المنهج العقلي ، كان هذا التأويل من المتوقع منه الا يتعرض لاية النساء
 لانها في غاية الوضوح ، في اسلوبها وتفصيلها وتقسيمها ، وليس فيها شبهة لا لغوية
 ولا عقائدية ولا عقلية ، تدعو الى تحريفها وصرفها عن معناها الواضح الظاهر، الذي
 اتفق عليه جمهور المفسرين المعتبرين ولا احدهم غيرهم وهو ان المراد بالنفس وزوجها
 " آدم وحواء " لا غير ، ولكن هؤلاء العقلانيين ابوا الاخلاف ذلك ، ظانين ان الخوض
 في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والحرص على تضاربها بما في الظنون
 البشرية ، ظنوا ذلك هو الدلالة على الوعى والثقافة وسعة العلم . . . ! ! فقد أولسوا
 آية النساء بأنه ليس فيها دليل على ان آدم اصل البشر ، وانه هو المراد بالنفس . .
 واذا كان الامر كذلك بالنسبة لاية النساء ، فأية الاعراف وآية الحجرات من باب اولس
 الا تدلا على آدم وزوجه عند هؤلاء العقلانيين .

نظرية المتشككين في وحدة أصل البشرية :

وقد فاجأ صاحب " المنار " في تفسيره ذلك الاجماع الذي تواطات عليه الامة الاسلامية بان اصل البشر جميعا آدم عليه السلام وان الانسانية اسرة في الاصل واحد ، فاجأ هذا الاجماع بما يناقضه ويخالفه ويشكك فيه ، وخرق بذلك الاتفاق بين المفسرين في ان المقصود بالنفس وزوجها ، والذكر والانثى " آدم وحواء " فقرر صاحب " المنار " عن شيخه محمد عبده ^(١) مقلدا له بلا دليل او مشاركا له في تقليد بعض المستشرقين والافرنج الذين خرقوا اجماع امة الدعوة والامم قبلها في ان البشرية من اصل واحد ، فيذكر صاحب المنار عن شيخه : ان الآيات الواردة في هـذـه الحقيقة لا تدل على ذلك ، لا بالنص ولا بالظاهر ، وخلاصة ما ذكره كما يلي :

- ١- ليس في القرآن نص اصولي قاطع على ان جميع البشر من آدم .
- ٢- ليس في القرآن ما ينفي هذا الاعتقاد ، ولا ما يشبهه اثباتا قاطعا لا يحتمل التأويل .
- ٣- البحث العلمي والتاريخي معارض لذلك .
- ٤- انه قال في الآية ^(٢) : رجالا ونساء " ولم يقل الرجال والنساء " .
- ٥- الخطاب اذا كان لامة الدعوة عامة ، فكل امة من الامم تفهم من هذا الخطاب ما تعتقده ، فالذين يعتقدون ان جميع البشر من سلالة آدم ، يفهمون ان المراد بالنفس الواحدة آدم ، والذين يعتقدون ان لكل صنف من البشر ابا يحطون النفس على ما يعتقدون .

(١) الشيخ محمد بن عبده بن حسن بن خيرالله ولد سنة ١٢٦٦ هـ من أبرز المفكرين المصريين في العصر الحديث وقد كان نائرا على البدع وخرافات مشايخ الأزهر ولكنه عقلاني في التفسير والتفكير، وله كتابات منها رسالته في التوحيد، وهي لا تزيد عما هو معروف من عقيدة — الاشارة الا أنه كتبها بأسلوب أدبي لا بأساليب المتكلم وتوفي سنة ١٣٢٣ هـ. للشيخ محمد رشيد هنا كتاب وتاريخ الامام ترجم فيه لشيخه محمد عبده. و الاعلام للزركلي: ١٢١/٦

(٢) الآية الاولى من النساء

- ٦- لا يمكن ان تكون " النفس " معهودة لانها غير معروفة لجميع الشعوب لان من الناس من لا يعرف آدم وحواء .
- ٧- النسب المعروف عند ذرية نوح من العبرانيين ، والعلم وآثار البشر يطعن فسى تاريخ العبرانيين ، ونحن المسلمين لا نصدق اليهود .
- ٨- اهل الصين ينسبون البشر الى اب اخر ويذهبون الى زمن ابعد من الزمن الذى ذهب اليه العبرانيون .
- ٩- اننا لا نستدل على ما وراء " مداركات الحس الا بالوحى الذى جان نبينا ، ونقف عند هذا الحد .
- ١٠- وقد ابهم الله هذه النفس وامرها .
- ١١- فاذا ثبت ما يقوله الافرنج من ان لكل صنف من الناس ابا كان ذلك غير وارد على كتابنا كما يرد على كتابهم التوراة لما فيه من التصريح بذلك ما جعل الباحثين يطعنون فيه وانه ليس من الله .
- ١٢- ما ورد من مخاطبة الناس بقوله " يا بنى آدم " لا ينافى هذا ولا يعد نصا قاطعا في كون جميع البشر من ابناك . (١)

(٤)

وقد شعر صاحب المنار ان شيخه وقع في مأزق ، وذهب به التفريط العقلانى ،

(١) تفسير المنار لمحمد رضا ٢٢٢-٢٢٦ ط ٤ ص ٣ بتصرف .
 (٢) وهو محمد بن عبد بن عبد بن علي بن علي ولد سنة ٤٤٠ هـ صاحب مجلة المنار التي اظهرت في ٢٤ " مجلد او احدث حال الرتبة
 الاصلاحية بحصر النقادها محمد بن عبد بن علي الذي اذعان في بداية التمهيد وهو سنة ١٢٠٥ هـ
 الشيخ محمد بن عبد بن عبد بن علي باحثا ومؤلفا وكتابا . من الرند والجزيرة واوربايوني سنة ١٢٠٥ هـ
 انظر في مجلة من الاعلام للزكي: ٢٦١-٢٦٢ ص ٦٦٠ وما عبر علماء نجد وغيرهم
 لعبد الطيف آل الشيخ: ٤٨٦-٤٩٦ .

فأراد ان يعتذر عنه ، ويدافع عنه ، والتمس له عذرا ، ولكنه لم يأت بشيء غـسـير
التخمين العقلي ، الذي قلد فيه الشيخ محمد رضا شيخه محمد عبده . وخلصـة
ما اعتذر به كالتالى :

- ١- انه يقول : لا ثبت اثباتا قطعيا ولا يريد ان القرآن ينافى هذا الاعتقاد وهو
ان آدم ابوالبشر كلهم .
- ٢- انما يرى ان ما ذهب اليه الباحثون فى العلوم واثار البشر وعاداتهم، والحيوانات
من ان للبشر عدة اصول ، ومن ان آدم ليس هو الاصل وحده قديما وحديثا ،
هذا لا ينافى القرآن ولا يناقضه .
- ٣- ويمكن لمؤمن ان يستدل بذلك بان القرآن وحى وليس من عند محمد لانه لو
كان منه لما خلا من نص قاطع يزيد الاعتقاد الشائع من اهل الكتاب فى ذلك .
- ٤- ويميل الى ان المراد بالنفس الحقيقية " الانسانية " سواء بدئت بآدم ام بغيره
فالانسانية مناط الوحدة . (١)

ان هذا الاعتذار من التلميذ للشيخ ما هو الا تقرير ما قرره وثبته عن شيخه والا
فهل يظن الشيخ محمد رضا ان الناس لا يفهمون ذلك فيترجمه لهم ، كلابل هو
يدرك ان اسلوب التلفيق فى كتاب الله تعالى والتلاعب بعقيدة الامة السليمة ، لا يقبله
العلماء ، ولا يستسلم له الباحثون ، فجعل يحاول ان يقنع برأى الشيخ ، وهو يعلم

(١) تفسير المنار بتصريف ٣٢٦-٣٢٧ ح ٤

انه يخلو من كل حجة نقلية وعقلية ، وظن تكرار عبارات شيخه شيئا غير التقليد الذي ذهب بهما الى تقليد الدارونيين الذين انصرفوا عما تواطت عليه الامم وجاء به الوحي من ان آدم هو اصل البشر .

ان هذا الاتجاه الجديد في تفسير كتاب الله تعالى ، لا يقتصر على هذه النظرية الفاسدة وحدها فقط ، بل ان هؤلاء ارخوا العنان لعقولهم ، في حمل كتاب الله تعالى على ما يشاؤون . . . وخلطوا ما جاء من عند الله بما عند عقولهم القاصرة ، وما يفكر به الذين لا يؤمنون بكتاب الله تعالى ، وخاصة ما يتعلق بالغيبيات او ما يسمونه " عالم الغيب دون عالم الشهادة " فقد وجدوا فرصة للخوض في ذلك ، وهي احترام المسلمين لكتاب الله ، في طرق تفسيره ومراحل التعرض لبيانه التي آخرها التفسير بالرأى الذي لا يتعارض مع حقائق اخرى جاء بها الوحي ولا يطعن فيما ثبت ناصا واجماعا وقياسا .^(١) وفتح هؤلاء الباب على مصراعيه بالنسبة للغيبيات تعرضا لايمان المؤمنين بالغيبيات دون فحص وشك .

كان هذا التشكيك وصل الى درجة الخوض في الوحدة الانسانية في منشأها واصلها لعلمهم بان ذلك حقيقة ومرحلة بينى عليها القرآن دعوته للوحدة في العقيدة ، واتخاذ التقوى معيارا للتفاضل وان كانوا شعوبا وقبائل .

ولرد هذه النظرية ومناقشة اصحابها عقليا ونقليا وعلميا . نقابلها اولا بالعقل

(١) أنظر مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية ٩٣-١١٥^٥

لنعرف تهافت تلك الادلة الخرقاء ، ثم ربط هذه النظرية بالمؤثر الذي تأثرت به
والنوع الذي تروت منه وهو " الدارونية " ثم نعود الى الكتاب العزيز والمــــنة
الطاهرة ، للبحث عن العنصر الذي خلق منه الانسان الاول وصحة نسبة البشرية
اليه جميعا ، ونخلص من ذلك كله الى الوحدة البشرية في المنشأ كما اثبتنا سابقا وحدة
الخالق .

• الادلة العقلية في رد هذه النظرية •

• اذا لم يكن في القرآن نص قاطع كما يقولون على نسبة البشرية الى آدم ، فهل فيه نص آخر يعارض هذه النسبة ؟ وهل في العقل ما يمنع هذه النسبة ولو ظنا ؟!

• البحث العلمي والتاريخي بعد ثبوت علميته ونزاهة منهجه هل ادلته تقوى على رد الدليل المنقول ، وسأبين ان الحفريات الدارونية ، ليست بحثا علميا ولا تاريخيا ان شاء الله .

١- اما تعبير آية النساء بـ " رجالا ونساء " دون الرجال والنساء " فليس فيه ما يدل على ان ذلك لا يفيد العموم لان النكرة في حد ذاتها اذا لم تكن مقصودة فهي تخمد العموم وليس في الآية ولا في اللفظ ما يخصص هذه الصيغة " رجالا ونساء " باحد دون احد من الرجال والنساء ، وهي على وزن " فعال " من صيغ جموع الكثرة ، ولو عبر بالتعريف " الرجال والنساء " لجاز ان يتطرق احتمال الى " ال " وهوانها للمعهد الذهني وليس استلزاما لاستفراق الجنس فيكون المراد " الرجال والنساء " الذين ولد لهم آدم وحواء مباشرة ، أو المعروفون لدى المخاطبين .

والتعريف يستلزم كونها شبوتين من نفسها من جهة اخرى " ثم ان هذا البعث معناه محمول على ظاهره عند من يرى ان جميع الاشخاص البشرية كانوا كالذر مجتمعين في صلب آدم ، واما عند من ينكر ، ذلك فالمراد انه بث منها ومن اولادها جمعا آخرين وهلم جرا فاضيف الكل اليهما على سبيل المجاز " (١)

(١) انظر غرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ١٦٥ هـ ، ٤ ، والتفسير الكبير للرازي ١٦٢ هـ ، ٩ .

اما هذا الخطاب " يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " او " انا خلقناكم من ذكر وانثى " لا شك انه لأمة الدعوة عامة ، ولكنه لا يعنى هذا أن الصواب في هدف الخطاب هو ما تعتقده كل امة بل الصواب هو ما كان حقيقة عند الله سبحانه وتعالى سواء اعتقده الناس ام لم يعتقدوه ، والخطاب جاء لهذا الغرض لا ليقرر للناس ما يعتقدونه لان ذلك تحصيل الحاصل ، بل انه يأتي في غالب امره ليثبت الصواب من الخطأ ان كان هناك تردد بينهما أو هناك فريقان ، فريق مع الخطأ وفريق مع الصواب ، فان كانت أمة الدعوة مترددة في جملتها أو بعضها متردد أو هي فريقان ، فقد جاء الخطاب ليثبت الصواب وهو ان الناس ذرية لآدم عليه السلام ، وان كانت هذه الحقيقة تجهلها الأمم فقد جاء الخطاب معلما البشرية من اين تناسلت وتفرعت وتكاثرت كذلك ، ولم يأت بغير ذلك فليكن هو الصواب ، وخلافه مالم يأت به . . . ثم جهل الانسان لاصوله او لابيه هل ينفيه عنه ؟ ! وهل تنبيه أو دعواه اصولا او أبا غير ما كان حقيقة يثبت له ذلك " مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ " (١)

" أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ " (٢) ثم ان دعوى أن الام تعتقد غير هذا دعوى كاذبة مطفقة مصنوعة عن الام ، لانها لا تشك في أنها من أصل واحد وهم يدركون الأخوة الإنسانية، وإنما وجد شوان من الأمم أشكل عليهم النشأة الاولى للإنسانية . . . ! !

(١) الآية من سورة المجادلة ٢

(٢) الآية من سورة الاحزاب ٥ .

والاشكال هذا انما يعود الى شيئين :

الاول : ان هؤلاء الشواذ لم يتقيدوا بالوحي الذي كان ولا يزال فيصلا في الاجابة عن هذه القضية ونحوها .

الثاني : انهم تطرفوا وخرجوا عن الاجماع البشرى مخالفين ما تواتر لدى الامم جميعا .
علوان هؤلاء كان وجودهم معاصرا لوجود اولئك المفسرين العقلانيين أو قبلهم بقليل .

٣- ودعوى ان هذه النفس غير معبودة ، ليس بحجة ، لان المقصود تقرير ما يعتقد الغالب من الامم ان لم يكونوا جميعا ، انهم تكاثروا من اصل واحد وان جهلوا اوصافه وطبيعة حياته ، واعترف الجميع فردا فردا كذلك لا يلزم وخاصة في القضايا المسئلة ، والذاهلون عن المعهودات والحقائق التي تواطأت عليها البشرية ليسوا بحجة . . والا فالهيف هؤلاء المفسرون وجود الخالق لان من البشر من تردد فيه وعاند وغالط . (١)

٤- اما اعتقاد ان البشرية كلها من آدم مصدره وسنده لكل من يعتقد هم اليهود فمحض الافتراء والتلفيق :- لان الثابت ان العقائد الفاسدة مصدرها اليهود كنظرية دارون ، بل في تلمودهم افكار كثيرة تزعم غير هذا الذي خصص لهم وحدهم ، كدعواهم انهم هم وحدهم من نطفة آدم وغيرهم من نطفة الحمار . وكاعتقادهم

انهم شعب الله المختار دون العالم .
ولو يعلم اليهود اصولا غير آدم للبشرية للام لما فرطوا فونسبة غيرهم اليها ،
ليبقى لهم آدم وحدهم وتتحقق دعواهم من انهم المختارون ، وان الانسانية
لهم وحدهم . . . ! فاذا ثبت لديهم ان البشرية بجمعها اصل واحد بهم
فهذا هو الدليل على وحدة الاصل لان الحق ما شهد به الاعداء . . . !

ان قصة الاخذ عن اهل الكتاب وعده كثيرا ما يروج بها باطل ويرد بها
حق . . . بمعنى ان كل من اراد ان يرد حقيقة ثابتة في عقيدة المسلمــــــــــــــــين
وشريعتهم قال : هذا من الاسرائليات " ومن اراد ان يروج باطلا يزعم ان
دليله مخالفة اهل الكتاب متذرا بما جاء من الاخبار في مخالفتهم وان لم يكن
في صدور ما يخالفون فيه . . . ! وسأله محمد عبده وامثاله من الدارونيين ،
والمفرقين للبشرية التي جعلها الله من اصل واحد من هذا النوع من الادعاء
والتذرع ، وهو حق يراد به باطل . . . !

غير ان ما جاء عن اهل الكتاب لم تتركه شريعتنا بدون تفصيل ، ولم ينســــــــــــــــه
علما ونا الاجلاء في منهجهم الامين دون تميز وتحقيق . وقد جاء في الحديث:
إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَا تَصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ (١) فما هو الذي لا نصدقهم
فيه ولا نكذبهم هل هذا مطلق فيما يقولون او مقيد بشيء خاص مما يرون ويقولون
. . . ؟ ؟ ! يقول الحافظ ابن كثير :

(١) رواه أبو داود رقم ٣٦٤٤ ج ٣ في كتاب العلم . ويقول ابن كثير: وقد صح الحديث
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره التفسير: ٢٧٥ ج ٢

ثم اخبارهم على ثلاثة اقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله .

ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة ايضا ،
ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام " حَدَّثُوا عَنِّ^ب
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ " (١) وهو الذي لا يصدق ولا يكذب " (٢) ،
ومعنى الحديث عنهم بلا حرج " الحديث عنهم بما يخبرون به عن انفسهم
وقصصهم لا بما يخبرون به عن غيرهم ، لان اخبارهم عن غيرهم مفتقرة الى العدالة
والثبوت الى منتهى الخبر ، وما يخبرون به عن انفسهم يكون من باب اقرار المرء
على نفسه او قومه فهو اعلم بذلك " (٣) .

٥- كان من المتوقع اذا شك باحث مسلم في رواية اهل الكتاب الذين لهم اصل
الكتاب ورد اخبارهم ، من المتوقع ان يشك في اخبار الوثنيين كالصنيين ، ولا
يحتج بها ، بل يرفضها أكثر من غيرها بل هذا هو الموافق لمنهجنا نحن المسلمين
هذا بالاضافة الى أن أهل الصين نسبوا البشر الى أب ، فليكن هذا الأب ، هو عين
الأب الذي نسب اليه بنوا اسرائيل وان اختلفوا في التسمية أو الزمن . . .

٦- ولا شك ان اعتقادنا بان آدم اصل البشرية لا يستند الا على الوحي والتشكيك
في هذا واقحامه في النظريات الوثنية والاحادية هو الاعتماد على غير الوحي ...!!

(١) رواه البخارى في كتاب بدء الخلق باب ما ذكر عن بني اسرائيل .

(٢) التفسير ٢٧٥ هـ ٢

(٣) احكام القرآن لابن العربي ٢٣ هـ ١ ط ١ منه ١٣٧٦ هـ الحلبيه بالقاهرة .

٧- وهذه النفس وزوجها ليست بجهمة ، فاسمها معروف في القرآن " آدم " وعصر خلقها كذلك وخصصت باوصاف وخصائص ما جعلها تتميز . . . واذ ايههم امرها ولم يفصح عنها الوحي فهل العفريات والنظريات الوثنية والدارونية تكشف عن حقيقة ذلك . . . !!؟

٨- وكيف يثبت ما يقوله الافرنج ويتوقع ثبوته وما يقوله الوحي يشك فيه ويرد بل ويحاول ان يرد الى احاديث اهل الكتاب التي لا تكذب ولا تصدق ، وما حجة الافرنج وهل يعتمدون على وحي اقوى واثبت من الوحي الذي عندنا ، وهل المسألة خرجت من كونها وراء الحس الى كونها حسا . . . !!؟!!؟!!

٩- ان طعن الباحثين من الافرنج في كتابنا " القرآن " لا ينقصه شيئا وهم طاعون لانهم كافرون به وموافقهم اياه لا تزيد له شيئا ، وليس معنى مخالفة الباحثين للتوراة المحرفة ليس معناه انهم على حق وان ذلك يقربهم الى القرآن . بل هم كفروا بالتوراة وبالقرآن معا .

١٠- ومخاطبة البشرية بهذا النداء " يا بني آدم " اذا لم تعتبرها نصا مع وضوح كلمة بني وكلمة آدم فما هو النص القاطع ، واين ما يضعه ان يكون نصا او يصرفه عن الدلالة . . . !!؟

(١)
" النظرية الدارونية "

ان تلك الادلة الباهتة ، التي اسندت الى الشيخ محمد عبده ، ليست حججا وانما هي اوهام اذا نوقشت فانها تهدم نفسها بنفسها ، وكلها تدور حول النظرية المبتدعة القائلة : ان للبشر اصولا غير آدم ، ومتأثرة بنظرية النشوء والارتقاء ، التي خرج بها الماديون شاذين عن الفطرة البشرية . وما ارى نظرية الشيخ " محمد عبده " وتلميذه " محمد رضا " الا تقليدا لهذه المادية الجاحدة ، وتخميننا عقلانيا ، الذي عرفت به المدرسة العقلية في التفسير والتي من زعمائها في العصر الحديث الشيخ محمد عبده وأتباعه من بعد . (٢)

واذا لم يكن لهؤلاء مصدر ، يستندون اليه ولا اصل يرجعون اليه ، ما هو معقول لدى العقلاء ومعتبر لدى الباحثين ، مهما كان حظهم من المنهج العلمي ، وبدأت دعواهم قوية ، فلا بد انهم يعتمدون على خرافة من الاساطير ، التي لا اصل لها ، غير ترويج الباطل ، ولبلة العقل البشري وزعزعت العقائد ، واحداث الغوضى في المناهج المعقولة ، والفطر النظيفة ، حتى ولو كان ذلك غير مقبول .

وهذه المهمة الشيطانية ، اشهر من عرف بالقيام بها ، وفرسان اساطيرها هم اليهود ، في تاريخ البشرية كله ، الذين اتخذوا من انفسهم دعاة لضلالتها ، ومن عقولهم اداة لتخريب البشرية بها ، فما تذكر خرافة ولا مذهب هدام الا والمعهود

(١) نسبة الى داروين وهو شارل روبرت داروين الطبيعي الانجليزي المشهور ولد سنة ١٨٠٩ وتوفى سنة ١٨٨٢م - دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى : ٢٩ ج ٤ ، والموسوعة العربية الميسرة : ٧٧٤ ج ١

(٢) هذه المدرسة تفسد في الفكر الاسلامي ومنهجه كما كان سلفها المعتزلة واضرابهم من المتكلمين والصوفية .

لذلك الفكر اليهودي بل هم المعلومون في ريادة نشر الضلال . (١)

ان الاختلاف قائم بين الطوائف البشرية في كل مجتمعاتها ، حول قضايا الاخلاق ولا شك . . غير ان الابتعاد عن الدين ، او النفور منه ، او الاكتفاء باهماله ، والانصراف عنه ، كان ذلك الحين ، مراجا شخصيا لاصحابه ، يضعونه لحسابهم الخاص ، وقامت الفوارق بين الناس في قواعد الاخلاق وغيرها .

ولكن اليهود الثلاثة "ماركس وفرويد ودركايم" (٢) تدخلوا في كل شيء من ذلك ليفسدوه باسم العلم في نظر الجماهير ، فلا يكون الامر شخصيا ، يعتذر الانسان عنه ، ويتلمس لنفسه الاعذار ، وانا هو واجب يدعو اليه التقدم العلمي فهو يبرر نفسه لنفسه ، بل ان الذي يحتاج الى العذر والتبرير ، التمسك بالدين والاخلاق لان ذلك تهمة في نظر هؤلاء . . ! ذلك هو الدور الذي قام به اولئك الشياطين الثلاثة : "ماركس وفرويد ودركايم" كل في اختصاصه ، ماركس في النظرية الاقتصادية وفرويد في علم النفس ، ودركايم في علم الاجتماع ، وهم يلتقون في النتيجة ، وقد اخذ هؤلاء جميعا في بداية الامر بالنظرية الدارونية ، التي كانت فكرتها حيوانية الانسان وماديته ، فوسعوها ودعوا ايحائها المسمومة في كل الاتجاهات . (٣)

-
- (١) بروتوكولات بني صهيون تقدم نماذج لهذا .
 (٢) ماركس: كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣م - يهودي الماني توفي بلندن صاحب النظرية ولم يكن في الأصل فيلسوفا بل اجتماعي واقتصادي . الموسوعه العربيه ١٦١٥ ج٢
 ودركايم اميل (١٨٥٨-١٩١٧م) رائد علماء الاجتماع الفرنسيين كان أستاذا بجامعة السربون تأثر بفلسفة كونت الوضعيه : الموسوعه العربيه المسيره : ١٦٦ ج١
 فرويد سيجموند : طبيب نساوي مؤسس مدرسة التحليل النفسي كان متشائما . المرجع السابق ١٢٩٧ ج٢
 (٣) التطور والثبات في حياة البشر لمحمد قطب ٣٥-٣٧ ط سنة ١٣٩٤ هـ دار الشروق الانسان بين المادية والاسلام لمحمد قطب ٢٤-٢٧ ، ٦٣ وما بعدها ط سنة ١٣٨٨ هـ ،
 ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي ١٨٩-١٩١ ط سنة ١٣٧٨ هـ .

وما اظن الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من المنتسبين للاسلام ولا يستحيون من الله في التعرض لكتابه العزيز بعقولهم المقعدة لاعداء الله ، لا اظنهم يعمدون غير دور اليهود الثلاثة ومن تبعهم واقتفى اثرهم . . والذين يشكون في وحدة اصل البشرية ويزعمون اصولا متباينة ، او نظرية التطور الدارونية ، هؤلاء ما هم الا هاجس من هواجس الدارونية في خرافته واسطوره التي كانت قاصمة ظهر في المنهج العلمي ووصمة عار في كرامة الانسان . وتحد لكتاب الله واخبار رسوله صلى الله عليه وسلم واخبار الرسل من قبله وفكر المؤمنين الصالحين وعقائدهم في كل زمان ومكان .

ان هذه النظرية ما كانت موجودة ، ولا سائدة بين المنحرفين عقليا من بني البشر الذي تراودهم الشكوك حتى جاء داروين فابتدع النظرية القائلة بالنشوء البطيء ، وقبلها يسود رأى عند بعض هؤلاء الملحددين وهو انقراض المخلوقات في الماضي وايجاد انواع جديدة ، فدفع النظرية دفعة قوية . عندما اصدر كتابه ^(١) وصنف كتابا آخر ^(٢) في القرن التاسع عشر وفيه نشأت هذه النظرية . ^(٣)

وخلاصة هذه النظرية أربعة نوايس :

- ١- ناموس تنازع البقاء .
- ٢- ناموس التباينات بين الافراد .
- ٣- ناموس التباينات بالارث .
- ٤- ناموس الانتخاب الطبيعي للفرد الحي الذي تتحقق فيه الافضية على

(١) اصل الانواع سنة ١٨٥٩ م .
 (٢) تسلسل الانسان سنة ١٨٧١ م .
 (٣) انظر قصة الايمان لنديم الجسر ١٨٤-١٨٥ ط ٣ سنة ١٣٨٩ هـ المكتسب الاسلامي ، بيروت .
 وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي ١٩١ ط

سواء بحكم النواميس الثلاثة الاولى . (١)

هذه النظرية تلقفها انصارها ، وحثوا لها عن ادلة تؤيد ما تخرص به عقل دارون المعنف ، فزعموا ان الشبه الذى بين الانسان وبعض الحيوانات كالقروود دليل على ان الانسان اصله هذه القروود ، اوانه والغرد من اصل واحد . . . ففضفوا الانسان من جملة الحيوانات " الفقارية " ثم " الليونية " (٢) واقرب شبه بالانسان من هذه الحيوانات القردة العليا كما يسمونها . . . ! . . . وهى عديمة الذيل ، ومن ادلتهم ان معظم الرئيسات الموجودة من الحيوانات تتخذ من الاشجار سكنا ، وكذلك كان الانسان ، كان يسكن الاشجار ، وتركيب ذراع الانسان وكتفه دليل على ذلك ، ويده ذات الحركة المرنة ، واصابع قدمه التى كانت سابقا عضوا يقبض به على الاشياء . (٣) وشجعهم على زعمهم هذا ، ان الانسان والقرد يشتهبان فى بعض الاعضاء وفى بعض الطبائع كالحيض والاحساسات التى يلاحظونها لدى الحيوانات كالفرح والحزن ونحو ذلك ، مما لا يخلو منه كائن حي . (٤)

وقد لجأ هؤلاء الماديون الى وسيلة اخرى لاثبات نظريتهم ، وهى الحفريات التى شملت كثيرا من المواقع فى قارات العالم المختلفة هذه الحفريات يقوم بها الاثريون من هؤلاء ، ولم يجدوا غير قطع من العظام البالية ، التى لا تتميز لاي حيوان الا بحدس وتخمين بعيدين عن المنهج العلمى .

(١) السابقان : الأول : قصة الايمان ١٨٥-١٨٦ ، والثاني ماذا خسرت العالم : ١٩٢ والرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الاسلاميه وحقيقة الشريعة المحمدية لحسن محمد الجسر الطرابلس ٢٢٩-٢٣٠ و٢٣٢-٢٥٤ ط سنة ١٣٥٢ هـ ، المطبعة المنيرية . والانسان فى ظلال الايمان للدكتور عمارة نجيب ٢٨ ط سنة ١٩٧٦ ، دائرة معارف القرن العشرين : ٢٩-٣٠ ج٤ والموسوعة العربية : ٧٧٤-٧٧٥ ج١

(٢) حيوان فقارى وتصنف شعبة الفقاريات من شعبة الحلييات الى خمس طوائف : الاسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات والفقاريات هيكل داخلي من العظم أو الغضروف ، وحبل شوكة ومنح محفوظ داخل غلبة نظيمه وهي القحف انظر الموسوعة الثقافية : ٧٢٠

(٣) دراسة الانسان لرالف لنستون ترجمة عبد الملك الناشف ١٧-٢١ ط سنة ١٩٦٤ م - المكتبة العصرية - بيروت .

(٤) قصة الايمان لنديم الجسر ١٨٩ .

فلم تقف محاولاتهم عند الوهم العقلي ، بل تجاوزت ذلك الى بحث متواصل للبرهنة على ما زعموه من الباطل وشدوا به ، فقد حيرهم كيفية الانتقال من الفروق الحيوانية الى الصفات الانسانية الاخيرة ، فهم يتصورون انه لا يمكن ان يكون فجأة ، لانه غير معقول . لوجود الفارق الكبير بين الاثنين ولكنه بالتدرج ، وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات الارض ، فلم يجدوا لها اثرا ولم يتمكنوا حتى اليوم من البت فيها برأى قاطع ، وراجح فبقيت موضع شك عظيم .^(١) وستبقى الى اليوم الذي يبعثهم الله فيه ، هم والقرود فيقول للحيوانات : كونى ترابا^(٢) فيتمنى الدارونيون ان يقال لهم كذلك ولكنهم هيهات لما يمتنون ، وعندها سيعلمون عين اليقين انهم لا يجمعهم نسب بالقرود ولا بغيرها من الحيوانات والله المستعان .

تلك مفتريات على الله سبحانه وتعالى اولا ، الذي اخبر في كتبه السماوية بالعنصر الذي خلق منه الانسان الاول- اصل البشرية آدم - وطبع خلقه من الناس على هـذـه الفطرة . ثم مفتريات على النوع البشري الذي اكرمه الله من بين سائر المخلوقات ، ومنحه مالم يمنحه لغيره من المخلوقات في الارض . ثم افتراء وتجنس على المنهج العلمي الذي لا يبنى على تخربات واوهام شاذة ، صادرة عن عقليات ، تحب الانفراد بالقول ، وتعشق الفساد ، وتحاول ان تغالط البشر باسم البحث العلمي والحقيقة التاريخية . . . !!

(١) قصة الايمان لنديم الجسر ١٩٠

(٢) يقول المحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى في آخر سورة النبأ "بالميتني كنت ترابا" يقول : وقيل انما يود ذلك الكافر حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجوز حتى انه ليقض للشاه الجما من القرنا فاذا فرغ من الحكم بينها قال لها كونى ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر "بالميتني كنت ترابا" أى كنت حيوانا فأرجع الى التراب" التفسير لابن كثير : ٤٦٦ ج٤

أصل الانسان الاول * آدم *

ان غاية الله في القرآن بالانسان الاول شاملة وظاهرة ، لكلا يضل الناس عن بدايتهم ، فهذه هي العناصر التي خلق منها الانسان الاول وهو آدم * واضحة ولا تحتل التأويل ، ولا يسع اى مسلم يومن بالله تعالى ، ويوحيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ان ينكرها . فقد جاءت آيات من كتاب الله تعالى مفصلة وموضحة هذه العناصر التي خلق منها وكون الانسان الاول ، فذكر الله في القرآن : الطين (١) وانه خلق منه آدم ، (٢) ونسب ذريته * البشرية * الى الطين كذلك (٣) والمراد آدم .

(١) الطين : الوحل واحده طينة . ويوم طان : كثير الطين . وارض طانة كثيرة الطين . والطينة قطعة من الطين يختم بها الصك ونحوه . وطان العائط والبيت والسطح : طلاه بالطين . والطيان صانع الطين ، وحرفته الطيانسة . والطينة : الخلقة والجيله * لسان العرب مادة طون .

(٢) وقد ورد في القرآن الايات التالية :

قال تعالى : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ *
سورة السجدة : ٧

وقال تعالى : إِذَا قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *
سورة ص : ٧١

وقال تعالى : قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *
سورة ص : ٧٦

قال تعالى : قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *
سورة الاعراف : ١٢

قال تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * سورة الاسراء : ٦١

(٣) كما في الايات التالية :

قال تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ سَمِيٌّ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * سورة الانعام : ٢

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * سورة المؤمنون : ١٢

قال تعالى : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِنْ خَلْقًا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ *
سورة الصافات : ١١

وذكر الله في القرآن الكريم عن خلق آدم مستعملا اوصافا اخرى ، لذلك العنصر وهو التراب^(١) . فذكر الصلصال والحمأ السنون^(٢) ، سواء كان ذلك في خلُق آدم نفسه او في نسبة البشرية اليه بواسطة ، نسبتهم الى العنصر الذي خلق منه آدم عليه السلام .

(١) التراب : جمعه اترية وتربان ، والطائفة من ذلك : تربة وتراية : يقال ارض طيبة التربة اى خلقة ترابها . والترباة نفس الارض . واطرب الشيء وضع عليه التراب فترتب اى تلطخ بالتراب وترتب فلان تتربيا اذا تلوث بالتراب . وتربست فلانه الاهاب لتصلحه وتربت السقاء . وترب بالكسر كثير التراب . واطرب : استغنى وكثر ماله ، فصار كالتراب . والتربيب كثرة المال . والمتربة : المسكنة والفاقة ومسكين ذو متربة لاصق بالتراب . لسان العرب مادة " ترب "

واما ما ورد في كلمة التراب في القرآن عنصرا الذي خلق منه آدم :
 " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ "
 سورة آل عمران ٥٨

وقوله في نسبة ذرية آدم الى التراب استنادا الى الاصل آدم :
 " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْعِ فَأَنَا خَلَاقُكُمْ مِنْ تُرَابٍ الْحَج : ٥
 وقوله : أَكْفَرْتُم بِالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ الْكُفِّ : ٣٦

وقوله : ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنثرون الروم ٢٠
 وقوله : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا فَاطِر : ١١
 وقوله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ غَافِر : ٦٧

(٢) الصلصال : من الطين مالم يجعل خزفا . وكل ما جف من طين او فخار فقصص صل صليلا . والصلصال : الطين اليابس . واذا اصابته النار فهو فخار . وقيل الصلصال : حما سنون . والصلصال : الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل اذا جف ، فان طبخ بالنار فهو الفخار . لسان العرب والقاموس في مادة " صلص "
 واما ما ورد من هذه الاوصاف في القرآن ففي الايات التالية :

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ سُنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ سُنُونٍ الْحَجَر : ٢٦-٢٨
 قال تعالى : قَالَ لِمَ أَكُنُّ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ سُنُونٍ الْحَجَر : ٣٣
 وقوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ الرَّحْمَن : ١٤ .

" فهذه النصوص ، تفيد ظواهرها ان الله تعالى خلق الانسان نوعا مستقلا ، لا بطريق النشوء ، ولم يشتقه من حي آخر ، كما يقولون لا سيما النص الذي يقول ان بدأ خلق الانسان من طين ، وقد جاء في بعض النصوص الآحادية ^(١) ما هو بين الصراحة جدا بأن خلق الانسان كان مستقلا وليس هو مشتقا من حي آخر ولا شك ان هذه النصوص وان لم يكن عليها مدار الاعتقاد بانفرادها . فلا اقل من انها تقوى ظواهر تلك التي ^(٢) عليها المدار وتعزدها ، وايضا يبعد كل البعد ان يكون اصل الانسان المادة البسيطة ثم ترقى حتى بلغ القرد ثم الى القرد الانسان ، ثم الى الانسان كما يقولون ، ومع ذلك يهمل الله تعالى بيان جميع ذلك ويقتصر على قوله بدأ خلق الانسان من طين بل كان من حكمته ان يشرح تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذرية الانسان ، فانه فصله في نصوص الشريعة بانه خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم اخرجهم طفلا . ^(٣)

فان ذلك التفصيل له وقع في النفس في الدلالة على قدرة الخالق سبحانه لما فيه من نقل المادة من طور الى طور فسكوت النصوص المذكورة عن بيان النشوء واشتقاق الانسان من نوع سواء واقتصارها على ما تقدم من البيان هو ظاهر في ان الانسان خلق

(١) يراى بالاحاد هنا ما جاء من الاحاديث كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وعمل اهل النار يعملون ،

عارضة الاحوذى على الترمذى ١٩٤-١٩٥ هـ ١٢ ،

الفتح الربانى على السند ١٤٦ هـ ١٨ ط ١ سنة ١٣٧٤ هـ .

(٢) النصوص التي عليها المدار تلك الايات التي جمعت بين الاجمال والتفصيل .

(٣) الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية لحسين

محمد الجسر الطرابلسي : ٢٤٤-٢٤٥ .

نوعاً مستقلاً ليس مشتقاً من نوع آخر كما يقولون . وان كان كلا الامرين من الجائز العقلي الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى نعم ليس في تلك النصوص صراحة بان الله خلق الانسان الاول من تراب دفعة واحدة او بتكوين متمهل على انفراد ، فسيبيل هذا التوقف وعدم الجزم باحد الامرين حسب النصوص التي عليها مدار الاعتقاد ، وان كان قد يظهر من بعض النصوص الاحادية ان تكون ذلك الانسان " وهو آدم " كان يتمهل ومسرت عليه مدة من الزمان . والله قادر على كلا الطريقتين " (١)

وفي تفسير قوله تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** (٢)
يقول الفخر الرازي (٣) :

" اذا وهى للمفاجأة يقال خرجت فاذا اسد بالباب وهو اشارة الى ان الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان ، لا انه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا ، وهذا اشارة الى مسألة حكيمية ، وهى ان الله تعالى يخلق اولاً انسانا فينبهه انه يحى حيوانا وناميا وغير ذلك لا انه خلق اولاً حيوانا ، ثم يجعله انسانا فخلق الانواع هو المسراد الاول ، ثم تكون الانواع منها الاجناس بتلك الارادة الاولى ، فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة في الشئ البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التي ذكرناها " (٤)

فهذا التصريح بان ذلك النص يفيد ان الانسان كان تكوينه بطريق الخلق

(١) الرسالة المحمدية في حقيقة الديانة الاسلامية ، وحقيقة الشريعة المحمدية

لحمين محمد الجسر الطرابلسي ٢٤٥ .

(٢) الآية من سورة الروم (٢)

(٣) والقاتل هذا جد لي ومتكلم وعقلاني ، جاري الفلاسفة وعرفهم وكان تفسيره بالعقل ومسح هذا فانه يقرر ان الانسان لم يتطور من غيره كما ترى .

وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين التميمي البكري القرشي الطبرستاني الاصل الشافعي المذهب المفسر المتكلم الاصولي المتطبيب ذكره ٣٣ كتابا توفي سنة ٦٠٦ هـ انظر ترجمته في وفيات الاعيان لابن خلكان : ٢٤٨ ج ٤ رقم ٦٠٠ والطبقات الشافعية للسبكي ٣٣ ج ٥

(٤) التفسير الكبير : ١٠٨ ج ٥

مستقلا ابتداءً لا بطريق النشوء ، وطريق الخلق هو الذى تفيدُه النصوص ، التى عليها
اعتمادنا واعتقادنا ، ليس على نظرية النشوء والارتقاء ، وتلك النصوص لا يجوز تأويلها
ولا صرفها عن معناها الظاهر ، الا بدليل عقلى قاطع - ولا يوجد - وان وجد فالقواعد
التى يوفق بها بين الدليل النقلى والدليل العقلى المتعارضين فى الظاهر معروفة . .
والادلة التى يستدل بها هؤلاء الداروينيون ، ما هى الا ضرب من الظن بناها الغرض ،
وما كان كذلك لا يعارض اليقين ، فمن الهوس ان يظن ذلك الهوس يقينا . (١)

ان نظرة فاحصة فى هذه النظرية ، تثبت انها لا تعتمد على غير التخمين والخيال ،
ولا صلة لها بالمنهج العلمى ، الذى يدعيه اصحابها ، فلم يثبت ان واحدا من القرود
له حوض كحوض الانسان ، وان له قدرة على الربط العقلى واستخدامه ، وما قام به
بعضهم من عرض صورة مزورة لجنين القرد و جنين الانسان انكشف امره وسقطت امانته ،
فى محاولة اثباته هذه القرابه ، واطلاق الانسان على ما يجدونه فى الحفريات من العظام
البالية غير دقيق ، بل هو من عند انفسهم . وقد مرت قرون على هذه الحيوانات ولم
تترق الى ما هو اكل ، فبقى الاسد اسدا والذئب ذئبا والكلب كلبا ، كما ان الانسان
هو الانسان والقرد هو القرد . . ويقال لهؤلاء عن اى شىء ترقى الانعام
والبهائم ذوات القوائم الاربعه ؟ ولم يبق القرد الاول وانقرض الحيوان الواسطة ؟
ولم هنا تقيسون وانتم تنكرون القياس بحكم مذهبكم المادى ؟ (٢)

ان كل ما ذكره الداروينيون لاثبات نظريتهم ظنى وتخمين ، ويكفى هذا فى الرد

(١) الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الاسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية لحسين

محمد الجسر الطرابلس ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) الانسان فى ظلال الاديان للدكتور عمارة ٥٣ - ٥٧ ، ١٠٢ - ١٠٣

وعقيدة المؤمن لابي بكر الجزائري : ١٧ - ١٨ .

عليهم ، فالظن والشك يكتنفان هذه النظرية ويقضيان على كل دليل لهم ، ولولا خشية
الاطالة ، والخروج عما نحن في صدد ، لاثبتنا بتقريرات اصحابها فسادها عقلياً
ونظرياً ، والمشابهة الصورية لا تقتضى كل ما يدعونه ، وان احدثت الظن ، فان الظن
لا يعتمد عليه في العقيدة ، فكيف ترد به الادلة اليقينية التي ذكرناها لبداية خلق
الانسان الاول وهو " آدم " وهذه المشابهة المظنونة زيادة على هدم كل ما رتبته
عليها الداروينيون ، يعارضها امر يدفع ما احدثته من الظن وهو : اننا نرى الانسان
في اول ولادته في غاية من الضعف عقلاً وجسداً لا يقدر على شيء ولا جلوس بنفسه
ولا ادنى حركة جسدية تكون منتظمة ، وهو في غاية البلادة والبله لا يدري ما هو محيط
به ، ولا يعرف الارض من السماء ولا النار من الماء ، فلا يتجنب موعظياً ولا يختار
نافعاً حتى لا يدري كيف يأخذ ثدي امه " وكل ذلك تعالجه قدرة الله تعالى حتى
يهتدي ويصل درجة لا تقاس بحالة الحيوانات التي كانت عند ولادتها اقوى منه حالاً
وجسداً وادراكاً . . . !!

واما القرد فهو مثل غالب الحيوانات يولد على نوع من القوة تؤهله للحركة الكافية
حينئذ في مساعدة امه البهيمية على تربيته وعنده من الادراك مقدار ليس عند طفل
الانسان منه اثر فيهدى الى غذائه المعد له فيلتقم ثدي امه بدون تلك المعالجة
التي تعالجها أم الانسان . ويتجنب الموعظي ويختار النافع وفي اقرب مدة لا يتأهل
فيها طفل الانسان للجلوس على البنية يقوى هو على السعى في جلب رزقه ، ويتم
ادراكه لاعمال حياته بمقدار يجعله بمنزلة الكبير من بنى نوعه وهو لم يزل جرواً صغيراً .
فستان ما بينه وبين الانسان فلو كان الانسان مشتقاً هو والقرد منه اصل واحد ومترقياً
عنه لكان من حقه ان لا يكون في تلك الحالة التي ذكرناها فيه ، فلا يكون عند ولادته
دون القرد الذي ترقى هو عنه ، ان يقال ما السبب في ذلك الانحطاط في القوة

والادراك في طفل الانسان مع ان شريكه في الاشتقاق من اصل واحد ، الذي ترقى هو عنه ، نراه اكمل منه فيهما ؟ ولو قيل : انه ترقى عن شريكه في حسن الصورة وانحط عنه في القوة والادراك لاسباب اوجبت ذلك قلنا فما الذي اكملهما له عند الكبر وبقاء فيهما على القرد بكثير . ؟ !

فالحق ان هذا ما يوهن كل الوهن قولكم باشتقاق الانسان والقرد من اصل واحد اذ لم نقل انه يبطله ، فاذا تأملتم ايها الماديون بعين الانصاف ، ظهر ان المشابهة الصورية بين الانسان والقرد لا تقاوم هذا الفرق العظيم * (١) .
 وخلاصة القول : ان النظرية عليها اعتراضات شديده وخلاصتها كالتالي :-

- ١ - عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع في الأحياء من ألوف السنين .
- ٢ - عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لذهب التسلسل كوجود حيوان أرقى من القرد وأدنى من الانسان رتبة واحده .
- ٣ - طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الاحياء فان عمر الأرض لا يكفي لتمام تصوره .

وجواب الداروينين على هذه الاعتراضات لا يفني شيئاً . (٢)

(١) الرسالة الحميدية لحسين محمد الجسر الطرابلسي ٢٦٣-٢٦٥ .

(٢) أنظر دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى : ٣١-٣٦ ج ٤

شبهت بنوة البشرية جميعا في كتاب الله لآدم

ولقد بحث الحافظ ابن كثير في القرآن الايات التي تدل على خلق آدم ، وخلق نريته منه ، وهم البشرية جميعا ، ومن بينها الايات الثلاث التي نحن بصدد البحث في معناها لرد الشبهات التي تدور حول اصل الانسان " آية النساء " وآية الاعراف وآية الحجرات " (١) .

وقد اجمع المفسرون المعترفون ، بان المقصود في هذه الايات الثلاث بالذكر والانثى والنفس الواحدة وزوجها ، انا هو آدم وحواء ، وحتى الذين يؤولون النفس والذكر والانثى بالجنس ، يجمعون على ان البشرية كلها من آدم عليه السلام .

قال النيسابوري واجمع المفسرون على ان المراد بالنفس الواحدة آدم " (٢)

وقال الرازي اجمع المفسرون على ان المراد بالنفس الواحدة ههنا آدم " وقال :

احتج جمع من الطبائعيين بهذه الاية فقالوا : قوله تعالى " خلقكم من نفس واحدة "

يدل على ان الخلق كلهم مخلوقون من النفس الواحدة ، وقوله : وخلق منها زوجها "

يدل على ان زوجها مخلوقة منها " (٣) .

وحكى القرطبي عند آية الاعراف : الاجماع من جمهور المفسرين على ان النفس

آدم " (٤) .

(١) البداية والنهاية ٧٤-٨٨ ط ١

(٢) غرائب القرآن ورفائب الفرقان ١٦٤ ط ٤ سنة ١٣٨١ هـ .

(٣) التفسير الكبير ١٦٠ - ١٦١ ط ٩

(٤) تفسير القرطبي ٣٣٧ ط ٧

وقال ابن حزم^(١) في رده على من زعم ان العالم خلق جملة واحدة ، وليس أصلهم آدم وحواء

قال :

والذى نقول نحن من أنه تعالى خلق من النوع الانساني ذكرا واحدا وانثى واحدة تناسل الناس كلهم منهما ممكن أيضا ، فمن أين ملت الى تلك الجثية دون هذه ؟ فتردد ساعة فلما لم يجد دليلا قال :

فمن أين ملتم انتم ايضا الى هذه الجثية دون تلك ؟ فقلت لبراهين ضرورة توجب ما قلنا وتنفي ما قلتم "

وبعد ذلك جعل أبو محمد يسرد ادلته واحدا تلوى الاخر وخلصتها كالتالي :

ان جميع الموجودين من الكبار والصغار لا يعرفون ذلك ، ولو عرفوه لنقلوه الى اولادهم نقلا يفيد العلم الضروري ، يبلغنا ولعلمه الناس جميعا .

ونحن نجد خلاف هذا وهو ان جميع اهل الأرض لا يعرفونه ، ويقول مفرقا بين النقلين :

" فقلت بين النقلين فرق لا حقا " به ، لان نقلنا نحن لما قلناه انما يرجع الى خبر رجل واحد وامرأة واحدة فقط ، وهما اول من أحدثه الله تعالى من النوع الانساني .

وما كان هكذا فانه لا يوجد العلم الضروري ، اذا لتواطو ممكن في ذلك ولولا ان الانبياء والذين جاءوا بالمعجزات اخبروا بتصحيح ذلك ما صح قولنا من جهة النقل وحده . . . لكن ولما اخبر من صححت المعجزة قوله ، بان الله تعالى لم يبتدئ من النوع الانساني الا رجلا واحدا وامرأة واحدة وجب تصديق قولهم "

ويقول : وكل من ذكرت عنه نبوه ، في الهند والمجوس والمغنيين ، واليهود والنصارى

(١) هو الحافظ العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أصله من فارس ، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ ، وقد أشتغل بالعلوم وبرز فيها وكان أدبيا فقيها مناظرا جدليسا وطيبا شاعرا فصيحيا ومن عجيب أمره كما يذكر ابن كثير أنه ظاهر لا يقول لشيء من القياس وكان مع هذا من أشد الناس تأويلا في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديث الصفات لأنه كان أولا قد تزلج من علم المنطق " ولهذا سقط في عين كثير من أهل العلم . وكان يبيت ابن حزم بيت وزارة ورئاسة وجاهه وماله وثروته توفي سنة ٥٤٥ هـ . أنظر البدايه والنهايه ٩١-٩٢ ج ١٢ .

والمسلمين ، فلم يختلفوا في ان الله تعالى انما احدث الناس من ذكر وانثى ، وما جاء هذا المعنى ، فلا يجوز الاعتراض عليه بالدعوى (١)

وفي القرآن آيات اخرى " غير آية الحجرات والنساء " والاعراف * يفهم من اساليبها ان البشرية من آدم وحواء . ولا يمكن لاي احد صرف هذه الاساليب الى غير ذلك .
فها هو يخاطب البشرية جمعاء ، بانه سبحانه وتعالى : خلقهم من الارض ويعيدهم فيها ، ثم يبعثهم من جديد ، (٢) ، وليس ذلك غير الوصف للبداية وهى خلق آدم ، والنهاية وهى بعثهم بعد الموت ، وكانت البداية يقرون بها فجعلت لهم دليلا هنا للاقرار بالنهاية .

وقد امتن في موضع آخر على البشرية ، بانه امر الملائكة بالسجود للانسان الاول ، واحسن تصويره (٣) والخطاب للناس جميعا والقصة لابيهم آدم عليه السلام يلفت الله نظرهم اليها .

وما حكاه الله في القرآن لنا التهديدات التى صدرت من ابليس اللعين لذريته آدم بأخذ ثاره من ابينهم ، الذى امره الله ان يسجد له ، فتمرّد اللعين ، وتكبر ، وتصدى للبشرية الى يوم الدين (٤) ، فهل كان هذا الثأر للشيطان من القرود

(١) الفصل في الملل والاهوا * والنحل لابن حزم ٥٢ - ٥٣ ح ١ ط سنة ١٣٨٤ هـ القاهرة .

(٢) كقوله تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى *
سورة طه : ٥٥

(٣) كقوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ . . . الايات *
سورة الاعراف ١١-٢٥

(٤) كقوله تعالى : قَالَ ارَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلَى لِسَانِ أَخِي لَنْ أَخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى تَرْتٍ لَاحْتَنُكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا . . . الايات * سورة الاسراء ٦١-٦٥
وكقوله تعالى : قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُنَّ لِآدَمِ بَنِي الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ أَنْ يَقُولُوا رَبِّي إِلَّا رَبِّي وَالْعَظِيمِينَ *
سورة الحجر : ٢٩

او من الطبيعة ؟ ! انه اعرف بتاريخ البشرية من الداروينيين ومن لف لف لفهم من محرفي الكلم عن مواضعه . . ! !

ان كل ما حكاه الله في القرآن من قصة آدم وحواء ، وصراعه مع ابليس اللعين ، وتهديده له ولذريته بعده الى يوم الدين ، وما سبق ذلك من معاورة الملائكة في شأن المخلوق الجديد ، وخطاب الله لهم بانه سيجعل في الارض خليفة ^(١) مخلوقا جديدا باوصافه وشكله ، ويشبهه فيها خليفة كما خلفه منها ، كل ذلك يدل دلالة قاطعة ، بان آدم هو الانسان الاول ، الذي كان اصلا للبشرية ولا اب لهم سواء . . فكيف يصرف هؤلاء المتشككون دلالة هذه القصة وادوارها ومفهومها الموافق والمخالف - بغير ذلك ؟ ! وما الحكمة في ان يخصص الله اصلا واحدا من اصول البشر وهو " آدم " بالحديث دون الاصول الاخرى المزعومة . ؟ ! ويخاطب البشرية باكملها بقصة واحد من اصولها دون غيره ؟ !

وانا زعم هذا من يدعي الايمان بالقرآن . . الا يلزم نفسه ان الله لم يخاطب بالقرآن الا الذين كان اصلهم آدم ويعتقدون ذلك ، وكلما سمعوا من القرآن يا بني آدم قالوا المقصود نحن فقط واما الذين يعتقدون انهم من اصل غير آدم فكلموا سمعوا هذا النداء قالوا : نحن لم ندخل ولم نحن ؟ ! بل يزعم لهم هذا المفسر الجديـد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرسل اليهم ، ثم اين في القرآن ما يفرق بين البشرية

(١) كقوله تعالى : **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** .
سورة البقرة : ٣٠

فى هذا مراعاة لفكرتهم المزعومة ، وهى تعدد الاصول لهم . ؟! ويشير الى اصول غير آدم ولو كانت اشارة ظنية . وهل ثم فى العقل ما يمنع هذه الوحدة البشرية فى المنشأ وعصر البداية ؟! كما انها فى الخالق جلت قدرته ، وكان ذلك السى القدرة الربانية اعجب وادق!!

ولقد كانت هذه البنية موضع عناية فى القرآن وظاهرة يتخذ منها فى القرآن مطلقا ليوجه خطابه الى البشرية جمعا^١ ويستقطبهم تحت اعلاميتها ، فذكر اياهم وحدتهم الاصلية واخوتهم الاولى ، وكيفات كانوا ذرية لعبد لله تعالى وهو نبيه آدم عليه السلام ، الذى انصرفوا عن عبوديته لربه وتوخته الخالصة ، وغير ذلك من المعانى التى يدل عليها هذا النداء^١ من الكبير المتعالى ، والذى لا يستطيع المحرفون للكلم عن مواضعه ، ان يخصصوه لطائفة دون طائفة من البشرية ، لا بالنقل ولا بالعقل ، ولو بحثوا فى طبقات الارض وخرقوا السماوات ، واستنطقوا الجماد واليابس ، وحركوا الساكن واسكنوا المتحرك .

وقد نادى الله فى القرآن البشر جميعا يا مرهم بالستر والحيا^١ ، وقد اوجد لهم لباسا يستر اجسامهم المادية ، وانزل عليهم كتبا مرسلا بها رسلا منهم ليلبسوهم بها لباس التقوى وهو خير .^(١) وفى ذلك تحذير من فتنة عدوهم ابليس الذى نزع بعكره وسوء طويته على ابى البشر اهابه وسلخه من ثيابه فبدت عورته هو وزوجه مفتونين

(١) كقوله تعالى : يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ رِشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ . ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ . يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ قَبِيلَةٌ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ أَنَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " سورة الاعراف : ٢٦-٢٧ .

لسولا أن تداركته رحمة الله . بسبب توثيقها . أى مغزى أوضح من هذا الربط
بين الأبناء والأبوين . وما هو الدليل اوضح واثبت من هذه النسبة التي يثبتها القرآن
للبنية جميعاً ١٢٢

ان الابناء عليهم دائما ان يتذكروا المخاطر التي مرت بالاباء ، ويقتدوا بالماثر
التي كانوا عليها الاباء ، اليس في هذه النداءات في سورة الاعراف بعد قصة آدم
وزوجه حواء ، اليس في هذا كفاية في صحة النسبة ، وثبات الابوة من آدم للجميع ،
والابناء يقررون في ذلك . . ٢٢

يقول الاستاذ سيد قطب^(١) في الظلال :

هذا النداء "يجى" في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة . . مشهدا
العرى وتكشف السوات والخصف من ورق الجنة . . . لقد كان هذا شره الخطيئة . .
والخطيئة كانت في معصية أمر الله وتناول المحظور الذي نهى عنه " وليس هو الخطيئة
التي تتحدث عنها اساطير " الكتاب المقدس " والتصورات الفنية الغربية . . وايحاءات
فرويد المسمومة . . " ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن
الاوربي دائما حول ستنقع الوحل الجنسي لتضرب به كل نشاط الحياة كما عظمهم
فرويد اليهودى " .

ويقول في النداء الثاني : انه النداء الثاني لبني آدم في وقفة التعقيب على قصة
ابويهم ، وما جرى لهما مع الشيطان ، وعلى مشهد العرى الذي اوقفهما فيه ، عدوهما
بسبب نسيانها امر ربها والاستماع الى وسوسة عدوهما " .
" لقد كان النداء الاول تذكيرا لبني آدم بذلك المشهد الذي عاناه ابواهم ، ونعمة
الله في انزال اللباس يستر العورة والرياش الذي يتحمل به . . . اما هذا النداء الثاني

(١) ولله الحمد لله سنة ١٣٦١هـ و١٩٤١م

فهو التحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الاسلام في الطليعة ، ان يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لانفسهم من مخرج وشرايع وتقاليد فيسلمهم الى الفتنة - كما فعل مع ابويهم من قبل ان اخرجهما من الجنة ونزع عنها لباسهما ليريها سواتهما - فالعري والتكشف الذي يزاولونه هو عمل من اعمال الفتنة الشيطانية ، وتفيذ لخطة عدوهم الغير في اغواء آدم ونيه ، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الانسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم ان يفتتهم ، وان ينتصر في هذه المعركة وان يملأ منهم جهنم في نهاية الطاف ! ^(١)

وتعقيبا على قصة العري تلك وانزال اللباس ياتي نداء آخر بهذه البنية داعيا الى الزينة وستر العورة وناهيا عن الاسراف في كل شيء في الاكل والشرب . ^(٢) وتواصل سورة الاعراف في نداءتها بهذه البنية التي لا يغفل امرها ، فتخاطب الامم كلها بخطاب يبدو انه يشمل السابقين لنزول القرآن كما يدخل فيه المعاصرون له واللاحقون بعدهم ، والنداء ينبي عن الرسل الذين بعثهم الله وبعث آخرهم ، بان من اتبعهم مع التقوى والصلاح لا خوف عليه ولا يحزن ^(٣) ،

ثم جاء بعد ذلك نداء آخر في السورة مشعرا البشرية بالميثاق الذي تناسوه وقد اخذ منهم ^(٤) وهم في صلب ابويهم آدم فاقروا بالربوبية وذلك يستلزم الالهية كما

(١) انظر الظلال : ١٢٧٨-١٢٧٩ - ٨ المجلد ٣

بيروت .

(٢) كقوله تعالى : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " سورة الاعراف - ٣١ . كقوله تعالى : يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا بَاتَيْنَاكُمْ رُسُلًا مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ، يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ وَلَا تَخْلُوا بَيْنَكُمْ وَرَبِّكُمْ وَأَقْبِلُوا لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَجْرَبُوا فِيهَا سُلُوكًا ضَالًّا وَلَا تَحْزَنُوا " سورة الاعراف ٣٥ .

(٤) كقوله تعالى : " وَأَذِّنْ لَهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ مُبْتَغًى لِيُذَكِّرُوا الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ " سورة الاعراف ١٧٢ .

وضحت سابقا (١) ،

وفي موضع آخر بين الله سبحانه وتعالى على بنى آدم بما خصهم به من التكريم
 وذلك لهم البر والبحر (٢) ، ما لم يكن لحيوان آخر ، وذلك منذ بدايتهم التي لم
 تشتق من فرد ولا من غيره ؟!! وقد عهد الله سبحانه وتعالى لبنى آدم جميعا وهم
 البشرية الا يتخذوا الشيطان رائدا في فكرهم وتصوراتهم وعقيدتهم وعبادتهم ومن
 ضمن ذلك الا يعتقدوا انهم من غير آدم ، كما يحاول الشيطان باقلام تلامذته ان
 ينكر البشر اصلهم ورسالتهم في الحياة ، لتتسنى لهم المادية الطحدة...!! (٣)

(١) صفحة : ٢٨

(٢) كقوله تعالى : **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** سورة الاسراء : ٧٠

(٣) كقوله تعالى : **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** سورة يس : ٦٠

البنوة ثابتة بالسنة الصحيحة

واما السنة التي هي تفسير للقرآن ، وتوضيح لدعوته ، فقد جاءت فيها نصوص صحيحة ، لا لبس فيها ولا مطعن ، في مختلف الابواب ، وكلها تساندت في نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم البشر جميعا الى آدم عليه السلام . وهذه الاخبار تساند وتقرر ما جاء في كتاب الله تعالى . وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في حاجة لبيان ذلك على وجه الخصوص ، رغم دوران كلمة بنى آدم في اخباره افسرادا^(١) وجمعا^(٢) بل ان هذه الابوه يذكرها في معرض حديثه عن الاخوة ، لانها تستلزمها وان الناس سواسية ، ليس مراده في ذكر هذه البنوة اقناع الناس انهم بنوا الانسان الاول ، وهو من التراب ، لان ذلك بدهى ، ومعرفته ضرورية .

(١) كما اخرج البخارى عن ابي هريرة رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ياتى ابن آدم النذر بشيء لم يكن قدّر له ، ولكن يلقى النذر الحسى الى قدر قدّر له ، فيستخرج الله به من البخيل فيوتى عليه من قبيل الفتح على البخارى ٤٩٩-٥٢٦ هـ ١١

وكما اخرج مسلم عن ابي هريرة رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ادرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك او يكذب به . النووى على مسلم : ٢٠٥-٢٠٦ هـ ١٦ .

(٢) كما اخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : انتمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يقول : ان قلوب بنى آدم كلها بين اصبعين من اصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم صرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك .

النووى على مسلم ٢٠٣-٢٠٤ هـ ١٦ وابن ماجه : ١٢٦٠ هـ ٢ . وقد علق النووى على قوله : اصبعين بان ظاهرها غير مراد ، واوله بالمجاز وانسه من باب التشثيل والتشبيه غير مقصود . قلت ان هذا هو عين التأويل المذموم ، فالاصبعان صفتان لله تعالى نوع من بها دون تكيف ولا تعطيل . وكان رحمه الله من أبتلى بهذا التأويل لصفات الله تعالى سامحه الله .

وما كان الناس الذين يسألون عن كل شيء رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصا منهم في التعلم ومعرفة ما غاب عنهم وخفى ، ما كانوا يشكون في أبوة آدم لبني البشر جميعا ، ولو تلجلج في صدر أحدهم لسأل وهم يعلمون أن الحكمة ضاللة المؤمن ، وأن دواء السعي السوء ، وأن الله لا يستحي من الحق ، وأن السماك على الحق شيطان أخرس . . . ولا كان أحد من المشركين وأهل الكتاب يشك في هذه الأبوة مطلقا ، ولو وجدوا بسببها منغذا للطعن في الوحي ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم لفعلوا ، ولا يقصرون في ذلك . . . وهل نقل أنهم عارضوا القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام بسبب ذلك ونطقوا بنقدهم كما كان في غير هذا ؟ .

وخلاصة القول أن السنة المطهرة سلكت في قصة آدم وأبوته وبنوة البشـر جميعا له نفس المسلك الذي جاء في أساليب القرآن التي فندنا بها دعوى أن آدم ليس أصلا للبشر جميعا ، فقد جاء في السنة قصص ثابتة متواترة تتعلق بأحوال البشر جميعا في بدايتهم ومحتهم ونهايتهم كالقصة الصحيحة التي جاءت من حوار موسى مع آدم عليهما السلام^(١) ومفهومها أن كلم الله موسى عليه السلام ينسب البشرية إلى آدم عليه السلام ، والقصة بجميع رواياتها بألفاظ كثيرة ولكن موعدها جميعا أن آدم أفهم موسى عليه السلام في أن خروجه من الجنة إنما هو مترتب على أكله من الشجرة وكل ذلك إنما هو في قدر الله ولا راد لقضاء الله وقدره .^(٢)

(١) كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت ابونا خيبتنا واخرجتنا من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده التلومني على امر قدره الله على قبل ان يخلقني باربعين سنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فحجج آدم موسى .

(صحیح مسلم مع النووی ٢٠٠-٢٠٣ ح ١٦ ط وفتح الباری علی البخاری ٥٠٥ ح ١١ و ٤٧٧ ح ١٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٩٢ ح ١ يقول ابن كثير : ومن كذب بهذا =

وكحديث الشفاعة الذي ينسب عن مطلق هذه الذرية الكثيرة من ابهـا آدم
يوم الوقوف امام رب العالمين (١) فانهم يبدأون بآدم في طلب الشفاعة لانه ابوهـم
الذي خلقه الله بيديه . (٢)

وسا تجدر الاشارة اليه ويلاحظ ان هذا الاسلوب ، وهونسبة البشرية الى آدم
كثير في الاحاديث التي تركز بوجه خاص على التائب والتذكير وتحقير الدنيا ، وتوهين
الغرور بها وخاصة الاحاديث القدسية (٣) ، وقد تردت فيها كلمة

الحديث فمعاند ، لانه متواتر عن ابي هريرة رضي الله عنه ، وناهيك به عدالة
وحفظا واتقانا ، ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا ، ومن تأوله بتلك
التأويلات ، فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو اقوى مسلكا
من الجبرية .

(١) كما اخرج الشيخان عن انس بن مالك رضي الله عنه :
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمون
لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال : فيأتون
آدم صلى الله عليه وسلم فيقولون : أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيديه ونفخ
فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا
هذا فيقول لست هنا كم فيذكر خطيئته . . الحديث .
(مسلم مع النووي ٥٤ - ٥٥ - ٣ وفتح الباري على البخاري ٤٧٧ - ٤٧٨ - ١٣ و
٣٩٥ - ٨)

(٢) لآدم خصائص : نفخ الله فيه من روحه ، وأمر ملائكته بالسجود له ، وقبل ذلك
خلق بيديه ، واليدان صفة لله تعالى نؤمن بها ولا نكفيها ولا نؤولها ، ولا يصلح
ان نفسرها بالقدرة ، لان الله قدرة مطلقة لا تشنى . ولو كان اليدان هنا بمعنى
القدرة لما كان هذا خاصة لآدم ولما احتج الله بذلك على ابليس لانه خلق
بقدرته الله تعالى فاليفهم المحرفون .

(٣) يقول علي القاري : الحديث القدسي هو ما يرويه صدر الرواة ويدر الشفاء عليه أفضل الصلوات
وأكمل التحيات من الله تبارك وتعالى تارة بواسطة جبرئيل عليه السلام ، وتارة بالوحي
والالهام والنام منوطا إليه التعبير بأى عباره شاء من أنواع الكلام ، وهي تقارير القرآن الحميد
والفرقان الحميد . بأن نزوله لا يكون الا بواسطة روح الله الامين ، ويكون مقيدا باللفظ المنزل
من اللوح المحفوظ على وجه اليقين ، ثم يكون نقله متواترا قطعيا في كل طبقة وعصر وحين
ويتفرغ عليه فروغ كثيره عند العلماء بها شهره .
نقلا عن الانحافات المشبه في الاحاديث القدسية للشيخ محمد المدني المتوفي سنة ١٢٠٠ هـ
٣٣٥ - في الخاتمه في شرح معنى الحديث القدسي ط ٣ سنة ١٣٩٩ هـ

ابن آدم كثيرا بشكل طحوظ ، ولم يستشكل احد من الامة ذلك ، سواء كانت امة
الدعوة أو امة الاجابة . (١)

(١) كقوله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : كُلْ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ
فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِسِهِ ، رواه البخارى وسلم كلاهما في كتاب الصيام - فتوح
البارى على صحيح البخارى : ١١٨ ج٤

والنوى على صحيح سلم : ٢٩ ج٨ ما دعوتى ورجوتى غفرت لك على
وما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى
غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى
لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة .

(عارضة الاحوذى على الترمذى ٥٩-٦٠ ج٣)

وعن ام حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت قال : كلام ابن آدم ليس
له الا الأثر بالمعروف ، والنهى عن المنكر وذكر الله عز وجل .

(ابن ماجه : ١٣١٥ ج٢)

وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو أن لابن آدم واديين
من مال لأحب أن يكون معهما ثالث ولا يملأ نفسه إلا التراب ويتوب الله
على من تاب .

(ابن ماجه ١٤١٥ ج٢) .

لغية الحفريات متهافنة

أما الحفريات التي يستدل بها كثير من الباحثين المنتسبين للإسلام - ولولم يزاوئوها بانفسهم ولم يطلعوا عليها - الذين انجرفوا تحت التاثير الدارونى ، فأمرهم قبيها عجيب ان يستدلون بها ولا يذكرون منها ومن قيمة منهجها عندهم شيئا ، ويظنون ان القراء يسلمون بهذه الدعوى التي تطلق فى الهواء دون قيد ومنهج وغطاب عن هولاء الحكمة القائلة " الحكم على الشئ فرع عن تصويره " وتناسوا المنهج الاسلامي الذي دأب عليه علماءنا الاجلاء ، وخاصة المحدثين الذين لا يسمحون لانفسهم ان يذكروا شيئا مما يتعلق بالراوى والمروى الا بالدقة المتناهية لئلا يخوضوا فى الظنون ويتعبوا غيرهم ، ويشككوه فى امره وعقيدته ، ويدعوه فى امر مريب . . . !!

ان هذه الحفريات يحسن بنا ان نتعرف بها ستفيدين من روادها الغربيين انفسهم ^(١) لا من المتطفلين المقلدين لهم منا ، لناخذ عن هذه الحفريات فكرة موجزة ، ونستظهر من خلال وصف روادها انها حجة اضعف من بيت العنكبوت واجهل فى حقيقة اصل الانسان .

وقد درس الكاتب آثار هذه الحفريات وتتبعها ما كان منها فى مناطق العالم ، ولم يذكر لنا شيئا غير قطع من العظام لحيوانات مختلفة ولم يكن من بينها ما يجزم هو نفسه

(١) اختار كتابا من كتب هولاء الذين يرون نظرية النشوء والارتقاء ويقولون بها ، وهو كتاب بيدو لى ان مؤلفه وان كان فى رأيه الخاص به - كما فهمت منه دارونى يتسم بنوع من الهدوء وتريث وتعقل فى بحثه ، فهو يقرر المتناقضات بامانة دون ان يؤثر فيه ما يعتقد لهذا رايت ان استفيد منه فى حقيقة الحفريات هذه ، والرجل غربى وهو الدكتور رالف لنستون امريكى ولد سنة ١٨٩٣ م وهو من اعظم علماء الانثروبولوجيا فى العالم وكتابه هو : دراسة الانسان ترجمة عبد الملك الناشر .

بانه من السلف المزعوم للبشرية ، وحصيلة هذه الحفريات بالايجاز كالتالى :

- ١- احفورة فى جاوى وجد فيها " عظمة الفخذ ^(١) ويافوخ الجمجمة وعض الاسنان " ويقول : باستثناء هذه الاحفورة المشكوك فى امرها نجد فجوة فى سلسلة الاحافير .
- ٢- احفورتان فى رودسيا الشمالية فى افريقيا ووجد فيها " جمجمة فقط ^(٢) ويعلق عليها فيقول : ولكن كليهما تبدو ابعد عن خط تسلسل اسلافنا .
- ٣- احفورة فى انجلترا ووجد منها " اجزاء جمجمة ^(٣) ونصف فك " ويعلق عليها بانها محيرة جدا فاجزاء الجمجمة فهى لسوء الحظ لا تصل جانبى غلاف الدماغ ،
- ويعلق على الحفريات الثلاث بانه لا يمكن ان يعود خط تسلسل اسلافنا الا الى واحد منها ، فهى لا تتسجم مع بعضها ، اضافة الى انها فى مناطق متباعدة . ^(٤) !
- ويستطرد فى انه ليس هناك دليل على ان واحدا من هذه الاشكال قد وصل امريكا ، وان الانسان ظهر فى امريكا متطورا . . . !
- ٤- احفورة بكين فى الصين وجد منها " فك ^(٥) " ويقول معلقا عليها " فك هذا اكثر

(١) ويسمونها " القرد الانسانى المنتصب " .
 (٢) ويسمونها " تونجز " .
 (٣) ويسمونها " انسان بلنداون " او " الايوانثروبوس " .
 (٤) دراسة الانسان للدكتور رالف لنستون ترجمة عبد الملك الناشف ٢٥-٢٩ بتصرف .
 (٥) سميت بكين باسمه لانه وجد قرب من موضع المدينة .

شبهها بفك القردة العليا من فك الانسان الحديث .

٥- احفورة في التانيا وهي اقدم الحفريات الحيوانية ووجد منها " فك ^(١) " ويقول معلقا عليها : ولعلنا نحسن صنعا اذا تربثنا في الحكم على حقيقة وضعه بالنسبة للجنس البشرى حتى يتوافر لدينا المزيد من المعلومات عنه .

٦- احفورة في فلبيين وجد منها " جمجتان ^(٢) " ويشبهها بما وجد في الحفريات الاسترالية ^(٣) .

ويشيد الكاتب ببعض هذه الحفريات التي وجدت في اوربا بالذات وامريكا كـ " كانسان " النياندرتال " الذى يزعم أنه كان متطورا ومع هذا فان هذا الانسان ^(٤) اكثر شبهها بالقرود من اى الاجناس البشرية ، ويؤكد باننا لم نتطور منه . وهذه الميوان اذا حاول باحث ان يجمع بينها ويعطى صورة منسجمة فانه يعرض نفسه لنقد كـثير، ويقول : ولا بد لكل من يكتب عن اصل الانسان ان يكثر استعمال لفظتى " لعله وربما " فهناك فجوات واسعة في سجل اصل الانسان وبعضها قد لا يملأ ابدا .

وفي النهاية لم يقدم المؤلف شيئا غير انه تهرب وزعم ان حظى التطور لبسنى الانسان والقردة العليا ظلا امدا طويلا واحدا ^(٥) انها عاطفة بعد اليأس من قصة الحفريات التى لم تقدم شيئا .

-
- (١) ويسمونه " هيدلبرج " .
 (٢) ويسمونه " جنس " ودجك " .
 (٣) ما وجد في استراليا ويسمونه " تلجاى " .
 (٤) ويلاحظ ان تسمية هذه القطع من العظام بانسان ليس بدقيق بل هو من عند انفسهم بعيد كل البعد عن المنهج العلمى .
 (٥) المرجع السابق ٢٩-٣٧ بتصرف .

تلك قصة الحفريات والاثار التاريخية كما يزعمون او على الاصح اضحوة الحفريات
 فإين الحجة منها واين موضع الدليل وما وجه الاستدلال . . . ؟؟؟!!
 الف سؤال يوجه الى الذين يحرفون كتاب الله تعالى استنادا الى هذه المفتريات
 التي تبرا منها كثير من اهلها وابدأوا فيها انها لا تقدم عن اصل الانسان شيئا . فكيف
 يرد بها صريح القرآن وهو من علام الغيوب ويبطل بها ما اجمعت عليه البشرية
 جمعا . ؟!

ان هذه الحفريات بالاضافة الى تهافتها غالبيتها بل كل دراستها من قبيل
 الاجانب " الكفار " وهم الذين يعينهم امرها وفي بلادهم ، وهذه ظاهرة اشار اليهها
 الكاتب ان يقول : " اما الاشخاص الذين تهمهم مثل هذه الامور في غير اوربوا
 فانهم قلائل جدا وحتى القرن الاخير لم تنجب افريقيا وجنوب آسيا احدا من هؤلاء
 مع انها خير مربع للتحري عن بقايا اسلافنا الاوائل " (١)
 فالقضية اذن بهذا التقرير من احد اقطابها وروادها غربية وللغربيين وحدهم فيها
 الحاجة ، وهي سن سلسلة خوضهم الذي لا حد له في الكفر والالحاد ، انهم
 مصدرها ، وبلادهم منبعها فليس للاسلام ودعاته منها غير الرفض الكامل ، كما يرفض
 عقيدة " التثليث " وعقيدة " ماركس ولينين " . فمن اين اذن وجدت منغذا الى البحث
 العلمي ومنهجه عندنا نحن المسلمين . وتدولت قضية سلمه لدى كثير من المفكرين .

(١) المرجع السابق : ٢٥ .

وفى المناهج التعليمية . . . ؟ !

وبعد ها يشر كتاب ويناضلون عن ساعد الجد مدعين انها حقيقة تاريخية بشرية لا تجحد ، بل ويقتحمها بعض من تصدى لتفسير كتاب الله تعالى فى التفسير ليروج باطله ويشهر بدعته ، باسم التفسير ، نيابة عن اولئك الذين لا لوم عليهم بعد الكفر من المستشرقين وشعوبهم . . . ! !

ويبدو بل هو الواقع : ان الغربيين واربا بالذات افتروا هذه الفرية من ضمن ما يقصدون به وينشرونه بين مجتمعاتهم لنجابهة الكنيسة وديانتها المنحرفة ، وقد حاول حاول المؤلف ان يرد على رجال الدين ^(١) فى تكبرهم الشديد ضد هذه النظرية كما فيها من الالحاد ، وقرر ان المسيح عليه السلام وعلى نبينا افضل التسليم ، جاء ليبين للناس " كيف يعبتون فى هذا العالم وليس لاعلامهم عن الشكل الذى كان عليه الكون " ^(٢) اذا كان المسيح عليه السلام وهو نبي الله لا يعنيه الامر فالادنيون من باب أولى ان النظرية من الناحية العلمية والمنهج العلمى ، منقوضة بنفسها أساسا ، وابطلت نفسها بمقاييسها ، وفاسدة بذاتها ، والملاحظة العلمية التى يذكر هؤلاء انهم يخدمونها ويتقيدون بها بعيدة عنها هذه النظرية ومباينة لشروطها التى منها :
١- ان تكون الملاحظة العلمية منظمة موثوقة ودقيقة الوصف ، تقوم على منهج مخطط

(١) كلمة رجال الدين من العدوى الغربية التى انتقلت اليها وراجت بين الكتاب ، وبدأت تعطى مفهوما مع الاسف بين المسلمين يقرب الى ما يعتقد الغربيون وانما استمرت العدوى فانها سترسخ مفهوما بين المسلمين . . . ! !

(٢) المرجع السابق ١٧-١٩ .

وترسى الى هدف واحد واضح وهو الاجابة على سؤال معين او تحقيق فرض معين .

والملاحظ العلمى يحل ذلك سواء كان ثاقها وافق رايه ام خالفه لانه معروض للنسيان والنقصان .

٢- يشترط للمنهج العلمى الأيتأثر بميول الباحث وعواطفه .

٣- منهج موضوعى يمكن التحقيق من صحته وان يعيده باحثون آخرون ويخرجون بنفس النتائج .

٤- الملاحظ العلمى لا يعمم من حالة واحدة او حالات ، دون الاستقراء .

" والمنهج العلمى هو الفيصل بين ما يسمى علما وبين غيره من ضروب المعرفة فالطب والفيزياء والكيمياء وطم الاحياء لم تدخل فى نطاق العلم الا بعد ان خضعت لدراستها للمنهج العلمى " (١) ، وكل ذلك ليست النظرية الدارونية منه فى شىء .

وهؤلاء علماء السلالات يقال انهم يذهبون الى ان هذا الانسان المزعوم جنس آخر غير الجنس البشرى واخيرا فقد اعترف كبار اصحاب النظرية الدارونية بعجزهم ، وقالوا انها غير ثابتة علميا ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان ابدا وانما آتينا بها لانها البديل الوحيد عن الايمان بالله . (٢) ولقد كثرت مقالات العلماء الغربيين فوابطال

(١) انظر اصول علم النفس للدكتور : احمد عزت راجح ٤٩-٥٠ ط ١١ سنة ١٩٧٧م .

(٢) انظر عقيدة المؤمن لاهى بكر الجزائرى :

القول بالصدفة ، كالفيلسوف الالمانى ادوارد هارنان فى كتابه الذهب الدرونى يقـول :
ان الراى الذى مقتضاه عدم وجود القصد فى الكون عند الداروينيين لا يقوم عليه دليل ،
وهو من الاوهام التى لا اساس لها من العلم " (١)

وقد قامت حملة قاسية صاحبة ضد هذه الفرية عند ظهورها ، لا تدع مجالا
لدارون وانصاره ، ولا تعترف لهم بانهم اتوا بشىء معقول ، فقد اثارى النظرية رجال
الدين فى العالم ، والسياسة ، والصحافة ، لما رأوا فيها من الخروج على القيم
المألوفة ، وتكر للخالق سبحانه وتعالى ، فيما جاء عنه فى الكتب المنزلة ، ووصل غضب
هؤلاء للدارونية الى الشتم والتهكم والاذى والتكفير ، وقد نقل الكتاب كلمات هؤلاء ، ما
يدل على سقوط هذه الاسطورة ، والاضحوة ما لودرسه باحث من الناحية العلمية
لخرج بان النظرية كانت فى مولدها فردية ، لا تتسم بالمنهج العلمى ما زعمه انصارها
فيما بعد . (٢)

ومع سقوط هذه النظرية ، فقد كان اثرها قويا ، فتلقاها الجمهور الغربى من رجال
السياسة ، ورجال الدين ، الذين لم يتمكنوا من معارضتها حتى اذا مات دارون سنة
١٨٨٣ م منحه الكنيسة الانجليزية اكبر شرف تمنحه للانسان ، فاذنت ان يدفن فى
مقبرة رجال الدين ، فافتتن بها حتى المتسكون بالعقيدة الكاثوليكية ، والبروتستانتية
واليهودية ، وحتى بعض من يزعم الاسلام والفكر الاسلامى ، كل لا يتخرج من قبول

(١) نقلا عن العقائد الاسلامية للسيد سابق ٤٢

(٢) قصة الايمان لنديم الجسر : ١٩٣-١٩٤ .

هذه الغربة التي تزعم ان الكائنات كلها من اصل واحد ، وانتخبت الطبيعة المرحلة الاخيرة ، التي توصل اليها الانسان بعد التطور المستمر ، وانطلق من النظرية ماركس ووسع مضمونها . (١)

ان هذه المادية تعنى التفسير الحيوانى للانسان المكرم ، انه بالانتاج المادى فليس هناك حق ازلى ولا عدل ، انه تفسير ياخذ الانسان من جانبه الحيوانى فقط ، انه هبوط فى مشاعر الانسان ، واخلافه ، وارتباطاته ، ليكون فى مستوى الحيوان ، فجاء ما يقال له : التفسير المادى للتاريخ ، والجنس للسلوك ، والجسمانى للمشاعر ، فانت كل الفضائل وهكذا نبتت الماركسية . (٢)

وكانت هذه النظرية اتجاها جديدا لم يسبق فى المسائل البشرية ، وما يتعلق بها تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الانسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسائله وفى تاريخية الانسان الى الحيوان .

ان مناقضة هذه النظرية للدين والعقل فى المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العقلية واضحة بل كان هذا دينا جديدا يهدم الدين القديم من الاساس ويحل محله ، فلا غرابة اذن اذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب وخافوا على مصير الدين فى أوروبا . (٣)

-
- (١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوى ١٩٣ والانسان فى ظل الاديان لعارة نجيب ٢٩-٥٦، ٣١
 (٢) انظر جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب ٨٨-٩٦ ط ١ سنة ١٣٨٤ هـ .
 (٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوى ١٩١-١٩٢ .

" تباين الشعوب والقبائل بين الوحدة الاسلامية والفرقة العنصرية "

قال تعالى : وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم "

ان ثبت ان البشرية كلها تعود في الاصل الى آدم وحواء ، وهما الاصل الذي
تفرعت منه ، وركنا الاسرة الانسانية الاولى ، والربط الاول لوحدتها وتألفها ، ومنهما
بث رجالا ونساء ، سواء كانوا ابنا من الصلب او احفادا من الاحفاد الادنين ، فامتدوا
الى شعوب وقبائل مختلفى الاوطان ، والالوان واللغات والعادات والمشارب .

ان هذه الظاهرة ظاهرة تندد الانسانية وكثرة البشرية الى ان صارت شعوبا
وقبائل تختلف في كثير من المظاهر اللونية واللغوية تتفق فيما عدا ذلك من المعانى
الانسانية كالنزعة الانسانية في الفطرة والفرائض وتوجه الروح والعقل . . . !

(١) الشعب اكبر من القبيلة ، وقد اتفقت اراء اللغويين والمفسرين وحتى الفقهاء على
الترتيب التالى :
الشعب - القبيلة - العمارة - البطن - الفخذ - الفصيلة - العشيرة .
وقد نظمها بعض الادباء :

اقصد الشعب فهو اكثر حى	عددا في الحوا ثم القبيلة
ثم تتلوها العمارة ثم ال	بطن والفخذ بعدها والفصيلة
ثم بعدها العشيرة لكن	هى في جنب ما ذكرناه قليلا

وهذا الترتيب لطبقات البشر ، له اعتبار فقهي عند الفقهاء في باب دية العاقلة
فليس فقط لمجرد معرفة النسب واطلاقات اللغويين .

انظر : الخطاب في فقه المالكية : ٢٦٦ هـ ٦ .

هل هذا الاستداد والتشعب يدعو الى التفرق والتباعد او انه يدعو الى

التقارب والتعارف . . ؟

في ظاهر الامران التعارف يكون في حالة عدم التشعب أكد واطهر فكيف جعل

التشعب علة للتعارف والتقارب ؟

ان هذا الامر عجب ، ولكنه بتأمل صادق وروية هادئة ، يزول هذا الوهم وينتهي العجب ، مجرد استلهاهم الرشد من هذا الاسلوب المعجز ، والدقة البيانية الفائقة ، التي تتعمق في اغوار النفس ، وتسير حقائق الفطرة ، وتقع كل من كان قلبه حيا وذكراه حاضرة ، بان هذا النسيج البديع ليس من كلام البشر انما هو من كلام من صنع هذه الفطرة الانسانية وشعب ابنا رجل واحد وامرأة واحدة الى شعوب واسم ، تختلف مظاهرها ، وتتحد فطرتها ، متداعية داخل هذه النفوس والاجساد والالوان المختلفة الى الانسجام والوئام . . ان الآية تلوح الى توهم البشرية ، الذي فرق بين المتماثلين وابتعدت بين المتقاربين وظنت ان اجناسها لا تلتقى ولا تتقارب وفروعها لا يجمعها اصل ولا يحكمها نظام ، ان جعلت اواصر الشعب واواصر القبيلة اسبابا للتخالف ومناطاً للتفرق والتقاتل ، فاراد الله في القرآن ان يعود بالناس الى الوحدة والالفة كما خلقهم ، فجعلهم اما وارسل اليهم رسلا مبشرين وموعدين ومنذرين يجمعون ولا يفرقون ، يحبون ولا يبغضون ، يألفون ويؤلفون ، قال تعالى :
كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَبَدَّلَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِآيَاتِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١)

وقال تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ^(١) فالاتحاد هو المبدأ الأول للإنسانية ، والاختلاف هو العارض الطارئ ، وقد جاءهم من الكثرة ، ولكن النهاية هي العودة إلى الأصل كما ترشد لهم بذلك الآية الكريمة في تحليلها الدقيق . ^(٢)

وإذا كانت اللام لام ^(٣) الأمر فجملة " لتعارفوا " طلبية فالامر كذلك اوجب لانه طلب من الله سبحانه وتعالى الذي جعلنا من آدم وحواء وهما فردان ذكر وانثى فجعل منهما شعوبا وقبائل ، فلا غرابة ان يتساند الاشقاء ويتعارفوا ولا يلتفتوا إلى اختلاف اللون او تفاوت في اللغة والبيان او كون مطالب الحياة وزعتهم فـ إلى البلاد . ^(٣)

-
- (١) الآية من سورة يونس : ١٩
 (٢) انظر اصول النظام الاجتماعي في الاسلام لمحمد الطاهر عاشور ١٠٨-١٠٩ ،
 والفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر لمحمد البهي : ٣٤٨-٣٤٩
 وازواء البيان لمحمد الامين الشنفتي ٤٤٥ ط ٣ سنة ١٣٨٢ هـ .
 (٣) قرأ ابن عباس لِيَتَعَرَفُوا وانكرها أهل اللغة ،
 انظر : زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي . عند تفسير الآية هذه

• التوسع يدعو إلى التعارف •

ان ضهج الدعوة الاسلامية ، في هذه الاية يدعو البشرية باجمعها ، بهذا النداء " يا ايها الناس " يدعوهم الى ان يفهموا هذه الحقيقة التي لا حياذ عنها ، وهي انهم من اصل واحد وان تشعبوا . . ويتعارفوا عليها لا ليتناكروا ، ويسخر بعضهم من بعض ويفتأبه ، فكما اخبر الله انه خلق البشر لعبادته في قوله تعالى :
 وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (١)

فقد علل هنا جعل العباد شعوبا وقبائل للتعارف لا للفخر ، والجعل هذا اضافة جديدة بعد خلق البشرية ومنحهم مميزات ، لان الخلق اصل تفرع منه الجعل ، وكان ذكر الاعم وهو الشعوب والقبائل ابعد عن الافتخار ، لان في الاعم الضعفاء ، والاقوياء ، والاغنياء ، والفقراء ، والعلماء ، والجهال ، وكل ذلك يدعو الى امرين :

(٢) التناصر لا التفاخر ، والتعارف لا التناكر .

ان سنة الله في الحياة ، اقتضت وجود متقابلين في الوجود ، ودعت الى لقاء بينهما ، وتكوين الوحدة بسبب الميل الطبيعي في اللقاء ، ولكي يتم ذلك ، ويبقى بين وحدات الوجود الانساني ، خلق الله بينها الذكر والانثى ، وخلق بين النوعين تقابلا في التكوين ، ليكون دافعا الى التقارب ، وجعل في كل مجموعة منها ، ما يحرك الى اللقاء ، بمجموعة اخرى ، فالذكوة والانوثة عامل للتقابل بين الافراد ، والاختلاف

(١) الاية من سورة الذاريات ٥٦

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٣٨ - ٢٨٠ .

بين المجموعات او الشعوب في اصلها وعرفها هو نفسه الدافع للتقارب والالفة، ومعنى هذا ان افراد الانسان لو كانوا جميعا ذكورا أو اناثا ، او كان الناس شعبا واحدا او قبيلة واحدة ، لكان ذلك دافعا للنفرة وعدم الوثام . . . ! . . . واذا تأملنا الموجودات نجدها خلقها الله على اساس الزوجية وهو التقابل ، والاختلاف بين افراد النوع " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (١) وقال تعالى : سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ " (٢)

واذن ليس هناك فضل ذاتي لاحد طرفي التقابل على الاخر ، لا للذكر على الانثى ولا للانثى على الذكر ، ولا لقبيلة على اخرى في ذاتها ، ولا لشعب على شعب آخر في ذاته . الا بالاعمال الصالحة والاخلاق المحمودة . . . والتقابل بين الطرفين يعطى فقط : ان وظيفته هي حطها على اللقاء والتقارب والتعارف . (٣)

ان توزع الناس الى شعوب وقبائل ليس امرا ذاتيا تتغير به حقيقة الانسانية في الناس ، انهم مهما اختلفوا شعوبا واطنانا فانهم اخوة قرابة ونسبا ، وبالتعارف يكون لهم في مجتمع الشعب او القبيلة تماسك وترايط ، لانهم في هذا المحيط الضيق - نسبا - اقدر على التعارف والتآخي ، الامر الذي لا يقع - ان وقع - الا باهتا لا يكاد يحس لو ان الانسان كان فردا في الانسانية كلها ، فالاسرة لا تبعدنا عن

(١) الاية من سورة الروم ٢١

(٢) الاية من سورة يس : ٣٦

(٣) القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهي : ١٣-١٥ .

الامة ولا تقطعنا عن مجتمعنا ، والامة كذلك لا تقطعنا عن المجتمع البشري ،
فالاختلاف الواقع بين الناس يدعوهم الى التعارف . (١)

ان جعل هذا ذكرا وهذا انثى ، وتباين بين الاجناس في الشكل واللسوان ،
واللغات والعادات او الاوطان ، لا يغير من الحقيقة شيئا ، وهي ان الانسان
يعمله لا بشيء آخر ، وانما كان هذا التفريق الصوري من باب التفريق بين المتماثلين
كالافراد الذين نجدهم من اب واحد وام واحده ولكل اسم وعلامات تفرقه عن الاخر . (٢)

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤٥٣ ح ٢٦

(٢) انظر : حقوق الانسان في الاسلام للدكتور علي عبد الواحد وافى ط ٤ سنه
١٣٨٧ هـ ، دار النهضة بالقاهرة .

” الحب لا أثر له في كرم الإنسان وشرفه عند الله ”

ولما كان النسب من ابرز مظاهر الفخر عند الناس ، جاءت الآية تربط الناس بنسب واحد ، وتلفت انظارهم الى انه لا عبرة بالنسب في فخركم عند الله ، لانه ليس لسعى احد ولا قدرة لاحد ان يعطى نفسه نسبا كما يريد ، فكيف يفتخر الانسان بما لا مدخل لكسبه فيه ولا قدرة له ولا تصرف ولا سبب ؟ ولو سلمنا جدلا ان الانتساب الى فضيلة من البشر او شخص معين في حد ذاتهما ، او الى واحد منهما بسبب فضيلة مكتسبة مما يدعو الى فخر الانسان على اخيه الانسان ، فهو امر ساقط ، منقوض من اساسه لا يقبله العقل فضلا عن الوحي . . لان هذه الفضيلة او الشخص المفتخر بهما ، لا يخرجان عن الوحدة الانسانية في المنشأ والعنصر ، ولا كسب لاحد في خلقه وجعله من جنس هذا او ذاك .

وان كان الافتخار بسبب الانتساب الى من هو صاحب فضيلة مكتسبة ، فلا يجوز ولا يعقل ان يفتخر الانسان على اخيه الانسان بما لم يفعله ، ولم يكتسبه هو بنفسه ، ولو جاز له ذلك فالفخر عليه لا شك ان في اصوله من الفضائل او الاشخاص من له فضيلة مكتسبة . (١) لانه لا يخلو جنس من الخير وشيم الاخلاق وان تفاوت الناس في ذلك والخيرية هذه المكتسبة مرتبطة بالتقوى التي هي الفخر كما في الحديث الصحيح : **وَالنَّاسُ مَعَارِدٌ : خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهَمُوا** . (٢)

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي : ١٣٩ ح ٢٨ وروح المعاني للالوس : ١٦٤ ح ٢٦ ط ٢ ، احياء التراث العربي بيروت .

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب ، الفتح : ٥٢٦ ح ٦ .

والله سبحانه وتعالى يقول : لا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحْسِنُونَ
بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * (١) وهكذا الكل واحد
من المفتخرين أن يزعم شيئا يفتخر به - ان جاز لــــه - من جنس ما يفتخر به عليه ، وكل
له ان يدلى بما ادلى به الآخر ، لان كل واحد يعود الى آدم وحواء ومن أب وام (٢)
واذا استمر الفخر بالحسب حتى ينتهى الى آدم وحواء وهو من التراب، وعندئذ يسقط
الجميع او يرتفع الجميع ، بل لم يكن للانسان في الوحي والعقل معا ان يفخر على غيره
بما اوتى من فضيلة لانه لم يمنحها لنفسه ولم يملك منعها عن غيره ، انما ذلك كله لله
ومنه * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ * (٣)
وفي الدعاء : لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا سَأَلْتَهُ وَلَا يَنْفَعُ زُلْمَ الْجَدِّ مِنْكَ
الْجَدِّ * (٤)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما (٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : خَطَبَ
النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَزْهَبَ عَنْكُمْ عِبْرَةَ الْجَاهِلِيَّةِ

- (١) الآية من سورة آل عمران : ١٨٨ ،
(٢) انظر عمدة القارى على البخارى للعيني : ٦٦ - ١٦ ، دار احياء التراث
العربى - بيروت .
(٣) الآية من سورة النحل : ٥٣
(٤) رواه البخارى ، الفتح : ١٢٣ - ١١ .
(٥) عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما توفي بمكة سنة ٧٣ هـ قيل بسم دسه
له الحجاج .
انظر الاستيعاب على هامش الاصابة ٣٤١ - ٣٤٥ - ٢ .
(٦) عِبْرَةٌ : الكبر وتضم عينها وتكسر وهى فعولة او فعيلة ، فان كانت فعولة فهى ممن
التعبية لان المتكبر ذو تكلف وتعبئة ، خلاف من يسترسل على سجية . وان كانت
فعيلة فهى من عاب الماء وهو اوله وارتفاعه * النهاية لابن الاثير ١٦٩ - ٣ .

وتعاطفها بابائها فالناس رجلا ن : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على
الله ، والناس بنو آدم ، وخلق آدم من تراب * ثم تلا الرسول صلى الله عليه وسلم
آية الحجرات * (١)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله قد اذهب عنكم عيبة الجاهلية
وفخرها بالاباء ، مؤمن تقى وفاجر شقى ، انتم بنوا آدم وادم من تراب ، ليدعن
رجال فخرهم باقوام انما هم فحم من فحم جهنم ، اوليكونن اهون على الله من
الجعلان (٢) التي تدفع بانفها النتن * (٣)

وروى : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اثنتان في الناس هما بهن كفر :

(١) رواه الترمذى وقال : حديث غريب وفيه على بن المدينى وهو ضعوفه .
وقال ابن العربى : وهو صحيح عندى . . وقد ذكر له سندا .
انظر عارضة الاحوذى على الترمذى ١٥٦ ح ١١

(٢) قال العلامة المدسى :
الجمل كصرد ورطب وجمعه جعلان بكسر الجيم والعين ساكنة والناس يسـمونه
ابا جعران لانه يجمع الجعر اليابس ، ويدخره فى بيته ، وهو دويبة معروفة تسمى
الزعقوق تعض البهائم فى فروجها ، وهو اكبر من الخنفساء شديد السواد فى بطنه
لون حمرة للذكر قرنان يوجد كثيرا فى مراح البقر والجواميس ومواضع الروث ويتولد
غالبا من اخشاء البقر ومن شانه جمع النجاسة وادخارها .
ومن عجيب امره انه يموت من ريح الورد وريح الطيب فاذا اعيد الى الـروث
عاش . . . ومن عاداته ان يحرس النيام فمن قام لقلضا حاجته تبعه وذلك من
شهوته للفائط لانه قوته * حياة الحيوان : ١٩٦ ح ١ مطبعة مصطفى محمد
القاهرة ،

وقال القارى : شبه المفتخرين بابائهم الذين ماتوا فى الجاهلية بالجعلان وابائهم
المفتخر بهم بالعدرة ونفس افتخارهم بهم بالدفع والهدده بالانفا والمعنى
ان احد الامرين واقع البته اما الانتها عن الافتخار او كونهم اذل عند الله تعالى
من الجعلان الموصوفة * عون المعبود شرح سنن ابى داود : ٢٤/٢٣ ح ١٤ .

(٣) رواه ابوداود : ٢١-٢٢ ج ٤ ، والترمذى قال بحسن صحيح : ٢١-٢٢ ج ٤

الطعن في النسب والتياحة عن الميت (١) *

وقال : * من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكفوا * (٢)

(٣)

قال ابن سعد رضي الله عنه : من نصبر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردى (٤) فهو ينزع بذنبيه

وعن جبير بن مطعم (٦) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية * (٧) وعسن

(١) رواه مسلم في كتاب الايمان - النووى على صحيح مسلم : ٥٧ ج ٢

(٢) رواه الامام أحمد : ١٣٦ ج ٥ السند

(٣) عبد الله سعد بن غافل بالغين الهدي أبو عبد الرحمن حالف في الجاهلية بني زهره وكان سبب اسلامه أنه كان يرعى الغنم فمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله شاء ليحلبها لم يستحلوبت لم ينز عليها الفحل فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرعها فنزل العليب فحلب وشرب ومن بعدهم أمر الضرع أن يقلص فقلص فطلب ابن سعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه فعله وسح رأسه وقال : يرحمك الله فانك عليم معلم قال أبو عمر : ثم ضمه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلج عليه ويلبسه نعليه ويمشي امامه ويمسره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام ومناقب ابن سعد كثيرة وهو من السابقين الى الاسلام هوساد سسته في الاسلام وهاجر هجرتين وأقر الناس القرآن وسام آيه وسورقالا ويعلم اين نزلتوفين نزلت وهو من المبشر لهم بالجنة توفي رضي الله عنه سنة ٣٢ و٣٣ هـ انظر ترجمة في الاصابه : ٣٨ والاصابه على هامش الاصابه : ٣٦٦-٣٣٤ ج ٢

(٤) ردى : أى سقط وفي لفظ ترى وهما سوا ، والمراد وقع في الهلاك كالبعير اذا وقع في البئر ويراد نزعته بذنبه فانه يزداد الما وصورة اخراجه فيها من التشويه مالا يخفي

(٥) رواه أبو داود في باب العصبية : رقم ٥١١٧ ج ٤ وهو موقوف على ابن سعد .

(٦) جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف اسم يوم فتح مكة أو قبل حنين وكان حليها وقورا عارفا بالنسب اعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم مئة من الابل توفي سنة ٥٨ هـ أو ٥٩ هـ بالمدينه ،

ترجمته في الاصابة : ٢٢٥ ج ١ والخلاصة للخزرجي : ٦٠-٦١ ط ٢ .

(٧) رواه أبو داود في باب العصبية : رقم ١٢١ ج ٥ والحد يثوان كان فيها نقطاع كما يقول المناوى والحافظ

المنذرى فان معناه جاء في روايته مسلم (كافي الحديث بعده) والنسائي لان من رواه عن جبير لم يسمع منه وفيه محمد بن عبد الرحمن المكي أو البكي وهو مجهول . انظر مختصر سنن أبي داود للمنذرى

ج ٩ : دار المعرفه . وفيه القدير للمناوى : ٢٨٦ ج ١

ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ، فَمَاتَ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ (١) يَفْضِبُ لِعَصْبَةِ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقَتَلَ فَقَتَلَهُ جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَا مِنْ مَوْئِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَئِنْ مَنِيَّ وَلَسْتُ مِنْهُ . (٢)**

وفى هذا الحديث الشريف ذم لكل ما هو جاهلي و ذم الفخر بالحساب وعدوان على الآخرين بسبب هذه الدعوى .

يذكر شيخ الاسلام ابن تيمية معلقا على الحديث انه ضم الاقسام الثلاثة التي يعقد لها الفقهاء * باب قتال اهل القبلة من البغاة والعداوة واهل العصبية فيقول :

القسم الاول الخارجون عن طاعة السلطان ، فهى عن نفس الخروج عن الطاعة والجماعة وبين انه ان مات ولا طاعة عليه لام مات مائة جاهلية فان اهل

- (١) عمية : فعيلة من العماء : وهى الضلالة كالقتال فى العصبية والاهواء وحكى بعضهم فيها ضم العين * النهاية لابن الاثير : ٣٠٤ ح ٣ .
- (٢) رواه مسلم بسياقين عن ابى هريرة فى كتاب الامارة ، النووى على صحيح مسلم : ٣٢٨-٣٢٩ ح ١٢ والامام احمد بعض الفاظه فى السند : ١٣٠ ح ٤ و ٢٠٢ و ٣٤٤ ح ٥ ، وابن ماجه ١٣٠ ح ٢ .

(٣) هو الامام احمد بن عبد السلام ، تقى الدين بن تيمية ولد بخران سنة ٦٦١ هـ ، وفر اهلته من التستر وهم يحطونه سنة ٦٦٧ هـ الى دمشق وفيها نشأ وبدأ حياته العلمية والدعوة الى الله ، وكانت هذه الاسرة مشهورة بالعلم والورع والتقوى . وقد شارك فى حروب التتر . وقد تصدى لطوائف الضلال والبدع فى العقيدة والشريعة وحتى للكفار من النصارى واليهود ومن فى درجهم . . . وناظر العلماء والفلاسفة وفند حججهم ودافع عن العقيدة الاسلامية دفاع الشجاع المستميت وقد كان اعجوبة فى كل فن وكتب كتبا كثيرة نافعة فهو مدرسة . وقد اسهب ابن حجر فى ترجمته ونقل آراء خصومه وانصاره فيه ، وهو رحمه الله زج فى سجون الشام والقاهرة ولم يزد له ذلك الا اصرارا فى الحق حتى توفى سنة ٧٢٦ بسجن دمشق رحمه الله رحمة واسعة ،

انظر فى ترجمته : الدرر الكامنة لابن حجر ١٥٤-١٧٠ ح ١ والبيدر الطالع للشوكانى ٦٣-٧٢ ح ١

الجاهلية ^(١) من العرب ونحوهم لم يكونوا يطيعون اميرا عاما ، على ما هو معروف من سيرتهم .

القسم الثاني :

ثم ذكر الذى يقاتل تعصبا لقومه ، او اهل بلده ونحو ذلك . وسمى الرياسة " عيياء " لانه الامر الاعمى الذى لا يدري وجهه ، فكذلك فقال العصبية يكسون عن غير علم بجواز قتال هذا ، وجعل قتلة المقتول قتلة جاهلية ، سواء غضب بقلبه ، او دعا بلسانه او ضرب بيده .

القسم الثالث :

الخوارج على الامة اما من العداة الذين غرضهم الاموال ، كقطاع الطريق ونحوهم ، او غرضهم الرياسة ، كمن يقتل اهل المصر الذين هم تحت حكم غيره مطلقا ، وان لم يكونوا مقاتلة ، او من الخارجين " عن السنة الذين يستحلون دماء اهــلـ"

(١) الجاهلية ليس المراد بها فقط ما يقابل العلم بل هي ناشئة عن الاحـسـوال الناشئة من الانصراف عن تدبر آيات الله الكونية وآياته المنزلة وكان ذلك يستلزم الجهل من المعرض وان كان عالما . يقول العلامة ابن تيمية في هذه الكلمة : ولفظ الجاهلية قد يكون اسما للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة وقد يكون اسما لذى الحال ، فالاول كما ورد فى النصوص من وصف بعض الامور بانها حال جاهلية او طريقة جاهلية او عبادة جاهلية ونحو ذلك ، فان لفظ " الجاهلية " وان كان فى الاصل صفة ، لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار اسما ، ومعناه قريب من معنى المصدر ، واما الثانى : فتقول : طائفة جاهلية ، وشاعر جاهلى ، وذلك نسبة الى الجهل الذى هو عدم العلم او عدم اتباع العلم فان من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا ، فان اعتقد خلافه : فهو جاهل جهلا مركبا . فان قال خلاف الحق عالما بالحق او غير عالم فهو جاهل ايضا كما قال تعالى : وانا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٢٥-٦٣ . وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم : اذا كان احدكم صائما : فلا يرفث ، ولا يفسق ، ولا يجهل" وكقول الشاعر الجاهلى- وهو عمرو بن كلثوم - : الا لا يجهلن احد احد علينا ، فنجهل فوق جهل الجاهلينا . " اقتضاء الصراط المستقيم : ٧٧

القبلة مطلقا . كالحرورية ^(١) الذين قتلهم على رض الله عنه . ^(٢)

وقد اخرج الشيخان ، قصة اقتتال غلامين من المهاجرين والانصار في غزوة بنى المصطلق ^(٣) على الماء . فنادى المهاجرى يا للمهاجرين ، ونادى الانصارى ، يا للانصار ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا دعوى اهل الجاهلية ، وفي رواية ما بال دعوى الجاهلية ، قالوا يارسول الله كسع ^(٤) رجل من المهاجرين ^(٥) رجلا من الانصار ^(٦) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهـا فانها منتنة ^(٧) . ^(٨)

-
- (١) الحرورية نسبة الى حروراء المكان الذى عسكر فيه الخوارج يوم خرجوا على على رض الله عنه فبذلك سمو حرورية ، وكان المسلمون يستفيدون من رأيهم . وناظروهم ، كما قاتلهم الخلفاء كعمر بن عبد العزيز رحمه الله ، انظر الطبقات لابن سعد : ٣٢ - ٣٣ و ٣٥٧ - ٣٥٨ هـ .
- (٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية : ٢٤ - ٢٥ مطابع المجد .
- (٣) في سنة ه ه ه .
- (٤) كسع اى ضربه على دبره .
- (٥) هو جهجاه بن قيس الغفارى اجير لعمر بن الخطاب رض الله عنه .
- (٦) سنان بن وبرة الجهنى حليف للانصار ، انظر الطبقات لابن سعد : ٦٣ - ٦٥ هـ .
- (٧) اى قبحة كريهة موعظة .
- (٨) النووى على سلم : ١٣٨ هـ ١٦ ، والبخارى مع الفتح : ٥٤٦ هـ ٦ .

فهاتان نسبتان محمودتان عند الله سبحانه وتعالى ، واسمان شرعيان جاء في كتاب الله تعالى : والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ^(١) ، والانتساب الى النسبتين ليس فقط للتعريف كالتبائن . . . وقد نادى بهما غلامان ليسا من علية القوم بل هما من الاتباع ، ومع هذا فقد انكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه المناداة المفضية الى الفخر والعصبية وسماها دعوى الجاهلية ولا يعارض هذا ان ينتصر الانسان بالحق ويدعو الى العدل . فاذا كان التداعي بهذه الاسماء والنسب المرضية بغية التعصب دعوى جاهلية ، فكيف التداعي بما هو تعصب مطلقا من الانساب والاضافات التي تكون مباحة او مكروهة ^(٢) .

ولو امكن لاحد ان يفخر بالانتساب الى احد وينفعه دون عمل يكتسبه هو وتقوى يتصف بها قولا وسلوكا لجاز لمن انتسب الى الرسل عليهم الصلاة والسلام ان يفخر على غيره ، فانه ليس هناك نسب ارفع من نسبهم ولا فضيلة فوق فضيلتهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نفى اى كسب بسبب الانتساب اليهم بما فى ذلك الفخر ، فقال عليه الصلاة والسلام " نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ " ^(٣) وأثبت ميراث التقوى للعلماء والعاملين فقال عليه الصلاة والسلام : **إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ** ^(٤) .

وقد رد الله سبحانه وتعالى على نوح عليه السلام عندما ناداه لاجل ابنه

(١) الآية من سورة التوبة : ١٠٠

(٢) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية : ٧١-٧٢

(٣) رواه الامام مالك في الموطأ : ٤٨٣ ج ١ ط ١ سنة ١٣٨٢ هـ والحلبى ، القايره . رواه البخارى فتح

البارى على صحيح البخارى في كتاب الفرائض : ٥-٧ ج ١٢

(٤) رواه أبوداود في أول كتاب العلم رقم : ٣٦٤١ ج ٣ وابن ماجه : ١٨١ ج ١ ورواه الترمذى في آخر كتاب

العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العباد رقم ٢٦٨٢ وقال : ولا نعرف هذا الحديث الا من

حدثه عاصم بن رجا بن حيوة وليس عندي بمتصل هكذا حدثنا محمود بن خداش بهذا الاستاد

وانما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجا بن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن ابي

الدردا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا أصح من حديث محمود بن خداش ورأى محمد بن اسماعيل

أصح ٤٩ ج ٥

الذى هلك مع غيره من غرق بالطوفان ، فقال عز من قائل رادا على نوح فسوى
سؤاله عن ابنه : **إِنَّهُ لَمِنَ مَنِ اهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ^(١) فنفى انتماؤه اليه
لا لانه ليس من صلبه بل هو من صلبه ولذا لم يرد عليه قوله : ان ابنى * ولكن رد
عليه انتماؤه إلى اسرة نوح المؤمنة وهم الذين لهم عمل صالح . فليس الابن هذا
من ضمن لهم النجاه من الفرق فى الطوفان ، كما يدل عليه سياق الآيات فى هذه
القصة . ^(٢)

وما يزيد هذا وضوحا ما اعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم لعشيرته الاقربين

عندما امر بانذارهم بعد نزول قوله تعالى : **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ^(٣) **يَا بَنِي عَبْدِ
مَنْفٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الرَّزْمِ** ^(٤)
ابْنِ الْعَوَامِ وَيَا عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَا فَاطِمَةَ ^(٥) **بِنْتَ مُحَمَّدٍ اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا
مِنَ اللَّهِ ، لَا أَمَلُكَ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا** ^(٦) ^(٧) .

(١) الآية من سورة هود : ٤٥-٤٦

(٢) انظر تفسير الرازى : ١٣٩ - ٢٨ ،

روح المعانى للالوس : ١٦٦ - ٢٦ ،

وجلاء الافهام لابن القيم : ١٤٦ طبعة النيرية سنة ١٣٥٧ هـ ، دمشق .

(٣) الآية من سورة الشعراء : ٢١٤

(٤) الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد حواري رسول الله ابو عبد الله احد العشرة
البشرين بالجنة واحد الستة من اهل الشورى اسلم وعمره اثنتا عشرة وقيل ثمان
سنين قتل اثر " الجمل " سنة ٣٦ هـ . الاصابة : ٥٤٥-٥٤٦ هـ .

(٥) صفية بنت عبد المطلب شقيقة حمزة وامها هالة بنت وهب خالة رسول الله وقصد
هاجرت مع ولدها الزبير ، وقد قتلت يهوديا فى غزوة الاحزاب توفيت عن ثلاث
وسبعين سنة سنة ٢٠ هـ ودفنت فى البقيع ،
الاصابة والاستيعاب ٣٤٥ و٣٤٨ هـ .

(٦) فاطمة بنت رسول الله اصغر بناته ولدت قبل البعثة بقليل . وهى اول من لحق
برسول الله من اهله سنة ١١ هـ ، الاصابة : ٣٧٧ - ٣٨٠ هـ .

(٧) رواه البخارى ، الفتح : ٥٥١ هـ .

وقد ذكر العلامة ابن القيم اختلاف العلماء في المراد بآل النبي صلى الله عليه وسلم ومن بين هذه الآراء ان آله هم اتباعه من المؤمنين الى يوم القيامة . . . واذ كان هذا الرأي مرجوحا فلا سبيل الى الشك في ان الاتفisia من أمته هم أولياؤه .

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ^(١) إِنَّ آلَ أَبِي لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّ أَوْلِيَاءِي إِلَّا الْمُتَّقُونَ أَيْنَ كَانُوا وَمَنْ كَانُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ^(٢) وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرَةٌ

والمقصود ان المتقين هم أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولياؤه أحب اليه من آله ^(٣)

وخلاصة القول ان الدعوة الاسلاميه في منهجها ابطلت التقديس بلا عمل وتقوى، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يستغفروا للمشركين " ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا ذاقوا قربي " ^(٤)

(١) رواه البخارى ، الفتح : ٤١٩ ج ١٠ واللفظ له رواه مسلم - النووى على صحيح مسلم

٢ ج ٨٧

(٢) الايه من سورة التحريم : ٤

(٣) انظر جلاء الافهام لابن القيم : ١٤٥-١٥٠

(٤) الايه من سورة التوبه : ١٣

ان منهج الدعوة في غرس هذه القاعدة في نفوس المؤمنين بل البشرية جميعا ،
 لم يكن مختصرا على جانب معين فقط تحرم فيه الدعوة الفخر بالاحساب ، دون أن تعم
 ذلك في منهجها العام والخاص بل اننا نجد ترابطا شاملا وثيقا بين جزئيات الدعوة
 وكلياتها . وفي الجمع مراعاة الوحدة الانسانية واولوية التقوى في كل شئ ، وتتبع
 خطى الصدق دائما وابدأ . وهو امر يطول بنا لو تتبعناه في قواعد الدعوة وفروعها ،
 وليتضح ذلك نذكر مثلا ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم شدد النكير على من
 ينتسب الى غير ابيه او غير مواليه كما جاء عن ابي (١) زر رضى الله عنه انه سمع النبي
 صلى الله عليه وسلم يقول : لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ إِذْ عَى لِغَيْرِ أَبِيهِ - وَهُوَ يَعْلَمُهُ - إِلَّا كَفَرَ
 بِاللَّهِ وَمَنْ إِذْ عَى قَوْمًا لَيْسَ لِحَمِّهِمْ فِيهِمْ نَسَبٌ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ * (٢) وعن واثلة (٣)
 ابن الاسقع يقول : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَا أَنْ يَدَّعَى
 الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يَرَى عَيْنَهُ مَالَهُ تَرَ ، أَوْ يَقُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مَالَهُ يَقُلْ * (٤)

(١) ابو زر جندب بن جنادة الغفاري الزاهد وصادق اللهجة لما علم بمبعث النبي
 صلى الله عليه وسلم قدم مكة وكان لا يعرفه وقد ادخله عليه على رضى الله عنه
 بعد ثلاثة ايام فاسلم وصرخ باسلامه امام قريش وعاد الى قومه داعية توفي سنه
 ٣١ هـ ،

الاصابة : ٦٣-٦٤ هـ ،

(٢) رواه البخارى / فتح البارى على صحيح البخارى : ٥٣٩-ج ٦ وسلم- النووى على صحيح مسلم ٤٩-ج ٢

(٣) واثلة بن الاسقع من بنى ليث اسلم قبل تبوك وهو اخر من توفي من الصحابة
 فى دمشق سنة ٨٥ هـ .

(٤) رواه البخارى ، الفتح : ٥٤٠ هـ ٦

وفي رواية: مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ . . . وروايه أخرى
مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ لَهُ يَرْحُ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ . وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسَائَةِ عَامٍ

وعن سعد^(١) بن مالك قال سمعت ان ناي ووطاه قلبي من محمد صلى الله عليه وسلم
انه قال مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ^(٢)

وعن أنس^(٣) بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ ادَّعَى إِلَى
غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَسَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمَتَّابِعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ تَوَلَّى
قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ
وَلَا عَدْلٌ^(٤)

(١) سعد بن أبي وقاص بن مالك بن وهيب الزهري أحد العشرة المبشرين بالجنة وأخراهم موتا
وأول من رمى في سبيل الله ، وقد هاجر قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان مسن
الفرسان والقواد في الاسلام في فتح العراق وهو الذي خط الكوفة ، توفي في قصره
بالمعيق في المدينة وحمل الى البقيع ودفن فيه سنة ٥٥ هـ وقبل سنة ٦٤ هـ وقيل سنة ٥٧ هـ ،
١٣٥" الخلاصة للخزرجي .

(٢) رواء أبو داود : رقم ٥١١٣ ج٤ وسلم - النووى ٣ صحيح مسلم : ٥١-٢٥٣ ج٢ ، وابن ماجه
٢٨٧ ج٢ والبخارى في كتاب المغازي ج١٠ الفتح ٤٥-٨ ج١

(٣) أنس بن مالك بن النضر الانصارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كثر ماله وولده
وعمر ببركة دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم له بذلك توفي سنة ٩٣ هـ : انظر الاصابه
٧١ والاستعاب على هامش الاصابه لابن عبد البر : ٧١-٧٣ ج١

(٤) أبو داود رقم : ٥١١٤ ورقم ٥١١٥ ج٤ والاسنم أحمد في السند : ٢٧٥ ج٣ ، والترمذى
وقال هذا حديث حسن صحيح : رقم ٢١٢٧ ج٤ في كتاب الولا والهيبة .
وفي فيض القدير على الجامع الصغير للمناوى انها روايات صحيحه ٤٦ ، ١١١ ج٦

والمقصود الذى تهدف اليه هذه النصوص واضح وهو ان ذلك لا يفعله الا كاذب وقد حرم الله الكذب وشدد النكير على من كذب عليه ^(١) فقال تعالى : * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ * ^(٢) وقال تعالى * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ * ^(٣)

وهو شعور كذلك بالنقص بلا مبرر وعدوان على الآباء الذين امر الله ببيهرهم وعلى ذوى الارحام الذين امر الله بصلتهم - لان الله سبحانه وتعالى اخبر الآ فضل لاحسد على أحد بالانتساب او الولاء الى اى جنس كان او شخص بدون التقوى ، ومن ناحية اخرى هو اعتراض على الله سبحانه وتعالى ، الذى خلقه كيف شاء ووضع من بين النوع فى الموضع الذى اراد لحكمة ارادها ويعلمها هو ، وهى الحكمة التى تصرف فى البشر جميعا ، فجعلت هذا ابيض وهذا اسود ، وهذا عربيا وذاك اعجميا ، او غنيا او فقيرا او عالما او جاهلا . . . !!

وقد ابطل الله سبحانه وتعالى ما كانت عليه الجاهلية من نظام التبنى قبل الاسلام فى قوله تعالى : * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ اقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ * ^(٤)

ونهى عن مسألة الظهار فى قوله تعالى : الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّاءُ وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ^(٥)

(١) انظر فتح البارى ٥٤١ ج ٦

(٢) الايه من سورة الاعراف ٣٧

(٣) الايه من سورة الانعام : ١٤٤

(٤) الايه من سورة الاحزاب : ٥

(٥) الايه من سورة السجدة له : ٢ .

منافع النسب وواجباته

وليس معنى هذا ان ضهج الدعوة الاسلامية في بناء المجتمع الصالح في رفضه الفخر الكاذب والتعالى على خلق الله ، ليس معنى هذا انه يرفض منافع النسب وينكسر فائدة عراقة الانساب والحث على معرفة الضروري منها لصلة الرحم ، والاستفادة من النسب للدين والدنيا ، وكل ذلك انما يستفاد من الآية التي تربط البشرية بنسب واحد بل " ومعرفة الانساب من اعظم النعم التي اكرم الله بها عباده لان تشعب الانساب على افتراق القبائل والطوائف احد الاسباب المسهدة لحصول الائتلاف وكذلك اختلاف الالمنة والصور وتباين الالوان " (١)

وقد صدر الامام البخارى (٢) في جامعه " كتاب المناقب " بآية الحجرات هذه ، وقال الحافظ ابن حجر (٣) يشير الى ما تضمنته هذه الآية من ان المناقب عند الله

(١) انظر الانساب لعبد الكريم بن محمد التميمي الصنعاني : ٣-٤ ط ١ سنة ١٣٨٢ هـ دائرة المعارف العثمانية ، الهند .

(٢) البخارى ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة بن دزبه الجعفي مولاهم البخارى وهي من بلاد ما وراء النهر وبينها وبين سمرقند مسافة ثمانية ايام ، روى عن كثير من التابعين فمن بعدهم حتى كتب عن اقرانه وتلاميذه وكان اول من اسلم من آبائه المغيرة ، وقد استحنه اهل بغداد وظهر حفظه وثبتت لهم امامته وجلالته . ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ وتوفي ليلة السبت بعد صلاة العشاء ليلة عيد الفطر ودفن يوم الفطر في قرية من قرى سمرقند رحمه الله من امام صالح نافع للاسلام والمسلمين ، وكتابه الجامع اشهر من ان يعرف به برز .

انظر ترجمته : وفيات الاعيان لابن خلكان : ١٨٨-١٩١ هـ ،
وتهذيب التهذيب لابن حجر : ٤٧-٥٥ هـ .

(٣) ابن حجر : احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن احمد الشهاب ابو الفضل الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر وهو لقب لبعض ابائه وهو الحافظ الكبير صاحب التصانيف النافعة اجلها " فتح البارى شرح الجامع الصحيح للبخارى " ولد سنة ٧٧٣ هـ بمصر ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنوات توفي فى ذى الحجة سنة ٨٥٢ هـ .

انما هي بالتقوى بان يعمل بطاعته ويكف عن معصيته * وقال والمراد بذكر هذه الآية الاشارة الى الاحتياج الى معرفة النسب ايضا لانه يعرف به ذوا الارحام الأمور بصلتهم ، ويعنى بالاية الاخيرة آية النساء * يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة رُ الآية ، لان البخارى ذكرها بعد آية الحجرات . (١)

وقل نقل الحافظ ابن حجر نقد ابن حزم لمن يهون شأن معرفة الانساب ، وانه علم لا ينفع وجهله لا يضر ، وفيه ان النسب منه ما هو فرض على كل احد ان يعرفه ، وما هو فرض على الكفاية وما هو مستحب فمن ذلك ان يعلم نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وما يتعلق بالخليفة ، عند من يشترط القرشية ، وان يعرف نسب المعاصم فى النكاح ولوجوب النفقة وصلة الرحم ، ومعرفة الصحابة لان حبهم واجب ومطلوب من المهاجرين والانصار الذين ثبتت الوصية بهم وان حبهم من الايمان وكرههم من النفاق ، وحسبى معرفة انساب اهل الذمة ليفرق بين من تؤخذ منه الجزية ومن لم تؤخذ منه ، ومن يسترق ومن لا يسترق كما هو مشهور عند الفقهاء .

ومعرفة الانساب عليها اعتمد عمر (٢) فى ترتيب الديوان للقبايل وقد تبعه فى ذلك الخليفان الراشدان من بعده وهما : عثمان بن عفان (٣) وطى —

= انظر ترجمته فى البدر الطالع فى محاسن من بعد القرن السابع للشوكانى : ٨٧ - ٩٢ ط ١ سنة ١٣٤٨ هـ ، طبعة السعادة بمصر .

(١) فتح البارى على صحيح البخارى : ٥٢٥ - ٥٢٧ ط ٦

(٢) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشى من بنى عدى كان من اشهد الناس عداوة للاسلام والمسلمين ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وهو من اوائل من اسلم وكان اسلامه نصرا للمسلمين وسماه الرسول صلى الله عليه وسلم فاروقا وهو الخليفة الثانى وقتل شهيد سنة ٢٣ هـ ، انظر ترجمته فى الاصابة : ٥١٨ ط ٢ ، والاستيعاب على هامش الاصابة : ٤٥٨ ط ٢ .

(٣) عثمان بن عفان بن ابي العاصى القرشى الاموى ولد بعد الفيل بست سنين وهو =

ابن طالب . (١) رضى الله عنهم جميعا .

وذكر الحافظ الاثر المرفوع " تَعَلَّمُوا مِنْ أَسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ " (٢)

ثم قال : والذي يظهر حمل ما ورد من زمه على التعق في حتى يشتغل عما هو اهم منه وحمل ما ورد في استحسانه على ما تقدم من الوجوه التي اوردها ابن حزم ولا يخفى ان بعض ذلك لا يختص بعلم النسب والله المستعان . (٣)

ان منهج الدعوة الاسلامية في بناء المجتمع المؤمن كان رفضه للفخر بالاحساب واضحا ، وهو الحساب الذي يتخذ مبدأ تفريق بين بنى البشر بلا عمل ولا تقوى ، سواء كان هذا النسب الى شخص او قبيلة او شعب او وطن او صفة غير التقوى . . . في الوقت الذي يدعونا فيه منهج الدعوة الى معرفة انسابنا والحفاظ على اصولنا لا لى شىء غير انه سبب لصلة الرحم واداء الحقوق ، التي تحافظ بها على الوحدة والاخوة في الله ، ونتوج كل ذلك بطالب الرابطة الاسلامية ، وهي اسى هدف واروع الفة اهتدى اليها البشر ، قال تعالى : **وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** (٤) وقال تعالى :

= من اوائل من اسلم على يد ابي بكر الصديق رضى الله عنهما وهو الخليفة الراشد الثالث قتل ظلما وعدوانا فنال الشهادة سنة ٣٥ هـ ،
انظر ترجمته في الاصابة : ٤٦٢ ج ٢ ،
والاستيعاب على هامش الاصابة : ٦٩ ج ٣ .

(١) على بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد قبل البعثة ، بعشر سنين وهو اول من اسلم مفي قول كثير من اهل العلم ، وهو الخليفة الراشد الرابع قتل ونال الشهادة على يد الخوارج سنة ٤٠ هـ ترجمته : في الاصابة : ٥٠٧ ج ٢

(٢) رواه الترمذى وقال حديث غريب رقم ١٩٧٩ ج ٤ في كتاب البر والصله .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٥٢٧-٥٢٨ ج ٦

(٤) الاية من سورة الانفال : ٧٥ .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * (١)

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة قال نعم اما ترضين ان اصل من وصلك واقطع من قطعك قالت بلى ، قال : فذاك (٢) وعنه : ان رجلا قال : يا رسول الله : إِنْ لِي قَرَابَةٌ أَصْلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ فَقَالَ : لَنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكُنَّا تَسْفَهُمُ الْمَلْ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ عَلَى ذَلِكَ * (٤)

وعن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها (٥) قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرَّحِمُ مَعْلُوقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ * (٦)

- (١) الأيتان من سورة محمد ٢٢-٢٤ .
 (٢) صحيح البخارى مع شرحه : ٤١٧ ج ١٠ وصحيح مسلم مع شرحه للنووى : ١١٢ ج ١ ،
 (٣) تسفههم المل : أى تحرقهم الرمل الحارة ، لسان العرب مادة : سفه ومل .
 (٤) رواه مسلم-النووى : ١١٥-١٦٦

(٥) عائشة بنت ابى بكر الصديق رضى الله عنهما وامها ام رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، ولد عائشة بعد المبعث باربعة سنوات او خمس ، وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بنت ست وقيل سبع سنين ودخل بها وهى بنت تسع وكان ذلك فى شوال السنة الاولى وقيل فى السنة الثانية من الهجرة ، وهى من احب نساء النبى اليه وافقههن وقد روت كثيرا من السنة وروى عنها كثيرون من الصحابة والتابعين . وتوفيت سنة ٥٨ هـ ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان عند الاكثر وقيل سنة سبع ودفنت بالبقيع .
 انظر الاصابة x : ٣٥٩-٣٦١ ج ٤ .

- (٦) رواه مسلم - النووى : ١١٣ ج ١

وقد تضافرت نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في شد صلة الرحم مهبا كانت بعيدة او قريبة ، بأى علاقة من علاقات الرحم، وامتدت صلة الرحم من العائلة الى الاسرة فالجتمع البشرى عامة ، كما جاءت به الآيـة ولكنها صلة فى كل فروعها واصولها بسنن التقوى ورباطة الايمان .

وقد كانت المحافظة على النسب ، وتنظيم النسل بالطرق الشرعية ، من المقاصد والمصالح الخمسة ، التى اتفقت عليها الشرائع ، فحرم الله الزنى ، ورغب فى الزواج ، وربط الاولاد بالاباء ، وطالب بتكاتف الاسرة فى سبيل الخير ، وحماية الحيـاة الزوجية (١) .

ان الرابطة النسبية لا يجحد المنهج الاسلامي فوائدها ، بل هي فوائد تستفيد منها الدعوة فى الحياة الاجتماعية ، ويستغلها الدعاة لنصرة الحق وتركيز اسسه فى النفوس ، لاستغلالهم مكانتهم الاجتماعية للدعوة بين قومهم ، سواء كانوا مؤمنين او غير مؤمنين ، وهو جانب فى غاية الاهمية بالنسبة للدعاة ومنهج الدعوة ، وقد نفع الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بقربته ومكانتهم الاجتماعية فى قريش ، فوقف عمه يدافع عنه وكذلك فعل الآخرون بالنسبة لذويهم من المسلمين . ونفع الله بالعصبية شعيبا كقوله تعالى :

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ (٢) ونفع بها صالحا فقال : قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّيْلِ إِنَّا بِنَبِيِّنَاهُ وَأَهْلِهِ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ

(١) انظر الموافقات للشاطبي : ٢ - ٩
واضواء البيان لمحمد الامين الشنقطي : ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٣ ،
وتنظيم الاسلام للمجتمع لابي زهرة : ٥٨ - ٦٠ .

(٢) الآية من سورة هود : ٩١ .

أَهْلِهِ وَإِنَّا لَمَصَادِقُونَ . (١) فَلَوْلَا خَوْفُهُمْ مِنْ رَهْطِهِ لَبَيَّتُوهُ . (٢)

وخلص القول في هذا ان المسلم قد يستفيد من رابطة النسبية لدينه ولدعوته ولا يستلزم ذلك التعصب لها ولا ينافيه ان الاسلام ندد بكل عصبية وقومية تتخذ مبدأ وتعارض بها الاخوة الاسلامية وتخلط بين المؤمنين والكافرين وكأن الايمان لا اثر له ولا لأخوته في الله .

(١) الآية من سورة النحل : ٤٩

(٢) انظر اضاءة البيان ٤٤٥ - ٤٤٧ - ٣ .

العنصرية دين الغربيين

ليس ما يعاب على الغربيين وغيرهم من الكفار بالاسلام ، القومية والوطنية
وكل ما والاها من العصبية والعنصرية ، لان ذلك هو البديل لكل من كفر بدين
الاسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فليس فوق الكفر هذا ذنب ، ولولا تأثر المسلمين
بالقومية والوطنية الغربيتين لما تعرضت لعنصرية الغربيين لانها جات من بابها فلا
غرابة . . . !

إن الاعتداد بالعنصرية وما اشتق منها من الجاهليات لهو طبيعة الأوربيين الذين
تجرى فيهم هذه الشعارات مجرى الدم ، وتحتل فيهم مكانة الروح ، وصارت طبيعة
اصيلة في سلوكهم . ولها دور في وقوف الغربيين ضد الدين ، وخاصة الكنيسة
الغربية ، فهم يرون أن تعاليم المسيح إنما جاءتهم من قومية غير قوميتهم ، واستفاد
الماديون العثمانيون من هذا كثيرا ، وليست روسيا أقل من شقيقاتها الغربيات ،
فالروس يزعمون أن كل الاختراعات الحضارية ترجع اليهم كدعوى ألمانيا . . وما من أحد
الآ ويدرك أن تعصب الغربيين فاق كل تعصب ، وليس هذا بغريب ولا بجديد ف قصة
الحروب الصليبية وقصة الأندلس ومحاكم التفتيش ، كل ذلك يشهد لهذا العزاج ، مع
ان الإنجيل الذي يزعمون اتباع تعاليمه لا يجيز لهم كل ما أرتكبه من هذه الجرائم
ضد الانسانية * (١)

(١) انظر حاضر العالم الاسلامي لامير شكيب أرسلان : ٢٣٨-٢٣٩ هـ ١ ط ٤ سنه
١٣٩٤ هـ ،
وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي : ١٩٦-١٩٩ .

والغربيون يشعرون بهذا الخزي من انفسهم ويعترفون به ، فهذا استاذ كبير (١)
متخصص فى الدراسات الانسانية يصف هذا الشعور بكل دقة وامانة ويثبت انهم بعيدون
عن النقاء العرقى فيقول : وما يبعث على السخرية ان الانصار الرئيسيين للنظرية
القائلة بافضلية السلالات النقية هم من سكان اوربا .
وهى القارة التى تفوق جميع مناطق العالم الاخرى من حيث تغلغل التهجين
بين سكانها .

فمن غير المحتمل ان تجد بين الاوربيين الاحياء اليوم اى شخص لا يضم اجداده مالا يقل
عن هجين واحد . لا بل ان معظم الاوربيين هم نتيجة لسلسلة طويلة من التسايف ، وقد
شهدت هذه القارة افواج القبائل تجوب ارضها مدا وجزرا منذ ما قبل فجر التاريخ ،
ومعظم سكانها الجالين ينتمون الى اسلاف ليسوا حتى من الجنس الابيض النقي .

فجحافل الهون وهم قبيلة صفراء من اقصى شرق آسيا ، غزت اوربا حتى مشارف
المحيط الاطلسى ، وبعد اندحارها انصهرت فى مجموعة السكان الاوربيين .

وهناك قبائل آسيوية اخرى استوطنت ساحات واسعة فى شرق اوربا كقبائل
الآفار والماجيار ، وقد اختلط افراد هذه القبائل مع السكان السابقين عن طريق
التزاوج والتوالد الى ان اختلفت معالم طرازهم الجسمى المميز . وادخل الرومان
العبيد الزنوج .

(١) وهو الدكتور / رالف لنستون الذى سبق ان استفدنا منه فى حالة الحفريات
الدارونية وهو هنا يعطى فكرة صادقة عن الشعور الاربى فى العنصرية وثبت بكل
دقة انهم جماعة الدراويش الذين تناسلوا من سلالات وتسايف كثير .

وأما المسلمون الذين فتحوا صقلية وإسبانيا فكانوا يميلون إلى السرعة وأخيرا هناك اصناف عديدة من البيض سكنت أوروبا منذ ما قبل نهاية العصر الحجري القديم .

لقد الفت كتب عديدة عن اصول هذه الاصناف البشرية وخصائصها وعلاقاتها المتبادلة ولكننا نكاد لا نجد كاتبين من اهل الثقة يتفقان على تحديد ما هية هـنـمـنـهـ الاصناف التي يمكن التعرف عليها ، ويبدو ان الشيء الوحيد الذي يمكن التأكيد منه تأكدا تاما هو ان كلا من هذه الاصناف تنقل في ارجاء القارة ، ومر بتعديات بتأثير البيئة المحلية ، وتساعد مع اصناف اخرى كلما سنحت الفرصة ، ونتج عن ذلك كله مزيج عجيب من عناصر الوراثة في أوروبا ، يضم انماطا جسمية منوعة أشبه ما تكون بمسحة الدراويش (١)

ان هذا الشعور البغيض الذي يتسم بعداوة شديدة لا للإسلام والمسلمين فحسب بل لكل من ليس أوروبا ، وهوارث ورثته أوروبا من سلفها اليونان والرومان ، الذين يطلقون على كل اجنبي عنهم من الشعوب " البرابرة " ومنذ ذلك الحين والاربيون يعتقدون ان تفوقهم العنصرى على سائر البشر امر واقع .

ثم ان احتقارهم إلى حد بعيد او قريب لكل من ليس أوروبا من اجناس الناس وشعوبهم قد اصبح احدى الميزات البارزة في المدنية الغربية . وقد تجاوز شعورهم إلى البحوث العلمية واستنتاجات المستشرقين عن الاسلام وفكرة وحضارته ، فكان

(١) دراسة الانسان للدكتور : رالف لنستون : ٥٥-٥٦ ترجمة عبد الملك الناشف .

اسلوبهم غير معقول واتسم بالكذب والتلفيق وكانهم يحاسبون الثقافة الاسلامية كقصّة
 محاكم التفتيش او الدواوين التي انشأتها الكنيسة في القرون الوسطى ، وكانت النتائج
 التي يقصدونها دائما متفق عليها وعلى نوعها قبل البحث والوصول اليها أملاها عليهم
 تعصبهم هذا ، ويختار المستشرقون في هذا شهودا حسب الاستنتاج الذي يقصدونه
 . . وقد اتاحت الحروب الصليبية التي كان مبعثها التعصب - ان يطلعوا ويتعلموا ،
 فولدت اوربا من جديد وقامت نهضتها اثر العقلية والمرونة التي تعلموها من المسلمين ،
 ومع هذا فان ذلك لم يخفف ذلك العدا ولم يردوا الجميل ولو بكلمة الانصاف عند
 البحث العلسي . . ! وكانت اوربا ولا تزال كل ما توصلت اليه تعزیه الى المادية
 التي نخرت عقولهم من اليونان والرومان الى اللاهوت والصليب .
 ان هذا الالتواء العقلي قد استمر رغم تحرر علوم الاستشراق من نفوذ التبشير نوحا ما .
 وتحاملهم على الاسلام غريزة موروثه لها خلفيات وموثرات من الحروب الصليبية في عقول
 الاوربيين * ان روح الحروب الصليبية مازال يتسلع فوق اوربا ولا تزال مدنيته تقف
 من العالم الاسلامي موقفا يحمل آثارا لذلك الشبح المستميت في القتال " (١)

هذا ولم يقتصر الغربيون في مزاولتهم العنصرية والتعصب على من في خارج
 اوربا وامريكا ، من الشعوب الذين استمتعوا بخلافهم كما فعل سلفهم من اليونان
 والرومان فحسب بل مارسوا هذه الجريمة ضد مواطنيهم من الطونين والهنود الحمر
 وكل الغرباء في ديارهم ، مارسوا معهم ما يندى له الجبين ، وترفضه الديمقراطية التي^(٢)

(١) انظر الاسلام على مفترق الطرق لمحمد اسد : ٥٢-٥٦ ط ٤ ، دار العلم للملايين
 بيروت ،

(٢) ترجمة الدكتور/عمر فروح .
 الديمقراطية كلمة يونانية معناها حكم الشعب ويراد بها الحالة التي يكون فيها زمام
 الحكم في يد الشعب - خلاف حكومة الاعيان وهي من الكلمات البراقه الكاذبه في المقصود
 بها .

يرفعون لها الشعارات تضليلاً وافتراءً على كرامة الانسانية ، ان هؤلاء الملونين وغيرهم يولفون مشكلة حادة بارزة ، كما يولفون مشكلة ناعمة مستترة في تلك الديار . . . ومن العجب ان هؤلاء القوميون هم الذين يرفعون لواء الحرية ويتهمون المسلمين بالرجعية والتأخر والهمجية وهم دول راقية في هيئة الامم ، هؤلاء هم الذين يقومون بأبشع جريمة عرفها التاريخ ضد الانسان لا لشيء غير لون بشرته . . . ! (١)

هذا ولم يختلف الغربيون في هذه الديانة القومية الا في الصراحة والنفاس ، فبعضهم يقول ويفعل وآخرون يفعلون ولا يقولون . فان بذرة القومية والوطنية اذا القيت في ارض فانها لا تلبث ان تنشأ وتمتد عروقها في الارض ثم تصير شجرة قدوحة تظلل الامة ، ولا يمكن لشعب ان يؤمن بالقومية ثم لا يعتدى ولا يتناول ولا يعقت الاخرين ولا يزدريهم ، كما لا يمكن ان يسرف الانسان في الخمر ثم لا يسكر ولا يهذى وخصوصا اذا كانت العلوم والثقافة تتعاون على انشاء العاطفة القومية والنعرة الشعبية والخيلاء الجنسية والفخر بالاباء والتعظيم بالماضي (٢)

ولما كانت الحضارة المعاصرة تفجرت بنابعها في اوربا ، اخذت على عاتقها نشر العنصرية والقومية والوطنية بصورة اشمل وادق . مما جعل هذه النظرية الجاهلية تسيطر على العالم في مطلع هذا القرن .

وكل يسعى في وضع نفسه في الدرجة الاولى افرادا وجماعات ودولا ، وتعمقت الفكرة في ان الحياة المثلى ما كان يدر من القومية ، وما كانوا يتصورون الحياة الاجتماعية

(١) انظر من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي ٦٦-٧٢ ، ط ٢ وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي ١٩٢-١٩٨ و ٢٠٧ واضوا على حركة التضامن الاسلامي للمودودي ١٦-١٧/٢٣/٢٦ وهذا الدين للسيد قطب ٧٧ ونحو مجتمع اسلامي له : ٩٣ ط ٤ دار الشروق ، والتفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازي : ٦٥ ط ٢٦ هـ ١٣٩٥ هـ .

(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي : ٢٠٢-٢٠٣ .

الا بالدولة القومية التي حلت محل الاله ، ولقد انفجر بركان الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ م بسبب هذه القوميات وتوالت بعدها حروب وانواع العدوان . وجنت الامم شار هذه الحرب القومية من التدمير والقتل والاستعباد .

وعندئذ لجأت هذه الامم الغربية الى اسلوب الخداع للسيطرة على الشعوب في سبيل هوى العنصرية والقومية والوطنية الاوربية باسم تهدأة الحرب ، وعلان الميثاق بسين الامم ، ولم يكن من ذلك شئ غير تقسيم العالم بين هوءلاء العنصريين الغربيين ، وبقي ميثاق الامم حبرا على ورق واسطورة لا معنى لها في طلف عصبة الامم (١) .

وقد مارست اوربا وامريكا كل انواع القمع لتدعيم العنصرية سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، والفرصة قائمة لانهم قواد العالم وحاطوا لواء الاستعمار الذي يعتقدون انه واجب املته عليهم فكرتهم القومية ونقا هم العرقى ! ! وهم مفي هذا سـواء لان الاستعمار كل لا يتجزأ يراد منه الكسب للتعصب النصراني وما يسمونه بالعالم المتمدن ، وشعارهم هو ان " ما اخذ الصليب لا يرد الى الهلال " وهذه روح صليبية ممقوته لا مبعث لها غير العنصرية . (٢)

(١) انظر : اضواء على حركة التضامن الاسلامى لابي الاعلى المودودي : ٧-١٤/٢٢

الدار السعودية بجدة سنة ١٣٨٧ هـ

(٢) انظر : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار للدكتور محمد البهسي :

٣٠-٣٥، ٦٦-٦٨ ط ٥ دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٠ م ،

ودفاع عن الشريعة لعلال القاس : ٣٨، ٥٠ ط ٢ سنة ١٩٧٢ م ، بيروت ، الشركة المتحدة .

" عدوى القومية والعنصرية تنتقل إلى المسلمين "

ان ذلك الخلق للفريبيين ، لا يعرفه الاسلام وما كانت الامة الاسلامية في حاجة اليه بل قبل هذا القرن ما كان المسلمون يفكرون في التفريق بين الاجناس ، لان ذلك لا تلجأ اليه حضارة راقية ، ولكنه لما حصل في اوربا هذا العمل وقامت له شعارات ، الجأ ذلك المؤلفين الى الحديث عنه . (١)

وما يؤسف له ان مرض العنصرية انتقل الى المسلمين وفرق شطهم وفرق وحدتهم ، ولقد هبت الشعوب الاسلامية في الاونة الاخيرة ، مشيرين للعنصريات ومختارين لها دون الوحدة الاسلامية ، تأثرا بالعنصرية الغربية ، واقتداءً بهذه الامم الاوربية والغربية ، فقد اخذت الفارسية وشعوبيتها تشتهر اكثر من ذي قبل ، وجعل الايرانيون يبحثون عن اديانهم القديمة ، وعن عاداتهم الوثنية ، ويعتزون بذلك ، دون الاخوة الاسلامية والعقيدة التي اخرجهم الله بها من الظلمات الى النور . . وهو الاكثر ان يرفعون الشعارات للقومية الطورانية ، كما كان مهمة للحزب التصفية وهو حزب طورانسي ويحاولون ان يصل نسبهم بهولاكو وجنكزخان ، ودعوا الى تصفية اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية ، وهم يقولون نحت اترك وكعبتنا طوران ، ويزعمون انهم أعرق الأم مجدا وانهم والجنس المغولي شيء واحد يجب ان يولفوا جامعة طورانية . . !

وقد تحركت بعض العناصر الاندلسية " جاوي " يبحثون عن مذاهبهم الوثنية

(١) انظر من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي : ٦٦
 (٢) جنكيزخان السلطان الاعظم عند التتار جد ملوكهم وكانت أمه تزعم أنها حملته من شعاع الشمس فلهذا لا يعرف له أب ، وما كان للتتار قبله وجود ولا سلطان وهو الذي وضع لهم السياسة التي يتحاكمون اليها ويحكمون بها ومنها حرفت كلمة السياسة . انظر البدايه والنهائيه لابن كثير : ١١٧-١٢١ ج ١ ، وفوات الوفيات والذي يدل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي : ٣٠١-٣٠٣ ج ١ رقم ١٠٩ . وأما هولاكو خان بن تولى خان بن جنكيزخان فهو جبار قاهر كان قتل المسلمين شرقا وغربا ودمر الخلافة الاسلامية وما كان يتقيد به من الاديان وكانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وتفضل النصرانية على سائر الناس وتأثير من النصرانية ووثنته فعل كثير من الاجرام ضد الاسلام والمسلمين حتى هلكه الله سنة ٦٤٤ هـ . انظر ترجمته في البدايه والنهائيه : ٢٤٨ ج ١ وفوات الوفيات والذي يدل عليها : ٢٤٠ ج ٤ رقم ٥٦٠

قبل الاسلام ، ويدرسونها وكأنهم يريدون احياؤها . . . وفي الهند كثيرون يكرهون الوحدة الاسلامية ، ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعا للهنداك وتعصبا للقوميات البرهمية والبوذية . . . ولدى المصريين نزعة محسوسة الى الحضارة الفرعونية ويميل الى التنقص من النسبة العربية وحضارتها .

واخطر هذه القوميات والتعصب ما كان بيعته كراهية الدين بسبب انه جاء من طريق رسول من العرب وليس من جنس آخر ، فيكون ذلك سببا لتعصب اجناس اخرى لجاهلياتهم رغبة عن الاخوة الاسلامية ، وظنا من هؤلاء ان في ذلك منقصة لهم ورفعسة للعرب عليهم ، وهو شعور ترفضه حقيقة الاسلام وواقعه . . . وانما كانت القومية الغربية هي المؤثر والمحرك لهؤلاء فعليهم ان يدركوا ان الام النصرانية تتبع اديانا في زعمهم ، جاء بها انبياء ليسوا من الاربين انما هم من الساميين ، وليتهم كذلك لم يدخلوا العقيدة وما يتعلق بها في القوميات ، كما هو وجهة نظر الغربيين الذين اثروا فيهم وكل ذلك يعتبر تعصبا من هؤلاء القوم لقومياتهم وتكبيرا منهم ضد الاسلام وعالميته ، ومبدأه الخالد الذي في هذه الآية : ان اكرمكم عند الله اتقاكم (١) .

(١) حواشي حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب ارسلان بتصرف : ١٥٦-١٦٨ هـ ط ٤ سنة ١٣٩٤ هـ .

• عناصر القومية • (١)

ان كل القوميات والعنصريات التي قامت في الارض ، وتعلقت بها الامم لا تخرج عن ستة عناصر :

- ١- النسل او ما يعرف بالجنسية او العنصرية .
- ٢- الوحدة في المولد والنشأ او ما يعرف بالوطنية .
- ٣- الوحدة في اللغة وهي وسيلة قوية في تأسيس التفكير .
- ٤- الوحدة في اللون . شعور في الافراد ليتحدوا ويتجنبوا كل من يخالفهم في اللون .
- ٥- في المصالح الاقتصادية .
- ٦- الوحدة في نظام الحكومة وهي رباط بين رعايا الدولة وتميزهم بالحدود والمعالم دون غيرهم من رعايا الدول .

ان هذه الاسس التي قامت عليها القوميات لا يستطيع احد ان ينكر انها جمعت كلمة جماعات بقوة فائقة وحماس يتفاوت حسب تفاوتها ولكن لا سهيل كذلك الى انكار انها جرت بلاء عظيم على الانسانية ، وفرقت العالم ووزعته الى اجزاء لا تلاقى بينها ويأدنى تأمل وتفكير مجرد عن الهوى في هذه العناصر التي لا تخرج اى قومية وعنصرية عنها . يجد من كان لديه احساس بالانسانية حقا انها تفرق ولا تجمع وتضعف ولا تقوى، وانها

(١) اعتمدت في هذا الموضوع على ما كتبه الاستاذ المرحوم ابو الاعلى المودودي في رسالة مختصرة قيمة جامعة وهي : بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية .

مجرد دعوى بلا برهان ولا علة ، فكيف اذا كان المفكر المتأمل مؤمنا بالله سبحانه وتعالى مقربا لوحدة الانسانية في النشأ والظفرة ووحدة الخالق ، ومؤمنا بالصدق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واليك القاء الاضواء على هذه العناصر بالابجاز :

١- النسلية او العنصرية :

هذه دعوى : ليست الا الوحدة في الدم لاغير ، ابتداءً من النطفة الى مالا نهاية له ، حتى تضع في جداول كثيرة من الدماء الخارجية يقول المودودي : واذا كان للناس على الرغم من هذه الخلطة ان يقرروا سلالة من السلالات مادة لوحدتهم ، فماذا عليهم لو قرروا اساسا لتوحيدهم مشاركتهم في ذلك الدم الذي يربطهم جميعا بأبيهم الاول وأهم الاول ؟ وماذا يمنعهم ان ينسبوا الناس جميعا الى سلالة واحدة واصل بعينه . . فما المبرران لافتراق الناس على هذه الصورة بين الآريين والساميين ؟؟؟ .

٢- الوطنية :

هذه الوحدة اوهن من النسلية واوغل منها في الوهم والخيال . فالمكان الذي يولد فيه الانسان لا يزيد في عرضه وطوله عن ذراع في ذراع ، واذا اعدده وطنا فسلا يستطيع ان يثبت ان قطرا ما وطنه ولكنه يحدد الآفا من الاميال ويزعم ان وطنه اتسع الى هذه الحدود وما وراءه فليس له به علاقة . يقول المودودي : فما كل هذا الا ضيق في نظره والا فأى شيء يمنع ان يوسع هذا الخط الى وجه الارض من شرقه الى غربه ومن جنوبه الى شماله ويقول انه وطنه لان الدليل الذي يمكن ان تتسع على اساسه قطعة صغيرة من الارض الى الاف الاميال ، من الممكن على اساسه هو ان تتسع هذه القطعة فتشمل وجه الارض كله .

٣- الوحدة اللونية :

وهي اوهى واوهن شيء ، لان اللون ما هو الا صفة الجسم ، والانسان انما هو على اساس روحه اى نفسه الناطقة وهي لا لون لها فما نفرق بين لبن البقرة البيضاء والسوداء " ولكن الويل كل الويل لضلال العقل وتكبه عن الصراط المستقيم حيث حرف نظر الانسان عن صفاته النفسية الى اعتبار جلده ووجهه "

٤- الوحدة الاقتصادية :

انها اثره وانانية تتشارك فيها جماعة من الناس ويحاولون ان يولفوا بها أمة ، وكان في ظاهر ظنهم انهم يمنعون بذلك حقوقهم ومصالحهم ، ولكن عندما يتخذ آخرون هذا الاجراء ، فان الانسان هنا يضيق على نفسه بنفسه دائرة الحياة ، كلما اراد ان يصنع مفاتيح الرزق لنفسه ، فانه يحاول ان يفلق ابواب الرزق على غيره ويحاول غيره ان يصنع ذلك ، وهذا نفس ما تصنعه الدول اليوم تهدم ما تبني " .

٥- الوحدة السياسية :

ان هذه الوحدة في حد ذاتها شيء ضعيف مهلهل لا يقيم بناء الوحدة محكما ، وشهد التاريخ ان هذه الفكرة لم تنجح ولم توفق في الدنيا قط ، وغاية ما يحدث انما هو ان الرعايا تبقى مكبولة مشدودة بقانون الدولة . وهذه الدولة المغولية قضت عليها القوميات السياسية والدولة العثمانية ، وكما هو معروف في المجر والنمسا " فالذين يشهدون كل هذا ثم يعتقدون انه في الامكان ان تقام القوميات على اساس من السياسة ، لاشك ان هؤلاء العباقره يستحقون التهنئة بخصب فكرهم " .

٦- الوحدة اللغوية :

الفائدة الوحيدة للغة هي الابانة والتفاهم بين افراد الناطقين بها وزوال حواجز بينهم كثيرة وهي فائدة لا تنكر ولكنها لا تستلزم الوحدة في التفكير ، لانه في الامكان الاعراب عن فكر بعينه بعشر لغات مختلفة مع اتفاق الناطقين بهذه اللغات في الفكرة ، كما انه من الممكن ان تعبر لغة واحدة عن افكار متضاربة لا تلتقى ،

...

ثم يقول المودودي معلقا على تلك العناصر " ان هذه الامتيازات والفروق بين افراد النوع البشري ليس لها من اساس عقلي ابدا ، وانما هي امتيازات حسية مادية لا تكاد تتحمل شيئا من السعة في النظر ولا تعتمد في بقائها وقيامها الا على ظلام الجهل وضيق النظر والفكر ، ويتقلص ظلها ، وتزول أستارها على قدر ما ينتشر في الناس نور العلم والمعرفة وتتصل بصيرتهم وتنشأ السعة في قلوبهم وانهانهم" (١)

ولكن الشيخ المودودي رحمه الله في نقده الامتيازات اللغوية والوحدة تحسنت لوئها يقول : " فان ليست الوحدة في الفكر بحاجة الى الوحدة في اللغة كما ان الوحدة في اللغة لا تستلزم الوحدة في التفكير " (٢)

وفي الحقيقة اننا نشارك الكاتب الاسلامي الكبير الفكرة في ان اللغة اي لغة ، لا تصلح ان تكون مبدأ لوحدة تضم شتاتا ، وتعلو شعارا للعدالة وتحطم الظلم وعوامل

(١) بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية لابي الاعلى المودودي : ١١-٢٢ ، دار العربية - بيروت - لبنان .
(٢) السابق : ٢٢ .

الهدم ، والتفريق بين بنى الانسان . . . ولكن اللغة العربية بالذات لها وضع خاص ، ومفهوم اسلامي في فكر المسلمين جميعا عربهم وعجمهم اسودهم وابيضهم ، مفهوم يستثنيها ويعطيها اعتبارا خاصا يدخل في اطار العقيدة الشامل الكامل . فلا يمكن ان تدخل في هذا الاطلاق الذي اطلقه المودودي في جميع اللغات ، باعتبار انها لغة القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم ولغة الرعيل الاول لهذه الامة ، ولغة الفكر الاسلامي ، ولكنها تدخل في الاطلاق بالاعتبار الذي يقصده القوميون العنصريون .

ولقد اهتم علماء الاسلام قديما وحديثا باهمية اللغة العربية بالنسبة لمن يريد ان يكون مسلما بالعلم والعمل معا ، فهذا الامام الشافعي يقول : فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلوا به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك .

وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به النبوة ، وانزل به آخر كتبه - كان خيرا له كما عليه ان يتعلم الصلاة والذكر فيها . . .
لانه لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب احد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها . ومن علمه انتفت عنه شبه التوطين من جهل لسانها * (١)

وشيخ الاسلام ابن تيمية يقول :

* فان الله لما انزل كتابه باللسان العربي . وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة

(١) الرسالة : ٤٨ - ٥٠ ط الاولى سنة ١٣٥٨ هـ المطبعة الحلبية - القاهرة .

بلسانه العربى وجعل السابقين الى هذا الدين متكلمين به : لم يكن سبيل الى ضبط الدين ومعرفته الا بضبط هذا اللسان . وصارت معرفته من الدين ، وصار اعتياد التكلم به اسهل على اهل الدين فى معرفة دين الله ، واقرب الى اقامة شعائر الدين ، واقرب الى مشابهتهم للسابقين الاولين من المهاجرين والانصار فى جميع امورهم " (١)

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

" واما اعتياد الخطاب بغير العربية التى هى شعار الاسلام ولغة القرآن ، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله ، ولاهل الدار ، وللرجل مع صاحبه ، ولاهل السوق ، او للامراء ، ولاهل الديوان ، ولاهل الفقه : فلا ريب ان هذا مكروه وهو ممن التشبه بالاعاجم " ،

ويقول :

" ولهذا كان المسلمون المتقدمون ، لما سكنوا ارض الشام ومصر ، ولغة اهلهم رومية . وارض العراق وخراسان ، ولغة اهلها فارسية ، واهل المغرب ، ولغة اهلها بربرية : عودوا اهل هذه البلاد العربية ، حتى غلبت على اهل هذه الامصار : مسلمهم وكافرهم . وهكذا كانت خراسان قديما .

ثم انهم تساهلوا فى امر اللغة ، واعتادوا الخطاب بالفارسية ، حتى غلبت عليهم وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم . ولا ريب ان هذا مكروه "

(١) اقتضاء الصراط المستقيم : ١٦٢-١٦٣ مطابع المجد .

ويقول :

" واما الطريق الحسن : اعتياد الخطاب بالعربية ، حتى يتلقنها الصغار فى الدور والمكاتب . فيظهر شعار الاسلام واهله ، ويكون ذلك اسهل على اهل الاسلام فى فقه معانى الكتاب والسنة وكلام السلف ، بخلاف من اعتاد لغة ثم اراد ان ينتقل الى اخرى فانه يصعب عليه "

" وأعلم ان اعتياد اللغة : يؤثر فى العقل والخلق والدين ، تأثيرا قويا بيننا . ويؤثر ايضا فى مشابهة صدر هذه الامة من الصحابة والتابعين . وشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق "

" وايضا فان نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب . فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب "

ثم بين شيخ الاسلام ان العربية منها ما هو واجب على الاعيان وما هو واجب على الكفاية ، ويذكر ما روى عن عمر رضى الله عنه فى كتابه الذى كتبه الى واليه ابى موسى (١) الاشعري : اما بعد فتفقهوا فى السنة ، وتفقهوا فى العربية واعربوا القرآن فانه عربى ، وروى عنه : تعلموا العربية فانها من دينكم وتعلموا الفرائض فانها من دينكم " ويقول : وهذا الذى امر به عمر رضى الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة يجمع ما يحتاج اليه . لان الدين فيه فقه اقوال واعمال ، وفقه العربية هو الطريق الى فقه اقواله ، وفقه السنة هو الطريق الى فقه اعماله " (٢) .

(١) عبد الله بن قيس بن سليم بن حمار ابى موسى الاشعري مشهور باسمه وكنيته وأمه حبيبة بنت وهب بن على اسلمت وماتت بالمدينة قبل أنه أسلم وهاجر الى الحبشة وقيل وهو الأشهر أنه أسلم وقيس في بلاد، حتى قدم المدينة بعد فتح خيبر والتقى في طريقه الى المدينة مع جعفر بن أبي طالب وهو قادم من الحبشة فقدوا جميعا استعمله عمر على البصرة وعثمان على الكوفة كان أحد الحكمين بصفية، وكان حسن الصوت بالقرآن، وهو الذى فتح الاهواز وأصبهان ومات سنة ٤٢ أو سنة ٤٤ وقيل سنة ٥٥ هـ بالكوفة أو بمكة . الاصابه : ٣٥٩-٣٦٠ والاستعا بى لابن عبد البر : ٣٧١ ج٢

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية : ٢٠٦-٢٠٧ مطابع المجد التجارىه .

ان الذين دخلوا في الاسلام من غير العرب على يد الصحابة ، قد فهموا ان اللغة العربية لغة الاسلام وانه لا يكون لهم حظ ومعرفة في الاسلام الا بتعلمها واصطفاؤها دون لغاتهم ، وبالإضافة الى ذلك فهي رباط لغوي ادبي بين المسلمين ، تشدد وحدتهم وتربطهم . . . لذلك انتشرت هذه اللغة في ابلاد المفتوحة بسرعة هائلة مع قلة وسائل التعليم ، فصارت لغة الملايين من المسلمين من المحيط الغربي الى الهند ، وما كان ذلك في نظر المسلمين جميعا الا خيرا عظيما تربطوا به لسانيا وفكريا وتعاونوا على مدنية باهرة كانت زينة للارض وضياء ونورا لاهلها تحت لواء العقيدة الاسلامية . (١)

ولم يكن في تفكير المسلمين جميعا سوا من كان من العرب او من غيرهم ان ذلك كان للعربية بسبب العصبية الجاهلية للعرب ، ولكنهم فهموا جميعا ان الاسلام هكذا طلب منهم ، وفهموا ان هذه اللغة وعاء للاسلام وشعارا له ، وقد برز رجال من العجم في العربية وكانوا فيها أئمة في علومها وفي العلوم الاسلامية قاطبة ، التي كتبوا فيها وألفوا بالعربية . (٢)

وما تفرق المسلمون شيئا وتمزقت كلمتهم ، وذهبت ريحهم الا بعد ان استيقظت الشعوبية فاحيت اللغات التي هجرها اهلها الى العربية ، فجعل المسلمون يهجمون العربية ، فتعصب الفرس للغتهم في ايام البويهيين ، وبدأت التركية كذلك حتى آلت الخلافة الى آل عثمان ففرضوها واماتوا العربية التي كانت لغة القرآن والرسول اولا ، ولغة

(١) انظر تفسير المنار لمحمد رضا : ٣١٠ - ٩

(٢) انظر : اقتضا الصراط المستقيم لابن تيمية : ١٤٥ .

الاجتماع الاسلامي ثانيا ، ولغة العلم والفكر الاسلامي ثالثا . (١)

ان الواجب الذى تطليه هذه الحقيقة نحو اللغة العربية ، هو ان يتكاتف الدعاة فى اعادة الوحدة الاسلامية الى ما كانت عليه فى الصدر الاول ، خير القرون مع خير الدعاة بالاساليب والطرق التى تكونت بها هذه الامة ، وبالطرق الصناعية فى التعليم ، فيكون تعلم العربية اجباريا ، ويلمس الناس عامة هذا الاتجاه من فكر الدعاة ، ليقبلوا الى العربية كما اقبل اليها الاولون ، وما يؤسف له اننا نجد بعض المفتونين بأوروبا يساعدون الاعداء على تقطيع ما تبقى من الروابط الاسلامية بتقوية العصبية الجنسية ، حتى انهم يزعمون ان شعوبهم يستغنون عن القرآن !! الا انها فتنة فى الارض وفساد كبير وقى الله المسلمين شرها . (٢)

وعلى رأس هذه الفتنة من زعم ان اللغة العربية كغيرها من اللغات التى لا شأن لها فى وحدة المسلمين . . . !! وأن الدعوة اليها والاخذ بها دون غيرها انما هو من باب التعصب اللغوى ، ولقد كان القوميون الذين رفعوا راية القومية العربية وغنوا بهما يستهدفون غرضا جاهليا اتقنوا صناعته وبرزوا فى الوصول اليه وهو : التفريق بين المسلمين والحجز بين الشعوب وبين الاسلام . لان هذه الشعوب عندما ترى من ينتمى الى العربية هكذا يقول ويصنع ، فان كل شعب سيتخذ هذا الاجراء وبالتالى ينفضون عن الاسلام وعن العربية ويعودون الى لغاتهم . . . !!

(١) انظر : الوحدة الاسلامية لمحمد ابى زهرة : ٩٠-٢٢٦ ، ٢٩٣-٢٩٤

(٢) انظر : تفسير النار : ٣١١ ح ٩ والوحدة الاسلامية لابي زهرة : ٢٢٦ ، ١٣١ .

وهؤلاء القوم في الحقيقة ليسوا بالعرب انما هم من النصارى واليهود ، الذين بقوا على عقائدهم الفاسدة ، وكانوا بقية ونسلا من الصليبيين ، ويتكلمون العربية ، هؤلاء هم الذين دعوا الى القومية العربية ومرار الزمن وكثرة الدعوات الفاسدة اثروا في عقول كثيرين من الفوغا وكادوا ان يوجهوا الجماهير في البلاد العربية الى حيث يريدون . . . !

وقد احسن من يصف هؤلاء بانهم " ليسوا عربا ولا عجماء ، وانما هم مسخ غريب الاطوار صفيق الصياخ ، ابتلى بها البلاد الاسلامية اثر صنع الاستعمار . . . وقد ملأت ضجتهم الاودية كما تملأ الضفادع بنقيقتها اكفاف الليل . . . ويزعمون انهم مبشرون بالقومية العربية رافعون لألويتها وفي الوقت نفسه ينسحبون من تقاليد العروبة ويهاجمون اجل ما عرفت به ويبعثرون العوائق في طريق الايمان ورسالته . . . فهم ملحدون مجاهرون بالكفر . . . والغريب ان هؤلاء الناس يخاصمون الاسلام بعنف ، ويحاربون أمته بجبروت ويهادنون الاديان الاخرى ، كان الاسلام هو العدو الذي كلفوا باستئصاله وحده ، لا بل هو العقبة الفذة التي وضعت المعاول في احوالها ترابا . . . وانه لجدير ان يسمى هؤلاء بأتباع القومية العبرية " (١)

ان دعوة هؤلاء الباطلة لا تلزم العرب الحقيقيين الذين ينتمون الى العروبة صدقا ويرفعون لواءها بالاسلام . فلا يحملن شأن القومين دعاة الحق ، ان يزعموا

(١) مع الله لمحمد الغزالي : ٢٥٤ - ٢٥٦ ط ٢ مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٨٠ هـ .

ان العربية لا شأن لها في وحدة الامة ولا نسج في صلابة جماعة الاسلام ، التي كانت متفاهمة بالعربية ومتألمة كتابها بها . . . !

وليس ثم بين المسلمين ما يمنع ان يتخذوا من اللغة العربية وحدة لغوية فكرية غير هذه القوميات التي كانت سببا في تفرقهم عن العربية وقرآنها ، فهذا داء عرف ولا يختلف فيه احد يعتقد به ويعتبر اختلافه * فمعرفة الداء سبيل الى معرفة الدواء ، وقد علمنا ان امانة اللغة العربية في الاقاليم الاسلامية . . . واحياء اللغات الاقليمية كان هو الداء الذي عمل على تفريق المسلمين وذهاب ربح الدولة الاسلامية * (١)

والذي يعترضه بعض اهل النظر القاصر على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة محتجين بانه خلاف طبيعة البشر والرد عليهم ان توحيد الدين ابعد من ذلك واصعب ، في طبيعة البشر وقد كان الحكماء قديما يبحثون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مسع انهم يدركون رقي بعض اللغات برقي اهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة .

* دعا الاسلام البشر ، البشر كلهم الى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الأمم ويدخلون فيه افواجا حتى امتد من المحيط الغربي الى اقصى الهند او الصين ولولا ما طرأ من البدع وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد وعلى اهله من الجهل والفساد والتفرق والاختلاف لدخل فيه اكثر البشر ولصارت لغة لكل من دخل فيه * (٢)

(١) الوحدة الاسلامية لمحمد ابي زهرة : ٢٩٣

(٢) الوحي المحمدي لمحمد رضا : ٢٠٠-٢٠١ .

• التفاضل بين الاجناس مناه على زيادة الخير فيها •

لا شك أن الله خلق التفاوت بين المخلوقات والاجناس ، فيما منحهم من الاوصاف والقدرات ، والارزاق ، والقوة والحياة ، والعلم والذكا ، لحكمة يعلمها هو ولا يسأل عما يفعل .

ولكن هذا التفاوت لا يعود الى مادة الجنس المفضل على غيره في حد ذاته ، وانما يعود الى ما وفق به وفطر عليه من الصفات الانسانية الحميدة . . ولا يستلزم هذا التفاضل - الذى نعبر عنه بالتفاوت المجلل - بين الاجناس تفضلا بين الافراد ، فردا فردا تبعا لفضل الجنس بدون معيار التقوى وميزان الايمان .

فالجنس البشرى خير من غيره من الاجناس ، لا لأنهم بشر بل لما فضل به من كونه مناطا للتكليف واهلا لاوامر الله ونواحه ، ولما زود به من تخصيصه بالعقل الذى فرق به بينه وبين الجمادات والحيوانات (١) . . قال تعالى : **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** (٢) . **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** (٣) ،

ولذلك اذا تجرد الانسان من انسانيته اى من صفاته الخيرية وفطرته كان اضل من الانعام ولا تزكيه بشريته الذاتية : **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ**

(١) **نُظِرَ الْحَافِقَاتِ لِكُلِّ طَبَقٍ** : ١٤٩ **وَالْأَعْمَامِ لِلْأَمْرِ** : ١٥١

(٢) الآية من سورة الاسراء : ٧٠ .

(٣) الآية من سورة التين : ٤ .

هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمُ الْفَافِلُونَ * (١) .

فآلية التي معنا اسلوبها فيه دال على ان النوع البشرى لا يخلو من الكسرم ،
لانه خاطب النوع جميعا بقوله : ان أكرمكم عند الله اتقاكم * ولكنه كرم نسبي وذلك
حاصل في قوله تعالى * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ * (٢)

اما الفضل ان وجد لاحد دون الاخر فهو يعود الى المعانى الانسانية التي قد
تتوفر في جانب دون جانب آخر * فالرجل قد يفضل المرأة لا لانه رجل وهي امرأة، والمرأة
قد تفضل الرجل لا لأنها امرأة وهو رجل ، ولكن الفاضل منهما اكثر انسانية في سلوكه
وتهذيبه ، وكذلك الشأن في تفضيل قبيلة على اخرى وشعب على آخر ، فالمعانى
الانسانية هي التي يعود اليها وحدها فضل انسان على آخر وفضل شعب على شعب،
وليست الفروق التي تعود الى الجنس او العرق * (٣)

وعلى هذا فان ما ورد من تفضيل بعض الاجناس على البعض الاخر كالعرب على
غيرهم وكتفضيل جنس الرجال على جنس المرأة ، لا يهدم الاساس الذي قرره الآيـــــة
من أنه لا فضل لاحد على احد الا بالتقوى ، للاعتبارين السابقين .

ولهذه الاعتبارات التي تعود الى صفات الخير جملة وبما من الله على هذا الجنس
من انزال القرآن في لغته ، وانهم اكثر من آمن به وحمله واعمق في فهمه كان * الذي
عليه اهل السنة والجماعة اعتقاد : ان جنس العرب افضل من جنس العجم غير انهم ،

(١) الآية من سورة الاعراف : ١٧٩

(٢) انظر تفسير الرازي : ١٣٩-١٤٠ ج ٢٨

(٣) القرآن والمجتمع للدكتور : محمد البهي : ١٥ .

وسريانيهم ، رومهم وفرنسهم ، وغيرهم ، وان قريشا افضل العرب وان بنى هاشم افضل قريش ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل بنى هاشم ، فهو افضل الخلق نفسا وافضلهم نسبا . وان هذا الفضل ليس لمجرد ان النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، وان كان ذلك من الفضل ، بل هم في انفسهم افضل ، لان هذه الافضية تعود الى ما اكتسبوه من الفضائل والشيم حتى اكتسبوا من الاسلام سريالا ، ونافحوا عن الدين بكل غالى وشمين ، وعشقوا الايمان حبا وفداء . . . فتفضيل العرب بهذه الاعتبارات التي تدخل في القاعدة العامة ، وهي الافضية بالعمل والتقوى ، على غيرهم في العموم هو الذي درج عليه الأئمة والمسلمون ، خلاف ما كانت عليه الشعوبية التي اتخذت من الحقد الجاهلي مبدأ انكارا للواقع . (١)

وهكذا محل جميع النصوص الواردة في هذا ونحوه ، دون ان تنس القاعدة العامة التي جاءت الآية لتقريرها وتشبيتها معيارا للتفاضل . ان اكرمك عند الله اتقاكم . كما روى عن العباس (٢) بن عبد المطلب انه قال : قلت : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قُرَيْشًا جَلَسُوا ، فَتَدَاكُرُوا أَحْسَابَهُمْ بَيْنَهُمْ فَجَعَلُوا مِثْلَكَ كَمِثْلِ نَخْلَةٍ فِي كَبُوةٍ (٣) مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ فِرْقِهِمْ ثُمَّ خَسِرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، ثُمَّ خَيْرَ الْبَيْتِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ بَيْتِهِمْ ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا . (٤) وما روى عن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله

-
- (١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم بتصريف : ١٤٨-١٤٩
- (٢) العباس بن عبد المطلب عم الرسول ولد قبل الرسول بسنتين وكان صاحب السقاية في الجاهلية أسير في بدر وهاجر قبل الفتح توفي سنة ٣٢ هـ ،
الاصابة : ٢٧١ هـ ٢
- (٣) كبوة : الكناسة والتراب الذي يكس من البيت ويقال للربوة كبوة ووهى على وزن قله وظبه : النهاية لابن الاثير ١٤٦ ص ٤
- (٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، عارضه الاحوذى : ٩٥-٩٦ هـ ١٣ .

عليه وسلم يقول : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ
وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ .^(١)

وكما روى عن سلمان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يَا سَلْمَانَ لَا تَبْغِضْنِي فَتَفَارِقَ دِينَكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغِضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ،
قَالَ تَبْغِضُ الْعَرَبَ فَتَبْغِضْنِي .^(٢)

فرسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب سلمان بهذا وهو سابق الفرس الى الاسلام
وذو فضائل جمة ولينبه الناس الى خطورة هذا فان الشيطان قد يدخل في الانسان
من هذا الطريق ليغويه ، كما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم عشيرته واقرباءه بانسه
لا ينفعهم قريبهم منه بلا عمل صالح ، فمن انتسب الى عم الرسول او الى ابنته او عمته . . لا
يفتر بنسبه هذا دون الكلمة الطيبة والعمل الصالح العشر ، الذي يرفع الانسان
بالتقوى ليكون اكرم وافضل .^(٤)

فالجنس العربي لم يفضل على غيره من الاجناس اجمالا في حد ذاته ولاجل دمه
اولقته او وطنه ، وانما لما فيه من الخصال الحميدة والشيم الكريمة ، ولما كان له من
السبق في الاسلام وحمل رايته الى الاجناس الاخرى ، مع ما فطر عليه من البساطة وعدم
التكلف دون الفلسفة والغلو اذا قرن العرب بغيرهم ، حتى في جاهليتهم وكانوا فيها
اقرب الناس الى الفطرة والواقع ، وفي الاسلام اسبق الناس اسلاما واعمقهم ايمانا

(١) رواه أحمد في السند : ١٠٧ ج٤ والترمذي وقال حديث صحيح غريب رقم ٦٠٦٠٦ ج٥ في كتاب
الماقب باب المناقب في فضل العرب .

(٢) سلمان الرمهرمري خرج من بلده طالبا للاسلام فأسير وبيع في المدينة وآخر الرسول صلى الله
عليه وسلم بينه وبين أبي الدرداء توفي سنة ٢٣ هـ أو سنة ٢٤ هـ تجاوز عمره المائتين وخمسين ولم
يزد عن الثمانين بعد المائتين . انظر ترجمته في الاصابه : ٦٢-٦٣ والاستعاب لابن عبد البر
على هامش الاصابه : ٥٦-٦١ ج٢

(٣) الترمذي وقال : حديث حسن غريب رقم ٢٩٢٢ ج٥

(٤) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم : ١٥٦

واصدقهم " فهم اقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الاخلاق ولكن كانوا قبل الاسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله " وليس لديهم علم غير ما تجود به فطرتهم وقرائحهم ، حتى بعث الله محمدا فيهم وانزل القرآن بلسانهم ، وجاهدهم مجاهدة فهداهم الله " فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة ، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذى انزل الله اليهم بمنزلة ارض جيدة فى نفسها ، لكن هى معطلة عن الحرث . . . فاذا طهرت عن الموعزى من الشجر والدواب ، وازدع فيها افضل الحبوب والثمار جاء فيها من الحرث مالا يوصف مثله نصار السابقون الاولون من المهاجرين والانصار افضل خلق الله بعد الانبياء . وصار افضل الناس بعدهم : من تبعهم باحسان الى يوم القيامة من العرب والعجم " (١)

ان هذا الشرف للعرب لم يكن من النسب الارضى ، بل جاء العرب من الرسالة الساوية لان " اجناس البشر لا يرجح بعضها البعض الآخر بشئ وما يظنه جنس ما من انه ارقى من جنس آخر : محض هراء

ويوم نفخر بأننا عرب وحسب ، فاننا نسقط عن المكانة التى رشحنا لها ، ونعطى الآخرين الحق فى الابتعاد عنا ، ونخون بذلك الامانة التى وكلها الله الينا . . . " (٢)

قال الأستاذ عمر بهاء الدين الاميرى : (٣)

ان تميز العرب هذا مقيد بقيود القرآن والسنة التى تحفظ لكل مقامه ، وتعطى

(١) المصدر السابق : ١٦٠-١٦٢

(٢) حقيقة القومية العربية واسطورة البعث العربى لمحمد الفزالى : ٢٣-٢٤ ط ٣

سنة ١٣٩٧ هـ .

(٣) شاعر سورى قديم غزير المادة الشعرية وهو كاتب بليغ ويعيش الآن فى المغرب .

كل نبي حق حقه ، بل ان هذا التميز ما كان للعرب الا بالاضافة الى الاسلام الذى اشرق اول ما اشرق فى صميم بلادهم ، وتنزل وحيه على رسول منهم ، حمل عبئه وأذى فى سبيله وبذل له من ذات نفسه ، وخاطب اول ما خاطب قومه العرب ، رباهم عليه حتى خالط نفوسهم ، وامتزج بمشاعرهم وانطبعت بطابعه حياتهم كلها ، تذوقوا هديته ببصيرة وعقل ، فجعلوه لهم ناموسا ، واستجابوا لامر الله الذى شرفهم بالقوامة عليه ، فنشروه فى الآفاق دستورا انسانيا عاما * (١)

وليس فى القرآن اى اشارة الى تجسيد الجنس العربى بغير الايمان والتقوى ، فقد جاء فيه اشارتان فى قوم النبو صلى الله عليه وسلم الاولى فى تكذيبهم له كقوله تعالى :
وكذب به قومك وهو الحق * (٢)

والثانية فيها اشارة الى زيادة المسؤولية عليهم وانهم اذا تسكوا بالايمان والتقوى والاخوة فى الله فهو يرفع شأنهم كقوله تعالى : **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** * (٣) والآية تشير إلى شرف التقوى وهو الذى فيه ذكر هؤلاء ، إذا أخذوا بمبدأه (٤) كما فى آية اخرى وهى قوله تعالى : **وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ** * (٥)

وانها حقيقة ان وجدت فى اى جنس او شخص فله نفس الافضية ، وعلى هذا الاساس بنيت ابواب الفضائل او المناقب فى كتب السنة لا على اساس عرقى او ديموى ، فالعجم الذين سلكوا طريقة اولئك الامجاد لهم فضل ومناقب كما روى عن ابي هريرة

(١) نقلا عن حقيقة القومية العربية لمحمد الغزالي ٢٤ ط ٣ سنة ١٣٩٧ هـ .

(٢) الآية من سورة الانعام : ٦٦

(٣) الآية من سورة الزخرف : ٤٤

(٤) انظر القرطبي : ٢٧٣ ح ١١ و ٩٣ ح ١٦ ،

(٥) الآية من سورة الانبياء : ١٠ .

رضى الله عنه قال : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَتْ سُورَةُ الْجُمُعَةِ فَتَلَاهَا فَلَمَّا بَلَغَ * وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ * قَالَ لَهُ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُلْحَقُوا بِنَا فَلَمْ يُكَلِّمَهُ قَالَ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ فِينَا قَالَ : فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ، فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ بِالثَّرِيَاءِ لَتَنَاولَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ * (١)

وإذا انتفى التقديس او الافضلية بسبب النسبة الى الجنس البشرى ، الذى اكرمه الله وفضله على غيره ، بدون التقوى فانثفا* الافضلية عن يفتخر بشى* آخر من باب اولى كمن يفخر بالانتساب الى ارض ما ، والاسلام يرفض كل دعوة من هذا القبيل لا تستند الى التقوى .

وليس فى القرآن كلمة ولا اشارة واحدة ، تيرر النسلية او الوطنية لتكونا سببا لكم الانسان ، لان القرآن يخاطب النوع البشرى لا يخص جنسا دون جنس ، بل إن ما يوجب العذاب ويعد جريمة الطائفية وهو التفريق بين الناس على أساس الجنس أو اللون أو الارض كما أخبر الله تعالى فى شأن فرعون كقوله تعالى :

* ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا *

وإذا كان للاسلام علاقة بأرض فمكة بلد الله الحرام ، ولكن فضله لا ينتقل الى احد ولا يختص به لان الله جعله للناس عامة مثابة ، وهم فيه سواء العاكف فيه والباد . (٣)

(١) رواه الترمذى فى كتاب المناقب رقم ٣٩٣٣ وقال : هذا حديث حسن ج ٥

(٢) الآية من سورة القصص : ٤

(٣) انظر بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية لابي الاعلى المودودى : ٢٩ - ٣٠ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً
الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ . . » (١)

ولهذا يمنع كثيرون من الفقهاء ملكية الارض في مكة وبينهم اختلاف في ملكية
البناء على الارض (٢)

وقد دعا أبو الدرداء (٣) رضي الله عنه ، سلمان الفارسي رضي الله عنه ، إلى الارض
المقدسة ، فكتب إليه سلمان : إن الأرض لا تقدر أحدا وإنما يقدر الانسان عمله (٤)

-
- (١) الآية من سورة الحج : ٢٥
(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم : ٤٣٤-٤٣٨ ج ٣ ط ١ المحققه سنة ١٣٩٩ هـ -
جامعة الامام - بيروت .
(٣) ابو الدرداء عويمر بن مالك الخزرجي الصحابي الجليل ولاء معاوية قضاء دمشق
في خلافة عثمان توفي سنة ٣٣ هـ أنظر ترجمته في الاصابه : ٣٤٥ ج ٣
(٤) تقول المراجع : أخرجه الامام مالك في الموطأ .

” التناسب الخلقى بالتقوى كفاءة معتبرة في المجتمع المسلم ”

ان منهج الدعوة الاسلامية في هذه الآية ، موضوعي وعميق ، فقد اقتضت المخاطبين وهم البشر جميعا ، بانهم في الوحدة الانسانية سواء ، وفي المادة الخلفية متماثلون . ثم وضعت امامهم المقاييس ، عقيدة وشريعة وخلقا - التي تميز بينهم وتفرق بين الاكرم وغيره ، وهي المقاييس التي اعتبرها منهج الدعوة في كون الانسان كريما وكونه كفوا ، لا بشيء آخر . . . !!

فالكافر لا يقاس وان كان نسيبا او غنيا لا يقاس بالموءمن وان كان غير نسيب وغير غني . ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضع في نسبه اذا كان دينا عالما صالحا ، ولا يصلح لشيء منها فاسق ، وان كان قرشي النسب ، وقاروني النسب ، ولكن اذا اجتمع في اثنين الدين المتين ، واحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله ، لان الله تعالى يقول : ^(١) ” وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ” وشرف النسب ليس مكتسبا ولا يحصل بسمى ^(٢) .

ومن هذا المنطلق الاصيل لمنهج الدعوة الاسلامية ، في البناء الاجتماعي ، كانت هذه الآية موضع تقرير الائمة والفقهاء الاجلاء في كفاءة المؤمنين بعضهم لبعض ، فسوى الحقوق والدماء والمصاهرة دون اي اعتبار من نسب ولغة ولون وموطن ونحو ذلك .

ولعل المصاهرة في هذا الباب شقيقة النسب الذي سبق انه لا عبرة به بسدون

(١) الآية من سورة النجم : ٣٩

(٢) التفسير الكبير للرازي : ١٣٧ - ٢٨٠ .

التقوى ، فلكذلك فلتكن المصاهرة لا يمنعها الا اختلاف الدين وفقدان التقوى التي هي معيار الاكرمية ، فمن الآية اتخذ الأئمة حجة بأن المؤمنين بعضهم اولى ببعض وانهم أكفاء لبعضهم كما قال تعالى : **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** (١) وقوله : **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** (٢)

فقرر الفقهاء بعد ثبوت ان المسلمين اكفاء بعضهم لبعض ، لا فرق بين جنس وجنس

فجاز لكل مؤمن ان يتزوج مؤمنة . . . وخلاصة ما في كتب الفروع انهم اتفقوا في ان الدين هو الاساس للكفاءة ، واختلفوا فيما عدا ذلك من الاعتبارات ، التي اعتمدها كثير من استحسنوا لبقاء الحياة الزوجية وتلاحم الاسرة ودعم الوفاق ، وليس من هذه الاعتبارات ما يقوى بالدليل على حل عقد الزواج مع وجود الشرط الاساسي وهو الدين والعفة ، وان اسهب بعضهم في هذه الاعتبارات . (٣)

والنصوص الاسلامية من قرآن وسنة تدعم ان الكفاءة انما هي بالدين لا غير فالله

سبحانه وتعالى يقول مرشدا الى موهل الكفاءة وهو الايمان ومحذرا من ضده وهو الكفر والشرك : **وَلَا تُنكِهُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِهُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَبَيِّنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (٤)

(١) الآية من سورة التوبة : ٧١

(٢) آل عمران : ١٩٥

(٣) انظر : زاد المعاد لابن القيم : ١٦٠ - ١٦١ هـ والمغنى مع الشرح الكبير :

٣٧١ - ٣٧٣ ط ٧ سنة ١٣٤٨ هـ طبعة المنار ، والمحلى لابن حزم :

٢٠٨ - ٢٠٩ ط ١١ طبعة سنة ١٣٩٠ هـ ، دارالاتحاد العربي للطباعة ،

وتفسير سورة النور لابن تيمية : ٤٧ - ٤٩ ط ١ سنة ١٣٩٧ هـ مكتبة المنار

الكويتية .

(٤) الآية من سورة البقرة : ٢٢١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضُونِ دِينَهُ وَخَلَقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ،
إِلَّا تَفْعَلُوهُ ، تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا كَبِيرًا . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ ؟ فَأَعَادَهَا
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . (١) .

قال العلامة ابن القيم : فالذى يقتضيه حكمه صلى الله عليه وسلم : اعتبار الدين
فى الكفاءة اصلا وكمالا فلا تزوج مسلمة بكافر ، ولا عفيفة بفاجر ، ولم يعتبر القسرآن
وانسنة فى الكفاءة امرا وراء ذلك ، فانه حرم على المسلمة نكاح الزانى الخبيث ، ولم
يعتبر نسيا ولا صناعة ، ولا غنى ولا حرية ، فجوز للعبد القين نكاح الحرة النسيبية
الغنية اذا كان عفيفا مسلما ، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات ولغير الهاشميين
نكاح الهاشميات ، وللفقراء نكاح الموسرات . (٢)

(١) رواه الترمذى وقال هذا حديث حسن غريب : ٣٠٥-٣٠٦ هـ ٤ وابن ماجه :

١ هـ ٦٣٢

(٢) زاد المعاد لابن القيم : ١٥٩ - ١٦٠ هـ ٥

” التقوى مفترق الطرق ”

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *

ما اجمل ذلك التعليل من العلى القدير ” لتعارفوا ” والمتعارفون لا شك ان كل واحد منهم سيعترف بحقيقة الآخر وبعدها قد يظن البعض من هؤلاء ” الشعوب والقبائل انه افضل بعلمه او بنسبه او بوطنه او ببلوته او بماله وطوله وقوته وجماله وذكائه او بسلطانه . . . استنادا الى واحد من هذه الامور او تلك بذاته او استنادا الى ذلك التفاوت الضرورى بين الاجناس واللغات والاطان . . . فكأن هذا الظن تساءل وتردد منهم فاجيب لمن يزعم شيئا من ذلك بجواب مقنع موكد مراعاة لتردده او انزاله منزلة المنكر بقوله : ان اكرمكم عند الله اتقاكم * وقد ياخذ بعض الناس بهذا المبدأ كذلك ويتعلق بان ياله مغالطا ، فيزعم انه اتقى الناس او ان فلانا من الناس اتقى من فلان وكأن هذا تردد منه او انكار فاجيب بقوله تعالى ” ان الله عليم خبير ” فالله اعلم بمن اتقى ولم يوكل الى الناس تحديد من يتقى وان كانوا شهداء الله على الارض .

” اذا الفضل الحقيقى هو اتباع ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم مسن الايمان والعلم ، باطنا وظاهرا . فكل من كان فيه امكن ، كان افضل ، والفضل انما هو بالاسماء المحموده فى الكتاب والسنة ، مثل الاسلام والايمان والبر والتقوى ، والعلم والعمل الصالح ، والاحسان ونحو ذلك ، لا بمجرد كون الانسان عربيا او عجميا او اسود أو ابيض ، ولا بكونه قرويا او بدويا ” (١) .

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية : ١٤٥ .

هذا هو مبدأ الافضية ومنبع الكرم وهو التقوى ، كما جاءت النصوص الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم تبين وتعلن للناس ان الاكرم هو الاتقى مفسرة ومؤيدة ما جاء في الآية وختمت به وكأنه نتيجة وهدف سام تدعو اليه جميع الشعوب والقبائل ان يتنافسوا فيه .

عن سورة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الحسب المال والكرم التقوى^(١)

وعن عقبة^(٢) بن عامر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَنْسَبَةٍ عَلَى أَحَدٍ ، كَلِّمَهُ بَنُوا آدَمَ ، طَفَّ الصَّاعُ^(٣) لَمْ تَنْفَعُوا لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بَيْنَ أَوْتَقَى^(٤) .**

وعن حبيب^(٥) بن خراش انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المسلمون اخوة لا فضل لاحد على احد الا بالتقوى^(٦) والمعنى جمعيتهم الأخوة الاسلامية (فأخوك من وافقك في الذوق ومدد الإفهام لامن شارك في معنى صورة النطف في الأرحام .
والتقوى غيب عنا ان محلها القلب فلا يجوز للمتقي أن يحقد مسلما وكيف يحتقره وهو لا يعلم الخاتمه لنفسه ولآله^(٧)

- (١) الترمذى عند تفسير الاية رقم : ٣٢٧١ وقال : حديث صحيح حسن غريب ج ٥
(٢) عقبة بن عامر الجهنى اختط البصرة وولى مصر لعمارة وغزو البحر كان فصيحاً شاعراً وكتابتها مات سنة ٥٨ هـ ، ترجمته في الاصابه : ٤٨٩ ج ٣ والخلاصة للخزرجى : ٢٦٩ .
(٣) طفا الصاع اى قريب بعضكم من بعض فى الانتساب الى اب واحد بمنزلة واحدة فى النقص والتناصر . .
النهاية : لابن الاثير : ١٢٩ ج ٥
(٤) رواه الامام احمد فى السند : ١٤٥ ج ٤
(٥) حبيب بن خراش العصرى من عبد القيس عداد فى البصريين روى عنه ابنه محمد باسناد متروك الاصابه : ٣٠٦ ج ١ انظر أسد الغابه لابن الاثير : ٣٧٠ ج ١
(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير : ٣٠ ج ٤ ط ١ سنة ١٣١٩ هـ ، الدار العربية للطباعة بغداد رمزله السيوطي بحسن وقال الساوى فيه عبد الرحمن بن عروه بن حبله وهو متروك ٢٧١ ج ٦
(٧) فيخراش القدير على الجامع الصغير للناوى : ٢٧١ ج ٦

(١)

وعن درة بنت ابي لهب رضى الله عنها قالت قام رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال يا رسول الله اى الناس خير قال صلى الله عليه وسلم
 " خَيْرُ النَّاسِ اَقْرَاهُمْ وَاَتَقَاهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاَمْرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَوْصَلَهُمْ
 لِلرَّحْمِ . (٢)

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ
 خُطْبَةً الْوُدَاعِ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ الْإِنِّ رَيْكُمْ وَاحِدٌ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ
 عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرَ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ
 إِلَّا أَهْلٌ بَلَغَتْ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ . (٤)

وعن مالك (٥) الاشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنْ اللَّسَّ
 لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى أَنْسَابِكُمْ وَلَا إِلَى أَسْمَائِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى
 قُلُوبِكُمْ فَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ صَالِحٌ تَحَنَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَأَحَبُّكُمْ إِلَيْهِ اتَّقَاكُمْ (٦)
 والكريم اذن هو الكريم عند الله ، وماعدا هذا يسقط ، ويرتفع هذا الميزان الذى اعطسه
 الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى
 فى ظل الله ، وهذا هو اللواء الذى رفعه الاسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية

(١) درة بنت ابي لهب أسلمت وهاجرت الى الدينه ، الا صابه ٢٩٧ هـ قال المناوى : رجال أحمد
 ثقات وفي بعض كلام لا يضر فيض القدير : ٤٧٨ ج ٣

(٢) رواه الامام احمد فى السند : ٤٣٤ هـ

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام غزا تسع عشرة غزوة مات بالمدينة بعد السبعين
 وهو ابن اربع وتسعين ، تقريب التهذيب ١٢٣ هـ ١ والا صابه : ٢١٣ ج ١

(٤) رواه الامام احمد فى السند ٤١١ هـ

(٥) ابو مالك الاشعري اختلف فى اسمه قبل عهد او عبد الله او عمرو او كعب او عامر
 ابن الحارث مات فى طاعون عوام سنة ١٨ ، التقريب : ٤٦٨ هـ ٢

(٦) رواه ابن ماجه : ١٣٨٨ هـ ٢ . رواه مسلم - النووى على صحيح مسلم فى كتاب السبر
 والصلوة : ١٢١ ج ١٦

للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت وكلها من الجاهلية واليهما تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء ، وكلها جاهلية عارية من الإسلام وقد حارب الإسلام هذه العصبية في كل صورها وأشكالها ، ليقم نظامه الإنساني العالى فى ظل راية واحدة : راية الله . . لا راية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت . ولا راية الجنس فكلمها رايات زائغة لا يعرفها الإسلام * (١)

وقد حرصت النصوص القرآنية كالأية التى نحن فى صددها والنبوة كالأحاديث المذكورة ، على تثبيت هذه القاعدة ، وهى ان النسب الذى يتفاضل به الناس هو التقوى والكرام انما هم من هذا النسب لا غير . ولذا ربط القرآن الكريم والمسئنة النبوية الايمان بالأعمال الصالحة .

كما ربط الكفر بالمعاصى ، ولم يربط ذلك بنسب او وطن او لغة او لون . . . (٢)

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة وعلى بيوت خاصة وعلى مقامات معروفة . . اما الغثاء غثاء الجماهير فهو غثاء لا وزن له ولا كرامة ، وقال الإسلام كلمته المدوية * ان كرامة الانسان مستمدة من إنسانيته لا من أى عرض آخر كالجنس واللون او الطبقة او الثروة او المنصب ، فاطنت الرسالة المساوية ألا وزن لتلك الاواصر التى تهدد الكيان البشرى والعلاقات الإنسانية المبنية على وشائج القرى والتعارف المتعاقد ، فاطن الإسلام ان العلاقة انما هى بالعقيدة فهى الأصرة المعتبرة التى يمكن ان ننصرف فيها جميع الاواصر السابقة وتحيا تحت لوائها

(١) ظلال القرآن للسيد قطب : ٣٣٤٨ - ٢٦

(٢) اصول النظام الاجتماعى لمحمد طاهر عاشور : ٨٦ - ٨٧ .

(١) . وتتأخر .

ان التقوى هي معيار الافضية ، وعندها يفترق البشر ويتوزعون وعلى التقوى يلتقى المؤمنون " فالعلاقة في مجتمع المؤمنين ليست علاقة الدم والقربة ، وليست علاقة القبيلة والاسرة وانما هي علاقة الايمان بالله والعمل الصالح ، وما عداها لا يوضع موضع الاعتبار اطلاقا عند تقييم الروابط التي يرتبط بها الافراد فيما بينهم في مجتمع الرسالة ، وانه ينهض لقائد مجتمع المؤمنين ان يهتم بأفراد المجتمع على اساس الايمان بينهم ، وليس على اساس القربة وصلة الدم الذي يجري في عروقهم " (٢)

ان الرسالة المحمدية جاءت والعالم تتوزعه اواصر متعددة ، آصرة النسب وآصرة السانف القربة والمصالح الشخصية ، وكلها عصبية لا علاقة لها بجوهر الانسان ، وكلها ترتكز على رابطة مادية ، واسس قاصرة بحكم طبيعتها ، ويبدو ذلك بمقدار سعة مرجعها ومقدار صلاحيتها للدوام والطول ، فآصرة العائلة ضيقة الانتشار ، وآصرة الخوثة اوسع انتشارا منها واوهن في الاعتبار ، وآصرة الشعب والامة اوسع ومن خلالها آواصر تنقص من جدتها وسعتها ، وتضعف قوتها ، كالحى والقبيلة ، والحلف والجوار والمرافقة واختلاف التفكير . . وورا* هذه الاواصر آصرة تمت الى جانب الانسانية وهي اوسع الجميع واقوى انتشارا ، انها آصرة الدين الذي هو مجموع التفكير الصحيح والعمل الصالح ، فجعل الاسلام جامعة الدين هي الجامعة الحق ، وابقى وما عداها

(١) معالم في الطريق للسيد قطب : ٧١ ، وهذا الدين له : ٧٩ ، ٨٤ ط ٤

(٢) القرآن والمجتمع لمحمد البهي : ٧٨-٧٩ .

فرعى تعتبر صلاحيته بالم يعتمد على الجامعة الكبرى جامعة الدين " (١)

ان هذه الجامعة ، جامعة العقيدة ، لا تتبنى الا على مبدأ التقوى ، والاكرم
في هذه الجامعة هو الاتقى ، والجنسية فيها هي العقيدة ، والوطن فيها هو دار
الاسلام ، والحاكم فيها هو الله والدستور فيها هو القرآن " (٢)

" هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذى ينبغى ان يسيطر على
قلوب اصحاب الدعوة الى الله ، والذى ينبغى ان يكون من الوضوح بحيث لا تختلط
به اوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب اليه صور الشرك الخفية : الشرك
بالارض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع
الصغيرة القريبة . تلك التى يضعها الله فى كفة ويضع الايمان فى كفة اخرى ويدع
للناس الخيار " (٣)

قال تعالى : **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اِقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَسَاكِنٌ تَرْضَوْنَهَا . أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَوَلَّوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** (٤)

ان العلاقة بالايمان ليست فحسب لتطهير مخبر الانسان وتوجيه مظهره ، بل ان
المشاركة مع الغير فى علاقة الايمان ، هى التى تؤمن الثقة وتضمن ولاء الضمير من
الداخل اكثر من علاقة القربى فى السياسة ، وهى لا تبدوا الا مع المصالح الذاتية ،

(١) اصول النظام الاجتماعى لمحمد طاهر عاشور : ١٠٧

(٢) انظر معالم فى الطريق للسيد قطب : ١٩٢

(٣) المرجع السابق ١٩٣

(٤) الآية من سورة التوبة : ٢٤

مرهونة بدوام المنفعة ومعرضة للتحويل من طرف الى نقيضه ، وهكذا علاقة القربى فسي
الدم ، لان الاقرباء اذا لم تجميعهم مصلحة فانهم مشتتون وعلى مشارف الفرقسية
" واما العلاقة بالايمان بالله فهي ابقى واثبت لان الايمان يطلب التضحية من المؤمن
بالمال او بالعصبية او بالقوة ، لذا امر الله في القرآن بالمولاة بواسطة هذه العلاقة (١)
قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ
عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (٢)

ان الامة التي تتخذ من عقيدتها منطلقا للتفوق والكرم لى الامة المهتديسة
فى ضبط حالتها وجمع كلمتها . فالدين هو الضابط الاجتماعى فى الامة ، ويؤلف بين
القلوب ، ويجعلها طبقة واحدة مع الاختلاف فى المظاهر الاجتماعية ، وه شمس
الامة لا يغيره على فضائلها النفسية وانسانية القلب . ولهذا كان الدين وسيلة
لا يقاظ ضمير الامة وايثارة روحها " فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته
وطبيعته ، ومتى قوى هذا السلطان فى الامة كان حيا أبيا لا ترغبه قوة ولا يعنـو
للقهر " والشعور الدينى لولاه لما كانت طاعة فى النفس ولا امكن دفع الانسان الى الاكمل
" وكل امة ضعف الدين فيها اختلفت هندستها الاجتماعية وماج بعضها فى بعض،
فان من دقيق الحكمة فى هذا الدين انه لم يجعل الغاية الاخيرة من الحياة غاية فسى
هذه الارض وذلك لتتنظم الغايات الارضية فى الناس فلا يأكل بعضهم بعضا " فالدين

(١) انظر المجتمع فى القرآن لمحمد البهى : ٩٣-٩٤

(٢) الآيه من سورة التوبه : ٢٣

عمله تكوين الخلق الثابت الدائم الذى يسمو على كل مصلحة وهو الحس الاقوى من الحس بالمادة وبهذه المقومات ، التى ينشأها الدين الصحيح القوى فى النفس يكون النجاح للامة فى كل شىء . ان الرجل القوى الايمان المشبع بالثقة واليقين وفساءً وصدقا وعزما واصراراً على الفضيلة الدينية ليس كغيره ، وهو ينفجر كلما احتاجت الامة الى غوث اكثر من غيره . (١)

ان النزعة الانسانية ووحدتها التى تقررها الاية ، قد جاءت المبادئ الاسلامية فى كل ناحية بتأييدها وتوثيق عراها فالتقى الاسلام فى نظامه الذى جاء وحيا بالفطرة الانسانية ، والحقيقة الانسانية ، وهى انها عنصر واحد تشعب ليتعاون ، وتباينت بعض مظاهره ليتعارف . . بل اصل النزوع النفسى واحد فيه اسباب الاستقامة والانحراف واحدة ، فلا يقال طبيعة الاسود غير طبيعة الابيض ، فالطبايع البشرية وفطرتها سواء ، ولكن الاختلاف جاء من التوجيه والتوجه لا من اصل الفطرة . (٢)

قال تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا . (٣)

وشت فروق قليلة غير ذات جدوى بين أفراد النوع البشرى ، منها ماله آثار فى اختلاف التفكير والاعمال اختلافاً ضعيفاً . لا يكاد يفرق بين المتقابلين كالذكورة والانوثة ، وفروق عادية وهى تقوى وتضعف كالنسب والوطن واللغات فهى لها آثار فى اختلاف آساليب الحياة فقط اختلافاً اصطلاحياً ، وما عدا ذلك لأثره كالسواد والبياض

-
- (١) وحى القلم لمصطفى صادق الرافعى : ٣٨ : ٤٠ بتصرف ، دار الاتحاد العربى للطباعة .
 (٢) انظر الوحدة الاسلامية لمحمد ابى زهرة : ١٣ ،
 (٣) الاية من سورة يونس : ١٩ .

والسوءد والسوقة ، وهذه الوحدة المتلاصقة الجذور والاصول فى مرتبة واحدة ، وهى الانسانية عليها اعتمد الاسلام فى خطابه العام واصلاحه الشامل لكل النوع البشرى ، فما يصلح لهذا يصلح لذاك ، وما يقال لاولئك يقال لهؤلاء ، وفى الحديث : عن ابن عباس رضي الله عنهما : بِعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ فَلَيْسَ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ يَدْخُلُ فِي أُمَّتِي إِلَّا كَانَ مِنْهُمْ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا . (١)

وقال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (٢)

وقال : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ . (٣)

وقال : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . (٤)

وقال : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً . . . الآية (٥)

ان هذا العموم يعتمد على الفطرة والبشر يستوون فى اصلها ، واذا وجد اختلاف فى الفطرة وجد اختلاف فى بعض الامور فى الشريعة ، فان دام الاختلاف ، دام ذلك فى الشريعة ، كبعض ما يخص النساء ، وان كانت الاحوال طويلة المدة فهى مستثنيات كاحكام الارقا ، او عارضة فى وقت معين فهى اذار كاحكام المرضى . . . وثبت حقيقة اخرى وهى العموم فى الشريعة الاسلامية عموم لا يتطرق اليه اختلاف المختلفين ولا لاستقراره ، واما الخصوصيات والمستثنيات والاذار فهى مجال لاجتهاد المجتهدين فى اصل اخراجها من العموم او مقداره . (٦)

(١) رواه الامام احمد فى السند ٢٥٠ - ١

(٢) الآية من سورة الانبيا : ١٠٧

(٣) الآية من سورة سبأ - ٢٨

(٤) الآية من سورة الاعراف ١٥٨

(٥) الآية من سورة النحل ٩٧

(٦) اصول النظام الاجتماعى فى الاسلام بتصرف : ٩٥ - ٩٧ .

ان هذه النزعة الانسانية ملموسة فى كل شىء فى التشريع الاسلامى الحضارى ،
وحدة فى الصلاة ، ووحدهم فى الزكاة ووحدهم فى الصيام ووحدهم فى الحج ، بل
ووحدة فى جنس الحسنات والسيئات ، وفى كل ذلك الله سبحانه وتعالى لا ينظر
الى صور الناس ولا الى اجسامهم ولا الى اجناسهم ولكن الى اعمالهم كما فى الحديث :
إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ (١) ،
وقد ترفع الحياة بعد ذلك قوما ، وتخضع آخريين ، وتستغنى فيئات من الناس ويفتخر
كثيرون ، وقد يحكم شخص ، ويخضع شعب ، وقد تبيض بشرة اقوام وتسود الوان اسم
اخري ، ان هذا وان كان سنة الله فى الحياة ونظامه الذى لا يتبدل فليس من شأنه
ان يميز بين بنى البشر بل الكل سوا عند الله فى آدميتهم وانسانيتهم لا تمايز
بينهم الا بالتقوى ، فهم امام قانون الله " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " (٢) ،

* هذه هى مظاهر النزعة الانسانية فى مبادئ حضارتنا وتشريعها حين اعلنت
للناس ، فكيف كان واقعها حين حكمت وانتصرت ؟ ! هل ظلت تلك المبادئ ميثاقا
كميثاق حقوق الانسان فى مشرعة الامم تحتفل الدول بذكرى اعلانه يوما فى كل عام ، بينما
تمتته الدول الكبرى فى كل ساعة وفى كل يوم وفى كل شهر من شهور السنة ؟ ! هل
ظلت تلك المبادئ حبيسة فى البلد الذى اعلنت فيه كما احتبست مبادئ الثورة
الفرنسية فى فرنسا وحرمت على مستعمراتها والبلدان الواقعة تحت حكمها

(١) اخرجه مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه ، النووى : ١٢١ - ١٦

(٢) الآيه من سورة الزلزله : ٨ / ٧ .

أو انتدابها ؟! هل نصبت تماثيل جديدة كما نصبت تماثيل الحرية في نيويورك
أول ما يراه القادم إلى تلك الديار، بينما تنطق أعمال أمريكا في خارجها نطقاً يلعبن
الحرية وهزاً بها ويضطهد عشاقها الأحرار " (١).

(١) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي : ٥١-٥٤ ط ٢ سنة ١٣٨٨ هـ،
دار الإرشاد - بيروت .

الفصل الثاني

« دور الايمان في بناء المجتمع المسلم »

التمهيد :

في الفصل السابق عرفنا كيف كانت البشرية أسرة واحدة في نشأتها الأولى ، وخالقها رب واحد وهورب الكون الذي يقرون به قهرا وفطروا على العبودية له وكيف تفرعت الأسرة الانسانية الى شعوب وقبائل ، وتعددت أجناسا واللوانا وأوطانا ولغات ، وتبين من ذلك كله ، أن تلك المظاهر المادية ، لا تصلح شعارا للتفاضل ومبدأ للأكرمية ، ولا لبناء مجتمع فاضل ، يتخذ من العدالة نظاما ، ومن الترابط والبناء هدفا ، ومن الأخوة الحقه طريقا إلى الكمال الانساني ، الذي لا يصل إليه أحد ولا يحسوم حول حماه الا بالايمان والتقوى المتلازمين .

وعرفنا أن التقوى هي المعيار وعندها مفترق الطرق للأكرمية والأفضلية ، وقد ختمت الآية التي ذكرت في الفصل السابق بهذه الحقيقة المنهجية لبناء المجتمع المسلم ، " إن اكرمكم عند الله اتقاكم " بعد أن ربطت الآية البشرية بأصل واحد في النشأة وأرجعتهم إلى خالق واحد متفرد له الخلق والأمر وحده " الاله الخلق والأمر " (١) وتكون له التقوى خالصة ، " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفا " (٢) ولكن كل ذلك لا يستقيم أمره ، ولا تثبت حقيقته ، وتتفح وتقع الا إذا كان مبناه الايمان وزيادته وتوجيهه ، فلا تقوى بلا إيمان ، كما لا إيمان بلا تقوى . . فما الايمان هذا ؟ وما المؤمنون ؟ ! .

(١) الآية من سورة الاعراف : ٤

(٢) الآية من سورة البينة : ٥ .

ارتباط المسلم بالايمان

إن تكوين الفرد المسلم ونمو الافراد إلى مجتمع مؤمن فاضل مرتبط بالايمان في وجود هذا التكوين وثمراته واستمراره لهو معنى هذا الارتباط فالمسلم يحرص دائما بهذا الارتباط الوثيق ، حين يؤمر او ينهى ، فهو مأور بأن يعمل لأنه مؤمن ، وينهى عن شيء محرم أو مكروه لأنه مؤمن ، وهذا هو الفارق بين المؤمنين وغيرهم . . . ولقد كان هذا الأسلوب معلما في القرآن والسنة ينير للمؤمنين طريقا في كل ما يعملون ويدعون ، فكثيرا ما يقيد عطيم بمقتضى الايمان وتركهم بموجب الايمان ،

باسلوب الشرط " ان كنتم مؤمنين " او بغير اسلوب الشرط كقوله تعالى :

- (١) " وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
- (٢) " وَاللَّهُ رَاسُوهٗ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ "
- (٣) " فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
- (٤) " وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
- (٥) " يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
- (٦) " فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
- (٧) " وَقوله تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "

- (١) الآية من سورة آل عمران ١٣٩
- (٢) الآية من سورة التوبة : ٦٢
- (٣) الآية من سورة هود : ٨٦
- (٤) الآية من سورة المائدة : ٢٣
- (٥) الآية من سورة النور : ١٧
- (٦) الآية من سورة التوبة : ١٣
- (٧) الآية من سورة المائدة : ٥٧ .

- وقوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * (١)
- وقوله تعالى : فَكَلِمَاتٌ مَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * (٢)
- وقوله تعالى : إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا * (٣)
- وقوله تعالى : إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ * (٤)
- وقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * (٥)

وفى النصوص النبوية ربط كل شيء يصدر من المسلم بالايان ، فهذا قوله عليه الصلاة والسلام رابطاً كلام المؤمن وسكوته بالايان وربطاً معاملته لجاره ومن ألم به من ضيف بالايان ، وإذا كان هذا مرتبطاً بالايان ، فتكون معاملة القريب الرحم والجوار ، أو الضيف القريب الرحم من باب أولى ، كما أنه إذا كان هذا لغير المسلم فالمسلم من باب أولى ، ولهذا جمع الحديث كل أحوال المسلم مع غيره وربط كل تصرفاته مع الغير بالايان . . فيقول صلى الله عليه وسلم : مَنْ كَانَ يَوْمٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَسُوعِي جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يَوْمٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يَوْمٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِتْ * (٦)

إن الشريعة الاسلامية ، ليست جانباً واحداً فقط فى حياة الانسان ، بل هى اعتقاد وعمل من كل الجوانب ، ولا يصلح العمل الا بصلاح الاعتقاد وثبات الايمان ،

-
- (١) الآية من سورة الانفال : ١
(٢) الآية من سورة الانعام : ١١٨
(٣) الآية من سورة النساء : ١٠٣
(٤) الآية من سورة التوبة : ١١١
(٥) الآية من سورة النور : ٥
(٦) رواه البخارى عن ابى هريرة : ٤٤٥ ح ١٠ وسلم : ٢٠ ح ٢٠ .

كما لا يثبت الاعتقاد الا بعمل الجوارح ، والعمل منه ما هو خاص بالابدان كالصلاة والصيام ، ومنه ما هو خاص بالأموال كالزكاة والحقوق بها من الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة ، وبذلك صارت الشريعة الاسلامية محيطية بكل ظاهر الانسان وباطنه . (١)

ولقد كان الايمان شرطا لكل عمل يقوم به المسلم ، فمن خلا من الايمان لا عمل له ولا ثواب ، لانه لا يمكن ان يخلص العمل لله ويقصد به وجهه الا من كان مؤمنا ، لذا جاءت شرطية الايمان في كل شيء وثبت ارتباط المسلم بالايمان ، والذين لا يبرون ان الايمان شرط لا يهدمون هذه القاعدة ، بل يزيدون لها رسوخا ومتانة ، ان يقولون : ان الايمان عليه تتبنى العبادات * ألا ترى ان معنى العبادات التوجه الى المعبود بالخضوع والتعظيم بالقلب والجوارح ؟ وهذا فرع الايمان فكيف يكون اصل الشيء وقاعدته التي يبنى عليها شرطا فيه ؟ هذا غير معقول ، ومن اطلق هنا لفظ الشرط فعلى التوسع في العبارة ، وايضا فان سلم في الايمان انه شرط ففي المكلف لا في التكليف ، ويكون شرط صحة عند بعض ، وشرط وجوب عند بعض ، فيما عد التكليف بالايمان حسبا ذكره الاصوليون في مسألة خطاب الكفار بالفروع * (٢)

وخلاصة القول ان المؤمنين يحسون في انهم في كل التوجهات مرتبطون بالايمان ، ويوجهون به ، وكان راية لهم ، ومراقبا في ضمير كل مؤمن ، وقائدا لاراداتهم في كل تصرف ... !! .

(١) انظر الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم : ٦٨٥ - ٥ ط ٢ سنة ١٣٨٠ هـ ، مطبعة المعاصي ، القاهرة .

(٢) الموافقات للشاطبي : ٢٦٨ - ١ .

وإذا تأملنا هذه السورة وتدبرناها حق التدبر ، فإننا نجد الايمان محورا يدور حوله كل ما امر الله به المؤمنين ونهاهم عنه في هذه السورة . . . والسورة تخص المجتمع المؤمن الرفيع وتدور آياتها حيث دارت مصلحة هذا المجتمع ، معلية من شأنه ، ورافعة بنائه ، وكأنها فصلت فصولا وصدر كل فصل بالايمان ، وترتبت فيها الآداب ترتيبا بديعا ودعى المؤمنون الى هذه الآداب العالیه باسم الايمان ، ونودوا باللقب الحبيب والعلم الرفيع " يا ايها الذين آمنوا " . . .

والسورة " تحدد معالم الايمان ، الذى باسمه دعى المؤمنون الى اقامة ذلك العالم ، واسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذى يدعوهم الى تكليفه ، بهكذا الوصف الجميل ، الحافز الى التلبية والتسليم . . . ذلك النداء الحبيب الذى يخجل من يدعى به من الله الا يجيب ، والذى يبسر كل تكليف ويهون كل مشقة ويشوق كسل قلب ، فيمنع ويستجيب " (١) ،

ولا ادل على هذا من تكرار النداء الحبيب المحبب الى نفوس المؤمنين ففى السورة " يا ايها الذين آمنوا " خمس مرات ، وفى كل مرة يوجه الله المؤمنين بأدب واخلاق غير ما سبق ، مخاطبا لهم بايمانهم ، وذكرا اياهم بانهم مؤمنون ، وسأوضح هذه الآداب فى الفصول القادمة ان شاء الله تعالى .

يقول جار الله الزمخشري (٢) وهو من هو فى تذوق البيان وان شطى به النوى

(١) ظلال القرآن للسيد قطب : ٣٣٣٧ - ٢٦ المجلد ٦

(٢) ابو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، وقد جاور فسى مكة فسى جار الله ، وكانت احدى رجليه مقطوعه ومعه شهادات فى سبب ذلك وهو الثلج والبرد حتى لا يظن انها قطعت فى ريبة . وكان معتزليا متظاهرا بذلك ولد فى زمخشر سنة ٤٦٧ هـ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ١٦٨ - ١٧٤ هـ ،

عن صفاء العقيدة يقول : اعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، ونظرية الانصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لتلايفتروا ويفعلوا عن تأملهم وما اخذوا به عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الأدب الذى المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى فى دينهم ، وذلك لان فى اعظام صاحب الشرع اعظام ما ورد به ، وستعظم الحق لا يدعه استعظامه ان يألوا عملا بما يحدوه عليه وارتداعا عما يصدده عنه وانتهاء الى كل خير * (١)

وعلى كل فتكرار النداء فى السورة ينطوى على فوائد لم يهملوها وهى :

- ١- فيه زيادة الشفقة على المنادين ، كتكرار النداء من لقمان لابنه فى سورة لقمان شفقة عليه . (٢)
- ٢- ومن الفوائد ان المنادين فى كل نداء هم المؤمنون فلا يتوهم متوهم التغاير .
- ٣- ان كل نداء مقصود فى حد ذاته آتيا بطلوب او منهى جديد غير ما سبق من النداءات فليس الثانى تأكيدا للاول . (٣)

والتكرار مع هذا اسلوب بلاغى ، يعدونه من انواع الاطناب ، وهو كثير فى الالفاظ دون المعانى ، ويكون للتشويق والاستعذاب ، كما هو واضح من هذه النداءات " يا ايها الذين آمنوا " فى سورة الحجرات . وهو يرد كثيرا فى

يقول الذهبى فى ميزان الاعتدال : صالح لكنه داعية الى الاعتزال اجارك الله فكن حذرا من كشافه * ٧٨ هـ ٤ طبعه سنة ١٣٨٢ هـ ، الحلبيّة .

- (١) الكشاف : ٥٥٤ هـ ٣ .
- (٢) الآيات من سورة لقمان : ١٣-١٥-١٦
- (٣) انظر التفسير الكبير للرازي : ١١٢ هـ ٢٨

القرآن ، ولكنه فى كل موضع يجد معنى جميلا وجديدا ويشير الى نكتة بلاغية
 تلفت النظر ، وتنبه المتدبر للكتاب العزيز المعجز ، كتكرار الآية " فبأى آء ركبنا
 تكذبان " (١) فى سورة الرحمن كلما ذكر نعمة وعدد آء ، وتكرار الآية :
 ويل يومئذ للمكذبين " (٢) فى سورة المرسلات ، بعد كل قصة فى السورة . (٣)

-
- (١) تكررت فى سورة الرحمن : احدى وثلاثين مرة .
 (٢) تكررت فى سورة المرسلات عشر مرات .
 (٣) انظر : الايضاح فى علوم البلاغة للقزوينى : ٣٠٤ هـ ٢ ط ٣ سنة ١٣٩١ هـ ،
 دار الكتاب اللبنانى ،
 والعمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق : ٢٣-٧٥ هـ ٢ ط ٣ سنة
 ١٣٨٣ هـ ، مطبعة السعادة ، القاهرة .

• الايمان رباط مظهر السلم بباطنه ودعواه باستحقاقه •

• الآيات : من الرابعة عشرة الى نهاية السورة •

قال تعالى : قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ •

قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ • يَحْضُرُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَنْوُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ
لِلْإِيمَانِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ •

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ •

...

• القراءة • (١)

قرأ ابو عمرو ^(١) "يألتكم" بالف وهمز وروى عنه بالف ساكنة مع ترك الهمزة ، وهذه
القراءة من ألت يألت ألتا ، وتوافق قوله تعالى " وَمَا أَلْتَاهُمْ مِنْ عَالِمٍ مِنْ شَيْءٍ " ^(٢)

(١) انظر : مجاز القرآن لابي عبيدة لهذه الوجوه : ٢٢١ ح ٢ ط ١ سنة ١٣٨١ هـ
طبعة الخانجي ، مصر .

(٢) ابو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبدالله المازني النحوي المقرئ احد القراء
السبعة المشهورين امام اهل البصرة في النحو وفي القراءات ، اختلف في اسمه
على احد وعشرين قولاً ، قيل ان اسمه كنيته ، واصح ما ذكروا اسمه زيان . قال
ابوعبيدة : ابو عمرو اطم الناس بالقراءات والعربية وايام العرب والشعر ومن
جلالته ان اشتهر بكنيته ابي عمرو وكان ذلك سبباً في الاختلاف في اسمه ، وكان
نقش خاتمه (وان امراً دنياه اكبر همه لستمك منها بحبل غرور)

وهو بمعنى نقص ، وفيه لغة من الاتى حقى والاتى عن وجهى وعن حاجتى ، اى
صرفنى عنها كقول الحطيئة : (١)

أَبْلِغْ سِرَاةَ بَنِي كَعْبٍ مَغْلَغَلَةً - جَهْدَ الرِّسَالَةِ لَا أَلْتَا وَلَا كَذَبًا . (٢) وقراءة
الجمهور من لات يلبت كقول الشاعر وهو رومي : (٣)

= وقيل ليس له من الشعر غير بيت واحد :

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَّرْتُ
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا

ولد سنة ٦٨ هـ وقيل سنة ٧٠ هـ وتوفى سنة ١٥٤ هـ وقيل سنة ١٥٩ هـ ،
انظر : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى : ٣٦٧ ، دار
المعرفة - لبنان .

ومعرفة القراء الكبار للذهبي : ٨٣-٨٧ ط ١ دار الكتاب الحديث -
مصر .

(١) الحطيئة لقب واسمه جرول بن اوس بن مالك من مضر وهو من فحول الشعراء
يتصرف من جميع فنون الشعر ، وكان ذا شرسفه وهجاء مقدع ، ونسبه متدافع
بين القبائل وكان ينتمى الى كل واحدة اذا غضب على الاخرين ، وهو مخضرم
ادرك الجاهلية والاسلام ، فاسلم ثم ارتد وهو الذى قال :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ مَا لَأَبِي بَكْرٍ
أَيُّورْشَهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ وَتِلْكَ لَعَمْرُ لِلَّهِ قَاصَّةُ الظُّهْرِ

انظر لترجمته : مختارات الاغانى لابن منظور : ٢٦٠ وما بعدها ط ٢ سنة
١٣٨٣ هـ .

(٢) الديوان : ١٣٥ ط ١ سنة ١٣٧٨ هـ ، الحلبي - القاهرة .

(٣) روية بن العجاج من رجاز الاسلام وفصحاءهم ، وهو مخضرم بين الدولتين
الاموية والعباسية ، واحتجوا بشعره وروى الحديث السند هو وابوه فروى عن
ابى هريرة حديث : السواك يذهب وضر الطعام " ولم يوجد لرويه ولا لابييه
فى شعره حرف مدغم قط ، قال الخليل بن احمد بللبصرة بعد دفن رومي :
دفننا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ، وقد مات فى زمن المنصور ، ويكنى ابا الجحاف
وابا العجاج ، انظر : مختارات الاغانى : ٢٨١-٢٨٤ ط ٥ .

وَلَيْلَةٌ ذَاتَ نَسْدَى سَكْرِيَّتٍ .. وَلَمْ يَلْتَنِ عَنْ سَرَاهَا لَيْتٌ . (١)

وقد ضعف ابو جعفر الطبرى (٢) قراءة ابى عمرو هذه ، فيقول :

" والصواب من القراءة عندنا فى ذلك ما عليه قراء المدينة والكوفة " لا يلتكم "

بغير ألف ولا همز ... لعلتين : احداهما : اجماع الحجة من القراء عليها والثانية انها فى المصحف بغير الف ، ولا تسقط الهمزة فى مثل هذا الموضع ، لانها ساكنة ، والهمزة اذا سكنت ثبتت كما يقال تأمر وتأكلون ، وانما تسقط اذا سكن ما قبلها ، ولا يحمل حرف فى القرآن اذا اتى بلفه ، على آخر جاء بلفه خلافا ، اذا كانت اللغتان معروفتين فى كلام العرب " (٣)

ولكن القراءة صحيحة بل قراءة عمرو من القراءات السبع ، وهى لغة مشهورة

ثابتة ، وقد جاء القرآن بها كما فى الآية " وما ألتناهم من علمهم من شئ " فلا وجه لانكارها واضعافها .

(١) البيت لم اجده فى الديوان وانشده ابو عبيدة فى مجاز القرآن والطبرى وغيرهما .

(٢) ابو جعفر : محمد بن جرير بن خالد الطبرى ، كان اماما فى فنون كثيرة كالتفسير والحديث والفقه والتاريخ ، وكان مجتهدا لم يقلد احدا ومن الناس من كان على مذهبه ، وهو ثقة فى نقله ، ولد سنة ٢٢٤ هـ بطبرستان وتوفى يوم السبت ودفن يوم الاحد فى داره فى ١٦ من سوال سنة ٣١٠ هـ ببغداد ، انظر : وفيات الاعيان لابن خلكان ١٩١-١٩٢ هـ ٤ .

(٣) تفسير الطبرى ١٤٣-١٤٤ هـ ٢٦ .

قوله : ان هداكم * قرأ عاصم ^(١) بكسر الهمزة ، وقوله : والله صـير
 بما تعلمون * بالياء على الخبر لمناسبة قالت الاعراب قراءة ابي عمرو وابن كثير ^(٢) .

(١) ابوالنجد عاصم الاسدي مولاهم بن بهدلة ، كوفي واحد القراء السبعة وهو معدود في التابعين واليه انتهت الامة في الكوفة بعد شيخه ابي عبد الرحمن السلمي ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، يقول عنه الامام احمد صالح خير شقة وحديثه مخرج في الكتب الستة وتوفي سنة ١٢٢ هـ وقيل سنة ١٢٢ هـ وقيل ١٢٨ هـ ، انظر في ترجمته : معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار للذهبي : ٧٣ - ٧٧ هـ ١ .

(٢) ابو معبد المكي عبد الله بن كثير بن المطلب مولى عمرو بن طلحة الكنانى الدارى اصله فارسى ، وكان بمكة عطارا واماما للمكبين في القراءة وحديثه في الكتب الستة وثقه ابن معين وكان فصيحاً بليغاً مفوهاً . مات سنة ١٢٠ هـ وقيل عاش ٧٥ فيكون مولده سنة ٤٥ هـ ، انظر : المرجع السابق : ٧١-٧٢ هـ ١ .

” ما قيل في سبب نزول الآيات ”

قيل نزلت في اعراب بنى اسد بن خزيمه ، قدموا المدينة في سنة مجدبة ، وافسدوا الطرقات واكلوا يمينون على رسول الله صلى الله عليه وسلم اسلامهم ، ويقولون : يا رسول الله اتيناك بغير قتال ، وتركنا العشائر والاموال ، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرها في الاسلام فلنا بذلك عليك حق ” وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **اِنَّ فِقَهُهُمْ قَلِيلٌ وَاِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلٰى السِّنِّتِهِمْ** (١)

وقيل نزلت في اعراب مزينة ، وجهينة ، واسلم ، واشجع ، وغفار ، وكانت منازلهم بين مكة والمدينة ، وكانت اذا مرت بهم سرية من سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم ، قالوا آتانا لياؤنا على انفسهم ، فلما استنفروا الى الجهاد تخلفوا ، وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح . (٢) وهو قوله تعالى : **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** (٣)

ومهما يكن من الامر فالآيات تعم الذين اسلموا ولم يطيعوا الله ورسوله ، وغيرهم من زعم الاسلام ولم يسلم من باب اولي .

(١) ذكره ابن كثير وفي تفسير هذه الآيات وأسند الرواية الى الحافظ ابي بكر البزار ورواه — الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة لكنه مولى مرومية رجاله رجال الصحيح ” مجمع الزوائد للهيثمى : ١١٢ ج ٧

(٢) الايمان لابن تيمية : ٢٠٦ - ٢٠٧ ، والقول الاول ذكره الواحدى في اسباب النزول ٢٢٥ ، وهذه الاقوال ذكرها المفسرون عند تفسير الآيات دون اسناد بعبارات مختلفة .

(٣) الآية من سورة الفتح : ١١ .

” ارتباط الآيات بما قبلها ”

لما ختم سبحانه وتعالى الآية التي قبل هذه الآيات بقوله : ان اكرمكم عند الله اتقاكم ” ،

فحث الناس على التقوى ، ثم ويخ من في ايمانه ضعف ، كالأعراب الذين يزعمون الايمان بدخولهم في الاسلام دون ان يعملوا او من يدخل منهم في الاسلام تقية ، واصل الايمان الاتقاء من الشرك ، وليس الايمان بالقول فقط ، والتقوى لا يصل اليها احد الا بالايان لا بشرف النسب ونحوه . (١)

ان هو لا ” الذين تتحدث عنهم الآيات ، صنف آخر من المسلمين ، ليسوا كأولئك الذين كانت قلوبهم للتقوى ، وكان لقبهم دائما الايمان ، كما عرفنا في المناذاة الخمس ، اما هو لا ” فلا يطول الكلام معهم ، ولا تعرض عليهم الآداب الاسلامية كما كانت حاله اولئك العلماء المدركين الحقيقة . انما هو لا ” في حاجة الى ان يعلموا المراد بالايان اولا وقبل كل شيء ” هل هو دعوة تقال باللسان فقط ام انه حقيقة تتجاوز اللسان الى القلب ، ثم يشع نورها من القلب ، فينعكس في الأقوال والأعمال ، وفي الحركات والسكنات . هذا ما تضمنته خاتمة السورة .

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٤٠ هـ ٢٨ .

• هل هؤلاء الأعراب مسلمون أم منافقون ؟ •

إذا صحت الأسباب التي ذكروها لنزول الآيات ، فهل في سياقها ما يدل على ان هؤلاء الأعراب منافقون ، أم في أسلوب الآيات ما يرجح انهم بجانب الإسلام الصق ، وكانوا في اقوالهم صادقين ، فيما يختص بدعوى الإسلام ، دون دعوى الإيمان ، ووصولهم الى درجة الإيمان قولا وعملا . . ؟ !

لقد وجدت في مقالات المفسرين ، تضاربا واقوالا ، لا تكاد تتفق في توجيه المقصود بمكانة هؤلاء من الإسلام . . فمن المفسرين من يصرح بان هؤلاء منافقون ليسوا من الإسلام في شيء ، بل ان في مقالات بعض منهم ما يفهم منه ، ان ليس هناك غير درجة الإيمان او النفاق فلما نفى عن هؤلاء الإيمان وجب ان يكونوا منافقين ، ومن خلال هذا الوجه في تفسير الآيات ، ويبان ان هؤلاء الأعراب منافقون ، من خلال ذلك ، يدقق هؤلاء المفسرون في تحليل الكلمات في الآيات تحليلا ادبيا وبلاغيا ونحويا ، ليستدلوا من دقة الأسلوب انهم منافقون ، ويستشفوا من وراء حكمهم هذا وان لم يتضمنه أسلوب الآيات . (١)

ويستدل هؤلاء المفسرون بآيات اخرى وردت في الأعراب المنافقين ، وكان كلمة الأعراب لا ترد عندهم في القرآن الا في شأن المنافقين وهذه الآيات :

(١) هؤلاء : الرازي في تفسيره الكبير : ١٤١-١٤٤ هـ ٢٨ ،
والزمخشري في كشافه : ٣٧٦ هـ ٤
وابو حيان في البحر المحيط : ١١٧ هـ ٨ ،
والقرطبي : ٣٤٨ هـ ١٦ ،
والقاسمي في تفسيره : ٥٤٧٢ هـ ١٥ ،
وصديق حسن خان في تفسيره فتح البيان : ٨٧ هـ ٩ .

قوله تعالى : الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * (١)

وقوله : وَمِنَ حَوْلِكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ * (٢)

وقد اشار الامام البخارى فى جامعه الى ان هؤلاء الاعراب منافقون فقال : * باب اذا لم يكن الاسلام على الحقيقة ، وكان الاستسلام او الخوف من القتل ، لقوله تعالى : قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا . قُلْ لَمْ تَوَدُّوا ، وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسَلْنَا * فَإِذَا كَانَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ * (٣) ،

ويقول الحافظ ابن حجر مبينا مقصد البخارى فى الترجمة : كأنه يقول اذا كان الاسلام كذلك لم ينتفع به فى الآخرة ، ومحصل ما ذكره واستدل به ان الاسلام يطلق ويراد به الحقيقة الشرعية وهو الذى يرادف الايمان وينفع عند الله ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية وهو مجرد الانقياد والاستسلام * (٤)

وقد رجح شيخنا محمد الامين الشنقلى (٥) رحمه الله : انهم منافقون .

(١) الايتان من سورة التوبة : ٩٧-٩٨ ،

(٢) الآية من سورة التوبة : ١٠١ ،

(٣) صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى : ٧٩ - ١ ، والاية الثانية من سورة آل عمران : ١٩ ،

(٤) فتح البارى على صحيح البخارى : ٧٩ - ١

(٥) العلامة المفسر الاصولى الشيخ محمد الامين بن محمد مختار الجكنى الشنقلى ، كان رحمه الله من حفاظ هذا القرآن ، ومن الذين تضلعوا فى المنطق ولكنه لم يوتر فى عقيدته السلفية وكتابه * اضواء البيان من ابرز كتب التفسير فى الاونة الاخيرة توفى بعد نزوله من الحج عام ١٣٩٣ هـ فى ١٧ من شهر رذى الحجه رحمه الله انظر: ترجمته فى مشاهير علماء نجد وغيرهم : ٥١٧-٥٢٠ و ٥٤٠-٥٤٣

ان ناقش المراد بقوله " قل لم تؤمنوا " فهل هو نفى الايمان اصلا فليسوا من ال
 المسلمين الحقيقيين ، بل هم من المنافقين الذين اسلموا في الظاهر وهم كفار نفى
 الباطن ؟ او نفى كمال الايمان فيكون المراد بأسلمنا انهم حقيقة من المسلمين ولكن
 بدرجة دون درجة الايمان ، ومعلوم ان هناك خصوصا بين الدرجتين يقول : وقد
 استظهرنا انهم منافقون لدلاله القرآن على ذلك وهم من جنس الاعراب الذين قال
 الله فيهم " ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر " (١)

فاذا كان ذلك هو موقف اولئك المفسرين من الاعراب المذكورين في الآيات ، وهو
 التصريح بنفاقهم او التعريض بنفاقهم . . فانا نجد بعضا آخرين من المفسرين حياديا
 لا يفهم من كلامه التصريح بنفاقهم او اسلامهم ، ومن وجدت في تفسيره هذا ابن
 جرير الطبري ، فان للباحث ان يحمل كلامه على قول اراد ، وان ذكر ابن جرير
 انه يختار قول من قال في " اسلمنا " الاسلام (٢) دون الاستلام ، ولكن كلامه غير صريح
 ان يقول : هو ان الله تقدم الى هؤلاء الاعراب الذين دخلوا في الملة اقرارا منهم
 بالقول ، ولم يحققوا قولهم بعملهم ان يقولوا بالاطلاق : آنا دون تقييد قولهم
 ذلك بان يقولوا آنا بالله ورسوله ، ولكن امرهم ان يقولوا القول الذي لا يشكل على
 سامعيه ، والذي قائله فيه محق ، وهو ان يقولوا " اسلمنا " بمعنى دخلنا في الملة
 " لحفظ الانفس والاموال بالشهادة " (٣) ،

-
- (١) اضاؤه البيان : ٦٣٦-٦٣٩ ح ٢
 (٢) وهو قول الزهري وغيره ، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري من كبار التابعين
 توفي سنة ١٢٤ ترجمته في وفيات الاعيان : ١٧٧-١٧٩ ح ٤ ، وتهذيب
 التهذيب : ٤٤٥-٤٥١ ح ٩ .
 (٣) تفسير الطبري : ١٤٢-١٤٣ ح ٢٦ .

وهذا التحفظ خير من التسرع الذى نص عليه بعض المفسرين فى نفاق هؤلاء الاعراب تأدياً مع كتاب الله تعالى وتغادياً من ان يوصف المسلم بالكفر وهو منسبه برى .

وانا ما اردنا ان نحدد موقفنا من هؤلاء الاعراب اهم مسلمون ام منافقون . ؟ !
فلا بد من تأمل وبحث وسهدو ، فى امور وهى :

- ١- النظر فى سبب النزول ،
- ٢- كلمة الأعراب فى القرآن .
- ٣- اسلوب الآيات وسياقها .
- ٤- الاسلوب المعهود فى الرد على المنافقين فى القرآن .
- ٥- التفريق بين الايمان والاسلام مع اعتبار الاسلام فى الظاهر والباطن .

...

اما سبب النزول الذى ذكره للآيات فليس فيه دلالة ظاهرة فى ان هؤلاء منافقون ، ولم يرد نص فى تخصيص قبيلة بنى اسد بالنفاق ، وان وجد منهم بعض المنافقين ، وقد كانت كلمات المفسرين فى الغالب تذكرهم سبباً للنزول دون غيرهم ، بل وقد سأل الحافظ ابن كثير الى ان هؤلاء هم السبب مع بيانه انهم مسلمون فقال بعد ذكره سببين : والصحيح الاول انهم قوم ادعوا لانفسهم مقام الايمان ، ولم يحصل لهم بعد ،

فأدبوا وأعلموا ان ذلك لم يصلوا اليه بعد ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر
المنافقين في سورة براءة " (١)

وقد سرد شيخ الاسلام ابن تيمية اسباب النزول هذه ثم قال :
وهذا كله يبين انهم لم يكونوا كفارا في الباطن ، ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من
الايان " ،
ثم استطرد في حالة الاصناف الذين ذكرو في سورة الحجرات ومخالفاتهم من رفع
صوت نبياً فاسق ، ولم يصف الله واحداً من هؤلاء بكفر ولا نفاق ، ولكن يخشى عليهم
الامران . (٢)

واما القول الذي يقول : انها نزلت في أعراب : جهينة ومزينة واسلم وغفار
واشجع " فيرد كونهم من المنافقين ، ان صح انهم سبب النزول ، ما جاء في الصحيح
عن ابي هريرة رضى الله عنه قال : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَرِيشٌ وَالْأَنْصَارُ
وَجُهَيْنَةُ وَمَزِينَةُ وَأَسْلَمٌ وَغِفَارٌ وَأَشْجَعٌ مَوَالِي لَيْسَ لَهُمْ مَوْلَى دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » ،

وقال صلى الله عليه وسلم : غفار غفر الله لها واسلم سالمها الله " (٣)
وروى : ان الاقرع بن حابس (٤) قال للنبي صلى الله عليه وسلم : انما بايعك
سراق الحجيج من اسلم وغفار ومزينة ، وأحسبه وجهينة ابن ابي يعقوب

(١) تفسير ابن كثير ٢١٩ ح ٤ .

(٢) الايمان لابن تيمية : ٢٠٢

(٣) رواء البخارى ، فتح البارى شرح البخارى : ٥٤٢ ح ٦

(٤) الاقرع بن حابس بن عقيل بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي الدارمي قدم
في وفد تميم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في الاسلام وكان ممن
المؤلفة قلوبهم ، وشاهد مع خالد بن الوليد اليامه وغيرها ومع شرجيل بن حسنة =

(١) شك - قال النبي صلى الله عليه وسلم : أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ اسْلَمٌ وَغِفَارٌ وَمَزِينَةٌ وَاحْسِبُهُ وَجَهِيَّةٌ خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَأَسَدٍ وَغَطَفَانَ خَابُوا وَخَسِرُوا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَا خَيْرَ مِنْهُمْ .

(٢) وفي رواية : خير عند الله او قال : يوم القيامة ، من اسد وتميم وهوازن وغطفان* وعلى كل فهذه الاخبار تدل على ان هؤلاء دخلوا في الاسلام بصدق ، وان كانوا يكتنفهم الجهل ، وجفاء البداوة ، ولعل ذلك ادهم الي ان زعموا مرتبة الايمان كما كانت للمهاجرين والانصار . وحتى بنو اسد يبدو انهم كانوا من المتطلبين ضد الاسلام ولكنهم لما دخلوا في الاسلام دخلوا عن طواعية وصدق .

اما كلمة الأعراب في القرآن :

الأعراب : جمع أعرابي ، وهم سكان البادية ، سواء كانوا من العرب او من غيرهم ، والنسبة الى الأعراب ، أعرابي ، واما العرب فجمع عربي ، ولا بد من التفريق بين العرب والأعراب ، لثلاث يتعامل على العرب في تأويل (٣) قوله تعالى :
 * الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ الْأَعْلَمُونَ حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ

دومة الجندل ، وقد كان من الابطال الذين استشهدوا في معركة اليرموك فسي عشرة من بنيه سنة هـ وانما سمي اقرعا لانه كان في راسه قرع ، وكان شريفا في الجاهلية والاسلام ، وقيل انه لم يقتل يوم اليرموك بل ادركه عهد عثمان واستعمل على جيش الى خراسان . .

انظر ترجمته في الاصابة : ٥٨-٥٩ هـ - ١ .

(١) شك من الراوى وقيل هذه الرواية ، رواية لاشك فيها وهي : ارايتم ان كان جهينة ومزينة واسلم وغفار خير . . الحديث *

(٢) رواه البخارى ، فتح البارى شرح البخارى : ٥٤٣ هـ - ٦ وسلم ، والنووى : ٧٢ - ٢٨ هـ - ١٦ .

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور ٥٨٦ هـ - ١ .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (١)

وإذا كانت كلمة الأعراب وردت في القرآن ويراد بهم انهم منافقون ، فليس معنى

ذلك انها راحة كذلك وقد وردت في القرآن بوصفهم مؤمنين كذلك كقوله تعالى :

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ
وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ . (٢)

ولقد حاول ابن حزم بجذله المعروف بكل ما أوتى من حجة ، ان يحمّل

الآيات على ما تحمل عليه الآية وتفسر به في قوله تعالى في شأن المنافقين : إِذَا
جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ بِشَهِدٍ
الْمُنَافِقِينَ لَكَانِبُونَ . (٣)

وزعم ان من قال غير هذا فانه صرف الآية عن وجهها ، وان حكايتهم الايمان والاسلام
لا يفيد . (٤)

اما اسلوب الآيات وسياقها ، اذا استروحنا منها راحة الاسلام لهؤلاء الأعراب،

فانا نستظهر اسلامهم جليا ، من الاسلوب ومن السياق معا ، ولم نجد من الأمريين :

ما يثبت انهم منافقون ، وليس هناك ما يتعلق به من ينسبهم الى النفاق غير نفسى

(١) الآية من سورة التوبة : ٩٧

(٢) الآية من سورة التوبة : ٩٩

(٣) الآية الاولى من سورة المنافقون

(٤) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم : ١٥١-١٥٢ ح ٣

الايان عنهم في قوله تعالى : قل لم تؤمنوا * ، ومعلوم من النصير الصحيحة أن نفى الايمان لا يدل على نفى الاسلام والدخول في الملة ، كما لا يدل على الخروج من الاسلام والحرمان من الملة ، كما روى ابو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن * (١)

والمحققون في هذا الحديث ونحوه ، وان كان في ظاهره نفى الايمان ، اثبت المحققون انه نفى الكمال ، واجمع اهل الحق على ان الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من اصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك بل هم مؤمنون ، ناقضوا الايمان ان تابوا سقطت عقوبتهم وان ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة فان شاء الله عفا عنهم وادخلهم الجنة او لا وان شاء عذبهم ثم ادخلهم الجنة * (٢)

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية معلقا على الحديث : * الحديث يريد مستكمل الايمان ولم يرد به نفى جميع الايمان عن فاعل ذلك ، بدليل الاجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة وانتحلوا دعوة الاسلام ، من قراباتهم المؤمنيين الذين ليسوا بتلك الاحوال * (٣)

وقد عقد شيخ الاسلام في كتابه " الايمان " فصلا ناقش فيه المقصود بنفى الايمان هنا ، وذكر للسلف والخلق قولين في هؤلاء الأعراب :

-
- (١) رواء الشيخان : فتح الباري شرح البخارى : ٥٨ - ١٢ والنووى شرح مسلم : ٤١-٤٢ ، ٢ ،
 (٢) النووى شرح مسلم : ٤١-٤٢ ، ٢ وانظر فتح الباري : ٥٩-٦٣ ، ١٢ .
 (٣) الايمان لابن تيمية : ٢٨٠ .

الاول : ان سلامهم يثابون عليه ، ويخرجهم من الكفر والنفاق ، وهذا مروى عن كثير من السلف وخاصة اهل السنة والحديث ، كالامام احمد بن حنبل ،^(١)

الثانى : ان اسلامهم هذا انما هو استسلام خوفا من السبى والقتل ، فهم منافقون ويميل البخارى الى هذا كما اسلفت .^(٢)

والقول الاول مبنى على التفريق بين الايمان والاسلام ، ويترتب عليه ان هؤلاء مسلمون . . . والقول الثانى مبنى على ان الاسلام هو الايمان ، ويترتب عليه انهم منافقون . . . وقد اجاب على القول الثانى بما يعتذر به عن قائله من السلف ، بانهم ليس مقصدهم انهم خرجوا من الايمان الى الاسلام ، ولا قالوا انهم لم يكن معهم شئ من الايمان ، وما كان خلافا لهذا انما هو مذهب الخوارج^(٣) والمعتزلة^(٤)

(١) ابو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزي ، خرجت به امه من مرو وهى حامل فولدته فى بغداد سنة ١٦٤ هـ وقيل انه ولد بمرو وحمل الى بغداد ، وكان امام المحدثين ، صنف كتابه " السند " وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وقيل انه يحفظ الف الف حديث ، ومن اجل من اخذ عنهم الامام الشافعى الذى قال فيه : خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل " ومن اجل من اخذ عنه وروى البخارى وسلم ، وقد دعى الى القول بخلق القرآن فامتنع وثبت وعذب وصبر وكان موقفه نصرا للاسلام والمسلمين حتى اليوم رضى الله عنه ،
توفى نهار الجمعة لثنتى عشرة من ربيع الاول وقيل من ربيع الثانى سنة ٢٤١ هـ ببغداد .

انظر : وفيات الوفيات لابن خلكان فى ترجمته : ٦٣ - ٦٥ هـ . ١ .

(٢) راجع ص ١٩٣

(٣) الخوارج كل من خرج على الامام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج فى ايام الصحابة على الائمة الراشدين ، او كان بعدهم على التابعين باحسان والائمة فى كل زمان ،

الليل والنحل للشهرستانى : ١١٤ هـ ١ ط ٢

(٤) وهم : يسمون اصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية والعدلية ،

المصدر السابق : ٢٣ هـ ١ .

بينما القول الأول يوافق مذهب أهل السنة ، الذين يرون خروج أهل المعاصي من النار . . . واستطرد في مقارنة بين مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة والخوارج . . . الى ان ذكر : ان هؤلاء الأعراب المذكورين في الآيات ، مثلهم كمثل أهل الكبائر الذين لا يخرجهم من الاسلام أن نفى الايمان عنهم فقال : وهوؤلاء لا يخرجون من الاسلام ، بل هم مسلمون " . . . وقال : ونفى الايمان المطلق لا يستلزم ان يكونوا منافقين " ،

كما في قوله تعالى :

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ " (١)

وليس كل من لم يكن كذلك يكون منافقا ، بل لم يأت بالايان الواجب ، فنفى عنه الايمان لهذا الاعتبار ، " فكذلك الأعراب لم يأتوا بالايان الواجب فنفى عنهم لذلك وان كانوا مسلمين معهم من الايمان ما يثابون عليه " (٢)

وفي موضع آخر يذكر ان ما نقل من انهم دخلوا في الاسلام خوفا من القتل والسبي

(١) الايات من سورة الانفال : ١-٤

(٢) الايمان لابن تيمية بتصرف : ١٩٩ - ٢٠٤

فهذا وان وقع لا يدل على نفاقهم ، فالذين دخلوا في الاسلام من غير المهاجرين والانصار ، انما اسلموا رغبة ورهبة ، كسلسلة الفتح من قريش واسلام المولفة قلوبهم من هؤلاء وغيرهم " وليس كل من اسلم رغبة او رهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الاسفل ، بل يدخلون في الاسلام والطاعة وليس في قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول ، ولا استنارت قلوبهم ، بنور الايمان ولا استبصروا فيه ، هؤلاء قد يحسن اسلام احدهم فيصير من المؤمنين ، كأكثر الطلقاء ، وقد يبقى من فساق الطة " (١)

ثم ان شيخ الاسلام ابن تيمية ، اعاد الى الازهان شيئا ، وذكرنا بما هو واقع في عامة المسلمين ، وفي معظم سوادهم ، وخاصة كلما تأخر بهم الزمان عن الرعيل الاول ، وابتعدوا عن الطاعات ، وانتشرت فيهم البدع . فذكر ان الغالب فيمن يدخلون في الاسلام ابتداء كحالة هؤلاء الأعراب ، بل هو حال اكثر من لم يعرف حقائق الايمان ، فهم يأتون بالطاعات الظاهرة ، ولا يأتون بحقائق الايمان التي يكونون بها من المؤمنين حقا . . . هؤلاء الأعراب وان لم يكن معهم مطلق الايمان ليسوا بمنافقين .

وسياق الآيات يدل على ان الله ذمهم لضعفهم باسلامهم جهلا وجفا وظهروا ما في نفوسهم ، والله به عليم " فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم ، فان الاسلام الظاهر يعرفه كل احد " والسياق يدل على ان ما اخبروا به الله سبحانه وتعالى في انفسهم وهو اعلم به هو ما ذكره عنهم ، ونفى بعضه واثبت لهم

(١) المصدر السابق : ٢١١ .

البعض وهو الاسلام دون درجة الايمان ، ولم يكذبهم في كونهم مسلمين ، وانما كذب دعواهم درجة الايمان ، والمنافقون الحقيقيون كذبهم في كل ذلك . (١)

ولكن العلامة المحقق ابن تيمية لم ينته عند هذا الحد في ترجيح ان هؤلاء الأعراب مسلمون ، ليسوا بمنافقين ، فهو قد اتخذ من هذه الآيات منطلقا للتفريق بين الايمان والاسلام اذا اجتمعا ، ومنطلقا كذلك لاثبات ان اهل الكباير مسلمون ، بقي معهم شيء من الايمان ، فلا يكفرون ، ولا يجعلون في منزلة بين المنزلتين ، ولا يخلدون في النار ، وكل ذلك انما هو حقيقة عقيدة اهل السنة والجماعة التي جاء الوحيان " القرآن والسنة " لاثباتها وترسيخها في قلوب المؤمنين بلا تردد ولا شك ، وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية حريصا على جلاء هذا في كل بحث ومع كل مسألة . فهو يستعرض موضوعات السورة " سورة الحجرات " في مواضع مختلفة ، ويستدل بأدلة اخرى فيها نفى الايمان ولم يكن المنفى عنه منافقا ، ويرى ان الاعراب كالسناديين من وراء الحجرات ، والأتين بنبا فاسق ، والسباب والفسوق ، وكل اولئك ليسوا من المنافقين ، فالله ينهي عن هذه المعاصي المجتمع المسلم في هذه المسورة وقد كان خطاب الله لهؤلاء كخطابه لاهل المعاصي ، من انهم اذا اطاعوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فان لهم الثواب " بخلاف من هو كافر في الباطن فانه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الامر حتى يؤمنوا اولاً "

(١) السابق يتصرف : ٢٠٢ - ٢٠٦ .

ويقول : فهذا كله يدل على ان هؤلاء من فساق الطة ، فان الفسق يكون تارة بترك الفرائض ، وتارة بفعل المحرمات ، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد ، وحصل عندهم نوع من الريب الذي اضعف ايمانهم ، لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم الله وان كانوا صادقين في انهم في الباطن متدينون بدين الاسلام .^(١)

وقد رجح الحافظ ابن كثير تلميذ ابن تيمية صحة اسلام هؤلاء وحكى انه ذهب اليه كثير من السلف فقال في ذلك واداعى على البخارى بعد ذكره ادلة فرق بها بين الاسلام والايمان : فدل هذا على ان هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وانما هم مسلمون لم يستحکم الايمان في قلوبهم فادعوا لانفسهم مقاما اعلى مما وصلوا اليه فادعوا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس رضی اللہ عنہما وابراهيم النخعي^(٢) وقتادة^(٣) واختاره ابن جرير^(٤) ، وانما قلنا هذا لان البخارى رحمه الله ذهب الى ان هؤلاء كانوا منافقين يظهرن الايمان وليسوا كذلك .^(٥)

-
- (١) الايمان لابن تيمية : ٢٠٩-٢١٠
 (٢) ابراهيم بن يزيد بن قيس بن الاسود النخعي ، نسبة الى قبيلة من مذحج من اليمن وهو كوفي فقيه ولد سنة ٥٠ هـ وتوفي وهو مستخف عن الحجاج سنة ٩٦ هـ وهو كثير الارسال ،
 انظر ترجمته : الوفيات لابن خلكان ٢٥-٢٦ هـ ١ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر : ١٧٢-١٧٩ هـ ١ ، والطبقات لابن سعد ٢٧٠ هـ ٦
 (٣) ابو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي البصري الاكبه كان تابعيا وعالميا كبيرا نسابه يدور حول البصرة بدون قائد ولد سنة ٦٠ هـ وتوفي سنة ١١٢ هـ بواسط وهو من الحفاظ وراسا في العربية ، انظر ترجمته في الطبقات لابن سعد ٢٢٩ هـ ٢ وفي الوفيات : ٨٥-٨٦ هـ ٤ وتذكرة الحفاظ للذهبي : ١٢٤ هـ ١ ط ١ .
 (٤) مرفى ص ١٩٤ ان رايه حيا ديا كما يظهر وحمله ابن كثير محملا حسنا .
 (٥) تفسير ابن كثير : ٢١٩ هـ ٤

اما الاسلوب المتبع في الرد على المنافقين ، والمعهود في القرآن ، فقد كان من المعالم القرآنية التي تتميز بالوضوح الكامل ، وكان التصريح بنفاقهم وكفرهم هو الغالب ، وكان من جملة الرد عليهم مقابلة ما ابطنوه في انفسهم واسروه في مكنونها بتصريح ظاهر لا يحتمل غير سلخهم من الاسلام . . . !

" وقد هتك الله سبحانه استار المنافقين ، وكشف اسرارهم في القرآن ، وجلس لعبادة امورهم ليكونوا منها ومن اهلها على حذر ، وذكر طوائف العالم الثلاثة في اول سورة البقرة : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ، فذكر في المؤمنين اربع آيات وفي الكفار آيتين ، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم ، وشدة فتنهم على الاسلام واهله ، فان بلية الاسلام بهم شديدة جدا ، لانهم منسوبون اليه ، والى نصرته ومواليته ، وهم اعداؤه في الحقيقة ، يخرجون عداوته في كل قالب " (١)

وانا تتبعنا الايات التي تعرضت للمنافقين في القرآن كله ، فلا نجد آية واحدة اسند الله فيها اليهم الاسلام ولقبهم به ، انما كل ما هنالك ان يذكر الله سبحانه وتعالى عنهم انهم يقولون آمنا ، وينفى عنهم الايمان دون ان يثبت لهم غير الكفر الذي لهم يفارقوه لحظة واحدة ، كقوله تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** " (٢)

بل انهم تهرأ واهم انفسهم من الايمان الذي ادعوه كذبا فقال تعالى : **وَإِذَا**

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ٣٤٧-٣٤٨ - ط ١

(٢) الآية من سورة البقرة ٨ .

قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * (١)

وقد صرحوا بان دعواهم الايمان غير مقصوده بل المقصود الاستهزاء كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ، فقال : **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ * (٢)**

وما من اسلوب يتمسترون من ورائه في دعواهم الكاذبة الا ويرد الله عليهم بما هو ابلغ بيانا ويعريهم من هذه الدعوة ويتركهم في ظلمات الكفر يرفلون ، فهاهم اولاي يزعمون الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجرحهم الله من ذلك ويلقبهم بالكذبه كقوله تعالى : **وَإِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * (٣)**

ففي كل ذلك الله سبحانه وتعالى ينفى عنهم الايمان والاسلام معا ، ولم يثبت لهم غير العرض في قلوبهم ، والفساد باعمالهم ، والخداع بدعواهم ، والامر بالانكسار ، والنهي عن المعروف ، وغير ذلك من وظائف الكفر والنفاق ، وكل آية نفى الله عنهم فيها الايمان ، يختمها - او يذكر في التي بعدها او في آية اخرى من القرآن : تلك الشعارات للنفاق والحقائق التي تفسر دعواهم كما كانت ولا تزال كفرا ولا ايمان ولا

(١) السابقة : ١٣

(٢) السابقة : ١٤

(٣) الآية الاولى من سورة المنافقون .

اسلام ، كقوله تعالى : يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١)

وقوله تعالى :

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
 وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٢)

بل وقد سماهم الله في كتابه العزيز كفارا في كم آية من خلال فحص نفاقهم ورد
 دعواهم والكشف عن حقيقتهم ، كقوله تعالى : « أَوْ كَسَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ
 يُجْعَلُونَ أَبْصَارَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » (٣) وقوله
 تعالى : « الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا الْمَنُكَّرُ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ
 لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْزِمْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » (٤)

وقوله تعالى : « قُلْ أَبَا اللَّهِ وآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ
 بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » (٥)

ان ذلك لهو الاسلوب المعهود في كشف فضائح المنافقين في القرآن وكل ذلك

(١) الايات من سورة البقرة ٩-١٢

(٢) الاية من سورة التوبة ٦٧

(٣) الاية من سورة البقرة ١٩

(٤) الاية من سورة النساء ١٤١

(٥) الايتان من سورة التوبة : ٦٥-٦٦

خلاف ما نجده في أسلوب هذه الآيات التي معنا في سورة الحجرات ، في شأن الأعراب الذين لم يذكر عنهم ما يستدل به لكونهم منافقين غير نفي الإيمان في أول الآية الأولى " قل لم تؤمنوا " وما بعد ذلك في الآيات يدعم بإساليبه ويشهد لكونهم مسلمين ، وذلك للأمور التالية :

١- بعد نفي الإيمان عنهم اثبت لهم الاسلام فقال " ولكن قولوا اسلمنا " وكما استعرضنا قصة المنافقين في القرآن بالايجاز فيما مضى لم نجد آية واحدة تخاطبهم بانهم اسلموا وان كانوا في الظاهر منقادين ، وهذه ظاهرة تكفي في الحجج في ان هؤلاء مسلمون لان الله امرهم بان يقولوا " اسلمنا " ولست ادري لماذا غابت هذه الظاهرة عن ابن حزم الظاهري . . ؟ ! وغيره من التمسكوا بنفي الإيمان عن هؤلاء ، دون ان يحسبوا لكلمة اسلمنا حسابا وهي نص في الآية . (١)

ولكنهم ذهبوا يقررون مذهب الخوارج والمعتزلة ، الذين يخرجون هؤلاء من اسم الاسلام والإيمان معا ، لان الإيمان والاسلام عندهم شيء واحد ، فاذا نفي الإيمان عنهم فقد نفي الاسلام عنهم كذلك ، غير ان الخوارج يكفرون من كان كذلك والمعتزلة ينزلونه منزلة بين الاسلام والكفر . (٢)

(١) مر في صفحته ١٩٨ رايه في هؤلاء الأعراب

(٢) انظر الإيمان لابن تيمية : ٢٠٢ - .

فأخطأ اذن جاء من التسمية بين الوصفين ولو اجتمعا ، كما هما اذا افترقا ،
فأما اهل السنة فهم يستدلون بهذه الآية بان الاسلام غير الايمان ، اذا ذكرا في مكان
واحد ، كالامام احمد الذي احتج بالآية على ان اصحاب الكباثر يخرجون من الايمان الى
الاسلام ، وفرق بينهما ، وانه يستثنى في الايمان دون الاسلام . (١)

ولقد روى النسائي (٢) حديثا في غاية الدلالة في التفريق بين الاسلام والايمان
يريد ان يفسر الآية بذلك فقال : تأويل قوله عز وجل * قالت الأعراب آنا قل لسم
تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا * .

وذكر حديثا عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه (٣) قال اعطى النبي صلى

(١) السابق : ٢٠٠-٢١٢ .

(٢) ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي القاضي
الحافظ سمع من خلائق لا يحصون وسمع عنه كثيرون وهو امام في الحديث بـ
مدافع ، وكان في مصر عنده حديث ابن لهيعة ترجمه ترجمة ولكنه لم يحدث
عنه ولد سنة ٢٥١ هـ وجاء الى مصر وخرج منها محسودا سنة ٣٠٢ هـ وتوفي
بفلسطين سنة ٣٠٣ هـ عن ٨٨ سنة ،
انظر ترجمته في التهذيب : ٣٧-٣٩ هـ ١ .

(٣) هو سعد بن ابي وقاص واسم ابي وقاص مالك بن اهييب بن عبد مناف بن زهرة
بن كلاب القرشي الزهري يكنى ابا اسحاق ، وكان سابع سبعة في اسلامه وهو
اول من رمى بسهم في سبيل الله ، وقد شهد المشاهد كلها وكان قائدا في
معركة القادسية ، وهو الذي خطط الكوفة ، وقد توفي سنة ٥٥ هـ وقيل ٥٨ هـ
كفنه في الصوف الذي يقي فيه المشركين بهدوهو جهة خلق .
انظر ترجمته في الاستيعاب اهامش الاصابة ١٨-٢٧ هـ ٢ ،
والاصابة : ٣٣-٣٤ هـ ٢ .

الله عليه وسلم رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئا قال سعد يارسول الله اعطيت فلانا
وفلانا ولم تعط فلانا شيئا وهو مؤمن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : او مسلم
حتى اعادها سعد ثلاثا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول او مسلم ثم قال النبي
صلى الله عليه وسلم انى لا اعطى رجالا وادع من هو احب الى منهم لا اعطيه شيئا
مخافة ان يكبوا فى النار على وجوههم ، وفى رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :
لا تقل مؤمن وقل مسلم (١) ،

وما اكثر النصوص التى تفرق بين الاسلام والايمان ولا يقصد بالاسلام انقياد
المنافقين ، كحديث ابى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
المسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمؤمن من ائمه الناس على دماءهم واموالهم (٢) ولا
ادل على هذا التفريق من حديث جبريل عليه السلام المفصل فيه الايمان والاسلام
والاحسان و اطلق على ذلك كله " الدين " فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : كان
النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس ، فاتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ قال :
الايمان ان تؤمن بالله وملائكته ، وبقائه ورسوله ، وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟
قال : الاسلام ان تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ،
وتصوم رمضان ، قال : ما الاحسان ؟ قال : ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن
تراه فانه يراك ، وذكر علامات الساعة وفى النهاية قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه النسائى فى سننه : ١٠٣-١٠٤ هـ ٨ والحديث رواه مسلم : ١٨٠-١٨٢

٢ هـ ورواه البخارى : ٧٩ هـ ١ .

(٢) النسائى فى السنن : ١٠٤-١٠٥ هـ ٨ ورواه مسلم فى كتاب الايمان .

هَذَا جَبْرِيْلٌ جَاءَ يَلْمُ النَّاسَ دِيْنَهُمْ * (١)

وخلاصة القول في تحقيق ما ذكره العلماء في التفريق بين الايمان والاسلام، وبين المؤمن والمسلم، انهما اذا ذكرا في موضع واحد افترقا وكان بينهما تفاوت، وانما ذكر كل واحد دون الاخر شطه وتضمنه، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا، وهذا هو عقيدة اهل السنة (٢)،

واليه تشير دلالة آية الحجرات ان ذكر فيها الايمان، وذكر الاسلام فافترقا .

٢- وبعد نفى الايمان عنهم واثبات الاسلام لهم قال " ولما يدخل الايمان في قلوبكم " ولما عند اهل العربية تفيد التوقيت لانها " في الاصل لم زيدت عليها ما كسا زيدت في اما الشرطية وايضا فاختصت بسبب هذه الزيادة باشياء احدها ان فيها معنى التوقع كقيد في ايجاب الماضي فهو يستعمل في الاغلب في نفى الامر المتوقع كما يخبر بقيد في الاغلب عن حصول الامر المتوقع تقول لمن يتوقع ركوب الامير قد ركب او لما يركب " (٣)

فالنفى بلما لما ينتظر كونه ويترقب حصوله، ولهذا الاسلوب نظائر كقوله تعالى : ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين " (٤)

(١) رواه البخارى واللفظ له : ١١٤ ح ١ ، ومسلم : ١٦٢ - ١٦٥ ح ١ كلاهما في كتاب الايمان .

(٢) انظر النووي شرح مسلم فقد افاد في هذا : ١٤٤ وما بعدها ح ١ وفتح الباري شرح البخارى فقد جمع كذلك اراء العلماء : ١١٤ - ١٢٥ ح ١ وشرح السنة للبخارى : ٣٨ - ٤٣ ح ١ ، والايمان لابن تيمية : ١٠٠ ، ١١ - ١٣٠ - ١٣٣ - ١٣٥ ، ٢١٦ - ٢٢٤ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٧ ، ٢٩٤ .

(٣) الكافية في النحو لابن الحاجب النحوي : ٢٥١ ح ٢ وانظر مقني اللبيب لابن هشام في الفروق بين لم ولما : ٢٧٩ ح ١ مطبعة المدنى القاهرة .

(٤) الآية من سورة ال عمران : ١٤٢ .

وقوله : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ** * (١)

فدخول الايمان في القلوب منتظر من هؤلاء * فان الذي يدخل في الاسلام ابتداءً لا يكون قد حصل في قلبه الايمان ، لكنه يحصل فيما بعد كما في الحديث **كَانَ الرَّجُلُ يُسَلِّمُ أَوَّلَ النَّهَارِ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا فَلَا يَجِيئُ آخِرَ النَّهَارِ إِلَّا وَالْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ** * (٢) ،

ولهذا كان عامة الذين اسلموا رغبة ورهبة دخل الايمان في قلوبهم بعد ذلك * (٣)

٣- قوله : **وَأَنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** لا يلتكم من اعمالكم شيئاً * يدل على ان لهم اعمالاً صالحة ، ولا تكون الا لسلم صادق الاسلام ، وان وجد منه بعض المخالفة ، فانا اطاعوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم طاعة كاملة لا تنقص هذه الاعمال بل تزيد وتنمو وذلك هو دخول الايمان المتوقع منهم . يقول ابن تيمية : **وَالصَّافِقُ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ حَتَّى يَوْمَ مِنْ أَوَّلِهِ** * (٤) ويقول : **فَدَلَّ أَنَّهُمْ إِذَا اطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَعَ هَذَا الْإِسْلَامِ آجَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالصَّافِقِ عَلَيْهِ حَاطِبٌ فِي الْآخِرَةِ** * (٥)

٤- وقد اسند اليهم الدين وهو الاسلام المعهود لهم فقال : **قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ** * ، وقد دخلت الباء في **بدينكم** * لان **اتعلمون** * يتضمن معننى

-
- (١) الآية من سورة البقرة : ٢١٤ .
 (٢) رواه مسلم موقوفاً على انس ولفظه : ان كان الرجل ليسلم ما يريد الا الدنيا فما يسلم حتى يكون الاسلام احب اليه من الدنيا وما عليها * ٧٢ هـ ١٥٠ .
 (٣) الايمان لابن تيمية : ٢١١ .
 (٤) الايمان : ٢١٢ .
 (٥) السابق : ٢٠٣ .

اتخبرون واتحدثون ، وهذا فيه تزكية النفس ، لا يليق ، ولو لم يكونوا صادقين
في اسلامهم لما رأوا الاخبار به . (١)

٥- وقد اسند اليهم الاسلام واخبر بان هذه المنه وهي الهداية الى الاسلام منه
سبحانه وتعالى ، فقال : يبنون عليك ان أسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله
يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين "

ولا نعهد مثل هذا الاسلوب مع المنافقين ، والله لا يمن بالنفاق ، ولم يلقب
النفاق بالاسلام ولا بالدين ، ولا يحبه فكيف يمن عليهم ان هداهم اليه وان كان
داخلا تحت قدرته وهدايته الكونية . . . !

وما تقدم في شأن هؤلاء الأعراب نستخلص انهم مسلمون حصلوا على درجة الاسلام
دون درجة الايمان الكامل ، وهذا الصنف من المسلمين الذين لم يختلط الايمان
بقلوبهم حتى الوقت الذي زعموا فيه حصولهم على هذه الدرجة ، فرد الله سبحانه
وتعالى عليهم زعمهم أنهم آمنوا ، كما آمن المهاجرون والانصار الذين تبوأ الايمان
قلوبهم ، وكانت اقوالهم وافعالهم صادقة ومشهودا لها بالايمان في كل المواقف ،
وهم الذين يعنيتهم الله عز وجل بقوله " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم
لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون " ،

(١) السابق ٢٠٥-٢٠٦ .

هذه هي حقيقة الايمان الكامل والمؤمنين الكامل ، التي وجه الله اليها هؤلاء
الأعراب بعد ما نفاها عنهم بقوله : " قل لم تؤمنوا " لانهم لا تزال شكوك ومخالفات
تراودهم نحو التكاليف الشرعية ولم يساهموا في الجهاد باموالهم وانفسهم كالمهاجرين
والانصار ، فمن اين اذن تكون لهم تلك المرتبة التي جعلت اولئك ينادون بالايمان
" خمس مرات " في السورة مع صدور بعض المخالفات منهم من غير قصد ، ولكنهم
سرعان ما يتوبون . اما هؤلاء الأعراب فامرهم لا يزال بسيطا واسلامهم كان جديدا
ولم يتمدن وينعكس في اخلاق وآداب ، ترفع من شأن اسلامهم هذا الى درجة الايمان
الكامل ، التي زعموها ، لانفسهم وتصفهم مع المهاجرين والانصار ، فهؤلاء في حاجة
ان يعرفوا بالمؤمنين الحقيقيين وصفات الايمان الحقيقية ..

المؤمنون

قال تعالى : انما المؤمنون ، الذين آمنوا بالله ، ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا
باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون *

هذه هي الآية التي خص الله فيها الحديث عن المؤمنين حقا اما الآية الاولى
والثالثة والرابعة ، فكما راينا وتحققناه يخص الله فيها المسلمين الذين لم يصلوا الى
درجة الايمان وهم في الطريق اليه ، وادبهم الله سبحانه وتعالى لدعواهم ذلك
قبل استحقاقه ، ومن تربية الله تعالى للمسلمين ألا يدعوا ما لا يستحقون ولا يقولوا
ما لا يظنون ، فلما نهاهم عن ذلك وجههم وارشدهم الى معالم الايمان ومبارحهم ،
وراعى في اسلوب توجيههم حالتهم وحقيقتهم ، وهي انهم مسلمون جهال استعجلوا
الايمان قبل اسبابه ، وحسبوا ان النطق بالشهادتين واداء الاركان الاربعة ان ادوها
يكفى في انهم مؤمنون الايمان الكامل ولو لم يجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولم ينفقوا في سبيل الله وراودتهم الشكوك وارتابتهم في كثير من لوازم اركان
الاسلام الخمسة كما يظن كثير من المسلمين اليوم ان النطق بالشهادتين مع اداء
الشعائر التعبدية وهم مجردون من الاثر والتأثير ، ولا يدعون الى الله ولا يهاجرون
المعاصي ولا يجاهدون بالقلب واللسان والنفس والمال يكفي في انهم مؤمنون الايمان
الكامل ،

ان موضع هذه الآية بالنسبة لما قبلها وما بعدها يساند اسلام هؤلاء * بصدق
وان الجهل جعلهم يزعمون ما زعموا كما مضى وذكرناه عن الائمة كابن تيمية ، الذي
دقق النظر في سياق الآيات وفي حالة السواد الاعظم من المسلمين بعد المهاجرين
والانصار ، فقرر ان هؤلاء * مسلمون صادقون في اسلامهم . . . !!

واننا لا نستطيع ان نتجاهل اسلوب العربية وبلاغتها وماله من قيمة في تقرير المراد في النصوص القرآنية والنبوية ، ونحن نبحث فيهما ، ذلك لان لغتهما العربية ، ودلالات العربية ومفهوماتها منها المنطلق لفقه الفقهاء وتوجيهات الائمة من النصوص "نصوص القرآن والسنة" ، كما ان اختلافهم منطلق من تعدد الدلالات لصيغة واحدة في لفظها واجمالها . . . !

ولم تجد الفلسفة طريقها الى عقول الباحثين ، وتبلبلت افكارهم واختلط عليهم الامر الا بعد الانصراف عن هذه الدلالة التي يفهمها القلب العربي اول ما يسمع نصا من القرآن او من السنة المطهرة ، والغلو في الجدل والبحث عما لا يحتمله النص ولكنه نسي عقول الجدليين ،

وكذلك من اسرف في اعتبار هذه الدلالة الاولية ، دون اعتبار شمولية النصوص وعمقها واحاطتها وقلة لفظها بالنسبة لمعانيها فقد ضاع كالذين ياخذون بظواهر النصوص فقط .

وانا عدنا الى موضع الآية من بين الايات واسلوبها ، فانا نجد ارتباطا بينها وبين الآية التي قبلها ارتباطا بلاغيا نبني عليه صدق اسلامهم ، فقد فصل بين الآيتين لا لعدم المناسبة ، وانا للترابط الوثيق ، وهو ترابط السؤال والجواب^(١) فمن الآية نشأ سؤال بعد ان اطمو انهم لم يصلوا الى درجة الايمان ، فكانهم تساءلوا

(١) وهو ما يسمى شبه كمال الانتصال او الاستئناف في باب الوصل والفصل ، انظر : الايضاح للقزويني : ٢٥٥-٢٥٦ ط ٣ سنة ١٣٩١ هـ .

او حالتهم تساءلت وهم مسلمون ، منهم المؤمنون الذين لا تنقص اعمالهم بمسـد
اسلامهم . ١٢ . او كيف نصل الى درجة الايمان بعد ان ثبتت لنادرجة الاسلام
حتى لا تنقص اعمالنا . ١٢ . فاجيبوا بقوله تعالى : انما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله . . الاية * وبما انهم زعموا ان الاسلام هو الايمان نزلوا منزلة من ينكر ان بين
الاسلام والايمان فرقا وتفاوتا ، فاكد لهم القول بـ " انما " واسلوب انما في وضعه بين
الاساليب البلاغية " ادوات القصر او الحصر " في الغالب يستعمل فيما هو مسلم به
ولا نزاع فيه ، والدقة في هذا الاسلوب " اسلوب انما " انما لما فيه من التعريض والتنبية^(١)
كقوله تعالى : اِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اُولُو الْاَلْبَابِ " (٢) ،
فكل عاقل يعقل ان التذكرة انما يصدر من العقلاء ، فيكون ما جاء من هذا تعريضا
بالكفار من انهم ليسوا من العقلاء . . ١٠٠ . وأما التعريض في اسلوب " انما " هنا
في الآية التي معنا فواضح يناسب ما نفى عن هؤلاء الاعراب واثبت لهم ، فعرض بهم
انهم ليسوا من المؤمنين وانما هم مسلمون . . . ١٠٠ !!

ولقد تجاوز الزمخشري هذا التعريض الى تعريض آخر اختاره وهو : في قوله
تعالى اولئك هم الصادقون " فاخذ منه تعريضا بان اولئك الاعراب كانوا كاذبين . وقال :
وب تعريض لا يقاومه التصريح " (٣) والزمخشري يريد بهذا ان هؤلاء الاعراب
منافقون ليسوا بصادقين ، وهل مراده انهم غير صادقين في اسلامهم او انهم ليسوا

(١) انظر الايضاح في علوم البلاغة للقزويني : ٢١٨-٢٢١ ط ٣
ودلائل الاعجاز للجرجاني ٣١٥-٣١٧ ط ١ سنة ١٣٨٩ هـ .

(٢) الاية من سورة : الرعد ١٩ ، والزمر : ٩ ،

(٣) الكشف للزمخشري . ٥٧ ج ٣

بصادقين في دعواهم الايمان ؟ ،

سياق كلام الزمخشري واصول عقيدته الاعتزالية يدل على انه يريد تجريدهم من الايمان ودرجة الاسلام معا والالتباس هذا لواخذ التعريف من اسلوب انما دون كلمة الصادقين لما اوقعنا فيه ، لان انما دخلت على كلمة " المؤمنون " والاصل : " المؤمنون الا الذين آمنوا بالله ورسوله .. " ،

واسلوب انما في الاصل موضوع للتعريف مع النفي والاثبات كقوله تعالى : انما يتذكر اولو الالباب " ، وانما من قوة تعريضها في العربية كأن كل ما في سياقها يعرض بضده .

وما الآية التي بعدها وهي " قل اتعلمون الله بدينكم .. الآية " فارتباطها بها واضح كذلك فلا يلحق بكم تزكية النفس ، والله يشبكم على ما فعلتم من الخير ويعاقب على ما تركتم ان لم تتوبوا .

واما الآية هذه ، فقد ذكر الله فيها صفات من صفات المؤمنين ، وقد ذكرت اوصاف المؤمنين في الكتاب والسنة اجمالا وتفصيلا ، وكل ما ذكر فيها لم يخرج عما في هذه الآية بل هي تضمنت كل ذلك ضمنا شاملا وسأجز ما دلت عليه من هذه الصفات فيما يلي :

الصفة الاولى : " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله "

الايان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم يشمل كل ما امر الله به ليفعل وما نهى عنه ليترك وجاء به رسوله صلى الله عليه وسلم آمرا وناهيا ، محلا ومحرمات ، فليس الاقرار بالله ربا والهيا ورسوله نبيا وسلفا فقط هو الايمان ، بل الرضا بذلك والاكتفاء به مع الاقتناع ، ولا يكون هذا المؤمن الا اذا عمل بمقتضى الايمان بالله ورسوله ، ولم يسلك طريقا غير طريق الاسلام ، ولا يريد سواه ، ولا يوافق غير شريعة الله كما في الحديث الصحيح عن العباس بن عبد المطلب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ذَاقَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَمُحَمَّدٍ رَسُولًا (١) ،

والرضا بربوبية الله يشمل الوهيته ، وبالاسلام يتضمن الاقرار بالقلب والعمل بالشريعة ، ومحمد رسولا يدخل فيه طاعته واتباعه .

وما من شيء في الاسلام الا ويدخل في الايمان بل ويسمى شعبة من شعب الايمان ،

كما في الحديث الصحيح : عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 الْإِيْمَانُ بِضْعٌ (٢) وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ (٣)

وفي رواية : الْإِيْمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ

(١) رواه مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ٢ - ١

(٢) قال ابن حبان في صحيحه : واما البضع فهو اسم يقع على احد اجزاء الاعداد والفصول والتركيب ، فالاعداد من الواحد الى التسعة ، والفصول هي العشرات والمئون والالوف ، والتركيب ما عدا ما ذكرنا " ٢١٩ - ١ .

(٣) رواه البخارى فتح البارى على صحيح البخارى : ٥١ - ١

شعبة من الإيمان^(١) ،

قال ابن حبان^(٢) : وقد تتبعت معنى الخبر مدة . . . فجعلت اعد الطاعات من الايمان فاذا هي تزيد على هذا العدد شيئا كثيرا ، فرجعت الى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الايمان فاذا هي تنقص من البضع والسبعين ، فرجعت الى ما بين الدفتين من كلام ربنا وتلوته آية آية بالتدبر ، وعددت كل طاعة عدها الله جل وعلا من الايمان ، فاذا هي تنقص عن البضع والسبعين ، فضمت الكتاب الى السنن واسقطت المعاد منها فاذا كل شيء عده الله جل وعلا من الايمان في كتابه ، وكل طاعة جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الايمان في سننه تصح وسبعون شعبة لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيء ، فعلمت ان مراد النبي صلى الله عليه وسلم كان في الخبر ان الايمان بضع وسبعون شعبة في الكتاب والسنن^(٣) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر ما خلاصته : ان هذه الشعب تتفرع من اعمال القلب ، واعمال اللسان ، واعمال البدن ، واما اعمال القلب فتشمل المعتقدات ، من كل ما يتعلق بذات الله تعالى وجودا وذااتا وصفات ، خالقا ومعبودا بحق ، كما تشمل كل ما في الغيب ، وحياة البرزخ ، وامور الآخرة ، وما يتعلق بالنيات سواء ما كان منها

(١) عند سلم : ٦ - ٢ ، ورواه ابن حبان في الصحيح : ٢١٧-٢١٨ - ١ ط ١
سنة ١٣٩٠ هـ ، والنسائي ١١٠ - ٨ ، والترغزي : ٨٦ - ١ .

(٢) ابو حاتم بن حبان بن احمد بن معاذ بن معاذ بن معبد التميمي البستي كان محدثا ولغويا وفقهيا تنقل بين بلدان كثيرة وحدث عن كثيرين وحدث عنه كثيرون ، وكان من المكثرين في التأليف وكان ثقة نبهلا توفي سنة ٣٥٤ هـ واسمه محمد بن حبان .
انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي : ٩٢٠-٩٢٤ ط ٣ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .

(٣) صحيح ابن حبان : ٢١٩ - ١ وقد استحسن هذا الاحصاء الغالب من شراح الحديث في الاسماء وغيرها من الكتب .

يخص الصدق في الايمان والاعتقاد . بحب الله ورسوله ، وحب في الله ، او ما يخص
اداء الواجبات البدنية والمالية ، وما يخص اجتناب المنهيات بدنيا ومعاملة ،

وقد ذكر الحافظ لاعمال القلب اربعا وعشرين خصلة . . . واما اعمال اللسان
فقد ذكر له سبع خصال وكلها تتعلق بالنطق . . . واما اعمال البدن فهي كثيرة
لا تحصى ، فقد ذكر ثمان وثلاثين خصلة ، وكلها تتعلق بالبدن ، بعد صحة النية... (١)

وما ابلغ هذا الحديث ، واشمله ، فان تعبير النبي صلى الله عليه وسلم باعلاها
مثلا بلا اله الا الله يدل على ان الاجزاء الاخرى شعب من الايمان كالايمان بالله
رسولا ، وكالايمان بالملائكة والرسول والكتب والجنة والنار . . ثم عطفه اماطة الاذى عن
الطريق على الدرجة العليا - وهي من النوافل فصار كل ما في حكمها من الايمان .
وما بين الدرجتين كثير وكثير ، من واجبات ومستحبات باللسان والقلب والبدن ،
وكلها ايمان قولاً وعملاً . . . ! (٢)

وهل الايمان بعد شموله لما يكتسبه المؤمن من القول والعمل ، يشمل حتى
الغرائز فتكون من الايمان ؟ ! لان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث : والحياء
شعبة من الايمان * وفي حديث : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ
الْأَنْصَارِ - وَهُوَ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ * دَعَّاهُ
فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ * (٣)

- (١) فتح الباري لابن حجر شرح البخاري بتصريف ٥٢-٥٣ ج ١
(٢) انظر صحيح ابن حبان : ٢٢ ج ١
(٣) رواه البخاري فتح الباري على صحيح البخاري : ٧٤ ج ١ .

وفى رواية اخرى توضح هذه " مر النبي صلى الله عليه وسلم على رجل ، وهو يعاتب أخاه فى الحياء يقول : انك لتستحي - حتى كأنه يقول : قد اضربك - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه فان الحياء من الايمان " (١)

وكون الحياء من الايمان مع انه غريزة من الغرائز ، لا اشكال فيه لان الحياء اذا وجهه الايمان والدين فانه يكون تخلقا واكتسابا " كسائر اعمال البدن وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج الى اكتساب ونية وعلم فهو من الايمان بهذا ولكونه باعثا على افعال البر ومانعا من المعاصي " (٢) ،

وهذه الجبلة فى الانسان اعتبارها من الايمان بالمقاصد الشرعية ، فيه دلالة واضحة وقوية على زيادة الايمان ونقصانه ، لان الناس ليسوا فى الحياء على مرتبة واحدة فى الحياء ، فمن اكثر فيه فقد زاد ايمانه ومن قل منه فقد نقص ايمانه ، والحياء يحول بين المرء وبين ما يباعده من ربه الذى آمن به معبودا . (٣)

وانما انحل الاشكال بذلك فى عد الحياء من شعب الايمان ، فهناك اشكال آخر يرد على كون الحياء كله خيرا ، كما فى الحديث " الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ " وفى رواية : الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ أَوْ الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ " (٤) ،

فمن الناس من يمنع الحياء ان يقول الحق وخاصة امام من يجله او يقدره ، ويخل هذا

- (١) رواية اخرى فى البخارى فتح البارى على البخارى : ٥٢١ ج ١
 (٢) النووى شح سلم : ٥ هـ ١ وانظر فتح البارى : ٥٢ و ٢٤-٢٥ هـ ١ .
 (٣) انظر صحيح ابن حبان : ٢٢٠ هـ ١ .
 (٤) رواه مسلم النووى على سلم : ٦-٧ ج ٢ .

النوع من الحياء ببعض الحقوق ، بل ويترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . !

وقد اجاب الائمة على ذلك ، بان هذا لا يسمى حياء في الحقيقة " بل هو عجز وخور وسهانة وانما تسميته حياء من اطلاق بعض اهل العرف اطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي ، وانما حقيقة الحياء . خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق " (١) ،

ان اطلاق الايمان على العاطلين بما اوجب الله عليهم وسنه لهم رسوله صلى الله عليه وسلم ظاهرة بيّنة واضحة في الكتاب العزيز والسنة الطاهرة ، نستظهر من ذلك امورا :
الاول : الترابط الوثيق بين الايمان والعمل ، فكل واحد منهما يلزم الاخر " فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق بعمله ، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها " وهذا ثابت عن السلف ان الايمان من العمل والعمل من الايمان . . . (٢) وقلم ان يذكر الايمان الا ويذكر معه العمل . (٣)

الثاني : أن المؤمنين الذين يطلق عليهم لقب الايمان - كما في الآية التي معنا " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله " هم العاطلون دائما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولو تتبعنا ذلك في الوحيين لكان بحثا مستقلا ولضرب المثل لهذا اشير الى آيات بوب لها البخاري بقوله : باب امور الايمان ، وذكر بعدها الحديث السابق " شعب الايمان " (٤) ،

(١) انظر: النووي شرح مسلم : ٦-٥ ج ١ وأنظر فتح الباري : ٢٤-٢٥ ج ١

(٢) انظر الايمان لابن تيمية : ٢٥٠

(٣) وقد وضعت هذا تحت عنوان ارتباط المسلم بالايمان فيما سبق ص ١٨٠

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري شرح البخاري : ٥٠ ج ١ .

قال تعالى : لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
 آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
 وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * (١) ، وقوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ
 هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ،
 وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا تَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ،
 فَمَنْ ابْتَغَى زَوْجًا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ،
 وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * (٢) ،

والمراد بالترجمة ان هؤلاء المذكورين في الايات ، الذين يتقون الشرك والاعمال

السيئة هم المؤمنون الكاملون ، وهذه الصفات اذا انضمت الى التصديق كان البر ، كما
 انها داخلة في معنى الايمان وكان البخارى باشارته الى الايات يريد ذكر شعب
 الايمان . . (٣)

الثالث : الترابط بين الايمان والعمل ، وتلقيب من يعمل مع التصديق القلبي ، بالمؤمن
 ينتج من ذلك كله ان الايمان يزيد وينقص ، وهذه مسألة دارت فيها معركة بين اهل
 السنة وغيرهم ، وقد عني بها شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه الايمان * من وجوه :

(١) الآية من سورة البقرة ١٧٧ ،

(٢) الايات من سورة المؤمنون : ١-١٠ ،

(٣) انظر فتح الباري : ٥١ هـ ١ .

١- امر الناس بالايان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مجملا ولكنه بعد نزول القرآن كاملا ازداد الوجوب تفصيلا ، ويتبع هذا ان من بلغ غيره شيئا او عرف ما في القرآن كله والسنن عليه من الايمان المفصل ما ليس للمبلغ له والمصدق مضمون الرسالة اجمالا . . .

٢- من آمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه اجمالا وتفصيلا ولم يكذب بشيء منه مطلقا وطلب علمه وعمل به اكمل ايمانا من آمن اجمالا ولم يطلب معرفته تفصيلا او من آمن اجمالا وطلب علمه تفصيلا ولكنه لم يعمل به ، وهو الاثر الثلاثة كل مقرر بنبوة الرسول باطنا وظاهرا * فكما علم القلب ، ما اخبر به الرسول صلى الله عليه عليه وسلم صدقه ، وما امر به فالتزمه ، كان ذلك زيادة في ايمانه على من لم يحصل له ذلك ، وان كان معه التزام عام واقرار عام . وكذلك من عرف اسما الله ومعانيها ، فآمن بها كان ايمانه اكمل من لم يعرف تلك الاسماء بل آمن بها ايمانا مجملا ، او عرف بعضها . . .

٣- العلم والتصديق يتفاوت في الناس ، كتفاوت الحواس من المحسوسين في ادراك حس ظاهر في الشيء الواحد كسماع صوت واحد وشم الرائحة ، وحتى الناس يتفاوتون في ادراك المعاني . . . !!

٤- ان التصديق المستلزم لعمل ، اكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله ، كالعلم الذي يعمل به صاحبه اكمل من العلم الذي لا يعمل به صاحبه .

٥- اعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وخشية الله ورجائه ، كل ذلك من الايمان كما دلت عليه النصوص ، واتفاق السلف ، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا عظيما .

- ٦- ان الاعمال الظاهرة مع الباطنه وهى من الايمان ، والناس يتفاضلون فيها .
- ٧- المسلم الذى يذكر الله بقلبه ويستحضره اكمل ايمانا من الغافل الذى لا يستحضره بقلبه وان كان يؤمن ويصدق . كمن يقرأ القرآن بتدبر ومن يقرأه بلا تدبر .
- ٨- ان من لا يعلم ان الرسول صلى الله عليه وسلم اخبر بامور كان منكرا لها ومكذبا بها ، ثم اخبر بها وعلم فان انكاره وتكذيبه ، يصبح تصديقا جديدا ، وما كان بانكاره وتكذيبه الاول كافرا بل جاهلا . وهذا شأن من اخطأ فى الدين وهو مؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم وشأن من ابتدع فى الدين بقصد اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكل هؤلاء اذا تغيرت احوالهم هذه الى معرفة الصواب فقد ازدادوا ايمانا وكانوا اكمل من حالتهم الاولى ^(١) .

(١) الايمان لابن تيمية بتصريف ١٩٣-١٩٨ .

- ٦- ان الاعمال الظاهرة مع الباطنه وهى من الايمان ، والناس يتفاضلون فيها .
- ٧- المسلم الذى يذكر الله بقلبه ويستحضره اكمل ايمانا من الغافل الذى لا يستحضره بقلبه وان كان يؤمن ويصدق . كمن يقرأ القرآن بتدبر ومن يقرأه بلا تدبر .
- ٨- ان من لا يعلم ان الرسول صلى الله عليه وسلم اخبر بامور كان منكرا لها ومكذبا بها ، ثم اخبر بها وعلم فان انكاره وتكذيبه ، يصبح تصديقا جديدا ، وما كان بانكاره وتكذيبه الاول كافرا بل جاهلا . وهذا شأن من اخطأ فى الدين وهو مؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم وشأن من ابتدع فى الدين بقصد اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكل هؤلاء اذا تغيرت احوالهم هذه الى معرفة الصواب فقد ازدادوا ايمانا وكانوا اكمل من حالتهم الاولى (١) .

(١) الايمان لابن تيمية بتصرف ١٩٣-١٩٨ .

الصفة الثانية : " ثم لم يرتابوا "

الايان بالله وبرسوله وما جاء به اجمالا وتفصيلا ، لا يعطى ثماره ويثبت في القلب وتمثله الجوارح عملا وقولا ، مالم يتصف بالرسوخ واليقين ، ويكسبون باطنه كظاهره سوا ، ويستوى في يقين المؤمنين عالم الغيب وعالم الشهادة حتى اذا ما برز لهم الغيب وظهر ما زادهم ايمانا عما انبأهم به القرآن واجاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم . . . لذلك كانت هذه الصفة في الآيه واسطة عقد بين صفة الايمان في اول الآيه وصفة العمل التي في آخر الآيه " الجهاد " وما اجمل وابليغ حرف " ثم " وهو للتراخي الذي لا حدود له ^(١) فليس المراد بالارتياب هنا ما يحصل عند الايمان فقط ، بل ويشمل الارتياب الذي قد يحاول ان يكتنف المؤمنين بعد الايمان واستكمالهم اركان الايمان ، في ان يتراجعوا عن طلب زيادة الايمان او يتناقلوا عن العمل بمقتضى الايمان ، وكان الايمان الذي لا يزداد على حافة النقصان ، وازا بدأ النقصان فقد جاء الشك والريب من كل مكان . . . ! ، وقد جاءت نصوص كثيرة تدعم هذا الجانب في المؤمنين حقا ، كقوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ** ^(٢)

(١) انظر مغنى اللبيب لابن هشام : ١١٢ - ١١٩ - ح ١

(٢) الآيات من سورة فصلت : ٣٠ - ٣٢ .

وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى اقسام النفوس التي يدور الحسب في هذا العالم بينها ، وهي : نفس حيوانية شهوانية ، ونفس سبعية غضبية ، " ونفس سماوية علوية ، محبتها تنصرف الى المعارف واكتساب الفضائل والكلمات الممكنة للانسان واجتناب الرذائل ، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الاعلى ، وذلك قوتها ——— وغداؤها ودواؤها ، فاشتغالها بغيره هو دواؤها " ،
 واستشهد بهذه الايات لهذه النفس ، التي هي النفس المؤمنة ، وذكر ان الملك يتولى من يناسبه بالنصح والارشاد والتثبیت والتعليم والقائم بالصواب على لسانه ، ودفع عدوه عنه . . . " وكل ما هبأه الله للمؤمنين الذين آمنوا فاستقاموا ولم يرتابوا . (١)

وهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم المؤمن كيف يثبت لهم الايمان ويدوم ، فقد سأل رجل ان يقول له كلمة جامعة في الاسلام لا يسأل احدا بعده عنها ، فقال صلى الله عليه وسلم له " قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْنَا " (٢) ،
 والاستقامة هي الاستمرار على الايمان والثبات عليه في زيادة ولا نقصان بفعل ما يقتضيه الايمان واجتناب ما يناقضه .

(١) أنظر : روضة المحبين لابن القيم : ٢٥٩ - ٢٦٠

(٢) رواه مسلم - النووي على صحيح مسلم : ٩ ج ٢

الصفة الثالثة : وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله *

الصفات السابقتان : الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم اجمالا وتفصيلا ، اعتقادا وعملا ، والاستقامة على الايمان دون ريب وشك ، هاتان الصفتان تتضمنان العمل ، الذي هو من الايمان ، والذي يدل على اليقين في الايمان ، والاستقامة عليه معا ، ومع هذا فان الصفة الثالثة تنص على العمل وان تضمنته الصفتان السابقتان . . . ! وانا احس كذلك بروعة عطف هذه الصفة بالواو المفيدة المشاركة والمغايرة معا .^(١) على الصفة الثانية " ثم لم يرتابوا " روعة البيان في تناسقه البديع وبلاغته التي تموق اليها الايمان في نسق بلغ حد الاعجاز . . ان العطف " بالواو " هنا يشعر بان العمل الذي مثل له بالجهد هو الدلالة على ان المؤمنين لم يرتابوا ، واما اذا اخذنا الواو بالمعنى المغاير ، فيظهر لى : ان العمل المتضمن في الصفتين الاوليين هو الايمان بوجوده وكونه من موجبات الايمان ، والعمل المنصوص عليه بالجهد في الصفة الثالثة ، هو العمل المباشر والمطبق عليا ، وكل هذا انما هو ترابط وتداخل وثيق بين الايمان والعمل لا انفصام بينهما ، وبهذا يتكون المجتمع المؤمن الذي يزداد ولا يتناقص ، ويتلاحم ولا يتفرق ، ويتطابق ظاهره باطنه ، ودعواه استحقاقه . . . ! هذا ولا نحتاج الى تأمل وبحث كثير في ان هذه الصفة الثالثة للمؤمنين احاطت بالعمل من كل جوانبه ونصت عليه ، فالجهاد يعنى كل طاعة لله " فعلا وتركاً "

(١) انظر المغنى للبيهق لابن هشام : ٣٥٤ ح ٢ .

ومنه جهاد الكفار بالسيف والملاح وببذل المال وفي ذلك ، والعبادة اما بالنفس او بالمال ، بل وقد قسمها الفقهاء هكذا : بدنية او مالية او ضمنا معا . . . (١)

ولكى ندرك صنع الله في المؤمنين بالايان ، فعلينا ان نعيد النظرة في دقة اختيار الجهاد بالنفس والمال ، هنا دون سائر الاعمال . . فاحب شيء السى الانسان هو نفسه التي يحملها بين جنبه وماله الذي يصرفه في حياته ، ولا يلام الانسان على ذلك لانه فطر عليه ، كقوله تعالى : **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** (٢) وقوله : **وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** (٣) وقوله تعالى : **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** . . الآية (٤)

وما يصاب الانسان من الذعر والخوف والجبن ، ويعتريه من البخل والشح ، كل ذلك انما هو حرص على نفسه وماله . . فاذا ما قدم الانسان هذين الامرين الغالبيين الثمينين عنده ، في سبيل الله فداء لعقيدته ، وطلبها لما عند الله ، ورائده في ذلك الايمان الذي يوجب في داخله جذوة الانقياد ، ويقود تصرفاته ويديرها بهذا الايثار ، كان ذلك دليلا على قوة الايمان وسلطانه على توجيه الانسان توجيهها حسنا وبناء ثابتا لا تتزعزع قواعده . . !!

واذا تأملنا واقع المؤمنين حقا ، وعمقنا الفكر في آيات الله البيئات ، فانا سنجد : ان المؤمنين باعوا انفسهم واموالهم بان لهم الجنة والرضى من رب العالمين

(١) ويذكر في هذا عند الشروع في فصل الامارات في اللب المفترية .

(٢) الآية من سورة العاديات : ٨

(٣) الآية من سورة الفجر : ٢٠

(٤) الآية من سورة الكهف : ٤٦

والمشترى هو الله سبحانه وتعالى ، وحق لبضاعة الله مشتريها وقيمتها الجنة ، حق لها ان تقدم ولا يتريث في بيعها ، والايان هو الكفيل في انجاز هذه الصفقة الربحية
!!...!

قال تعالى :

” اِنَّ اللّٰهَ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اَنْفُسَهُمْ وَاَمْوَالَهُمْ بِاَنْ لَّهُمَّ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ فَيُقْتَلُوْنَ وَيُقْتَلُوْنَ وَعَدَا عَلَيَّ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْاِنْجِيْلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ اَوْفَى بِعَهْدِهِ مِٔنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ ” (١)

ولقد فهم الصحابة رضی الله عنهم ان عليهم الجهاد بالنفس والمال مجسرد دخولهم في الاسلام ، كما هو واضح من مقالة الانصار ، ليلة العقبة الكبرى ان طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ان يميلوا على اهل منى (٢) فكل مؤمن يعلم انه باع نفسه وماله على الله حين دخوله في الايمان وقبوله من الله ورسوله عليه الصلاة والسلام لان الاسلام لا يتميز الا بالجهاد . !!...!

ولا عجب اذن عندما يذكر الجهاد ، بكل ما تعنى كلمة الجهاد ، ففى الاحاديث النبوية ويعتبر شعبة من شعب الايمان ، البارزة الواضحة ، فى ايمان المؤمنين اعتقادا وعليا .

فمن ابن هريرة رضی الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : انتدب الله

(١) الآية من سورة التوبة : ١١١

(٢) انظر : سيرة ابن هشام : ٥٥-٥٧ هـ ٢

لمن خرج في سبيله - لا يخرجها الا ايمان بي وتصديق برسلي - ان ارجعه بما نال من اجر او غنية ، او ادخله الجنة . ولولا ان اشق على امتي ما قعدت خلف سرية ، ولو دت اني اقتل في سبيل الله ثم احيا ، ثم اقتل ، ثم احيا ، ثم اقتل " (١)

...

ان الاية الكريمة في اجمالها الدقيق يعلننا الله فيها اصول الايمان ، التي هي اللبنة الاولى لبناء المجتمع المؤمن ، وهو اجمال مفصل في نصوص كثيرة وقد اشترت الي بعضها . واصول الدين ، اعظم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد بين كل ما يحتاج اليه المؤمنون في الاعتقاد والتصديق ، وكان وضوح هذه الاصول في الكتاب والسنة قاطعا للمعذر ، فلا حاجة الي اى فلسفة وجدل لمعرفة اصول الايمان ، ولا مجال لاي احد ليزعم الايمان بغير اصوله ، بعدما بينتها جميع الرسائل وجاء القرآن والسنة المطهرة مؤيدين ذلك ومفصلين ،

قَالَ تَعَالَى : مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٢)

ولم يكن هذا البيان الشافي لسائل اصول الدين فحسب ، بل ويشمل البيان ادلتها المفصلة والمجمل ، ايضا ، خلاف ما يزعمه المتكلمون والمتفلسفون الذين يذهبون الي ان دلالة الكتاب والسنة انما هي بطريق الخير المجرد ، ودلالة

(١) رواه البخارى ، فتح البارى : ٩٢ ح ١

(٢) الآية من سورة يوسف : ١١١ .

الخبر هذه تتوقف على العلم بصدق المخبر ، ويعتمدون ما يبنى على صدق المخبر
معقولات محضه . . . ! وكل ذلك خلاف ما عرف من الائمة وسلف هذه الامة من اهل
العلم والايمان ، الذين بينوا واعتقدوا ، ان الله تعالى بين الادلة العقلية ، حسب
حاجة الناس اليها . . . كضرب الامثال وهي " اقيسة عقلية " كقوله تعالى : **وَلَقَدْ
ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** * (١) ،

ويدخل في الامثال جميع الاقيسة من تشثيل وشمول بل وما يسمونه براهسين
وهي اعم من القياس الشمولى . ومن جملة بيان هذه الادلة بيان مالا يجوز ان يستدل
فيه لعلم الله وصفاته ، كقياس التشثيل الذى يستوى فيه الاصل والفرع ، والقياس
الشمولى الذى تستوى افراده . . . وانما يستعمل فيما يتعلق بالله وصفاته واسماءه
قياس الاولى لقوله تعالى : **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** * (٢)

وقوله تعالى : **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** * (٣) والادلة لهذا كثيرة
وواضحة لا شبهة فيها ، والغرض التنبه على ان في القرآن والحكمة النبوية عامسة
اصول الدين من المسائل والدلائل التى تستحق ان تكون اصول الدين * (٤) ، واذا
تنازع الناس في كثير من مسائل الاحكام والفروع ، فان اصول الايمان لم يتنازع فيها
احد ، وعلى راس اصول الايمان ما يتعلق بالله سبحانه وتعالى من اسما وصفات ، وقد
اتفق الصحابة والتابعون على الاقرار بذلك كله والايان به دون خوض فيه وفلسفة
وتأويل وتعطيل * لانها من تمام تحقيق التوحيد واثباتها من لوازم التوحيد فبينها

(١) الاية من سورة الزمر : ٢٧

(٢) الاية من سورة الشورى : ١١

(٣) الاية من سورة النحل : ٦٠

(٤) رسالة في اصول الدين لابن تيمية بتصريف : ٧-١٥ ط ٣ سنة ١٣٩٩ هـ ،

الطبعة السلفية - القاهرة .

الله ورسوله بيانا شافيا ، لا يقع فيه لبس ، ولذا كانت آيات الصفات يشترك في فهم معناها الخاص والعام من الناس دون الكنه والكيفية ، فان ذلك غيب الله اعلم به .^(١)

* ان المعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات فيكون ردها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يترك تدبرها ومعرفتها فيكون ذلك مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب الا امانى بل هي آيات بينات دالة على اشرف المعانى واجلها قائمة حقائقها في صدور الذين اوتوا العلم والايمان اثباتا بلا تشبيه وتزيها بلا تعطيل ، كما قامت حقائق صفات الكمال في قلوبهم كذلك فكان الباب عندهم بابا واحدا وعلموا ان الصفات حكمها حكم الذات ، فكما ان ذاته لا تشبه الذات فكذا صفاته لا تشبه الصفات .^(٢)

هذا ولاهمية الايمان في تكوين المجتمع الفاضل كان كل شىء من عوامل بنائه يدور حول الشهاداتتين ، ويدخل فيهما كما ينبثق منهما من هذه العوامل التي كانت بمجموعها تدعى عقيدة لا توهم ولا تعطل ولا تحرف . . ان شهادة " لا اله الا الله محمدا رسول الله " تبعد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه فلها نور . . وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد قلت الشهوات واحترقت " فأي نسب او شهوة او شبهة دنت من هذا النور احرقها ، فسماء ايمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته ، فلا ينال منها السارق الاعلى غرة وغفلة لا بد منها للبشر فاذا استيقظ

(١) انظر مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة : ٢١ - ١ طبعه دار الافتاء بالسعودية .

(٢) المصدر السابق : ٢٦ - ٢٧ - ١

وعلم ما سرق منه استنفذه من سارقه " وليس التوحيد مجرد القول ، بان الخالق هو الله وان الله رب كل شي " ، فهذا يقوله عباد الاصنام . . بل التوحيد يتضمن محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته واخلاص العبادة له ، واردة وجهه الاعلى بجميع الاقوال والاعمال ، والمنع والعطاء والحب والبغض في الله "

وقد اشكلت آحاديث على كثير من الناس منها " ان الله حرم على النار من قال : لا اله الا الله يبتغي على ذلك وجه الله " (١) وقوله " لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ أَوْ تَطْعَمَهُ " (٢) فظنها البعض منسوخه ، وآخرون قالوا قيلت قبل الامروالنواهي وحملت على نار المشركين والكفار ، واول الدخول بالخلود . .

والرسول صلى الله عليه وسلم " لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط ، فان هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام فان المنافقين ، يقولون بالسنتهم ، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الاسفل من النار ، فلايد من قول القلب وقول اللسان ، وقول القلب : يتضمن من معرفتها والتصديق بها ، ومعرفة حقيقة ما تضمنته ، من النفي والاثبات ، ومعرفة حقيقة الالهية المنفية عن غير الله ، المختصة به ، التي يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة وبقينا وحالا ، - ما يوجب تحريم قائلها على النار وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب فانما هو القول التام " ،

(١) رواه مسلم النووي على صحيح مسلم : ٢٢٩ ج ٢

(٢) المصدر السابق : ٢٤٤ ج ١

* فان الاعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وانما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب .
فتكون صورة العطلين واحدة ، وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والارض . والرجلان
يكون مقامهما فى الصف واحدا وبين صلاتهما كما بين السماء والارض . . . (١)

ان العقيدة الصحيحة هى مجموع عناصر الايمان وشعبه وتفاصيل الاعمال ،
وان التهاون بهذه العقيدة اليه يعود كل خلل فى المجتمع المسلم . . . !

ان ترك التقليد فى العقلية الدينية ، وصلتها بالعلم فى معناها الصحيح اذا
ترتب على استقلال فى العقيدة التى هى اساس الاعمال الصالحة ، والتى يبنى عليها
التقدم فى الاستقلال السياسى وكل ما يقوم به المسلم ويتخلق به - اذا ترتب ترك
التقليد على صفا العقيدة هنا يكون الخير وتمود العقيدة . . . والمسلم المثقف لن
يكون له وجود الا باستقلال عقيدته ودينه عن اى تقليد (ولا يجوز للمسلم المتعلم
تقليد غيره من المسلمين فى العقيدة فما ظنك بتقليد غير المسلمين) وعندئذ
تكون للمسلم قوتان : قوة من دينه وقوة من عقله خلاف غيره كالنصرانى الذى كان بين دينه
وعقله المتعارضين حرب دائما ما جعل كل منها ينقص قوة الآخر . وملتحق بالنصارى
المقلدون لهم من المسلمين . . . واذا اقتنع المسلمون وخاصة المثقفين بالعقيدة
الاسلامية اقتناعا يتفق مع العقل والعلم الصحيحين يسهل لهم الحصول على ما يريدون ،
وينفعهم فى الشريعة الاسلامية (ان العمل مبنى على العقيدة التى لا يتعب بها

(١) مدارج السالكين لابن القيم بتصرف : ٣٣٠-٣٣١ ح ١ ط ٢ .

الانسان اصلا بعد اليقين بها عقلا وفهما بل تكون لهم قوة تتشرح لها الصدور وتركن اليها الجوارح . واذ انضم العمل الى العقيدة حصل الكمال واستفاد المسلم من دينه في الدنيا والاخرة . فالعمل من غير عقيدة مستبعد غاية الاستبعاد وعديم الفائدة في الآخرة) ،

والمسلمون اليوم يتلألمون فيما بينهم على التقصير في العمل ويرجعون تأخرهم الى فقدان العمل وهو كذلك ، ولكنه يجب ان يفهم " ان تقصيرهم في العقيدة التي لا تقبل التقصير اشد من تقصيرهم في العمل وهذا داؤهم الذي اصيب به الكثرة الكاثرة فعاقبهم عن الصلاة والصيام ، وعاق حكوماتهم عن العمل بقانون الاسلام واستبدالهم بقانون فرنسا او غيرها او خلطه بذلك وهذا يتضمن الخروج عليه باسم التسهيل على الأمة او التوفيق بمصلحتها " وقد كان من نتائج هذا التقصير ان اعجب الكثيرين فصل الدين عن الدولة ، بدعوى الخروج من الجمود وطلب التجديد والتسهيل في العمل " لكن الحقيقة انهم خارجون على الاسلام نفسه من ناحية العقيدة والايمان الذي هو اساس العمل في حكمه " فسهل عليهم التغيير في احكامه العملية وكانت النتيجة الخروج على الدين كما هو الهدف ، وقد وصلت الجراءة الى محاولة التجديد في العقيدة التي جاء بها الكتاب والسنة ، والامثلة لذلك كثيرة منها انكار المعجزات الكونية للانبيا ، وانكار رفع عسى ونزوله عليه السلام ، ورد النبوات وتسميتها بعبقريات ، وتأويل خوارق العاده بان العقل يستحيلها ، وهل في انكار ذلك كله أو تأويله والاعتراض على الله تسهيل على المسلمين وخدمة لمصلحتهم . . . ؟ ، وهل في الاحتفاظ بذلك ونحوه من لب العقيدة الاسلامية تشديد . . . ؟ ان هؤلاء " لا يدركون مبلغ خطورة الضلال في الاعتقادات معرضين عن درسها وتصحيحها الى ان يتجلى لهم الحق ، ويتميز من الباطل ، وهل الكسل في درس العقيدة الدينية . . . يقاس بالكسل المتعلق بناحية العمل ، ام له مغزاه النبي عن

عدم الايمان بالدين او عدم التحرج من ان يكون ايمانهم خليطا بالشك . . . ١١٤٢ (١)

وخلص القول ان الأيمان الذي يطابق ظاهره باطنه ، ويزداد بالاعمال ، ويستقيم عليه صاحبه هو الايمان الذي يوصف به المؤمنون ، ويكون فردا ومجتما مؤمنا
فاضلا ،

ولكن ما موجبات الايمان ومسؤوليات المؤمنين في السورة والاداب التي يجب التخلق بها
وذلك في الفصول التالية . . .

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعجابه المرسلين ، لمصطفى صبري
شيخ الاسلام للدولة العثمانية : ١٣-١٦ ج ١ بتصرف .

الفصل الثالث

" العمل بالكتاب والسنة "

تمهيد :

ان للايمان شواهد ومظاهر ، كما ان له حقائق ومواطن ، تدل على صدقه ورسوخه ، ولا ادل على الايمان وصدقه والاخلاص فيه من العمل بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتقديمهما على كل رأى ومذهب ، وتحكيمهما فى كل شىء دون تردد وتباطؤ . . بل ان الايمان بالله ورسوله ، وحبهما اكثر من كل شىء ، واشد مما سواهما ، كل ذلك موصوفه ولازمه العمل بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . والنصوص التى وردت فى حب الله وحب رسوله والايمان بهما اجمالا ، تعنى اتباع الكتاب والسنة وتقديمهما على كل حال ، كقوله تعالى : **قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِىْ يُحِبِّكُمُ اللّٰهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ، **وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ** ، **قُلْ اطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُوْلَ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِيْنَ** (١)

ان الانقياد لامر الله وايمانه وحب ما يحبه ويحبه رسوله صلى الله عليه وسلم هو علامة المحبة ، فليس بمحب من له ارادة تخالف محبته ، ولا يصل العبد الواطى المحبة الا باتباع الكتاب والسنة ، واعلاها ان يحب الله عبده ، فليس الشأن ان تحب الله ، ولكن الشأن ان يحبك الله . (٢)

(١) الايمان من سورة آل عمران ٣١-٣٢ .

(٢) انظر روضة المحبين لابن القيم : ٢٦٥-٢٦٦ .

ومن شواهد المحبة الغيرة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وهي ان يكسره ما يكرهان ، ويفار اذا عصيا وانتهكت حرمان الله وضيع امره " فهذه غيرة المحب حقا ، والدين كله تحت هذه الغيرة فاقوى الناس دينا اعظمهم غيرة . . فمحب الله ورسوله يفار لله ورسوله على قدر محبته واجلاله ، واذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلق وان زعم انه من المحبين . . فكيف لعبد ان يدعى محبة الله ، وهو لا يفار لمحارمه اذا انتهكت ولا لحقوقه اذا ضيعت . . واذا ترحلت هذه الغيرة من القلب ترحلت منه المحبة بل ترحل منه الدين وان بقيت فيه آثاره وهذه هي اصل الجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر " (١)

ان حلاوة الايمان لا يذوق طعمها الا من اشرب قلبه قوة التصديق بكل ما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم واطمأنت نفسه بالكتاب والسنة ، وكان العمل بهما هوى له وتفكيراً يقوده وتعبيراً الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث انس يجد فيه المؤمن راحة الحب بالعمل والانقياد للوحيين ، من خلال كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم العذبة " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْدَفَ فِي النَّارِ " (٢)

يقول الحافظ ابن حجر : محبة الله على قسمين فرض وندب ، فالفرض المحبة

(١) المصدر السابق ٢٢٤-٢٢٥ .

(٢) رواه البخارى - الفتح : ٦٠ - ١ مسلم - والنووى : ١٣ - ٢ .

التي تبعث على امتثال اوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يقدره ، فمن وقع فسى معصية من فعل محرم او ترك واجب فلتقصيره فى محبة الله حيث قدم هوى نفسه . والتقصير تارة يكون مع الاسترسال فى المباحات والاستكثار منها ، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع فى الرجاء فيقدم على المعصية ، وتستمر الغفلة فيقع وهذا الثانى يسرع الى الاقلاع مع الندم ، والى الثانى يشير حديث " لا يزنى الزانى وهو مؤمن " والنسب ان يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع فى الشبهات . . . (١)

ان هذا الحديث اصل عظيم من اصول الاسلام ، وقد ذكر العلماء ان حلاوة الايمان ما هى الا استلذان الطاعات ، مع تحمل المشقات فيما يرضى الله سبحانه وتعالى ، ولا يكون ذلك الا بفعل ما امر الله به وترك ما نهى عنه ، وهذا هو محبته ، وكذلك محبة رسوله صلى الله عليه وسلم . (٢)

فالعامل بالكتاب والسنة ، هو شاهد الايمان ، فاذا كان المجتمع المسلم لا يقوم بناؤه الا على اساس الايمان فان هذا البناء فى حقيقته هو الحياة بالكتاب والسنة ..

(١) فتح البارى على صحيح البخارى : ٦١ - ١ ،

(٢) النووى على صحيح مسلم : ١٢ - ٢ .

• الآية الأولى من السورة •

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ •

• ما قيل في سبب نزول الآية • :

١- قيل : ان وقد بنى تميم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابو بكر رضى الله عنه ^(١) للرسول صلى الله عليه وسلم : امر عليهم القعقاع بن معبد ^(٢) وقال عمر : امر عليهم الاقرع بن حابس ، فقال ابوبكر لعمر : ما اردت الا خلافي قال عمر : ما اردت خلافيك ، فتمارينا حتى ارتفعت اصواتهما ،

(١) ابوبكر الصديق رضى الله عنه وهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، وامه ام الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم ابيه ، ولد بعد الفيل بسنتين وستة اشهر ، وكان صاحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فلما بعث صلى الله عليه وسلم سبق ابوبكر الى الايمان به ، فلم تكن منه كبوة ، وكان معه في السراء والضراء قبل الهجرة وبعدها ، وقد شهد المشاهد كلها معه ، وكان حاملا للراية يوم تبوك ، وحج في الناس اميرا في سنة ٩ هـ ويوح بالخلافة لرسول الله صلى الله عليه وسلم باجماع المسلمين . وكان احب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفضلهم بلا منازع ولقد لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق . . ولذا كان في المرتبة التي تلي النبوة كما في الاية : من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا • الاية : ٤/٦٩ ،

وقد اخذ من هذه الاية وجوب خلافته دون غيره ، كما فهم شيخنا محمد الامسين الشنقطي في كتابه اضواء البيان في تفسير سورة الفاتحة عند قوله : اهدنا الصراط • ،

انظر ترجمته في الاصابة : ٣٤١-٣٤٤ ح ٢ .

(٢) القعقاع بن معبد بن زارة التيمي ، وكان يقال له تيار الفرات لسخائه وهو غير القعقاع البطل في اليرموك والقادسية ، انظر ترجمتهما في الاصابة : ٢٤٠ ح ٣ .

فنزلت الآية^(١) .

٢- وقيل : ان قوما ذبحوا يوم النحر قبل ان يصلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

٣- قيل نزلت في قوم تمنوا ان ينزل فيهم القرآن قالوا : لو انزل في كذا وكذا^(٢) . فكره الله ذلك .

٤- قيل نزلت في ناس يتقدمون شهر رمضان فيصومون قبل الرسول صلى الله عليه وسلم^(٣) .

والآية تعم ذلك وغيره ما يكون قولاً وعملاً قبل ان يأمر به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم او تقديماً على امرهما المعروف لدى الناس ، وكل ذلك يشمل الامر والنهي ، لان العبرة بعموم اللفظ والحكم ، لا بخصوص السبب ، وسياقاتهم في ذكر الاسباب تدل على مقصدهم ، في ان ما يذكرونه انما هو مجرد المثال بحادثة وافقت تاريخ نزول الآية او الايات او السورة .

" وتقدموا " من قدم المتعدى الى مفعولين ، ولكنه هنا بلا مفعولين ، وذلك لامرين :

الاول : انه اجري مجرى اللازم القصد والنهي عن نفس الفعل التقدم والتلبس به بحال من الاحوال .

(١) اخرج البخاري ، انظر الفتح : ٥٩٠-٥٩١ ح ٨ وقد بين الشراح ان مقصد البخاري فيما يخص الشيخين هذه الآية . ونص عليه ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الاصحاب على هامش الاصابة : ٢٦٢ ح ٣ وذكره الواحدى في اسباب

النزول : ٢١٨ ، والسيوطى في الدر المنثور : ٨٣ ح ٦ .

(٢) الثانى والثالث رواهما الطبرى في تفسيره : ١١٧ ح ٢٦ .

(٣) من كلام عائشه ، ذكره السيوطى في الدر المنثور في التفسير المنثور : ٦٨٤ ح ٦ ورواه

الطبراني في الاوسط عن عائشه .

الثانى : ان يكون حذف المعمول لقصد العموم فالمعنى لا تقدموا امرا من الامور ،
وهو كثير فى العربية .

والاول ابلغ لافادته النهى عن التلبس نفسه فما ترتب عليه من الامور من باب اولسى
ان يشمله النهى .

وان كان تنزيل المتعدى منزلة اللازم قليلا فى العربية والثانى اوفق للقياس فالمعمول
يحذف للعموم .

ويقوى الاول القراءة بفتح التاء والقاف والداال " تقدموا "

واسلوب " بين يدى الله ورسوله " فيه توجيه ادبى رائع فقد استعير المشهد الحسى
المستقبح بين يدى العظماء والذى فيه العجلة ويتظاهر بعدم الاحترام استعير
لعدم متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من قرآن وسنة .^(١)

(١) انظر الكشاف للزمخشري : ٥٥٢-٥٥٣ ح ٢ ،
روح المعانى للالوسى : ١٣١-١٣٢ ح ٢٦ .

* علاقة المجتمع المسلم بدستوره *

ان هذه العلاقة نابعة من الايمان المطلق ، والانقياد الكامل لمصدر هذا الدستور ، وهو الله سبحانه وتعالى ، رب المجتمع وخالقهم ، فليس قانونه بتوصية بشرية يقدمها المجتمع ويؤخرها كيفما شاء ، ولكنه وحى كامل يوجب الايمان الانقياد له والاستسلام في حب لا كراهية فيه ، وطاعة لا غش فيها ولا تردد ، وحكم الله قاطع لا بد من التكيف به في جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية ، ان كان المجتمع مؤمنا بالله ورسوله وباليوم الآخر . (١)

ولتتكمّل هذه العلاقة بين المجتمع الاسلامي ودستوره القرآن والسنة ، لا بد من تهيئة نفسية ادبية لكل فرد من هذا المجتمع ، تهيئة تقدم ولاء كاملا لله سبحانه وتعالى ، وتحيا بحيا جامع مانع ، لا يسابق حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولولم يقصد الفرد او المجتمع المسلم حكما غير حكمها ، هذا هو البناء المستهدف في المجتمع هنا .

وعندما نحسن تدبر الآية ، وندقق التفكير في واقع هؤلاء المنادين بحكم وصفهم بالايمان ، والذين ذكروا سببا موافقا لنزول الآية ، فاننا نستظهر حقيقة جليلة في غاية الاهمية ، ترتب عليها خطورة مثل هذا الموقف اليوم ، ان اتجه الى حكم غير حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم - نستظهر ان توجه هؤلاء الى الله تعالى لا الى

(١) انظر : تفسير سورة النور لأبي الاعلى المودودي : ٣١ الطبعة سنة ١٣٩٨ هـ
مؤسسة الرسالة - بيروت .

غيره ، وكل ما يستجد لهم فى حياتهم كان الحكم فيه هو الله العليم الحكيم ، ورسوله الامين صلى الله عليه وسلم . . . ومع هذا فلا يبعد ان تستعجل الجيلة الانسانية خلق ^(١) ^{الإنسان من عَجَلٍ} فيخوض الانسان ويتمنى ويزج عقله فيما لا يدري ماله حاكم فيه ورسوله عليه الصلاة والسلام ، رجاء للصواب ، قبل ان يوءم ويوجه بالوحي المنسزل والثابت لديه او بالوحي القادم لا محالة . لان صاحبه لا يزال قائما بينهم ولم ينبأ بانقطاع الوحي . . . وهذه المسابقة والمعالجة ، تنافى الادب الذى يجب توفيره لمصدرى الحكم وهما الكتاب والسنة ، وهو ادب يكون توطئة لتقبلها فاذا انعدم وتزعزعت شائله وذبلت وروده وانطفأت انواره تكون الجرأة على المصدرين للحكم والتوجه السى غيرهما قاب قوسين او ادنى . . . !!

لذا كان سد الذريعة بوجوب توفر هذا الادب فى المجتمع الاسلامى فى غاية الدقة والحصانة فى حماية المجتمع الذى لا وجود له ولا بناء الا باعتراف اعتقادى وعلمى بان الحاكمية لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا يجب ان يسبق هذا الادب ويحيط به ويكون حسى لمصدر الحكم . . . فاذا كان اصل الايمان وهو التصديق لا يجوز ان يكون فيه شك ، فالايان العلمى وهو تحكيم الكتاب والسنة فى كل شىء كذلك يجب الا تكون فيه هذه المعالجة والمسابقة ولا المشاركة العقلية فيها اساعة الادب مع الكتاب والسنة .

(١) الآية من سورة الانبياء : ٣٧ .

لله در سلفنا الصالح من المفسرين والمحدثين والفقهاء وأئمة الدعوة والعقيدة
عندما يتعرضون لتفسير هذه الآية ونحوها فيجعلون منها الاصل لعدم التعرض لكتاب
الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم برأى وهوى وعقل وبأية نظرية وشبهية،
تزاحم الحق مؤولة او متعصبة او محرفة ، سواء كان ذلك فى مستوى الفرد او الجماعة،
لسنا فى ذلك مقتضى الايمان الذى وصف الله به هؤلاء المنادين فى عموم لا يخص
احدا دون احد ، ولا يتقيد بزمان ومكان دون زمان ومكان .

ولقد تضافرت كلمات العلماء قديما وحديثا بذلك ، ولكنها تلتقى عند نتيجة
واحدة وان اختلفت عباراتهم - وهى انه ليس لاي احد مهما كانت منزلته ، ان ييـرم
امرا ويقطع به فى حياته الخاصة والعامة فى نفسه وفى غيره - مما يتعلق بالدين اصولا
وفروعا ، وكل شىء يدخل فى الدين - الا بعدما ينظر ويفتش ويسأل - ان لم يعلم -
ما حكم الله وحكم رسوله فيه بالمنع والجواز . . . ! عندئذ يحق للمسلم الذى آمن
بالله ورسوله يحق له : ان يقول او يفعل او لا يقول ولا يفعل * فلا يتقدم على
الكتاب والسنة بحال من الأحوال . .

ويحسن بنا ان نورد بعض المقالات فى تفسير الآية لهؤلاء الاجلاء رحمهم الله :

• عن على ^(١) بن ابي طلحة عن ابن عباس قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة * .

• وعن مجاهد قال : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء
حتى يقضيه الله على لسانه .

(١) هو على بن سالم مولى بنى العباس . سكن حمص ، ارسل عن ابن عباس ولم يره من
السادس صدوق وقد يخطئ مات سنة ١٤٣ هـ ،
انظر ترجمته فى تقريب التهذيب : ٣٩ هـ ٢ والخلاصة للخزرجى : ٢٧٥ .

- وعن الضحاك ^(١) : لا تقضوا امرا دون الله ورسوله من شرايع دينكم .
 • وقال سفیان الثوري ^(٢) : لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل ^(٣) .

ويقول ابن جرير الطبري في نهاية الاثار التي ذكرها في معنى التقدم بين يدي الله ورسوله ، بقول : وخافوا الله ايها الذين آمنوا في قولكم ، ان تقولوا ما لم يأذن لكم به الله ولا رسوله ، وفي غير ذلك من اموركم ، وراقبوه ، ان الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم اذا قلتم ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم ، وغير ذلك من اموركم وامور غيركم ^(٤) .

وقال القاضي ابوبكر بن العربي ^(٥) : قوله تعالى : لا تقدموا بين يدي الله ورسوله اصل في ترك التعرض لاقوال النبي صلى الله عليه وسلم وايجاب اتباعه والاقتران

- (١) الضحاك بن مزاحم الهلالي مولاهم الخراساني يكنى ابا القاسم اشتهر بالتفسير توفي سنة ١٠٥ هـ ،
 انظر : ترجمته في الخلاصة للخزرجي : ١٧٧
- (٢) ابو عبد الله سفیان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري الكوفي ينتهي نسبه الى ثور بن مائة فهو مضري ولد سنة ٩٥ هـ وقيل سنة ٩٧ هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ وكان من الشيوخ الذين وقع منهم التدليس ، ولا نظيره في السور والزهد وعلم الحديث والفقه في الدين ،
 انظر ترجمته : وفيات الوفيات : ٣٨٦-٣٩١ هـ ، وتهذيب التهذيب : ١١١-١١٥ هـ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي : ٢٠٣-٢٠٧ هـ ، ١٠
- (٣) الاقوال اخرجها ابن جرير في التفسير : ١١٦-١١٧ هـ ٢٦ وقول مجاهد ذكره البخاري تعليقا ، انظر فتح الباري على صحيح البخاري : ٥٨٩ هـ ٨٠
- (٤) تفسير الطبري : ١١٧ هـ ٢٦
- (٥) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المكشي بابي بكر بن العربي ولد سنة ٤٦٨ هـ وتوفي سنة ٥٤٣ هـ وهو المعافري نسبه ، ومن اجل علماء المالكية تفسيرا وفقها واصولا ولغة وادبا ، وقد ارتحل الى المشرق من الاندلس حتى تلقى العلم على كثير من العلماء ، وكان مهيبا صريحا ، وكتابه احكام القرآن متداول والمعاصم =

به (١) .

وقال ابن قيم الجوزية : اى لا تقولوا حتى يقول ، ولا تأمروا حتى يأمر ، ولا تفتوا حتى يفتى ، ولا تقطعوا امرا حتى يكون هو الذى يحكم فيه ويضيه . . والقول الجامع فى معنى الآية ، لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل ان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم او يفعل (٢) .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه (٣) حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم الى اليمن فقال له " بم تحكم قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فان لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم فان لم تجد ، قال رضى الله عنه اجتهد رأيى ، ف ضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

== القواصم كذلك انظر ترجمته : فى الديباج الذهب فى معرفة اعيان علماء الذهب لابن فرحون : ٢٨١-٢٨٤ ح ١ ط ١ سنة ١٣٥١ هـ ، القاهرة .

(١) احكام القرآن لابن العربي : ١٧٠١-١٧٠٢ ح ٤ ط ٤ سنة ١٣٧٨ هـ ، الحلبية القاهرة .

(٢) اعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية : ٥١ ح ١ ط ١ سنة ١٣٩٧ هـ دار الفكر ، بيروت .

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن اوس ابو عبد الرحمن الانصارى الخزرجى الامام المقدم فى علم الحلال والحرام وهو من خير شباب الانصار وشهد المشاهد كلها ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم اليمن وتوفى سنة ١٧ هـ ، انظر ترجمته فى الاصابة: ٤٢٦-٤٢٧ ح ٣ .

(٤) رواه ابو داود فى باب الاقضية رقم ٣٥٩٢ والترذى ١٢٢٧ فى كتاب الاحكام وقال : هذا حديث لا نعرفه الا من هذا الوجه وليس اسناده عندى بتصل .

ثم قال ابن كثير : فالغرض منه انه اخر رأيه ونظيره واجتهاده الى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله * (١)

. قال شيخنا محمد الامين الشنقطي رحمه الله تعالى :

والمعنى لا تتقدموا امام الله ورسوله ، فتقولوا فى شىء بغير علم ولا اذن من الله وهذه الآتية الكريمة فيها التصريح بالنهى عن التقدم بين يدى الله ورسوله ، ويدخل فى ذلك دخولا اوليا تشريع مالم يأذن به الله ، وتحريم مالم يحرمه ، وتحليل مالم يحلله ، لانه لا حرام الا ما حرمه الله ، ولا حلال الا ما احله الله ، ولا شرع الا ما شرعه الله * (٢)

. ويقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله :

* نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب واستجاشة لقلوبهم بالصيغة التى تربطهم به وتشعرهم بانهم له وانه يحملون شارته ، وانهم فى هذا الكوكب عبده وجنوده وانهم هنا لامر يقدره ، ويريده وانه حبيب اليهم الايمان وزينه فى قلوبهم اختابارا لهم ومنه عليهم ، فأولى لهم ان يقفوا حيث اراد لهم ان يكونوا وان يقفوا بين يدى الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه فى نفسه وفى غيره ، يفعل ما يوفى به ، ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم . . . يا أيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لا فى خاصة انفسكم ، ولا فى امور الحياة من حولكم . ولا تقولوا فى امر قبل قول

(١) تفسير ابن كثير : ٢٠٥ هـ ٤ ،

(٢) اضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن : ٦١٤ هـ ٧

الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا في امر لا ترجعون فيه الى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم * (١) ،

تلك بعض اقوال المفسرين الاجلاء من القرن الاول الى قرننا هذا احببت ان انقلها بعباراتها ليقف القارىء على الخطر الذى يهدر من يتقدم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليعلم كذلك ان هذه الآية العظيمة الشاملة فى الاستسلام والانقياد لحكم الله وحكم رسوله عليه الصلاة والسلام ، اتفق المسلمون على ما يعنيه الله فيها وانها تربية ودعم لبناء المجتمع المؤمن ، الذى لا يثبت له الايمان الا بتقديم الكتاب والسنة على غيرها .

هذا وقد امثل الصحابة رضوان الله عليهم هذا التوجيه ، وبلغ الامثال منهم الى حد انهم كانوا بعد نزول الآية ونحوها ، كانوا يقولون اذا سئلوا عن شئ : الله ورسوله اعلم ، حتى فيما يعرفونه ويدركون المراد به ، مخافة ان يتقدموا على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

واذا كان الامر هكذا فمن باب اولى ان ينقادوا لحكم الله ولا يحكمون سواء وهم يعلمون ان الحكم لله سبحانه وتعالى لا شريك له فيه ، واذا تتبعنا الآيات التى تقصر الحكم على الله وحده ، فاننا نجد لها واضحة فى كتاب الله كثيرة مفصلة ما اجملى فى بعضها كما فى الآية التى معنا " لا تقدموا بين يدي الله ورسوله " كقول الله

(١) ظلال القرآن للسيد قطب : ٣٣٣٨ المجلد ٦ ح ٢٦٠ .

تعالى : وَلَا يَشْرِكُ فِي حِكْمِهِ أَحَدًا * (١) وقوله * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ * (٢) وقوله : إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاتِهِ * (٣) وقوله إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * (٤) وقوله * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٥)

وقوله تعالى : إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقِضَ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * (٦)

وقد امر نبيه عليه الصلاة والسلام بان يحكم بحكمه ولا يتبع سبل الضلال التي تتقدم على قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم . فقال : وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . افحككم الجاهلية يبيغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون * (٧) وقال : اَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتغى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا . * (٨)

-
- (١) الآية من سورة الكهف ٢٦
 (٢) الآية من سورة الشورى : ١٠
 (٣) الآية من سورة يوسف : ٤٠
 (٤) الآية من سورة يوسف : ٦٧
 (٥) الآية من سورة القصص : ٨٨
 (٦) الآية من سورة الانعام : ٥٧
 (٧) الآية من سورة المائدة : ٥٠
 (٨) الآية من سورة الانعام : ١١٤ .

واخبر سبحانه وتعالى ان تحكيم غير الله كفر بالله ، وايمان بالجبت والطاغوت .
 فقال عز من قائل : وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * (١) وقال :
 وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * (٢) وقال : وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ
 بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * (٣) وقال : أَلَمْ
 تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَّحَكَمُوا
 إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * (٤)

* وفي هذه الآيات انواع من العبر من الدلالة على ضلال من يحاكم الى غير
 الكتاب والسنة ، وعلى نفاقه ، وان زعم انه يريد الادلة الشرعية وبين ما يسميه هو
 " عقليات " من الامور الماخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين واهل الكتاب وغير ذلك
 من انواع الاعتبار " (٥) ،

والله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين بانهم يستجيبون لحكم الله وحكم رسوله
 صلى الله عليه وسلم معا ، وكان كفر من يعرض عن تحكيمها واضح في آيات كثيرة مما
 سبق كقوله تعالى : واذا دعا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ،
 وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفي قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ام يخافون ان يحيف
 الله عليهم ورسوله ؟ بل اولئك هم الظالمون * ،

انما كان قول المؤمنين اذا دعا الى الله ورسوله ليحكم بينهم : ان يقولوا سمعنا واطعنا

(١) ، (٢) ، (٣) الآيات من سورة المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

(٤) الآية من سورة النساء : ٦٠ .

(٥) رسالة في اصول الدين لشيخ الاسلام ابن تيمية : ٢٩ .

وأولئك هم المفلحون . وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . (١)

إن التحاكم الى الرسول صلى الله عليه وسلم هو التحاكم الى الله ، وقد عصمه من الخطأ ووقفه وشهد له بالهداية ، ولذا الزم طاعته ، وجعلها فرضا على الناس لانها طاعة لله تعالى ، هذا هو سبيل الفلاح ، ودليل الايمان ، واما المعرضون عن حكمه فليسوا من ذلك فى شىء . (٢)

وقد شرح شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (٣) معنى الطاغوت فى رساله خاصة من رسائلة فقال : والطاغوت عام ، فكل ما عبد من دون الله ، ورضى بالعبادة من معبود او متبوع او مطاع ، فى غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت ، والطاغوت كثيرة وروءسها خمسة :

- ١- الشيطان الداعى الى عبادة غير الله .
- ٢- الحاكم الجائر المغير لاحكام الله تعالى .
- ٣- الذى يحكم بغير ما انزل الله .
- ٤- الذى يدعى علم الغيب من دون الله .

(١) الايات من سورة النور : ٤٨-٥٢ .
 (٢) انظر الرسالة للامام الشافعى : ٨٤-٨٥ .
 (٣) الامام المجدد للدعوة الاسلامية فى القرن الثانى عشر الهجرى ، والذى ايقظ المسلمين ودعاهم الى تصفية العقيدة ونبذ الشرك والبدع والمنكرات ، ولا يزال المسلمون حتى اليوم يدركون صواب هذه الدعوة ودقة منهجها ، وانها السبب فى بقاء جماعة من المسلمين يحكمون بالكتاب والسنة ، ويدافعون عن الاسلام واهله ولد سنة ١١١٥ هـ وتوفى سنة ١٢٠٦ هـ ،
 انظر ترجمته : فى البدر الطالع للشوكانى :
 وشاهير علماء نجد : ٢٠-٤٢
 وعلماء نجد خلال ستة قرون لعبدالله بن عبد الرحمن البسام : ٢٥-٤٣ هـ ١ ط ١
 سنة ١٣٩٨ هـ ، مطبعة النهضة الحديثة . وتاريخ ابن غنام : ١٢٤ هـ ٢ ،
 الاعلام للزركلى : ١٣٧-١٣٨ هـ ٧ .

٥- الذى يعبد من دون الله وهوراضى بالعبادة . (١)

فاذا خالف المسلمون هذا النهى العظيم " لا تقدموا بين يدى الله ورسوله " الى القوانين الوضعية التى هى قانون طواغيت الغرب فياويلهم وياهلكهم ، لتركهم امر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومخالفتهم هذه الاية التى يقرر الله فيها اصلا من اصول الدين وهوان الحكم لله وحده لا معقب لحكمه ، وهو احكم الحاكمين ، وقد نهانا ان نتقدم حكمه وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم . (٢)

ان تلك الآيات لتوضح بجلاء ان الحكم لله وحده ، وان من كانت هذه الصفات له احق بالحكم والتشريع - فمن له الربوبية وهو فاطر السماوات والارض ؟ ومن يوصف بان له غيبهما ، وانه الاله الواحد ، الذى يهلك كل شىء ويبقى ذو الجلال والادام ؟! ومن هو الذى يرجع كل شىء وله الحمد فى الاولى والاخره . ؟! ومن هو الذى يكفى من يتوكل عليه ويصرف الليل والنهار ، ويخلق ويحيى ويميت . . . ؟! هذه الصفات هل فى شرعى القوانين الوضعية من يستحق ان يوصف بها . . . ؟! (٣)

هذا والنظام الوضعى " قسمان : ادارى وشرعى ، اما الادارى الذى يراد به ضبط الامور واتقانها على وجه غير مخالف للشرع ، فهذا لا مانع منه ولا مخالف فيه من الصحابة فمن بعدهم " لانه تنظيم ادارى بحث كوضع الدواوين ، واحداث السجون ونظامها ما فيه مصالح العباد . . . " واما النظام الشرعى المخالف لتشريع

(١) العقيدة والاداب الاسلامية من مجموع مصنفات الشيخ : ٣٧٧-٣٧٨ القسم الاول ط جامعة الامام سنة

(٢) انظر التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازى : ٥٦ هـ ٢٦ ط ٥ سنة ١٣٩٥ هـ

(٣) انظر اضواء البيان لمحمد الامين الشنقيطى : ١٦٢-١٦٩ هـ ٧٠

خالق السماوات والارض كدعوى ان تفضيل الذكر على الانثى في الميراث ليس بانصاف ،
 وكدعوى ان تعدد الزوجات ظلم وان الطلاق ظلم للمرأة ، وان الرجم والقطع ونحوهما
 اعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالانسان ، فتحكيم هذا النوع من النظام في انفس
 المجتمع واموالهم واعراضهم وانسابهم وعقولهم واديانهم - كفر بخالق السماوات والارض،
 وتعد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق وهو اعظم بمصالحها . . " (١)

(١) انظر اذواء البيان لمحمد الامين الشنقيطي : ٩٠-٩٣ هـ ٤ .

السنة كالكتاب في وجوب التحكيم

ان ما جاء به القرآن من وجوب تحكيم الله تعالى الذي هو تحكيم القرآن الكريم، قد جاء كذلك بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم وتحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام هو تحكيم سنته، والسنة تشمل: فعله وتركه، وامره ونهيه، وتقريره وردّه (١)

والآية التي معنا تشمل ذلك كله، وقد نهت عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وهو التقدم على القرآن والسنة، وهما متلازمان لا ينفكان، والايمان بواحد منهما دون الآخر لا يفيد، وكذلك العمل بواحد دون الآخر هو طريق الى الجهل والضلال وانكارهما معا. . فرسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوث بالكتاب والسنة معا . .

ولا ادل على هذه المقارنة والملازمة بين الكتاب والسنة من القرآن نفسه في آيات كقوله تعالى حاكيا دعاء الخليل عليه السلام ان يبعث في ذريته رسولا معلما الكتاب والحكمة، " رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٢)

وقال مستنا على المؤمنين بعثة الرسول المعلم: " كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ " (٣)

(١) انظر تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي : ٤-٥ ط ١ سنة ١٣٧٩ هـ.

(٢) الآية من سورة البقرة : ١٢٩ .

(٣) السابقة : ١٥١ .

وقال : **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ** . (١)
 وقال تعالى : **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ**
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . (٢)

" وقال تعالى : **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ**
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . (٣)

وقال ممتاز على رسوله صلى الله عليه وسلم ان انزل عليه الكتاب وعلمه الحكمة :
" وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
عَظِيمًا . (٤)

وقال آمنة نساء النبي عليه الصلاة والسلام بدراسة القرآن والسنة ، والمؤمنون
 والمؤمنات تبع لهن في ذلك قال : **وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ،**
إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا . (٥)

ان الحكمة المقرونة بالكتاب في هذه الآيات هي السنة ، كما يقول اهل العلم
 بالقرآن ، لان الله سبحانه وتعالى من على المؤمنين بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلما
 كان الامر هكذا لا يجوز ان تكون غير السنة * وذلك انها مقرونة مع كتاب الله ، وان الله
 افترض طاعة رسوله ، وحثم على الناس اتباع امره - فلا يجوز ان يقال لقول : فرض الا لكتاب

(١) الآية من سورة البقرة : ٢٣١ .

(٢) الآية من سورة آل عمران : ١٦٤ ،

(٣) الآية من سورة الجمعة : ٢ ،

(٤) الآية من سورة النساء : ١١٣ ،

(٥) الآية من سورة الاحزاب : ٣٤ .

الله ثم سنة رسوله ، لما وصفنا من ان الله جعل الايمان برسوله مقرونا بالايمان به وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما اراد : دليلا على خاصه وعامه * ولم يكن هذا لغير الرسول صلى الله عليه وسلم . (١)

وقد جاء في القرآن كذلك الامر بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . (٢)

فكما امر الله بطاعته فيما امر ونهى في كتابه العزيز ، فقد امر بطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ،

واعاد العامل " اطيعوا " لدلالة ان كلتا الطاعتين مطلوبة ، لا تغني واحدة عن الاخرى .

ولم يعد العامل في امره بطاعة اولى الامر ، لان طاعتهم تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، فكل طاعة تخالفها فهي معصية بلا ريب ، ومهما يكن من اختلاف العلماء في المراد " باولى الامر " هل هم العلماء او الامراء ؟ فان كل واحد من الفريقين طاعته تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا مانع ان يكون الفريقان داخلين في الآية بل هو الاول ، وصلاح الناس لاشك انه متوقف على صلاح

(١) الرسالة للامام الشافعي : ٧٨-٧٩ .

(٢) الآية من سورة النساء : ٥٩ .

الفريقين : الامراء والعلماء * وبهم ينقاد المجتمع للقرآن والسنة ، كما أن انحرافهم نذير انحطاط المجتمع . . . ! ،

هذا ولم لم يكن في القرآن حكم ما يتنازع فيه الناس وفي السنة لما رد الله الناس الى الله ورسوله ، وقد اشترط لايمان المؤمنين هذا الرد اذا تنازعوا ، وهو خير لهم واصوب . (١)

وكما جاء في الحديث عن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي** * . (٢)

هذا وقد اقسم الجبار سبحانه وتعالى بنفسه على نفى الايمان عن من لم يحكمهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتحكيه هو تحكيم سنته ، فقال عز من قائل : **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا** * . (٣)

وقد جاء في سبب نزول الآية هذه ، عن عروة (٤) قال : **خاصم الزبير (٥) رجلاً من الانصار في شريح (٦) من الحرّة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :**

(١) انظر الرسالة للامام الشافعي : ٨٠-٨١ واعلام الموقعين لابن القيم : ٤٨-٥١ ،

وفتح الباري شرح البخارى لابن حجر : ٢٥٣-٢٥٤ هـ ٨ و ١١١-١١٣ هـ ١٣ .

(٢) رواه البخارى ، فتح الباري : ١١١ هـ ١٣

(٣) الآية من سورة النساء : ٦٥

(٤) عروة بن الزبير بن العوام الاسدى ابو عبد الله المدني احد الفقهاء السبعة واحمد

علما التابعين ولد سنة ٢٩ هـ ومات سنة ٩٥ هـ ،

انظر ترجمته في الخلاصة للخزرجي : ٢٦٥ .

(٥) الزبير بن العوام بن خويلد حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته والمبشر

له بالجنة هاجر الهجرتين توفي سنة ٣٦ هـ ، انظر ترجمته في الاصابة ٥٤٥-٥٤٦ هـ

١ هـ والخلاصة للخزرجي : ١٢١ .

(٦) شريح : سجيل الماء واحده شرجة والحرّة ارض ملساء فيها حجارة سود .

" أَسْقِ يَا زَيْبِرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ (١) ؟ فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَسْقِ يَا زَيْبِرُ ثُمَّ أَحْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجِدَارِ ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ ، وَاسْتَوَفَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلزَّبِيرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ ، وَكَانَ إِشَارَةً عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لِهَئِذَا فِيهِ سَعَةٌ ."

قال الزبير : فما احسب هذه الايات الانزلت في ذلك * (٢)

ان الآية هذه عظيمة الشأن ، لم تدع مجالاً للشك ولا للتأويل لمن يتهاون في اعتبار السنة مصدراً للحكم كالقرآن ، ولا يخفى ما في اسلوبها من القوة لتقرير هذا الاصل واجابه ، فانظر الى القسم العظيم " فلا وربك " والنفي الصريح " لا يؤمنون " والغاية التي رسمت المقصود وتعلقت بالطلب " حتى يحكموك " وصيغة العموم التي شملت كل شيء " فيما شجر بينهم " وقبول التحكيم هذا ظاهراً وباطناً " ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت " ويصاحب ذلك كله ويتبعه انقياد واستسلام كامل لحكمه سواء كان لك او عليك " ويسلموا تسليماً ."

وهكذا يجب ان يكون حكم الرسول صلى الله عليه وسلم الى يوم تقوم الساعة . (٣) ان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الحادثة ، واضح فيه جانبان ، كلاهما دعوت اليه الشريعة وجاءت بهما ، فلا حاجة لنا بغيرها :

الجانب الاول : جانب القضاء العادي الذي يختصر على تفصيل الحكم وبيان الحق

-
- (١) صفة بنت الزبير بن عبد المطلب الهاشمية وكانت من اطعمه الرسول من تمر خبير ، انظر الاصابة : ٣٤٨ و ٤٥٣ ح ٤
- (٢) رواه البخاري ، فتح الباري : ٢٥٤ ح ٨ وسلم ، النووي : ١٠٧-١٠٨ ح ١٥ .
- (٣) انظر الرسالة للامام الشافعي : ٨٣ ، وانظر اعلام الموقعين لابن القيم : ٥١ ح ١ .

من الباطل حسب الظاهر وعلى المؤمن ان ينقاد ويستسلم له هذا ما يرشد
اليه حكم الرسول صلى الله عليه وسلم الأول .

الجانب الثاني : جانب قضا المظالم ، الذي يجمع بين السلطتين : السلطة القضائية
والسلطة التنفيذية ، كما حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ثانيا .

وكلتا السلطتين جانب من جوانب ولاية الرسول المطلقة للمؤمنين . (١)

والمقصود ان الآيتين المذكورتين " اطيعوا الله واطيعوا الرسول " و " فلا

وربك لا يؤمنون " تنزلان السنة في وجوب التحكيم اليها منزلة القرآن الكريم . كيف وقد
جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : **الَا اِنِّي اُتَيْتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، اَلَا يُوْشِكُ
رَجُلٌ شَبْعَانَ عَلَى اُرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيَّكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَاَحْلَوْهُ ،
وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ** " (٢) **وَلَهٗ شَاهِدٌ آخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
لَا اَلْفَيْنَ اَحَدَكُمْ مَتَكْنَا عَلَى اُرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْاَمْرُ مِنْ اَمْرِي مِمَّا اَمَرْتُ بِهِ ، اَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ ،
فَيَقُولُ : لَا اَدْرِي ، مَا وَجَدْنَاهُ فِي كِتَابِ اللّٰهِ اتَّبَعْنَاهُ** " (٣)

والحديث فيه دليل على انه لا حاجة بعرض السنة على الكتاب ، فهي حجة قائمة
بذاتها وان تساندت مع القرآن ، فالسنة وحى غير المتعبد بتلاوته ، وكلاهما أو تبييه
الرسول عليه الصلاة والسلام ، سواء ما كان منها موافقا للقرآن او شرحا له ، او زائدا عنه (٤)

(١) وقد اورد الماوردى هذه الحادثة في باب ولاية المظالم ويبدو انه يشير الى هذا
الذي استبطنه من الحادثة ،

انظر الاحكام السلطانية للماوردى : ٧٧ ط ١ سنة ١٣٢٧ هـ .

(٢) رواه ابوداود رقم (٤٦٠٤) والترمذى وحسنه رقم (٢٦٦٠) وابن ماجه رقم (١٢)

(٣) رواه الشافعى في الرسالة رقم الفقرة (٢٩٥) باسناد صحيح ورواه ابوداود رقم

(٤٦٠٥) في باب لزوم السنة ، والترمذى في باب العلم رقم (٢٦٦٥) ،

وحسنه : وابن ماجه رقم (١٣) .

(٤) انظر شرح السنة للبيغوى : ٢٠١-٢٠٢ هـ ١ .

قال تعالى : **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** * (١)

" ولقد ظهرت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم ، ووقع ما أخبر به فان رجلا خرج (٢) من الفنجاب من اقليم الهند وانتسب نفسه باهل القرآن وشتان بينه وبين اهل القرآن بل هو من اهل الالحاد والمرتدين ، وكان قبل ذلك من الصالحين فأضله الشيطان وأغواه وابعده عن الصراط المستقيم فتفوه بما لا يتكلم به اهل الاسلام ، فاطال لسانه في اهانة النبي صلى الله عليه وسلم ، ورد الاحاديث الصحيحة باسرها وقال هذه كلها مكذوبة ومفتريات على الله تعالى ، وانما يجب العمل على القرآن العظيم فقط دون احاديث النبي صلى الله عليه وسلم وان كانت صحيحة متواترة ، ومن عمل على غير القرآن فهو داخل تحت قوله تعالى " ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون " وغير ذلك من اقواله الكفرية وتبعه على ذلك كثير من الجهال ، وجعلوه اماما وقد افتى علماء العصر بكفره والحاده وخرجوه عن دائرة الاسلام والامر كما قالوا والله اعلم * (٣)

فاذا تكلم اليوم او حكم من لا يعلم ولا دين له ، واستهان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا غرابة ، لان هؤلاء خلف ضيعوا السنة ، وكانت دعواهم مجافية للسنة في كل ما يحرصون ، غير ان الذين يطعنون في السنة اليوم ويهونون من شأنها ، لا يدعون الى الحكم بالقرآن بل هم الى نظريات الحادية وقوانين وضعيية يدعون كما هو مشاهد من امرهم فهم اكفر وابعد في الضلالة . . . ! .

(١) الآية من سورة النمل : ٤٤ ،

(٢) هذا الرجل هو غلام احمد القادياني (١٨٣٩-١٩٠٨ م) .

(٣) عون المعبود شرح ابي داود : ٣٥٧ - ١٢ .

ان هؤلاء في كل زمان ومكان شياطين يدعون الى باطلهم وقد حذرنا الرسول عليه الصلاة والسلام من سلوك خطوطهم ، فقال في حديث رواه ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : هَذَا سَبِيلَ اللَّهِ ، ثُمَّ خَطَّ خَطوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَقَالَ هَذَا سَبِيلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ وَقَرَأَ : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ * (١)

وقد شهد الله له بانه يهدي الى صراط مستقيم ، فقال عز من قائل : وَإِنَّا لَنَهْدِيكَ لِسَبِيلِ اللَّهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * (٢) ، وفي هذا ارشاد عام شامل لكل ما جاء في الكتاب العزيز ، وجاء في السنة الطاهرة .

(١) الآية من سورة الانعام : ١٥٣ واما الحديث رواه الامام احمد رقم (٤١٤٢)

ص ٢٣٥ ورقم (٤٤٣٧) ص ٣٤٠ ح ٣ وهو حسن .

(٢) الايات من سورة الشورى : ٥٢-٥٣ .

والسنة مع القرآن لا تغلو من ثلاثة وجوه :

الوجه الاول : السنة التي جاءت موافقة لما في القرآن من كل وجه فيكون توارد القرآن

والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الادلة وتظايرها .

الوجه الثاني : السنة التي جاءت تفسيراً لمجمل القرآن وبياناً له .

وهذان الوجهان لم يتطرق اليهما اختلاف من المختلفين .

الوجه الثالث : السنة التي جاءت موجبة لحكم لم يأت في القرآن من ايجاب وتحريم

فلم يوافقها القرآن نصاً ولا اجمالاً .

وهذا النوع دار فيه اختلاف ، فمن العلماء من قال : انه لما فرض الله طاعته

جعل له ان يسن فيما ليس فيه نص من كتاب . ومنهم من قال ما سن رسول الله صلى

الله عليه وسلم شيئاً الا وله اصل في الكتاب ، كما كانت سنته لبيان عدد الصلوات الخمس

وركعاتها وسننها وواجباتها وكان ذلك تفصيلاً لغرضها في القرآن . ومنهم من قال :

بل ان السنة جاءت رساله الله بها فثبتت بفرض الله تعالى . ومنهم من قال : القى في

روعه كل ما سن وسنته الحكمه التي القيت في روعه من الله تعالى .^(١)

والامثلة لهذه الوجوه كثيرة في السنة ، فالقرآن جاء فيه ان كل والد يرث ولده

وكل مولود يرث والده^(٢) ، حتى جاءت السنة وفصلت ذلك بان المراد كذلك مع

(١) الرسالة للامام الشافعي : ٨٨ - ٩٣ بتصرف واعلام الموقعين لابن القيم

: ٢٨٨ - ٢٠٠

(٢) كقوله تعالى في سورة النساء : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ . الآية * ١١ .

الاتفاق في الدين ، واما اذا اختلف الدين بين الوارث والمورث فذلك مانع من موانع الارث ، واستقر العمل على ما جاء في السنة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم " لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ " (١) وكذلك ظاهر القرآن يوجب قطع يد السارق (٢) بسرقة كثرتا ام قلت حتى جاءت السنة والشرط فيها ان تبلغ قيمة المسروق ربع دينار فصاعدا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم " تَقَطَّعَ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ " (٣)

فالذين يزعمون العمل بالقرآن وحده من اين يجدون عدد الركعات لكل صلاة من الصلوات الخمس ، وعدد الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ، اذا لم ياخذوا بالسنة ؟ وهم لاشك بدعواهم ضالون مضلون ، فالسنة قاضية على الكتاب ومفسرة له وسينسنة لاجاله ، فما احوج اهل القرآن الى السنة المطهرة . (٤)

واما ما جاء في السنة زائدا عن القرآن ولم يات فيه كثير وقد سرد العلامة ابن القيم بعض هذه النصوص وكثيرا من المسائل الاصولية والفقهية التي لا نجدها الا في السنة . (٥) ومن ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : لَا يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّأَةِ وَعَتَّتِهَا ، وَلَا بَيْنَ الرَّأَةِ وَخَالَتِهَا . (٦)

-
- (١) رواه البخارى في كتاب الفرائض .
(٢) كقوله تعالى في سورة المائدة : والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما . الاية ٣٨ .
(٣) رواه البخارى في كتاب الحدود .
(٤) انظر كتاب الكفاية في علم الرواية لابي بكر الخطيب البغدادي ١٣-١٥ .
(٥) انظر اعلام الموقعين لابن القيم : ٢٨٩-٢٩٠ ح ٢ .
(٦) رواه البخارى في كتاب النكاح .

وكما الحق الرسول صلى الله عليه وسلم الرضاة بالنسب فى كل ما يترتب على النسب بالتحريم وصلة الرحم " حَرَّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرَمُ مِنَ النَّسَبِ " (١)

يقول الامام الشافعى :

" وأى هذا كان فقد بين الله انه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لاحد من خلقه عذرا بخلاف امر عرفه من امر رسول الله ، وان قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة اليه فى دينهم ، واقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما اراد الله بفرائضه فى كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا ان سنته صلى الله عليه وسلم اذا كانت سنة مبينة عن الله معنى ما اراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه وفيما ليس فيه نص كتاب اخرى - فهى كذلك اين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال " (٢)

هذا وبزيد العلامة ابن القيم لما تطرق اليه الشافعى توضيحا فيقول :

ان السنة لا تخرج عن هذه الوجوه مع القرآن ، وكلها حجة ، لا تتعارض مع القرآن فى وجه من هذه الوجوه ، فالذى جاء منها زائدا على القرآن فهو تشريع من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، طاعته فى ذلك واجبة ، ولم يكن هذا من التقديم على كتاب الله ، بل هو تقديم لكتاب الله تعالى الذى جاء فيه : مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ " (٣) ، فاذا لم يطع الا فيما وافق القرآن فليست له طاعة

(١) رواه البخارى فى كتاب النكاح .

(٢) الرسالة للامام الشافعى : ١٠٤ .

(٣) الاية من سورة : النساء : ٨٠ .

خاصة ، فاذا كان الاتفاق على حجة الوجهين للسنة مع القرآن ، فان الدليل الذي استند عليه المتفقون على ذلك نفسه هو الدليل الذي يوجب قبول الوجه الثالث الزائد على القرآن ، بأدنى تأمل وتفكير نزيه . (١)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد بعث بالحكمة التي هي سنته ، وهي تشمل الشريعة والمنهاج ، الذي شرعه الله له ، هذه الحكمة جاءت بكل ما يبين سبيل المفضوب عليهم والضالين ، وقد امر بمخالفتهم ، وذلك ما كانت السنة المطهرة حريصة على بيانه ، وان لم يظهر هذا لبعض المفرضين . (٢)

واذا كان في القرآن ارشاد عام وتوصية بالسنة بدون تفريق بين ما وافق منها القرآن وما زاد عليه ، فان السنة كذلك استفاضت منها احاديث توصي بالتمسك بهما جملة وتفصيلا ، فقد اتفق القرآن والسنة بهذا الاعتبار على عموم السنة وتفصيلها . . . فعن ابي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **اِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ : يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعَرَبَانَ** (٣) **فَالنَّجَاءُ * فَاطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِّنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَاَنْطَلَقُوا عَلَىٰ مُهْلِهِمْ فَنَجَّوْا ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ فَاصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَأَجْتَاَهُمْ . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنِ اطَاعَنِى فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنِ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِّنَ الْحَقِّ** . (٤)

(١) اعلام الموقعين : ٢٨٨ - ٢٩٥ هـ ٢ .

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية : ١١ .

(٣) كناية عن الظهور ، كانوا في الجاهلية انا : ادهمهم الامر وخاصة العدو ، المنذر لهم وهو المخبر يتعري من شيابه حتى يراه الجميع ، كما فعل منذر قريش عندما جاء الى مكة وانذرهم بتعرض المسلمين لغيرهم .

(٤) رواه البخارى ، فتح البارى : ٢٥٠ هـ ١٣ وسلم ، النووى شرح مسلم : ٤٨ هـ ١٥ .

وعن العرياض بن سارية ^(١) قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلّت منها القلوب ، فقلنا يا رسول الله : ان هذه لموعظة مودع ، فاذنا تعهد اليها قال : تَرَكْتُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ مَن يَعْشُرُ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اِخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنِ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ . ^(٢)

وإذا ما أعدنا النظرة في تلك النصوص وغيرها من الكتاب والسنة ، نجد ان الكتاب والسنة رتبا على وجوب الايمان به صلى الله عليه وسلم ، وجوب طاعته فيما جاء به من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولا تكون الطاعة الا بالتزام المصدرين والطاعة نفسها لا تتحقق بغير اتباع السنة القولية والفعلية وامثال ما تدعوا اليه بالطريق الذي كان عليه الصلاة والسلام يتخلق بها لتطبيق اوامر ربه واجتناب نواهيه فالمخالفة لذلك كله تبديل للسنة وضلال وبدعة عليها وعيد شديد . ^(٣)

كقوله تعالى : فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم . ^(٤)

-
- (١) عرياض بن سارية السلمي من اهل الصفة توفي سنة ٧٥ هـ وكان من السلميين الاوائل حديثه في السنن ، انظر ترجمته في الاصابة : ٤٧٣ هـ ٢
- (٢) رواه ابو داود رقم (٤٦٠٢) هـ ٤ في باب لزوم السنة ، وابن ماجه رقم (٤٣) في المقدمة ، والترمذي وقال حسن صحيح : رقم (٢٦٧٦) باب ما جاء في الاخذ بالسنة واجتناب البدع .
- (٣) انظر الشفا بتعريف حقوق المضطعى للقاضي عياض : ٢-١٣ هـ ٢ مطبوعة الاستقامة - القاهرة .
- (٤) الاية من سورة النور : ٦٣ .

وقوله : **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ** * (١)

واما الآية التي رتبت كل شىء على الايمان فقوله تعالى : **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** * (٢) ،

والتي جعلت الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة واسوة حسنة فقوله تعالى : **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** * (٣)

ان الادب الذى ادب الله به المؤمنين فى هذه الآية ، قد اصبح جزءا من حياتهم ، بل هو الحكم فى حياتهم كلها ، فلم يكن احد من المسلمين يقضى بامر دون مراجعة الرسول صلى الله عليه وسلم بحثا عن حكم الله تعالى وحكم رسوله عليه الصلاة والسلام ، لايمانهم بانه ما من حادثة تحدث الا وعلاجها او حكمها فى الكتاب والسنة ، ولم يكن ذلك مختصرا على عهد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فقط ، بل انهم فهموا ان هذا هو الايمان وهو الاسلام الذى رضوا به ، ولنضرب مثلا بموقفهم فى اول حادثة حدثت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وهى حادثة "الردة" فكان موقفهم هو تحكيم الكتاب والسنة واعتقاد ان الايمان مرتبط بغيره من التكليف الشرعية ، واول من يعتقد هذا ابو بكر الصديق فكانت هذه البداية واضحة فى ذهن الصحابة رضى الله عنهم فموقفهم من اهل الردة ومانعى الزكاة انما هو

(١) الآية من سورة النساء : ١١٥ ،

(٢) الآية من سورة آل عمران : ٣١ ،

(٣) الآية من سورة الاحزاب : ٢١ .

تحكيم الكتاب والسنة ، دون تردد ، وان تلجج في صدر بعضهم وعلى شفتيه
 بعض التساؤلات كعمر بن الخطاب رضى الله عنه ان قال لابي بكر الصديق رضى الله
 عنه : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت ان اقاتل الناس
 حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه
 وحسابه على الله ؟

فقال ابوبكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ،
 والله لو منعوني عقالا كانوا يومئذ يهودونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على
 منعه ، فقال عمر بن الخطاب : فوالله ما إلا ان رأيت الله عز وجل قد شرح صدر
 ابي بكر للقتال فعرفت انه الحق * (١)

ان هؤلاء المرتدين كانوا صنفين : صنفنا بدوا الاسلام ، وعادوا الى الكفر
 علانية ، وبعض هؤلاء اتبعوا سيلة الكذاب (٢) وشايعوه في رده وكفروه تعصبا له
 وآخرون اتبعوا الاسود العنسى (٣) باليمن ، ومن هؤلاء المرتدين من لم يتبع احد الكذابين . .
 والصنف الآخر من المرتدين هم فرقوا بين اركان الاسلام ، كالصلاة والزكاة * وانكروا فرض الزكاة
 ووجوب ادائها الى الامام ومع هذا فمن انكر فرض الزكاة فهو كافر بالاجماع وهو لا على الحقيقة
 اهل بغى وانما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمان خصوصا لدخولهم في غمار اهل الردة

(١) رواه مسلم - النووى شرح مسلم : ٢٠٢ - ٢١٠ هـ ١

(٢) سيلة الكذاب بن حبيب الحنفى ، وقال ابن هشام : ابن شامة ، ويكنى ابا شامة ،
 وقد حضر في وفد بنى حنيفة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحضر لقائه
 قومه معه ، وادعى النبوة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكاتب الرسول ،
 ورد عليه ولقبه بالكذاب ، وقد قتل في معركة اليمامة في خلافة الصديق سنة
 واشترك في قتله وحشى الحبشى قاتل حمزة رضى الله عنه ، ورجل من الانصار
 وفتح الله على المسلمين ،

انظر السيرة لابن هشام : ١٨ هـ ٣ و ٢٤٣ - ٢٤٥ هـ ٤ .

(٣) الاسود بن كعب العنسى ، واسمه عجلة بن كعب بن غوث بن كهف ، وقيل =

فاضيف الاسم في الجملة الى الردة ، اذ كانت اعظم الامرين واهمهما * ومعنى هو* لا يمانع في اداء الزكاة ولكن رؤسائهم صدوهم وتحكموا فيهم . و خلاصة القول ان المرتدين اعلن فريق منهم كفره صراحة ، وفريق مانع في اداء الزكاة ، وقاسمهم ابو بكر الصديق رضى الله عنه على من كفر ، وكان قياسا في مكانه ، ولا شبهة فيه لتأويل المتأويلين ، ولا لبهت الباهتين ، الذين يريدون الوقعة بالسلف او يريدون ان يعتذروه لمانعى الزكاة ، بانهم مؤولون لا يكفرون ، ولكن كل هذا يرد اجماع الصحابة على قتالهم ، ونصوص من الكتاب والسنة تدعو الى قتال من لم يحكمها فيما انكره هو* (١) والله يقول : فَان تَابُوا وَاَقَامُوا الصَّلَاةَ وَاَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ اِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢)

ان ما ذكرناه غيض من فيض ، وانه وحده لموجب العمل بالسنة ، والتحكيم اليها ، وقد قطع وجود السنة وحفظها عذر من يرغب عنها الى سواها من النظريات الوضعية المحادة لله ولرسوله ، والمناقضة ما جاء في القرآن الكريم والسنة الطاهرة ، فالسنة محفوظة بحفظ الله لها تبعا لحفظ الكتاب العزيز كقوله تعالى : اِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَاِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٣) وكما قلت سابقا ، فان السنة ما انزله الله وامر بتدارسها * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ وَالْحِكْمَةِ اِنَّ اللّٰهَ كَانَ لَطِيْفًا خَبِيرًا (٤) .

= ارتدت اليمن واتبعت اسودها ، قتله فيروز الديلمي ، ومعه رجال وساعدتهم امراته ، وحبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وبعد ايام من مقتله وصلهم خبر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ،

انظر البداية لابن كثير : ٣٤٤ - ٣٥٠ - ٦ .

(١) انظر النووي شرح مسلم : ٢٠٢ - ٢١٠ - ١ .

(٢) الاية من سورة التوبة : ٥ .

(٣) الاية من سورة الحجر : ٩ .

(٤) الاية من سورة الاحزاب : ٣٤ .

ان السنة لم يذهب منها شيء ، لان الله قيض لها رجالا مؤمنين ، كما قيض للقرآن من جمعه ووجد مصاحفه في مصحف واحد ، وان لم تجتمع السنة لدى واحد او اثنين او ثلاثة من هؤلاء الاجلاء من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، فانها مجموعة كاملة ، ومتفرقة لدى الجميع ، وهؤلاء يتفاوتون في حفظ السنة وفهمها وجمع الصحيح منها ورد المكذوب فيها ، فلم توجد السنة كاملة عند فرد او افراد من هؤلاء ، ولا عند جماعة معينة من رواتها ومؤلفين فيها ولكنها كلها موجودة بين الجميع " فاذا جمع علم عامه اهل العلم بها اتى على السنن ، واذا فرق علم كل منهم : ذهب عليه الشيء منها ، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره " (١)

هذا ولم يزعم احد من اهل العلم والايمان ، من عهد الصحابة حتى اليوم ان نصوص السنة قليلة وان شتت احداث ، واستجدت امور ليس لها حل في السنة . . . وقد اهتم العلماء بتصنيف نصوصها واستقصاء اهدافها ، وتبويب ذلك تبويبا يشمل ما حدث ويستجد في الحياة ويصلح ويكون رائعا دائما . . . ومن هؤلاء ابن حبان وقد ذكر ما يدل على سعة الطلاقة وغزارة روايته ، ولطافة عبارته ، وان لم يحظ بها هو ولا غيره فقال : تدبرت خطاب الاوامر عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لاستكشاف ما طواه في جوامع كلمه ، فرأيتها تدور على مائة نوع وعشرة انواع ، يجب على كل منتحل للسنن ان يعرف فصولها ، وكل منسوب الى العلم ان يقف على جوامعها لئلا يضع السنن الا في مواضعها ، ولا يزيلها عن موضع القصد في سننها " (٢) .

(١) انظر الرسالة للشافعي : ٤٢-٤٤ فقرات (١٣٩-١٤٣) ،
وانظر التعليق على الرسالة لاحمد شاکر هاشم (٥) ص ٤٣ .
(٢) صحيح ابن حبان : ٢٥-٤١ ج ١ .

وقال فيما يتعلق بالنواهي : -

* وقد تتبعت النواهي عن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتدبرت جوامع

فصولها وانواع ورودها لان سببها في تشعب الفصول مجرى الاوامر في الاصول ،
فرايتها تدور على مائة نوع وعشرة انواع * (١) ،

هذا ما يتعلق بالاوامر والنواهي ، وهي جزء من الانشاء والاجزاء الاخرى كالنداء
والاستفهام والتنزي ونحوها لم يتعرض لها ، وكذلك ما يتعلق بالنصف الاخر للسنة
المقابل للطلب وهو الخبر ، لم يذكره ، وكل ذلك كثير وكثير ، محفوظ والله الحمد .

والاية ترشد الى امرين عظيمين ، عليهما يدور الاسلام الصحيح ، لبناء مجتمع

مترايط في الاسلام راسخ البناء بغير هذين الامرين لا يكون :

الامر الاول : محبة الله تعالى ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو مقتضى
الايمان الذي وصف الله به هؤلاء المنادين " يا ايها الذين آمنوا " خمس
مرات في السورة .

الامر الثاني : تعظيم اوامر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ونواهيها ، لان ذلك

هو اللازم لتعظيم الامر والناهي ، فان الذين لا يعباون بالامر والنهي ، هم

المستخفون بالله تعالى الله عن ذلك وهو هؤلاء يسلطهم قوله تعالى : **مَالِكُم**

لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * (٢) ،

(١) المصدر السابق ٤٢-٥٦ ح ١

(٢) الاية من سورة نوح : ١٣ .

والمراد بتعظيم الامر والنهي : هو ان لا يعارضا بترخيص جاف ، ولا يعارضا لتسديد
غال ، ولا يحمل على علة ، توهن الانقياد فالامر يجب ان تراعى بكل دقة ورعاية
وقتها وحدها والحرص على اداء مطالبها الواجبة والسنونة ، والتأسف على التفريط
فيها ، وكذلك رعاية النواهي ، وبذلك يتم الانقياد بدون ان يحمل الامر على علة
تضعفه ، وينتقص النهي على حرمة .. والنهي في الآية " لا تقدموا بين يدي الله
ورسوله " عام شامل لكل نواهي الكتاب والسنة ولا يجتنب ما حرم الله ورسوله الا من
طبق اوامرهما ، وانقاد بها ايمانا وتطبيقا .. (١)

(١) انظر الواهب الصيب لابن القيم : ٢٤-٣٩ طبعة رئاسة ادارات البحوث العلمية
والافتاء والدعوة والارشاد ، الرياض مطابع النصر .

هل في الآية ما يدل على رد القياس ؟

القياس الصحيح ما جاء به القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، فليس في القرآن والسنة ما ينافي هذا النوع من القياس ، ولكن القياس الذي يتقدم به اصحابه على الكتاب والسنة ويوسعون دائرته الى حد انهم ينسون النصوص واحاطتها ، فالآية وغيرها من النصوص ترد (١) ،

يقول الامام الشافعي : ومن يتنازع من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رد الامر الى قضاء الله ، ثم قضاء رسوله فان لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاء نصا فيهما ولا في واحد منها ردوه قياسا على احدهما (١) .

ان الذين احتجوا بالاية على نفي القياس حجتهم غير ظاهرة ، لان القياس قامت دلالته وحجيته بالكتاب والسنة والاجماع ، في فروع الشريعة ، فليس في العمل به والاستدلال به تقدم بين يدي الله ورسوله ، لانه ما امر الله به وامر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل الآية تشمل الاجماع والقياس المستندين الى الكتاب والسنة ، ولا يدخل القياس في النهي الوارد في الآية " يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله " ، واما القياس الفاسد فلاشك في دخوله ، ودخول كل ما يناقضه القرآن والسنة . (٢)

(١) انظر اعلام الموقعين : ٢٢٧ وما بعدها ح ١

(٢) الرسالة للامام الشافعي : (٨) فقرة (٤٦٦)

(٣) انظر : تفسير القرطبي : ٣٠٣ ح ١٦ واحكام القرآن للجصاص : ٤٨٩ ح ٣

الطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ ،

والاكليل في استنباط التنزيل للميوطي : ١٩٦ طابع دار الكتاب العربي ،

القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ .

" احاطة الشريعة وقصور القوانين الوضعية "

ان القائلين بان الشريعة الاسلامية لا تصلح للعصر الحاضر ، هم احد فريقين :

- ١- فريق لم يدرس الشريعة الاسلامية ولم يدرس القانون ، وانما هم يكذبون ويقلدون .
- ٢- فريق درس القوانين الوضعية دون الشريعة الاسلامية .

" وكلا الفريقين ليس اهلا للحكم على الشريعة لانه يجهل احكامها جهلا مطبقا ، ومن جهل شيئا لا يصلح للحكم عليه " فظرية هؤلاء لم تتبن على دراسة علمية ولا حجج منطقية ، ولكنهم قاسوا الشريعة على القوانين التي تتغير وتتبدل في كل عصر لعدم صلاحيتها عند واضعيها ، وهذا قياس باطل لا يكاد يفوت الناقد البصير " ووجه الخطأ في هذا القياس تسوية القوانين التي وضعها البشر بالشريعة التي انزلها رب البشر ، لان قاعدة القياس تقتضى مساواة المقيس بالمقيس عليه ، ولو من وجوه ، وكل ذلك منعدم بين الشريعة والقانون ويدل على ذلك نشأة كل واحد منهما .

اما القانون الوضعي فهو ينشأ ضئيلا في الجماعة التي ينظمها ، ويأخذ في التطور كلما تطورت الجماعة التي يحكمها ، وهذه الجماعة هي التي اوجدت القانون وحدثته من الاسرة الى المجتمع والدولة حين تبدأ تتكون بدأت في تكوين العادات والتقاليد ، الخاصة بها وتوجد من ذلك قانونا لها ورغم توحيد معظم القواعد القانونية في العالم اخيرا بقى لكل دولة قانونها الخاص بها . . . !!

واما شريعة الله لم تكن نشأتها كذلك " ولم تكن الشريعة قواعد قليلة ثم كثرت ولا مبادئ متفرقة ثم تجمعت ، ولا نظريات اولية ثم تهذبت ، ولم تولد الشريعة طفلة مع الجماعة الاسلامية ثم سايرت تطورها ونمت بنموها ، وانما ولدت شابة مكتلة ونزلت من عند الله شريعة كاملة شاملة جامعة مانعة لا ترى فيها عوجا ، ولا تشهد فيها ، نقصا ،

انزلها الله تعالى من سماء على قلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في فترة قصيرة لا تجاوز المدة اللازمة لنزولها ، التي بدأت ببعثة الرسول وانتهت بوفاته او انتهت يوم قال الله له :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١)

وهذه الشريعة لا تخص احدا دون احد من افراد او جماعات واقوام ودول ، وانما هي للناس كافة قال تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » (٢) وقال : وهي كاملة لانقص فيها ، وشاملة لا يستجد للناس شيء الا وفيها حكمة التي يوم القيامة ، ونصوصها جاءت بحيث لا يوتر عليها الزمن ، ولا تبلى جدتها ، وهي من عند الله « لَا تَبْدِيلَ يَلِ الْكَلِمَاتِ لِلَّهِ » (٤) وهو علام الغيوب يعلم ما يصلح لعباده وما لا يصلح لهم ، ويوم نزولها جاءت بكل ما تخيله الناس نافعاً . (٥)

واذا عرفنا : ان الشريعة في نزولها ومصدرها غير القانون الوضعي ، ولا تقاس عليه ، فانه يجدر بنا والحالة هكذا ان نستخلص من ذلك وجوه التفريق بينهما :

الوجه الاول :

القانون من صنع البشر وهم عبيد مربيون لمنزل الشريعة ، ومن خلال القانون نجد الصفات البشرية الطابع العام والخاص له ، ما جعله عرضة للتغيير والتبديل والخطأ ونحو ذلك من لوازم الانسان .

-
- (١) الاية من سورة المائدة : ٣
(٢) الاية من سورة الاعراف : ١٥٨
(٣) الاية من سورة سبأ : ٢٨
(٤) الاية من سورة يونس : ٦٤
(٥) التشريع الجنائي الاسلامي مقارنا بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة : ١٢ - ١٥ بتصريف ج ١ - دار الكاتب العربي ، بيروت .

أما الشريعة فمن عند الله وهورب الناس وخالقهم ، واعلم بمصالحهم ومضارهم
وقدرته وعظمته واحاطته وحكمته وغير ذلك من صفات تتمثل في الشريعة الاسلامية . .
والذين يؤمنون بها لا يصعب عليهم ادراك الأدلة على ذلك ، واما الذين لا يؤمنون
بها عليهم ان يبحثوا عن صدق ذلك في الشريعة فهل يجدون ما يتخيلونه في القوانين
او يجدون ما يصادم العقل ولا يفنى بالحاجات . . . ؟ !

الوجه الثاني :

القانون عبارة عن قواعد وضعتها جماعة من الناس لسد حاجتهم التنظيمية والحكومية ،
وهذه القواعد مؤقتة وجدت بعد الجماعة ريثما تأتي جماعة أخرى وتفعل نفس الفعل
وهكذا دواليك . . أما الشريعة الاسلامية فمن الله على سبيل الدوام والمرونة والعموم
" كما انها وصلت من السمو درجة لا يتصور بعدها سمو " ولقد مر عليها اربعة عشر
قرنا ، تغيرت فيها احوال الناس واستحدثت امور ، وتغيرت القوانين التي كانت تحكم
حين نزولها اكثر من مرة ، حتى انقطعت الصلات بين القوانين الوضعية وتبدل كل شيء
لان البشر كلما احدثوا شيئا وجدوه لا يصلح وسئموا منه ورموه وجفوه وبحثوا عن غيره
راغبين عنه .

ومع هذا فان الشريعة الاسلامية ظلت ، لا تقبل التغيير ولا التبديل " ونصوصها
اسمى من مستوى الجماعات واكفل بتنظيم وسد حاجاتهم ، واقرب الى طبائعهم ،
واحفظ لاسمهم وطمانينتهم " فلننظر مثلا في قوله تعالى " وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ " (١)

(١) الآية من سورة الشورى : ٣٨ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : **لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ** ^(١) . فهذا - فهذا ان النصان بلغا من العموم والمرونة واليسر ما لا يمكن ان يحاط به ، فالشورى قاعدة للحكم بحيث لا يضر بنصوص الشريعة ولا بالافراد والجماعات ، فالشورى سمو ، لا يحدث فى جماعة فيها ضرر ولا ضرار .

وكل نصوص الشريعة تحمل هذه المرونة والعموم ، فهذا قوله تعالى : **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ^(٢) . فمرونته وعمومه يتجلى فى انه * لا يمكن ان يتصور العقل البشرى ان هناك طريقا لاصحاب الدعوات يسلكونها فى نشر دعواتهم خيرا من طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن * والنصوص فى هذا كثيرة .

الوجه الثالث :

الاصل ان الجماعة هى التى تضع القانون لتنظيم شؤونهاهم لا لتوجيه الجماعة ، ومن ثم كان القانون من صنع الجماعة ، واذا اتجهت القوانين بعد الحرب العالمية الاولى لدمج التوجيه فى القانون ، فانهم فى ذلك متأثرون بالاسلوب الاسلامى وهوان الجماعة الاسلامية انما تكونت بالشريعة ، فهى جماعة انشأها نظامها ولا وجود لها قبل نزوله من الله سبحانه وتعالى .

وخلص القول : ان الشريعة الاسلامية تميزت عن القوانين الوضعية بميزات اصيلة وكانت فروقا بينها وبين القوانين ، وهذه المميزات باختصار :

-
- (١) رواه الامام مالك فى الموطأ فى باب الاقضية ، وابن ماجه فى الاحكام : رقم ٢٢٤ ح ٢ ، والامام احمد فى المسند : ٢٢٧ ح ٥ .
(٢) الاية من سورة النحل : ١٢٥ .

١- الكمال . ٢- السمو ،

٣- الدوام والاستمرار .

ويرجع هذا الى ان الشريعة الاسلامية من عند الله .

ويوم ان كان المسلمون متمسكين بالشريعة الاسلامية ، عاملين باحكامها ، ادت الشريعة وظيفتها ، ففي مدة لا تزيد عن عشرين سنة ، برز المسلمون في العالم قادة وسادة رحماء " لا صوت الا صوتهم ، ولا كلمة تعلقو كلمتهم ، وما اوصلهم لهذا الذي يشبه المعجزات الا الشريعة الاسلامية التي علمتهم وادبتهم ، ورققت نفوسهم وهذبت مشاعرهم واشعرتهم العزة والكرامة . . . " وقد ظن المسلمون بعد تخليهم عن الشريعة ان ما وصل اليه الارييون من التقدم يرجع الى قوانينهم ، فاتبعوها ولم تزد لهم الا ضلالا وكل ذلك اثبت لهم الا وجود لهم ولا قوة الا بالله ثمتمسكهم بالشريعة ، والتجارب اصدق دليل . . . (١)

ان الاخذ بالقوانين الوضعية التي وضعها وصنعها الكفار هزيمة نفسية وتقليد مسقوت يخرج من الملة ، لان ذلك اعتراف من الآخذ بها ، بأن هو " اعقل مننا ، واهدى سبيلا من شرع الله تعالى . . . ! !

ونحن لا نعترف لهذه الام المتحضرة ماديا والغالبة على الدنيا بغيا وعدوانا لا نعترف لهم بانهم اعقل من سواهم ، لان المتدين منهم مصطدم دينه بعقله ، ومستسلم

(١) التشريع الجنائي الاسلامي بتصريف : ١٧-٢٥ هـ ١ .

لخرافة دينهم ، واما ملاحظتهم فلنقص عقولهم عن فهم الدين الذى هو فى طليعـة الحقائق العالية العقلية . . . لاشك ان لعقول هؤلاء " تقدما فى الماديات لا فى المعنويات ، والنافع الدنيوية الظاهرة ، والتي يستفيد منها شرار الناس اكثر ممن خيارهم ، فعقولهم من جنس عقل الشيطان يوم امره الله بالسجود ، فتكبر وقاس وزعم انه اعقل الملائكة " مع ان العقل السليم لا يتصور ان يجادل الله مخلوقه ، وقد خلقه هو وعقله وما عمل . . . هذا هو حال الغربيين ، وحالة تدينهم ، مع تدخلهم وتوغلهم فى حالة المسلمين ، ومرجع ذلك انما هو كفرهم وضلالهم . ومع هذا فان بعض المسلمين الجدد او المتسلسمين ، يريدون ويودون الاقتداء بالغرب ، ويزعمون ان هذا هو عاد النهضة وعلامة الثقافة وباب التقدم . . . !!^(١)

وليست ثمت ضرورة تدعو الى اللجوء والتعلق بالقوانين الوضعية ، لما تبين من ان نصوص الكتاب والسنة تحذرنا من التقدم عليهما لوفاء الكتاب والسنة بكل ما نحتاج اليه فى الحياة ، فان وجد من المؤمنين بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام ويتحكيمهما فى الضراء والسراء ، وفى كل جليلة وضحيرة ، ان وجد من يتعلق بغيرهما مع ايمانه هذا فانه طعن فى اصل ايمانه وهدم فى اصل تصديقه . . . !!

ان الشريعة الاسلامية فى اوامرها ونواهيها محيطة " بجميع افعال المكلفين امرا ونهيا واننا وعفوا ، كما ان الذكر القدرى محيط بجميعها علما وكتابة وقدر ، فعلمه

(١) انظر موقف العقل والعالم من رب العالمين للشيخ مصطفى صبرى ١٢-١٣ هـ ١٠

وكتابه وقدره قد احصى جميع افعال عباده الواقعة تحت التكليف وغيرها ، وامره ونهيه واباحته وعفوه قد احاط بجميع افعالهم التكليفية ، فلا يخرج فعل من افعالهم عن احد الحكمين : اما الكونى ، واما الشرعى الامرى ، فقد بين الله سبحانه على لسان رسوله بكلامه وكلام رسوله جميع ما امره به وجميع ما نهى عنه ، وجميع ما احله ، وجميع ما حرمه ، وجميع ما عفا عنه ، وهذا يكون دينه كاملا ^(١) ،

كما قال تعالى : **الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** . ^(٢) ،

وانذا تأمل ستأمل الشريعة من هذه العيشية يجدها لها جانبان شاملان : احدهما : العموم والاطراد ، فلذلك جرت الاحكام الشرعية فى افعال المكلفين على الاطلاق ، وان كانت آحادها الخاصة لا تتناهى ، فلا عمل يفرض ولا حركة ولا سكون يدعى الا والشريعة عليه حاكمة افرادا وتركيبا ، وهو كونها عامية ، وان فرض فى نصوصها او معقولها خصوص ما ، فهو راجع الى عموم . . . فلا خاص فى الظاهر الا وهو عام فى الحقيقة ، والاعتبار فى ابواب الفقه يبين ذلك .

الثانى : الثبوت من غير زوال لا تجد فيها بعد كمالها نسخا ولا تخصيصا لعمومها ، ولا تقيدا لاطلاقها ، ولا رفعا لحكم من احكامها ، لا بحسب عموم المكلفين ولا بحسب خصوص بعضهم ، ولا بحسب زمان دون زمان ، ولا حال دون حال ، بل

(١) اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية : ٣٣٢ ح ١ ،

(٢) الاية من سورة المائدة ومرت .

ما اثبت فهو سبب ابداء لا يرتفع ، وما كان شرطاً فهو ابداء شرط وما كان واجباً فهو واجب ابداء ، او مندوباً فمندوب ، وهكذا جميع الاحكام . فلا زوال لها ولا تبدل ، ولو فرض بقاء التكليف الى غير نهاية لكانت احكامها كذلك ^(١) .

ذلك هو حقيقة النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وما استند عليهما من اجماع وقياس ونحوهما من القواعد الاصولية والفقهية التي بين العلماء اندراجها في مجمل الكتاب والسنة . . ان هذه الحقيقة لا يحجبها عن الناس غير سوء الفهم وقصره ، ففهم ما دلت عليه النصوص وفهم وجه هذه الدلالة وموضعها على الوجه الاكمل يزيل كل غشاوة بين الناس وبين هذه الاحاطة في الكتاب والسنة ، ولكن التفاوت بين المفاهيم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، يبدو انه رجح كل شئ حتى ظن بعض الناس ، الاشئ يفي ويحيط بمطالبهم غير عقولهم القاصرة ، وقوانينهم الوضعية ، وحينئذ وقعت الواقعة ، وحدثت الكارثة ، وظهرت الفتن في الامة المؤمنة بسبب الفهم القاصر وقلة الادراك لمقاصد الشريعة ومحاسنها .

وقد ظن بعض الناس : ان النصوص متناهية ومطالب العباد غير متناهية ، فكيف يحيط المتناهي بغير المتناهية الاحداث ، وهذا فاسد من وجوه :

الاول : ان الافراد التي لا تتناهي ، اعتبرت في الشريعة افراداً ترجع الى نوع بحكم واحد فيدخل الافراد في هذا النوع . .

(١) الموافقات في اصول الشريعة للشاطبي : ٢٨-٢٩ ط ١ ط ٢ .

الثانى : الافعال بل والاعراض كلها متناهية .

الثالث : انه لو قدر عدم تناهيها فان افعال العباد الموجودة الى يوم القيامة متناهية .

* واذا كان ارباب المذاهب يضبطون مذاهبهم ويحصرونها بجوامع تحييط بما يحل ويحرم عندهم مع قصور بيانهم فالله ورسوله المبعوث بجوامع الكلم اقدر على ذلك ، فانه صلى الله عليه وسلم يأتي بالكلمة الجامعة ، وهي قاعدة عامة ، وقضية كلية تجمع انواعا وافرادا ، وتدل دلالتين دلالة طرد ودلالة عكس ،

وقد كانت نصوص الكتاب والسنة بالغة حد الكثرة فى الدلالة على ذلك ، كقوله تعالى :
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * (١)

فهذه الآية جامعة ، تضع الانسان فى المسؤولية ، ولا يخلو عمل الانسان اما ان

يكون خيرا او يكون شرا ، وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * (٢)

* فدخل فى الخمر كل مسكر ، جامدا كان او مائعا ، من العنب او من غيره ، ودخل فى الميسر كل اكل مال بالباطل وكل عمل محرم يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة * وجاء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الاحاطة فى قوله
* كل مسكر حرام * (٣)

(١) الايتان من سورة الزلزلة : ٧-٨

(٢) الآية من سورة المائدة : ٩٠

(٣) رواه البخارى ، الفتح : ٤١ هـ ١٠ وسلم ، النووى : ١٢٠ هـ ١٣ .

وقوله تعالى : **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأَسْمَاءَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** . (١)

فالآية تشمل كل فاحشة قولاً وفعلاً ظاهرة وباطنة ، وكل ظلم وعدوان على النفس والمال والعرض ، وكل شرك بالله في القول والعمل والاعتقاد والقصد . وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط أو خبر عنه باسم أو صفة نفيًا أو إثباتًا أو خبرًا عن فعله ، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه . (٢)

وخلاصة القول : ان الله سبحانه وتعالى ادب المؤمنين بهذا النهي " لا تقدموا بين يدي الله ورسوله " وهو نهى عام شامل لكل ما يشغل ويصرف عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . فلا يجوز لاي احد مهما كانت منزلته - آمن بالله الهيا مشرعاً ورسوله صلى الله عليه وسلم رسولا صادقاً أميناً - لا يجوز له ان يتصرف فيما يخصه او يخص غيره او يعنه مع غيره الا بعد ان يستفتى الله سبحانه وتعالى من كتابه العزيز ، ورسوله عليه الصلاة والسلام من سنته المطهرة .

ما حكمها في المراد ، وبيانها المفصل او المجمل ، المقيد او المطلق ، العام

(١) الآية من سورة الاعراف : ٣٣

(٢) اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية بتصرف : ٣٢٢ - ٣٣٥ - ١ .

او الخاص . . ؟ !

لانه لا حرية للمسلم في نفسه ولا في غيره ، مادام استسلم لله وقبله حكما ، وآمن به ورسله وكتبه ، وليقيم بذلك شاهدا للايان من نفسه ، وليباين ظن الجاهلية ، التي تعرص كل الحرص على التفريق بين جوانب حياة المسلم والمجتمع المسلم ، فتدعو هذا وتسميه دينا وللدن ، وتدعو ذاك دنيا وللقوانين الوضعية ، او تسمى بعضا منه بالاحوال الشخصية ، وما بقى للقانون والاهواء والعادات ، وهذا هو عين الشرك ، وهو اعم من ان يكون عمليا فقط ، بل هو على واعتقادي وسلوكي . . ! !

أليست التربية على غير منهج الله تعالى وهو القرآن الكريم ، وعلى غير طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم من التقديم على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام . . ؟ !

اليس الحكم بقوانين بشرية وضعية صنعها المسلمون او صنعت لهم اليس ذلك من التقديم بين يدي الله ورسوله عليه الصلاة والسلام . . ؟ !

اليست المعاملات الربوية التي تضخم حرامها في البنوك ، وفي اقتصاد بعض المسلمين افرادا وجماعات ودولا ، اليس ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ؟ ،

والله يقول : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تَبَيَّنَ فَلَکُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِکُمْ لَا تَظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (١)

(١) الايتان من سورة البقرة : ٢٧٨-٢٧٩ .

ان واقع المسلمين اليوم لا تخفى حالته على احد منهم وكل يصفه من انه واقع
" متدهور ، مضطرب ، مهدد ، شتت ، مستضعف ، خطير ، محاصر بالعدو ،
مدخول فيه ، مختلط بالفساد والمنكرات " كل ذلك يعود الى شيء واحد ، وهو
ان كثيرا من المسلمين لا يستحون ولا يخجلون : ان يتقدموا بين يدي الله ورسوله
عليه الصلاة والسلام فيحكمون الكفر في انفسهم ، ويقلدون الضلال فيتخذون منه ادبا
واخلاقا ، ويبتدعون ما لم يأذن به الله ورسوله ..

الفصل الرابع

• الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا وميتا •

تمهيد :

ذكرت في الفصل السابق الادب الذي يجب توفره من المجتمع المسلم افرادا وجماعات ، نحو الكتاب والسنة ، وهو الا يتقدم عليهما بقول ولا فعل ، وان يحكما في كل شؤون الحياة في السراء والضراء ، وفي كل صغيرة وكبيرة ، لان ذلك هو معني الايمان بالله ويكتبه ورسله ، وهذا هو الاساس الذي ينوع عليه المجتمع المؤمن ، ويفسر ايمانه ، وتثبت له شخصيته وأدبه الاسلامي .

وبالاجاز هو ادب وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما اجابت به ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها من سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

• كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ • (١)

وكما قال انس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم " كَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا " • (٢)

وهذان المصدران للتشريع الاسلامي " القرآن والسنة " لم يصلا اليها الا بواسطة المصطفى صلى الله عليه وسلم فلكي يتم الادب معها يجب توفر هذا الادب اولا لمن جاء بهما من الله سبحانه وتعالى ، ومجموع هذه الاداب هو الادب مع الله تعالى ولا ادل على هذا ، من ايجاب الايمان به صلى الله عليه وسلم مع الايمان بالله ، ومقارنتهما في الشهادة التي هي كلمة التوحيد ومفتاح الاسلام " والايمان به صلى الله عليه وسلم

(١) اخرجه مسلم - النووي على صحيح مسلم : ٢٦ - ٢٧ - ٦

(٢) رواه مسلم - النووي على صحيح مسلم : ٧١ - ١٥

هو تصديق نبوته ورسالة الله له وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بانرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك يتم الايمان به . (١)

والايمان به هذا يستلزم الادب مع شخصه حيا وميتا ، فاذا لم يتوفر هذا الادب معه فلن يفهم الناس عنه ، ولن يستفيدوا مما جاء به من الوحي ، فكلما كانت المحبة له والادب معه كان الايمان به اوفر ، والفهم منه اشمل وادق ، والذي لا يؤمنون به ايمانا صادقا ، ولا يتحلون بالادب معه ولا مع ما جاء به من الحقائق ، لا يفهمون منه ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم : **وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا** اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . (٢)

فالى هذه الايات التي علمنا الله فيها كيف نتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونهيبى له الاحترام من نفوسنا حيا وميتا ، وهذه الايات قاعدة اساسية في بناء المجتمع المسلم بناء سليما . . . !!

قال تعالى : يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون .

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض : ٣-٥ هـ ٢ طبعة الاسستقامة القاهرة .

(٢) الاية من سورة محمد : ١٦ .

ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم
للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم .

ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون .
ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم .

ما قيل في سبب نزول هذه الآيات *

اما الآية الاولى فقيل في سبب نزولها كما مر في قصة الشيخين رضى الله
عنهما وكما اخرج البخارى * كان الخيران ان يهلكا ابوبكر وعمر رضى الله عنهما رفعا
اصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قدم عليه ركب بنى تميم . الخ * وقيل
نزلت في وفد تميم انفسهم . وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس رضى الله عنه .^(١)
لانه كان جهير الصوت عند رسول الله . قال ابن عطية ^(٢) : الصحيح ان سبب نزول
هذه الآية كلام جفاة الأعراب . قال ابن حجر بعد ذكره قول ابن عطية هذا

(١) ثابت بن قيس بن الشماس الانصارى رضى الله عنه خطيب رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقد قتل شهيدا في معركة اليمامة ، ولما قتل جاءه رجل من المسلمين
واخذ درعه ، فبينما رجل من المسلمين نائم اتاه ثابت في منامه فاوصاه وقال
له : لا تقل هذه حلم ، اوصاه بان يقول لخالد رضى الله عنه : ان رجلا اخذ
درعى بعدما قتلت ووصفه ومكانه ، فخذ منه ثم ارسله لابي بكر الصديق وقل
له ان على من الدين كذا وكذا ، فبحثوا عن الرجل في ميدان المعركة ووجدوه
والدرع عنده وفعل خالد بن الوليد ما اوصاه به ثابت ، ثم نفذ الصديق
وصيته وهي وصية الميت التى نفذت واقرت .
انظر ترجمته في الاصابة : ١٩٥ هـ ١ .

(٢) الامام الحافظ المتقن : ابوبكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية
المحاربى الغرناطى الاندلسى وكان ادبيا شاعرا لغويا دينا فاضلا اكثر الناس
وقد كف بصره في آخر عمره ، ولد سنة ٤٤١ هـ وتوفى بغرناطه في جمادى
الآخرة سنة ٥١٨ هـ ،
انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي : ١٢٦٩ هـ ٤ .

" لا يعارض ذلك هذا الحديث فان الذى يتعلق بقصة الشيخين فى تخالفهما
 فى التأخير هو اول السورة " لا تقدموا " ولكن لما اتصل بها قوله " لا ترفعوا " .
 تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الاعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم
 والذى يختص بهم قوله : ان الذين ينادونك من وراء الحجرات " . وقال : لا مانع
 ان تنزل الآية لاسباب تتقدمها فلا يعدل الى لترجيح مع ظهور الجمع وصحة الطرق .
 ولعل البخارى ، استشعر ذلك فاورد قصة ثابت بن قيس عقب هذا ليبين ما اشترت
 اليه من الجمع ثم عقب ذلك كله بترجمة بقوله : قوله تعالى : ولو انهم صبروا حتى تخرج
 اليهم لكان خيرا لهم " اشارة الى قصة جفاة الأعراب من بنى تميم لكنه لم يذكر فى
 الترجمة حديثا وكأنه ذكر حديث ثابت بن قيس لانه هو الذى كان خطيبا لما وقع الكلام
 فى المفاخرة "

اما المناداة من وراء الحجرات فانها من وفد بنى تميم كما جاء فى الروايات
 واصحابها ما رواه الامام احمد بسنده عن الاقرع بن حابس رضى الله عنه انه نادى رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد يا محمد فلم يجبه وفى رواية يارسول
 الله : **إِنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ وَإِنْ نَدَى لَشَيْنٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :**
ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (١) ، قلت : **الْأَقْرَبُ أَنْ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ**
 وشملتهم مع من كان يرفع صوته عند النبي صلى الله عليه وسلم ويجهر له بالقول

(١) رواه الامام احمد فى المسند : ٤٨٨ ج ٣ ٣٩٣-٣٩٤ ج ٦ .
 ورواه الترمذى رقم : ٣٢٦٧ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن غريب

ويدخل في ذلك ما حصل من الشيخين ابوبكر وعمر رضى الله عنهما ، وما كان يحصل من ثابت بن قيس ولو كان ذلك من غير قصد منهم ومن غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم .

وترتيب القصة فيما يبدو لي كالتالى " نداء الوفد من حول الحجرات باصوات مرتفعة ، ثم خروج الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم فتم امره معهم بعد ذلك ثم فكر الرسول صلى الله عليه وسلم او استثار اصحابه فيمن يوءمه على الوفد منهم ، فاختلف الشيخان وارتفعت اصواتهما ، ثم نزلت الايات فتعلق الرواة بنهاية القصة وهو ما حصل من الشيخين ، وظنوه انه هو السبب لنزول الآية ، بينما اول القصة وهو نداء الاعراب هو السبب المباشر وان عت الآيات ما حصل بعد ذلك . واسلوب وترتيب الايات يبدو والله اعلم انه ساعدهم في ذلك . فنداء الله هو نداء بالايان وان الله امتحن قلوبهم للتقوى يناسب او الصق بمن كان في الاسلام سابقا اكثر من هؤلاء الذين لم يدخلوا في الاسلام الا قبيل نزول الآيات ولم يصلوا الى درجة - حتى الان - تطابق قوله تعالى " امتحن الله قلوبهم للتقوى " وهذه الاية ترتبط بما قبلها فكانها تخاطب من خطب بما قبلها فامتثل النهى سريعا ولهذا اختفى ثابت بن قيس مخافة ان عطسه حبط حتى ارسل له الرسول صلى الله عليه وسلم وبشره بانه من اهل الجنة وكذلك فهم ابوبكر رضى الله كما في رواية البخارى وعمر فلا يكلمان الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يستفهما منه " وكما قال ابوبكر رضى الله عنه : **أَلَيْتَ إِلَّا كَأَخِ السَّرَارِ** (١) فمدح الله فيهم بما هم به جديرون وهو ان الله امتحن قلوبهم للتقوى .

(١) قال الحافظ ابن حجر اخرجه ابن المنذر مرسلا والحاكم موصولا : الفتح :

ومن هنا كان صنيع البخارى فى غاية الدقة ، فان ذكره قصة الشيخين هنا وثابت بن قيس رضى الله عنهم سببا لنزول الايات لا يعنى ان السبب مقتصر على ما حصل منهم ، بل وقصة وفد بنى تميم من باب اولى ، وصنيع البخارى هذا يشير به الى ان مراده عموم الايات ، وان كانت حادثة جفاة الاعراب اقرب الى اساءة الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالعبرة بعموم اللفظ دائما لا بخصوص السبب ، ويبدو لى ان الحافظ ابن حجر رحمه الله لم يوفق فى تحرير هدف البخارى هنا ، وان قارب ودنا منه . (١)

هذا ولا خلاف فى ان الايتين الاخيرتين نزلتا فى وفد بنى تميم ، وهي تميم من شابه الوفد فى صنيعه بنداء من وراء الحجرات ، كما فى بعض الروايات ان ناسا من العرب قالوا ننطلق الى هذا الرجل فان يكن نبيا نكن اسعد الناس به ، وان يكن ملكا نعش فى جناحه ، فكانت السناداة . (٢)

والايات فى السورة هذه وان كانت كل آية تستقل بموضوع كبير ، فانها فى نفس الوقت تمثل وحدة كاملة فى مجموعها وحدة الاسلام الموضوعية .
فاننا تأملنا الآية الاولى فى السورة وترباطها بما بعدها من الايات نجد ذلك واضحا ، ففي الآية الاولى تعليم للمجتمع السلم ان تكون الامور الصادرة من الله تعالى ومن رسوله عليه الصلاة والسلام " مقدمة على كل شىء بلا قيد ولا شرط لانها أحسب

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى : (٥٩١-٥٩٢) ج ٨ ،

(٢) : اخرجه الطبرى : ١٢١ ج ٢٦ .

الى المؤمنين من كل شيء فهذا هو مقتضى الايمان بهما ومحبتهما ثم اردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الاول بساط للثاني ووطاء لذكره ، ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا اصواتهم للدلالة على عظيم موقعه عند الله ، ثم جرى على عقب ذلك بما هو اطم وهجنته اتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر * (١)

والايات في وحدتها الموضوعية تولى ادبا كاملا في اصوله يلزم كل مؤمن ان يوفيه لرسول الله عليه الصلاة والسلام حيا وميتا ، وقد رتب هذا في الايات ترتيبا بديعا آية آية وتفصيل ذلك كالتالى :

١- ادب الكلام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال تعالى :

يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا

له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون *

...

هذا هو الادب الثانى فيما ندب الله اليه المؤمنين فى السورة الكريمة ،

باسلوب ملزم مالمهم عن نهيه مصرف ، ولم يات فى القرآن والسنة ما يصرفه عن وجوب الانتباه حيث نهاهم ولا ما يجيز لهم من بعيد او قريب ان يرفعوا اصواتهم

(١) الكشاف للزمخشري : ٥٥٩ - ٣ .

فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قريب من الله ، وصوته صوت حق قال تعالى : **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** . (١) فأى داع ليرفع الناس اصواتهم عليه ويسابقوه فى القول والفعل ، وينازعوه فى الامر والنهى ، وهو الامين المأمون الحريص على هداية الناس وارشادهم ، وقد امره الله ان يلين جانبه للمؤمنين ، ويخفف لهم جناح الذل من الرحمة كقوله تعالى : **وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** . (٢) وقوله تعالى : **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** . (٣)

وقال تعالى : **وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُوا عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** . . . (٤)

وقد صادف هذا التوجيه الربانى وطابق ما خلق عليه وفطر ، صلى الله عليه وسلم من أدب جم وخلق كريمة ، ورأفة ورحمة بالمؤمنين ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام كالجبابرة الذين يستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، وخلقهم الله عبيدا له لا لغيره ، ولما كانت هذه السجية حقيقة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم امر الله باكرامه واحترامه ، واوجب اتباعه ، وكان الجدير بالمؤمنين ان يقابلوا هذا الاحسان بالاحسان . (٥)

(١) الآيتان من سورة النجم : ٤/٣

(٢) الاية من سورة الحجر : ٨٨

(٣) الاية من سورة الشعراء : ٢١٥

(٤) الاية من سورة الكهف : ٢٨

(٥) انظر التفسير الكبير للرازى : ١١٤ هـ ٢٨ والشفاء للقاضى عياض : ١٢٢ هـ ١

فهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
 مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١) وقوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢)

وكان النهى فى اول السورة " لا تقدموا " نهيا عاما كما قلت يشمل كل فعل
 يناقض الكتاب والسنة ، واما النهى هنا " لا ترفعوا اصواتكم " فهو تأكيد لذلك لانه
 نهى عن القول الذى يرفعون به اصواتهم اعتدادا بنفوسهم واراغهم ، وكل ذلك
 لا يجوز عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتنافى مع الادب اللازم عنده عليه
 الصلاة والسلام .

وهل النهى عن مجرد رفع الصوت فقط ام ان وراء رفع الصوت شىء ينبىء عنه
 لا يليق .. !!؟

١- يجوز ان يكون المراد بالنهى " رفع الصوت فى حد ذاته " لانه دليل على قلّة
 الاحتشام والاحترام والوقار ، ومن كان قلبه خاشعا ضعفت حركة صوته وخاصة عند
 رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢- ويجوز ان يكون النهى لمنع كثرة الكلام لان المكثر من الكلام يعلو صوته على صوت
 الآخرين عند سكوتهم ، ولا داع لهذا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه

(١) الاية من سورة التوبة : ١٢٨

(٢) الاية من سورة الشعراء : ٣ .

عليه الصلاة والسلام عليه بيان كل شيء ولا يكتم شيئا ما أمره الله بتبليغه للناس وحاشاه ، وهو يجيب على كل سؤال واستفسار ، وما سكت عنه اولم يوح اليه بذكره للناس ، لا خير لهم في الخوض والبحث فيه .

٣- ويجوز ان يكون المراد بالنهاي ظاهره وهو الا يرفع احد صوته على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيما لشأنه في الخطاب وانصاتا له كما امر الله تعالى لانه ادل على اتباعه .

وكل ذلك يشمل النهي ، لان من يحترم ويحترم عنده وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يدرج في هذا الادب العظيم كاهل العلم والفضل في الدين والوالدين ومن في حكمهما - يقل عندهم الكلام ولا ترتفع الاصوات في حضرتهم .^(١)

ولا يعنى بالنهي ، رفع الصوت والجهر ، الذي هو استخفاف ويقصد به الاهانة فقط - وذلك كفر وردة - لان المؤمنين لا يقصدون الاستخفاف واذ انهي عما دون ذلك فما فوقه من باب اولي ، وكذلك لم يتناول النهي رفع الصوت الذي تدعو الحاجة اليه كرفع الصوت في الحرب ، او مجادلة خصم وارهاب عدو ورد عليه ، وكل حصل في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يستنكر الوحي ذلك من حصل منهم بأمره او تقريره ...^(٢)

(١) التفسير الكبير للرازي بتصرف : ١١٢-١١٣ ح ٢٨
 (٢) انظر تفسير القرطبي : ٣٠٧ السألة الخامسة ح ١٦ .

وخلص القول في الآية كما يقول جار الله الزمخشري : انه اذا نطق ونطقتم فعليكم ان لا تبلغوا باصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته وان تغضوا عنها بحيث يكون كلامه عاليا للكلامك وجهره باهر لجهركم ، حتى تكون مزيتة عليكم لائحة وسابقته واضحة وامتيازه عن جمهوركم كشية الابلق غير خاف ، لا ان تغمسوا صوته بلفظكم وتبهروا بصخبكم ، ويقوله : ولا تجهروا له بالقول " انكم اذا كلمتموه وهو صامت فاياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت ، بل عليكم ان لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، وان تتعمدوا في مخاطبته القول البين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاطين بقوله عزاسمه : وتعزروه وتوقروه " (١)

هذا وما ابلغ اسلوب الوصل هنا وهو عطف الجملة " ولا تجهروا " (٢) له بالقول كجهر بعضكم لبعض " على ما قبلها لكلا يظن ان رفع الصوت النهي عنه هو ما كان مستقبحا عند الناس عامة فقط ، فمن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتأدب معه كما يكلم ويتأدب مع غيره من الناس فلا شيء عليه ، وهذه المساواة جاءت الجملة المعطوفة وهي جملة النهي " ولا تجهروا " على جملة النهي الاولى " لا ترفعوا اصواتكم " جاءت لتردها وتخصص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادبا خاصا وتوقيرا فريدا لا يرقى اليه احد من الناس ولا ينبغي ان تعطى هذه المنزلة

(١) الكشاف للزمخشري : ٥٥٤ ح ٣ والاية من سورة الفتح : ٩ .

(٢) جهر : يقال لظهور الشيء بافراط حاسة البصر او حاسة السمع جهرا وقصد ورد في القرآن الكريم . فاما البصر فكما تقول رأيته جهارا كما في قوله تعالى : في سورة البقرة : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، ٥٥) وقوله في سورة النساء : فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقاتلوا اربا الله جهرة " (١٥٣) واما السمع فكقوله تعالى في سورة طه " وان تجهروا بالقول فانه يعلم السر واخفى " (٧) وقوله في سورة الانبياء " انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون " (١١٠) =

لغيره ، فهو يجالس ويكلم ويتأدب معه فوق ما يكون لفضلاء الناس الذين يجسب
الا ترتفع الاصوات فوق اصواتهم ، وذلك ما ترشد اليه الآداب والاخلاق العامة
في كل المجتمعات .

واما رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيادة على ذلك تحقق الايمان والعمل الصالح
الباقي ، وكلاهما لا يثبت الا لمن آمن بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام وتأدب معهما
ومع كلامهما ، بأدب الاحترام والاحتشام والاتباع والطاعة ، فانه بعد هذا النهى من
يرفع صوته ، ويسوى بين النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الناس في الادب والمجاهرة
والمجاهدة والاخفاء يحبط عمله وهو لا يشعر ان ذلك يحبط العمل كالمؤمنين الذين
لا يقصدون اسامة الادب اليه صلى الله عليه وسلم . (١)

واما من يشعر بان ذلك يحبط العمل ، ويستهدف الاسامة فهو من باب اولى ،
وكأنه لا ايمان له ، ولا عمل يتقى به الوقوع في المحذور كالمنافقين الذين كانوا يرفعون
اصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يباليون بعظمة الوحي وجلال النبوة
ومهابة الرسول عليه الصلاة والسلام ،
وكانوا يفعلون ذلك عنده ليقترى بهم ضعفة المسلمين . (٢)

وقوله : ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون " (٣) موضع محك ونقاش لدى

= وقوله في سورة الاسراء " ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا " (١١٠)

ويقال كلام جوهرى وجهير لرفع الصوت ومنه جهر البئر واجتهرها اذا اظهر
ماها .

انظر : المفردات في غرائب القرآن للاصفهاني : ١٠١ ط الحلبية سنة ١٣٨١ هـ .

(١) انظر الكشاف : ٥٥٥ هـ ٣ وتفسير ابن كثير : ٢٠٦ - ٢٠٧ هـ ٤ .

(٢) انظر تفسير القرطبي : ٣٠٦ هـ ١٦ والكشاف : ٥٥٥ هـ ٣ .

(٣) حبط : الحبط وجع ياخذ البعير في بطنه من كثرة الاكل ، واذا اكرت الدابة من =

المفسرين فيوجه بعضهم هذه الجملة من الآية بان المؤمن لا يكفر من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره ، فكما ان الكافر لا يكون مؤمنا وهو لا يعلم فكذلك المؤمن لا يكفر ولا يحبط عمله وهو لا يعلم . (١)

وهذا قياس غير صحيح ، لان الكافر يدخل في الاسلام ويعد مؤمنا باختيار الايمان والمرتد عن الاسلام تكون ردة باختياره وبغير اختياره احيانا كمن استباح ما حرمه الله بدون تأويل ولا شبهة قائمة وانكر حرمة ، او انكر ما فرضه الله عليه بمجرد الهوى ولا شبهة ولا يقصد الجحود . . .

وغالب المفسرين يفسرون هذه الجملة من الآية على ظاهرها دون جدل وتأويل فالمؤمن قد يحبط عمله سواء كان يشعر اولا يشعر ، اذا ارتكب من سيء الاعمال ما يحبطه ، وان لم يقصد المسلم احباط عمله ، ولا يعلم ان هذا يبطل العمل . (٢)

= الاكل انتفخت بطنها وذلك هو الداء الحباط كما في الحديث الصحيح : وان ما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم . . . رواه البخارى : ٢٤٤ هـ (١) فتح البارى على صحيح البخارى ، والحبطات ابناء الحارث بن مازن التميمى اصابه هذا المرض الحبط الذى يصيب الماشية فنسب اولاده الى ذلك ، انظر لسان العرب فى مادة حبط : ٢٦٩ هـ ٧ دار صادر بيروت ، والبراد ان العمل الصالح يتضرر بالعمل السيء كالداء يصيب السليم الصحيح ينقصه او يبطله .

- (١) انظر تفسير القرطبي المسألة السادسة : ٣٠٨ هـ ١٦ .
 (٢) انظر تفسير الطبرى : ١١٩ هـ ٢٦ وتفسير ابن كثير : ٢٠٧ هـ ٤ والتعليق على الكشاف : ٥٥٦ هـ ٣ .

ومن الأدلة التي تؤيد هذا التوجيه في الآية ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : **إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ** . (١)

وقد افاض شراح الحديث في بيان هذا مستتيرين بنصوص اخرى من الكتاب والسنة كقوله تعالى : **وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ** . (٢)

وذكروا ان الكلمة التي تقال عند سلطان جائر لضرر المسلم يحبط بها العمل، كما ان الكلمة التي تقال عند السلطان لرفع شأن الحق واهله تدخل الجنة . (٣)

(١) رواه البخارى - فتح البارى على صحيح البخارى ٣٠٨ ج ١١ وسلم النووى على صحيح مسلم : ١١٢ ج ٨
 (٢) الآية من سورة النور : ١٥
 (٣) انظر فتح البارى على البخارى : ٣١٠ - ٣١١ - ١١ .

حرمته صلى الله عليه وسلم بعد موته :

ولقد نص السلف الصالح من الائمة والعلماء المحققين ان حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعظيمه والحياء منه كل ذلك لازم في حياته وبعد وفاته ، فكما لا يجوز ان ترتفع الاصوات فوق صوته في حياته ، لا يجوز كذلك ان ترتفع الاصوات عند قبره الشريف صلى الله عليه وسلم ، وعند قراءة سنته المطهرة وسيرته ، لان السنة وحى ، فكل ما كان في حقه واجبا في حياته على الناس من هذا الادب والتوقير يلزم به بعد وفاته ... (١)

يقول الشيخ محمد الامين الشنقطي عند تفسير هذه الاية : ومعلوم ان حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمته في ايام حياته وبه تعلم ان ما جرت به العادة من اجتماع الناس قرب قبره صلى الله عليه وسلم وهم في صخب ولفظ واصواتهم مرتفعة ارتفاعا مزعجا كله لا يجوز ولا يليق واقرارهم عليه من المنكر (٢)

وقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه صوتا في المسجد النبوى ، وهم يعلمون ان رفع الصوت عليه حيا وميتا لا يجوز - فيما روى عن السائب بن يزيد (٣) قال : كنت

(١) انظر الشفا للقاضي عياض : ٤٠ ح ٢ واحكام القرآن لابن العربي : ١٧٠٢ - ١٧٠٣ السألة الثانية ح ٤ ،

وتفسير ابن كثير : ٢٠٧ ح ٤ وروح المعاني للالوسى : ١٣٧ ح ٢٦ ، والاكليل في استنباط التنزيل للسيوطى : ١٩٦ .

(٢) اضواء البيان لمحمد الامين الشنقطي : ٦١٧ ح ٧ .

(٣) السائب بن يزيد بن سعيد بن ثامة الكندى وهو وابوه صحابيان حج به ابوه حجة الوداع وعمره سبع سنين توفى بالمدينة سنة ٨٦ هـ وقيل سنة ٩١ هـ وهو آخر من مات فيها من الصحابة وقيل سهل بن سعد ، انظر الخلاصة للخزرجى : ١٣٢ .

فأثما في المسجد فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فأتني
بهذين ، فجثته بهما . قال : مَنْ أَنْتَا - أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتَا - ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ
الطَّائِفِ . قَالَ : لَوْ كُنْتَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتَكُمَا ، تَرَفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (١)

وقد بلغ اهتمام العلماء بهذا الادب القرآني ان استخرجوا منه وقاسوا عليه
انه لا بد من احترام العلماء ، وانه لا ترفع الاصوات عليهم ، وقد ذكر عن ابن عباس
رضي الله عنه انه يأتي الى ابواب الصحابة رضي الله عنهم ، يسأل عن السنة ويرويها ،
ويطلب العلم عليهم ، فيجلس عند باب من يقصد حتى يخرج اليه ، ولا يطرقه لئلا
يزعجه ويرفع صوته عليه ، وذلك لان العلماء وريثة الانبياء ... (٢)

ولا شك ان رفع الصوت عنده عليه الصلاة والسلام حيا وميتا ، تترتب عليه شرور
وأثام منها استمرار رفع الصوت نفسه ، فمن كان مستترا عليه فقد ابتلى ولا اضر من
بقا^٣ ممارسة المسلم البدعة ...

ومن يرتكب ذنبا لم يسبق له ان ابتلى به يرى نادما خائفا خجلا ، ولكنه اذا عاد اليه
مرة ثانية وثالثة يقل ذلك كله عنده فيهبون عليه ، وتلك مصيبة ، واعظمها
ان يظن المسلم انه لا يرتد ولا يحبط عمله اذا ارتكب ما يسبب ذلك اول الامر ... (٣)

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة باب رفع الصوت في المسجد .

(٢) انظر الاداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي : ٢٥-٢٨ هـ ٢ طبعة سنة ١٣٩١ هـ
والبحر المحيط لابن حيان : ١٠٦ هـ ٨ وروح المعاني للالوسي : ١٣٧ هـ ٢٦
وتفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي : ٦٦ هـ ٩ .

(٣) انظر التفسير الكبير للرازي : ١١٤ هـ ٢٨ .

وقد ابتلي بعض المسلمين بعد القرون المفضلة بهذه البدعة التي نهى عنها الله سبحانه وتعالى في كتابه واخبر بانها تحبط العمل ، واختلط الامر على كثير منهم ، وسول لهم الشيطان ، وزين لهم رفع اصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مضجعه مع ما تلهج به هذه الاصوات وتلهث به من كلمات شركيه ، وعبارات سخيفة ، مما يبغضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوجب مخالفته .

بل تجاوز الامر وزاد عن ذلك وقد تعطلت المساجد التي امر الله بعمارتهما ،

وعمرت المقابر والمشاهد . . . ! !

ودعوا الناس الموتى واستغاثوا بهم وطلبوا منهم قضاء الحوائج ودفع المضار كما تستغيث النصارى بالمسيح وأمه ، وقد وصل الغلو بكثير من المسلمين الى ان جموعا غفيرة تأتي الى الحج والى المشاعر الطاهرة ، ولا تبحث الا عن المشاهد والقبور ، ويكون هم هؤلاء هو قصد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الاصوات فوق مضجعه لا زيارة المسجد النبوي والصلاة فيه ، وكل ذلك لم يفعله الصحابة رضوان الله عليهم ولا مروا به بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكل حديث يروى في زيارة القبر فهو ضعيف بل موضوع ، بل قد كره الامام مالك وغيره من الائمة ان يقول القائل : زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وانما المسنون السلام عليه اذا اتى قبره صلى الله عليه وسلم ، وكما كان الصحابة والتابعون يفعلون اذا اتوا قبره " (١)

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية : ٥١٩ - ٥٢١ هـ ٤ .

٢- غض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والحياء منه *
قال تعالى : ان الذين يفضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن
الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم * (١)

ان كلمة التقوى فى هذه الآيه هدف يتسابق اليه المؤمنون ،
ويرمى اليه هؤلاء الغاضون اصواتهم ، فاذا هيا الله هذه القلوب واخلصها فلم تكن
لغير التقوى ، ولم تتأدب بغير ادب الله تعالى كان ذلك هو الكمال الذى يرمى
الله به المجتمع المسلم بسورة الحجرات ، ويرفع من قدره ومكانته به . . . والمجتمع
المسلم افرادا وجماعات ودولا وشعوبا ، منزلته تكون على قدر احترامه وتقديمه للنسبى
صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والاخرة ، فالامتحان للتقوى باستجابته اوامره واجتناب
نواهيه هو الادب القرانى الذى رفع من شأن الصحابة الى قمة التقوى . (٢)

وقد امثل الصحابة رضى الله عنهم ما امرهم الله ، وادبهم به ، بكل ما فيه
من سمو واتباع لكتاب الله تعالى ، فكانوا وقافين عند حدود الله تعالى ، متخلفين
بادب القرآن وادب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكذلك كان التابعون من بعدهم
ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

(١) يفضون : الغض : الكف والخفض ، وغض طرفه اى : كسره ليكون ابعد من

الاشر والرح وذلك يكون من الحياء . قال كعب بن زهير رضى الله عنه فى بردته :
وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا * إِلَّا أَغْنَى الطَّرْفُ ، مَكْحُولٌ ،
وقال جرير : فَغَضَّ الطَّرْفُ ، إِنَّكَ مِنْ نَعِيرٍ * فَلَا كَعْبًا بَلَفْتَ وَلَا كِلَابًا .

- انظر لسان العرب * مادة غض : ١٩٧ - ٧ .

. بيت كعب فى الديوان :

. بيت جرير فى ديوانه :

(٢) انظر التفسير الكبير للرازى : ١١٥ - ١١٦ - ٢٨ .

فهذا ابو بكر الصديق رضى الله عنه بعد نزول الايات يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : آليت أن لا اكلمك الا كأخى السرار " ، بل إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لم يتوقف عند هذا الحد في استجابته لأمر الله تعالى في توكير رسول الله صلى الله عليه وسلم بل انه دعا الى ذلك واحبه لآخوته المسلمين فما ان يسمع باحد يقدم المدينة قاصدا الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته الا ويستقبله ليعلمه كيف يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأله حاجته ويسمع منه . . . ! (١)

واما عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى ارتفع صوته مع الصديق في شأن من يؤمر من وفد بنى تميم ، فكان بعد ذلك اذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم " فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآيات حتى يستفهمه " . (٢)

وقد سلك طريق الصديق في تعليم المسلمين هذا الادب حتى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لعلمه بان ذلك لا يخص حياته ، وقد مر موقفه من الرجلين الثقيين عندما ارتفعت اصواتهما في المسجد . . . (٣)

(١) أنظر روح المعاني للألوكي : ١٢٥ هـ

(٢) رواه البخارى في تفسير الحجرات ح ٨ والترمذى رقم ٣٢٦٦ ح ٥ وقال : هذا حديث حسن غريب . وهذا جزء من حديث ابي مليكة " كان الخيران . . . " وقد سبق في هذا الفصل الثالث ص ٢٩١

(٣) راجع ص ٣٠٤ من هذا الفصل .

واما ثابت بن قيس خطيب رسول الله صلى الله عليه الذي كان رفيع الصوت وشديد الايقاع عندما يلقي خطبته ، فقد كان في تأدبه بهذا الادب وتلبيته لامر الله ، كما روى البخارى عن انس بن مالك رضى الله عنه : ان النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل يارسول الله انا اعلم لك علمه فأتاه فوجده جالسا في بيته سنكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال شر . كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو من اهل النار ، فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم واخبره انه قال كذا وكذا ، فقال موسى ^(١) فرجع اليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال اذهب اليه فقل له : انك لست من اهل النار ، ولكنك من اهل الجنة ^(٢) ،

وقد اخرج ابن جرير رواية مطولة تتضمن ما انفرد به البخارى في لفظه ، وجاء فيها انه دخل بيت الفرس ، وقال لامرته جميلة ^(٣) بنت عبدالله بن ابي بن سلول : شدى على الضبة بمسار ^(٤) ، فضربته بمسار حتى اذا خرج عطفه وقال : لا اخرج حتى يتوفانى الله ، او يرضى عنى رسول الله * فلما جاءه رسول الرسول عليه الصلاة والسلام ليأتى اليه ، امره ان يكسر الضبة ، فقال له : ما يبكيك يا ثابت ؟ فقال : انا صبت واتخوف ان تكون هذه الآية نزلت في ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) موسى بن انس راوى الحديث عن ابيه رضى الله عنهما ، انظر الخلاصة : ٣٨٩ ،
(٢) رواه البخارى في تفسير الحجرات وسلاح في كتاب التفسير

(٣) جميلة هذه تزوجها كثير من قومها الخنزج من الصحابة وانجبت لهم اولادا ومنهم ثابت بن قيس تزوجها وهى زوج غسيل الملائكة وقد حطت منه بعبدالله ابن حنظلة الذى قتل يوم الحرة .

انظر الطبقات لابن سعد : ٥٣٤ و ٥٤٩ ح ٣ و ٦٥-٦٦ و ٨١ ح ٥ .
(٤) الضبة حد يده عريضة يضرب بها الباط والخشب والجمع ضباب ويقال لها الضبة والكتيفه لانها عريضة كهيئة خلقة الضب وسميت كتفه لانها عرضت على هيئة الكف . لسان العرب مادة "ضبب" والنهاية في غريب الحديث لابن الاثير : ٢٧٢

أما ترضى ان تعيش حميدا وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ فقال : رضيت ببشرى
الله ورسوله لا أرفع صوتى ابدا على رسول الله ، فانزل الله : ان الذين يفضون
اصواتهم عند رسول الله .. الاية * (١) .

(١) تفسير الطبرى : ١١٨ - ٢٦٠ .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في هذه الآية :

فانه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقا ، فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهون عن رفع الصوت عنده صلى الله عليه وسلم ، واما غض الصوت مطلقا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو غض خاص ممدوح ويمكن العبد ان يفيض صوته مطلقا في كل حال ، ولم يؤمر العبد به ، بل يؤمر برفع الصوت في مواضع : اما أمر ايجاب او استحباب ، فلهذا قال : **وَغَضُّ مِنْ صَوْتِكَ** ^(١) ، فان الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل الى القلب ويخرج منه ، فبالسمع يدخل القلب ، وبالصوت يخرج منه ، كما جمع العضوين في قوله : **(الْمَنْ نَجَعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)** ^(٢) فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور ، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور ، هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه ، وهذا ترجمانه ^(٣)

ان هذا الادب والحياء من الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، هما الشعاع العام والخاص لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وللتابعين وائمة الهدى ومن تبعهم واهتدى بهداهم ، فما كانوا -رضى الله عنهم- يطبقون ان يملا احدهم عينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لحياتهم وخفض اصواتهم وابصارهم عنده بكل يذكر عن كثير منهم انه لا يستطيع ان يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل انسى ^(٤) لاحظ ان الذين وصفوه ، انما وصفوه لمن سألهم بعد وفاته وكان صلى الله عليه وسلم اذا خرج اليهم في مجلس لا يرفعون ابصارهم اليه اجلالا وتعظيما له ، واما التابعون ومن بعدهم من ائمة الهدى فقد نقل عن كثير منهم انه اذا سمع ذكر رسول

(١) الاية من سورة لقمان : ١٩

(٢) الاية من سورة البلد : ٩/٨

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٣٨٣ ج ١٥

(٤) وتفسير سورة النور له : ١١٠ ط ١ سنة ١٣٩٧ هـ مكتبة المنار الاسلاميه - الكويت .
كما وصفته أم معبد الخزاعي لما مر على خيمتها في طريقه مهاجرا الى المدينة . وما تمكنت من ذلك الا لنفاذ نظرة المرأة الى الرجل ولهذا اعتبره العلماء من أدق الوصف له صلى الله عليه وسلم . القصة في طبقات ابن سعد : ٢٣١ ج ١

الله صلى الله عليه وسلم يسكت ، ومنهم من يبكي ، وكذلك كانوا في سماع حديثه . (١)

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يهابون مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالسؤال من شدة حيائهم وخفض حركاتهم عنده ، ويودون أن ياتيه رجل من البادية فيسأله ليفيدهم ، ولذا كان جبريل ياتى في صورة اعرابي ، ليعلمهم كيف يسألون عن دينهم ويتعلمون منه . (٢)

وهذا ما ادركه المشركون انفسهم في اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما اضعف رجاءهم في انهم يستطيعون ان يفرقوهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال عروة بن مسعود الثقفي^(٣) لقريش في عام القضية بعد رجوعه من الحديبية من مقابلة المسلمين هناك ، وكان سفير القریش الى الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاث يدخل عليهم مكة ، فحكى لقريش انه رأى الملوك في مالكمهم وما رأى احداً مثل محمد صلى الله عليه وسلم في اصحابه ، فانه راهم مطرقين ، خافضين منه ، جلالات للنبيوه ، وخضوعاً للوحى ، واذا امر تسابقوا في امره ، وهم على استعداد للموت فداءً له ودفاعاً عن رسالته وتبليغاً لدعوته ، وتأمل ما يصعرون به ، فهو لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقاً الا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شئ الا اخذوه . وقرر بعد ما رأى من انضباطهم واتباعهم واحترامهم لمقام النبوة ، قرر لقريش انهم

(١) انظر الشفا للقاضي عياض : ٣٧-٤٠ ، ٤٢-٤٧ هـ ٢

(٢) انظر شرح السنه للبخارى : ١٥ ج ١

(٣) عروه بن مسعود وكان سيداً من سادات ثقيف ، وقد كان ممن حارب الله ورسوله ، حتى هداه الله الى الاسلام ، وقد استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم ليذهب الى قومه بالطائف لدعوتهم الى الاسلام فاذن له بعد ان اخافه القتل ، فذهب وما كان منه الا ان اظهر الاسلام ورفع الاذان ودعاهم الى الله ، فرماه احدهم فقتل رضى الله عنه وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : مثله كمثل صاحب ياسمين دعا قومه الى الله فقتلوه .

انظر : الطبقات لابن سعد : ٣١٢ هـ وسيره ابن هشام : ١٩٤-١٩٥ هـ .

(٤) السنه السابعة من الهجرة

" لا يسلمونه لشيء أبدا فإروا رأيكم " (١)

تلك هي الصورة الادبية الرفيعة التي هذب الله بها المؤمنين وادبهم فأحسن تأديبهم ، هذه الصورة الاجتماعية هيأ الله بها نفوسا أبية مؤمنة ، تعلقوا بأرواحها بأدب القرآن ، وسمت اخلاقها مع رسول الله المختار صلى الله عليه وسلم . إنها نفوس تتشوق وتتساءل مالها بعد تخلقها وتادبها بادب القرآن وتوقير الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيأتيهم ببشرى سريعة كسرعة توبتهم ، ويحكي لهم هذه الصورة الفريدة ، عندما احترموا واستحووا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخفضوا الاصوات والابصار عنده ، صورة القلوب التي هي للتقوى لا لغيرها ، فلتكن المغفرة لهم ، وليكن الاجر العظيم والثواب الجزيل لهم كذلك . . . !!

ما اجعل وابلغ الفصل هنا كالوصل هناك (٢) فان الجملة " ان الذي يفضون يغضون " استئناف في غاية الدقة والاعجاز فهي جواب لتسأل نشأ من الآية التي قبل هذه فالذين لا تحبب اعمالهم ، هم الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو " المهدبون بالامتحان ، والمفتوحة قلوبهم للتقوى لهم المغفرة والثواب العظيم . .

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٣٦٢-٣٦٣ ح ٣ والشفا للقاضي عياض : ٣٩ ح ٢ .

(٢) راجع ص ٢٩٩ عند قوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول) .

٢- كيف قابل الرسول عليه الصلاة والسلام جفاة الناديين من وراء الحجرات؟

...

قال تعالى : ان الذين ينادونك من وراء الحجرات (١) اكثرهم لا يعقلون *
ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور
رحيم *

...

فاذا كانت الاية الاولى " يا ايها الذين آمنوا " يوجه الله فيها الناديين
ويؤدبهم ، والثانية ان الذين يغضون " يمدح الله فيها ويشتم على الغاضبين
المستجيبين للنهي ، فان هاتين الايتين يذم الله فيهما جفاة الجفاة ، وسوء

(١) الحجرات : فيها ثلاث لغات : ضم الجيم مع الحاء او تسكينها او فتحها ،
وقرى بهن وهي جمع حجرة ، وهكذا " كل جمع كان من ثلاثة الى عشرة على
فعل يجمعونه على فعلات بفتح ثانية والرفع افصح واجود " (تفسير الطبري :
١٢١-١٢٢ هـ ٢٦ والكشاف للزمخشري : ٥٨ هـ ٣) ،
كقول الشاعر من تميم الحبيطات :

اما كان عباد كفيثا لدارم * بلى ولأبيات بها الحجرات
ويريد بآخر البيت بنى هاشم ،

بنوا دارم اكفاؤهم آل مسمع * وتنكح في اكفائها الحبيطات.

انظر (الكامل في اللغة والادب للسمرقندي : ٣٩-٤٠ هـ ١ ط سنة ١٣٨٦ هـ
بيروت .

والحجرة من البيوت : معروفة لمنعها المال ، والحجار حائطها ، والجمع
حجرات وحجرات ، والحجرة : حظيرة الابل ومنه حجرة الدار ،
انظر (لسان العرب في مادة حجر : ١٦٨ هـ ٤) .

ادبهم وقبح استذنانهم ، فقد خالفوا اخلاقا تعرفها العرب . (١)

هذا وما اروع الفصل بعد هذا ثانياه فكأنهم يتسائلون ويستفسرون حرصا على ما حصل لقلوبهم ونفوسهم من انها للتقوى وان المغفرة والاجر العظيم ثوابها فكأنهم يقولون هل هناك ما يسلب منا هذه النعمة ويقلب القلوب من التقوى الى غيرها - لا سمح الله - ف قيل ان ذلك لا يكون الا من لا يعقل كهؤلاء الذين ينادون ارسل الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات . . وقد وصل بين الآيتين " ان الذين ينادونك " و " ولو انهم صبروا " لمشاركة بين الامرين في القبح واساءة الادب ، المناذاة المتكررة من وراء الحجرات وفقدان الصبر حتى يخرج اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اساءوا والادب مع الرسول عليه الصلاة والسلام بالمناذاة ومع انفسهم ان لم يتخلقوا بفضيلة الصبر ، والفصل هنا بين الاساتين رفع الصوت والجهر بالقول وبين الاسلوبين اسلوب الفصل الذي عرفنا مافيه من الدقة والبيان .

وختم الآية بقوله : والله غفور رحيم ليفتح لهم باب مقابلة السيئة بالحسنة تأليفا لهم من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ان خرج اليهم واكرم رقدهم وعزز وفادتهم ، ولبى مطالبهم فتحقق من ذلك خير كثير وفوز عظيم ، فدخلوا في باب الرحمة الذي فتحه الرحمن الرحيم وختم به زلتهم وبدد جفاهم ، فكانوا بعد ذلك مؤمنين مجاهدين .

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض : (١ - ٢٠٠ .

من كل جهة من جهاتها^(١) حجرة حجرة ، في وقت يخلو فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نفسه او مع احدى نساءه في حجرتها ، فرفعوا اصواتهم باسمه " محمد " وجهروا له بالقول ، يفاخرونه بانسابهم واحسابهم وما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وقد صنعوا ذلك دون ان يستأذنوا مع ان الاذن ادب معمول به لدى العرب في جاهليتهم ، ويتخلقون به ، وخاصة وفودهم على الملوك ، وعلى بعضهم .^(٢)

وما زاد صنيعهم هذا قبحا ان من بين الوفود من ينتمى الى الاسلام ، وآمن بالرسول صلى الله عليه وسلم ورأه سابقا وادرك جلاله ، كالاقرع بن حابس رضى الله عنه ، لانه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة وفي غزوة حنين سنة ٨ هـ وهو من المؤلفات قلوبهم ، وسنة الوفود بعد ذلك وهي سنة ٩ هـ .^(٣)

وكانت حجرات نساء النبي صلى الله عليه وسلم " قصيرة السقوف " وسقفوها من جريد النخل ، وحيطانها من اللبن ، وعلى ابوابها السجج^(٤) ، فما كانت قصورا شاهقة وكانت خارج المسجد ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك^(٥) كتب الوليد

(١) ليس المقصود بالوراء في الآية ، ما يقابل امام بل هو اعم من ذلك فالوراء يطلق حتى على الامام كقوله تعالى : وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا " من سورة الكهف : ٧٩ "

(٢) انظر : تفسير الطبري : ١٢٣ - ٢٦ والكشاف : ٥٥٨ - ٣ والبدایة والنهاية لابن كثير : ٤٨ - ٥٥ .

(٣) انظر الاصابة في معرفة الصحابة : ٥٨ - ٥٩ - ١ ، وسيرة ابن هشام : ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٣ - ٤ . (٤) الشعر : انظر لسان العرب مادة سجج .

(٥) الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، من اشهر الخلفاء الامويين ، وفي عهده كانت الفتوحات كفتح الاندلس وبلاد ما وراء النهر وبلاد الهند ، بوسع بالخلافة سنة ٨٦ هـ بعد وفاة ابيه وكان ميلاده سنة ٥٠ هـ وتوفي سنة ٩٦ هـ ، (انظر البداية والنهاية لابن كثير : ٢٠ و ١٦١ - ١٦٦ - ٩) .

وفوات الوفيات والذيل عليها : ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٤

الى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز ^(١) ان يهدمها ويدخلها في المسجد ،
فجمع الوالى الفقهاء واهل الرأى والمشورة من اهل المدينة ، واعلمهم بالكتاب الذى
جاء بهدم الحجرات . فاجمعوا على تركها على حالها * لينظر اليها الحجاج والزوار
المسافرون ، والى بيوت النبو صلى الله عليه وسلم فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون
ذلك ادعى لهم الى الزهد فى الدنيا . فلا يعمرن فيها الا بقدر الحاجة ، وهو
ما يستر ويكن ، ويعرفوا ان هذا البنيان العالى انما هو من افعال الفراغة والاكاسرة
وكل طويل الاميل راغب فى الدنيا وفى الخلود فيها * وكتب عمر الى الوليد بما اجمع
عليه اهل المدينة وارتضوه ولكن الوليد أصر على الحجرات ، فلم يراع شـعـور
المسلمين ، ولم يحفظ لهم هذا الأثر . . . ويوم هدمها بكى المسلمون فى المدينة ،
كبكائهم يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من مقاصد الذين يمنعـون
هدمها وادخالها فى المسجد ، سد الذريعة لئلا يدخل القبر الشريف فى
المسجد . . . (٢)

هذا وقد خرج رسول الله عليه الصلاة والسلام الى هـولاء المفاخرين وقابل
اساتهم بالاحسان بل انه لى طلبهم واجاب نداءهم وخرج اليهم ففاخرهم بالاسلام

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة العادل وقد عدا خامسا للخلفاء الراشدين
وقد انصف الناس من ظلم بنى امية ، واه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ،
ويقال له الاشج ولد سنة ٦١ هـ وتوفى سنة ١٠١ هـ وكانت خلافته سنتين وخمسة
اشهر واربعه ايام ،

() انظر البداية والنهاية لابن كثير : (١٩٢ - ٩) .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير : (٢٤ - ٧٥ - ٩) .

وقابل اعلامهم باعلامه بنية دخولهم في الاسلام وهدايتهم الى الايمان ، فاستمع
لمقال خطيبهم وشاعرهم ، وامر خطيبه وشاعره ان يرد كل واحد على نظيره ، وفيما
يلى مقالات الفريقين :

١- خطبة الوفد التميمي والخطيب هو عطار بن حاجب : (١)

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو اهله ، الذي جعلنا ملوكا ، ووهب
لنا اموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا اعز اهل المشرق ، واكثره عددا ،
وايسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ؟
السنا بروءوس الناس واولى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وانما
لونشاء لاكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الاكثر فيما اعطانا ، وانا نعرف بذلك ، اقول
هذه لان تأتوا بمثل قولنا ، وأمر افضل من امرنا .

وانذا تأملنا هذا النص ، فانا لا نجد غير : ان هؤلاء كانوا سادة في قومهم
ولهم الاموال ، وانهم يضعون في اموالهم المعروف على حسب العرف عندهم ، وليس
لهم ان يفتخروا على غيرهم من القبائل العربية بهذا عدنانية او قحطانية لانهم
كذلك فيهم سادة ولهم الاموال .

٢- وفي هذه الخطبة كذب واضح وهو دعواهم انهم اعز من في المشرق واكثر

(١) عطار بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي استعمله الرسول عليه الصلاة
والسلام على صدقات بني تميم وقد كان ممن ارتد من بني تميم واتبع سبجاح
ثم عاد الى الاسلام وهو الذي قال فيها :

اضحت بنيتنا انثى نظيف بها * واضحت انبياء الناس ذكرانا
فلعنة الله رب الناس كلهم * على سبجاح ومن بالكفر اغوانا

انظر ترجمته في الاصابة : ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٢ .

عددا ، وانهم رؤساء الناس على الاطلاق ، فالأوس والخزرج بل وقريش الذين منهم الانصار والمهاجرون تعرف تميم انهم ليسوا باعز منهم حتى في الجاهلية وناهيك في الاسلام ولاكثر منهم ولا يراؤونهم وكذلك قبائل كثيرة من العرب .

٣- وفي الخطبة ضعف يشعر به الخطيب وهو انه زعم الحياء لذا ترك تعداد فضائل وما كان المفتخرون يضعون هكذا بل انه يشعر في هذا الموقف بحرج فاعتذر بهذا .

٤- الخطيب متأثر بالاساليب الاسلامية ما كان له اثر في هزيمته ، فـ "لحم الله الذي له علينا الفضل والمن وهو اهله" وكلمه "المعروف" والحياء من ذكر بعض الامور ، كل هذا من الاسلام وما كانت العرب في الجاهلية تفعل هكذا ولكن في الوفد من هم سلم ولعلمهم اتفقوا على ذلك .

ان هذا لهو السيمة العامة لكل فخر بغير الاسلام "الكذب" والادلاء بغير الواقع ، وزعم ما لا يخص المفتخر ، والتناقض في دعواه ، وانه يهدم بعضه البعض، وفي النهاية الهزيمة " ،

وقد بينت سابقا في هذه الرسالة ما يتعلق بالفخر الكاذب ودعوى الجاهلية وخيلائها . (١)

(١) الفصل الاول ص

ذلك ما يدركه خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس الانصارى
رضى الله عنه ، فقابل الجاهلية بالاسلام فى خطبته واعتز بالاسلام وكان فخرا
له ولغريقه اورد بالتوحيد والايان وبالنبوة ونصرتها ، واتى بما يدل على العزه لله
ولرسوله وللمؤمنين ، وهو يستطيع ان يذكر شيئا لقريش والخزرج والاوز فى جاهليتهم
ما ذكره خطيب الوفد بل واكثر منه ، ولكنه داعية بمعنى الكلمة ، لا يقابل الشر
الا بالحق ، ولا يدفع السيئة الا بالحسنة ، فالباطل لا يرد باطل ولا يهزمه ، وانما
يرده الحق ويسكته ، فلو ذكر الخطيب ما لقريش من الزعامة والمكانة فى الجاهلية ،
وما كان للخزرج والاوز من قوة وكرم وسعة وشجاعة ومكانة لكان ذلك ما يزيد للوفد
التميمى تسكا بالجاهلية وفخرها وخيلائها ، ولكن اسلوب الحكيم اقتضى غير ذلك ،
فقد امر رسول الله عليه الصلاة والسلام ثابتا ان يرد على خطيب الوفد ، فقام
فارتجل خطبه بليغة رائعة اعتر فيها بالله ، وذكر ما من الله به عليهم من الهداية
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صوته فى ذلك صوت داعية يعلو الجبال
والاصوات ، ولا يعلى عليه ، ويأخذ بعقول القوم وهم عرب بلغاء ، واقدان يتخذون
من اللسان قوة ويدركون ما لكلامه من حلاوة ، ويتذوقون اسلوبه الذى لقعه القرآن
بعجيب المقال . . !

فقال رضى الله عنه :

الحمد لله الذى السموات والارض خلقه ، قضى فيهن امره ، ووسع كرسىه
علمه ، ولم يك شيئا قط الا من فضله ، ثم كان من قدرته ان جعلنا ملوكا ، واصطفى
من خير خلقه رسولا اكرمه نسبا ، واصدقه حديثا ، وافضله حسبا ، فانزل عليه كتابه ،
واعتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان به
فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمة ، اكرم الناس حسبا ، واحسن

الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان اول الخلق اجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن انصار الله ، ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله ابدا ، وكان قتله علينا يسيرا أقول قولى هذا واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم * (١)

وإذا تأملنا نص هذه الخطبة سنجد انها دعوة قوية صريحة يتكلم فيها الخطيب من القرآن والسنة ، وقد اثنى على الله بما هو أهله ، واسند السموات والارضين وما نبيهن ويكون لله تعالى فهو الذى له الفضل ، وليس لاحد ان يفتخر بشىء عن احد ، لان كل شىء بيد الله تعالى .

٢- ثم ذكر ما يفتخر به حقا وهو نعمة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم واليهم والى الناس كافة وهو خير الخلق قاطبة ، واوحى اليه كتابا فيه تبيان كل شىء وجعله امينا فى الارض .

٣- والسابقون بالايمان اليه هم من قومه وذوى رحمه من افضل الناس اعمالا وهم المهاجرون .

(١) سيرة ابن هشام : ٢٢٤ - ٢٢٥ ج ٤

٤- ثم تلاهم بالايان الانصار قوم الخطيب الذين أووا ونصروا الله ورسوله وهم وزراءه ،

٥- ثم ذكر الخطيب موقفهم من الناس جميعا وهو ان من آمن كما آمنوا فهو منهم لا يفخرون عليه وايمانه يمنعه ، ومن لم يؤمن يقاتلونه جهادا في سبيل الله ولا يترددون ولو كان قريبا .

٦- وختم خطبته بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات .

ثم اذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لشاعرهم وهو الزبير بن بدر فقال :
ملفقا بين فخر كاذب واعمال للسمعه والرياء يديرها الشرك ، فيذكر نفس ما ذكره
خطيبهم على غرار اساليب الجاهلية فيقول :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَىَّ يَعَارِلُنَا	* مَنَا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُصَبُّ الْبَيْعُ (٢)
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ	* عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعَزِيزِ يَتَّبِعُ
وَنَعْنُ نَطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ طُعْمَنَا	* مِّنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يَوْمِسِ الْقَزَعُ (٣)
بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَاتِهِمْ	* مِّنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوِيًّا نَصْطَنِعُ (٤)

(١) الزبير بن بدر بن امرئ القيس التميمي وقيل ان اسمه الحصين ، والزبير بن بدر لقب له لحسن وجهه وقد ادى صدقات قومه في الردة فثبت ، وكف بصره وعاش السبي خلفه معاوية وهو شاعر ،

انظر : الاصابة : ٥٤٣-٥٤٤ ج ١ .

(٢) البيع : مواضع العبادة للرهبان .

(٣) القزع : سحب رقيق .

(٤) هوييا : يسرعون .

فَنَحَرُ الْكُومَ عِبْطًا فِي أَرْوَمَتَيْهَا * لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أَنْزَلُوا شَبِعُوا (١)
 فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيٍّ نَفَاخِرُهُمْ * إِلَّا اسْتَقَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يَقْتَطِعُ
 فَمَنْ يُفَاخِرْنَا فِي ذَاكَ نَعْرِفْهُ * فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تَسْتَمِعُ
 إِنَّا أَبِينَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ * إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ تَرْفَعُ

...

(٢)

وكان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الانصارى غائباً -
 فارسل اليه ليرد على شاعر القوم وقد اعد ابياتا قبل ان يصل ولكنه بعدما جاء
 وسمع فخر الوفد على لسان شاعرهم ورأى المجلس ، والموقف موقف دعوة وهمام
 لهداية هؤلاء وهو المنافع عن الاسلام بشعره

غير فكرته الى ابيات ابداع فيها وهى اقوى فى الرد واسلوبها ومضمونها امضى
 فى الدعوة وكان فى قصيدته قريبا من خطبة ثابت فى الاشادة بالمهاجرين والانصار،
 وان كانت خطبة ثابت اروع فى بيان الدعوة ، وفحم الجاهلية فى فخرها وخيلائها ،
 غير ان حسان اراد الا يبتعد عن سنن الشعر فهو يرد الفخر بالفخر، ولكن فخره
 بالاسلام والمسلمين وكانت عاطفته فيه صادقة ، خلاف الزهريان الذى كانت معانيه
 تكرارا وتردادا لما يفخر به حتى الصعاليك من العرب . . . فيقول حسان رضى
 الله عنه :

(١) الكوم : الناقة الضخمة ينمرونها من غير عله وهو المراد بقوله : عبطا والعبطه من مات من
 غير علة . والارومة : الاصل .

(٢) حسان بن ثابت بن النذر بن حرام من بني النجار الانصارى الخزرجي شاعر رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وهذه الاضافة تكفي شرقا ويكنى أبا الوليد وأبا عبد الرحمن وقيل أبو الحاسم
 المناضل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي فى خلافة على قبل سنة ٤٠ هـ وقيل مات
 سنة ٥٠ هـ أو سنة ٥٥ هـ وهو ابن ١٢٠ سنة عاش فى الجاهلية سنين وفى الاسلام سنين وكذلك
 ابو ثابت وجد النذر وابو جده حرام عاش كل واحد منهم ١٢٠ سنة . الاصابه : ٣٢٦ . . .
 والاستعاب على هامش : ٣٢٥ ج ١ - أسد الغابة : ٤ - ٧ ج ٢

- (١) .. إِنْ الذَّوَابَّ مِنْ فِهُرٍ وَإِخْوَتِهِمْ
 قَدْ بَيْنَا سَنَةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
 يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
 تَقْوَى إِلَهُهُ وَالْأَمْرَ الَّذِي شَرَعُوا
 قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَوْا عَدُوَّهُمْ
 أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
 سَحِيحَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مَحْدُثَةٍ
 إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
 فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَدْنَى سَبَقِهِمْ تَسْبَعُ
 (٢) .. لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
 عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
 (٣) .. إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَبَقُهُمْ
 أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالْبُنْدَى مَتَعُوا
 (٤) .. أَعْفَى ذَكَرَتْ فِي الْوَحْيِ عَفْتُهُمْ
 لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ طَمَعُ
 (٥) .. لَا يِيْخَلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ *
 وَلَا يَمْسَهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ
 (٦) .. إِذَا نَصَبْنَا لِحَقِّ لَمْ نَدِبْ لَهُمْ *
 كَمَا يَدِبُّ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الذَّرْعُ
 نَسَمُوا إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْهَا مَخَالِبُهَا
 (٧) .. إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا
 (٨) .. لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ *
 وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا هَلْسُ

(١) يريد بها السادة والذوابة العلواستعارة للسيادة .

(٢) اوهت : اضعفت ، ورقعوا : اصلحوا

(٣) متعوا : ارتفعوا وزادوا .

(٤) لا يطبعون : لا يتفخرون ولا تؤثر فيهم الطامع ، ولا يندنسون .

(٥) الطبع : الدنس

(٦) الذرع : ولد بقر الوحش .

(٧) الزعانف : ابتاع الناس

(٨) الخور : الضعف ، والهلع : الخوف .

- كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتِ مَكْتَنِعٌ * أَسَدٌ بَحْلِيَّةٌ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعٌ (١)
 خَذَ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا * وَلَا يَكُنْ هَمَكَ الْأَمْرَ الَّذِي سَمِعُوا
 فَإِنَّ فِي حَرَبِهِمْ فَاتَرَكَ عَدَاوتَهُمْ * شَرًّا يَخَاضُ عَلَيْهِ السَّمَّ وَالسَّلْعَ (٢)
 أَكْرَمُ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شِيعَتُهُمْ * إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
 أَهْدَى لَهُمْ يَدِي حَتَّى قَلْبٌ يَوَازِرُهُ * فِيمَا أَحَبُّ لِسَانٍ حَائِكٌ صَنَعٌ (٣)
 فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ * إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدَّ الْقَوْلِ أَوْ شَمِعُوا (٤)

...

وهناك روايات للشاعرين في مساجلاتهما ومنها ما روى ان حسان قال :

- بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمُ * يَعُودُ وَبِالْأَعْدَاءِ ذِكْرُ الْمَكَارِمِ
 فَإِنَّ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنِ دِمَائِكُمْ * وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تَقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
 فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاً وَاسْتَلِمُوا * وَلَا تَلْبِسُوا زِيَا كَزِي الْأَعَاجِمِ (٥)

وفي نهاية المحاوراة بين فريق النبي صلى الله عليه وسلم وفريق الجهل والافتخار، اعترف الوفد بهزيمتهم فقالوا : والله ان هذا الرجل لموتى له : والله لشاعره اشعر من شاعرنا ، ولخطيبه اخطب من خطيبنا ولاصواتهم ارفع من اصواتنا ، ولهم احلم منا * ثم اعلنوا انقيادهم للاسلام جميعا ، وقسم لهم الرسول الكريم صلى

- (١) مكتنع: قريب، وحلية : اسم موضع يكون مأسدة للاسود . والرسغ : موضع القيد ، وفدع : اعوجاج الرسغ .
 (٢) السلع : نبات سُموم ،
 (٣) حائك صنع : ماهر .
 (٤) شموا : هزلوا ، واصله الطرب واللهو .
 (٥) الند : المثل والنظير .

الله عليه وسلم حظا من العطا ، فوزعت بينهم جوائزهم لكل رجل * اثنتا عشرة اوقية ونشا^(١) ، واعطى غلاما منهم خمس اواق * واستعمل بعضهم على قومهم ، فرجعوا الى ديارهم سلمين وغانمين .^(٢)

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة للدعاة ومثلا اعلى للاخلاق ، فهو في موقفه هذا مع الوفد الجاهل ، كما وصفه الله تعالى : **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**^(٣) وقوله : **وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**^(٤) ولقد وجهه والدعاة تبع له في قوله تعالى : **وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَكَلٍ حَمِيمٍ وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**^(٥) ،

هذا الذي يعلمه الله في القرآن هو الذي يواجه به صلى الله عليه وسلم الناس في الدعوة ، وكان مدعاة لهداية كثير من القبائل العربية التي صارت قوة للاسلام ، كبنى تميم الذين بشرهم رسول الله عليه الصلاة والسلام بانهم اشد الناس قتالا للاعور الدجال ، وكان دورهم في الفتوحات الاسلامية بعد الردة معروفا ونبيلا .

قال ابو هريرة رضى الله عنه : لا ازال احب بنى تميم من ثلاث سمعتن من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم اشد

(١) قال الجوهري : النش عشرون درهما وهو نصف اوقية لانهم يسمون الاربعين اوقية لسان العرب : ٣٥٣ ح ٦ ،

(٢) سيرة ابن هشام ومنه نقلت نص الخطبتين والقصيدتين : ٢٢٢ - ٢٣٠ ح ٤ ومختصر الاغانى لابن منظور ومنه نقلت نص اعتراف الوفد بالهزيمة : ١١٨ - ١٢١ ح ٣ ،
والبداية والنهاية لابن كثير : ٤٨ - ٥٣ ح ٥ والطبقات لابن سعد وقد ذكر مقدار الجوائز : ٢٩٤ ح ١ ،

(٣) الاية من سورة القلم : ٤ ، (٤) الاية من سورة آل عمران : ١٥٩ ،

(٥) الاية من سورة فصلت : ٣٤ - ٣٥ .

أُتِيَ عَلَى الدَّجَالِ . قَالَ : وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
هَذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَا . قَالَ وَكَانَتْ سَبِيَّةً مِنْهُمْ عَائِشَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْتَقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ .^(١)

هذه الفضائل تدل على حسن اسلامهم وبلاتهم في الجهاد ، فليس هناك
ما يبهر الطمئن في القبيلة لاجل ما صدر من نفر منهم او من شخص واحد ، والاسلام
يجيب ما قبله ، والتوبة تمحو السيئة . . . !^(٢)

وهل يعاب الانصار بالحنافيين من الخزرج والايوس والمهاجرون بصناديد قريش . . . ؟
وللدعاة والعلماء في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقدوة ، لو تسكك
بها الجميع وعلوا بمقتضاها متبعين لا مخالفين لانحلت صعوبات كثيرة ولتذلت عقبات فسي
طريق الدعوة والدعاة . . . ولكن ما يؤسف له أن هذا الخلق والاسلوب الناجح فسي
القدوة الحسنة واعتبار النتائج ، كل ذلك فقده كثير من الدعاة والعلماء او افتقدوه ، حتى
بين انفسهم كيف يعامل بعضهم البعض الاخر ، فقد أثرت في كثير من هؤلاء اخلاق
الماديين واساليب القوميين وانزلقوا خلف شعارات زائفة ومظاهر غائمة ، متأثرين بغيرهم من
دعاة الجاهلية واغوياء العلمانية . . . فلم يتوقع منهم التحمل والخلق الحسن والقدوة العربية
للعوام والجفاة الذين ضل سعيهم كثيرا وساءت اخلاقهم وقبحت آدابهم بسبب استرخاء
الدول الاسلامية في أمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام ، وتهافت كثير من اهل العلم
على الدنيا ومناصبها ومباهجها ، وهم بين حاسد ومحسود ، وظافل ومفتون . . . الا ماشاء الله
وقليل من عبادى الشكور . . . !

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل .

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير : ٥٣ ح ٥ وروح المعاني للالوسي : ١٤٠ هـ ٢٦٠ .

الفصل الخامس

* أسباب الفرقه وعلاجها *

تمهيد: بلقد ذكرت في الفصول السابقه الجوانب أو الأصول الاساسيه التي يستند عليها المجتمع الاسلامي في نموه وترابطه ورأينا كيف كان منهج الدعوة الاسلاميه ذا منهجيه صادقه وتربيه مهبذة لمجتمع آمن بالدعوة الاسلاميه وسلك طريقا مستقيما لا يضل عنها مؤمن ، واتخذ منها اسلوب حياة .

فانما كان المجتمع المؤمن يعتقد ويؤمن بأن البشريه جمعا* من أصل واحد وهو آدم عليه السلام وأنهم في هذا سواء* لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى ، وأن الاساس الذي تنبني عليه التقوى ويتفاضل فيه الناس لهو الايمان الذي بعث الله به رسله تترى عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا وخاتمهم أفضل الصلاة والسلام ، لبيئوا للناس أصوله وينصاعوا لربهم الذي لارب سواء ، ولا اله معبود بحق غيره . . والايمان له شواهد وعلامات ولا أدل على ذلك ما بينت في الفصلين * الثالث * الذي هو العمل بالكتاب والسنة وهو العمل الذي يوجهه الايمان وينمو الايمان به ويزيد ويدونه لا ايمان ، و * الرابع * الذي هو الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا وميتا ، فهو الواسطه بيننا وبين الله في نقل الشريعه وأصول الايمان ووصف ذلك على مراد الله ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما ذكرت في ككل الفصول الأربعة تكون المجتمع المؤمن وتواصت لبينات بنائه الشامخ ، وهو بعد ذلك مهتد بالانهيار ومحاط بالعدوان من جور الجاهليه وسطوة المجتمعات التي لا تؤمن بتلك الأصول ولا تشعر بالاخوه الانسانيه ولا تستسلم لخالقها في كل شي* ولا تؤمن بالايمان الذي جاءت به الرسل وتواردت عليه رسالات الله ان هذه المخاطر قد تنفت في روع المؤمنين وتؤثر في أفرادهم وجماعاتهم لتخريب ما شيده منهج الدعوة الاسلاميه في بناء المجتمع الاسلامي وهذا ما تناوله في هذا الفصل وتعرفنا الدعوه بأسبابه وعلاجها . . .

١- تربية المجتمع الاسلامي على لزوم الصدق والتثبت في النبأ الاعلامي *

* الآيات السادسة والسابعة والثامنة *

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما

بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .

واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ولكن الله

حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان

اولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم *

سبب نزول الآيات :

قال ابن كثير ذكر كثير من المفسرين انها نزلت في الوليد بن عقبة رضى الله

عنه ^(١) حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بنى المصطلق

وقد روى ذلك من طرق ومن احسنها ما رواه الامام احمد في مسنده

(١) هو الوليد بن عقبة بن ابي معيط من بنى امية وهو اخو عثمان بن عفان رضى

الله عنه لانه اروى بنت كريب بن ربيعة ، ويكنى ابا وهب ، قتل ابوه عقبة بعد

غزوة بدر صبيرا وكان شديد الاذى للمسلمين واما الوليد فقد اسلم يوم فتح

مكة وكان الوليد شجاعا شاعرا جوادا وكان من رجال قريش وسراتهم . وقد

ولاه عثمان رضى الله عنه الكوفة سنة خمس وعشرين وفي سنة ثمان وعشرين

غزا الوليد اذ ربيجان اميرا للجند ، ثم وشى الي عثمان انه شرب الخمر وشهد

عليه بعض اهل الكوفة فاقام عليه الحد وعزله سنة تسع وعشرين ، ولما قتل

عثمان رضى الله عنه اعتزل الوليد الناس واقام بالرقعة ، وكان يحرض معاوية

على قتلة عثمان الي ان مات في خلافة معاوية رضى الله عنهم جميعا .

انظر ترجمته في الاصابة لابن حجر : ٦٢٧-٦٢٨ هـ ٣ رقم ٩١٤٧ ،

والاستيعاب في معرفة الاسحاب لابن عبد البر على هامش الاصابة :

عن الحارث بن ضرار الخزاعي رضى الله عنه ^(١) قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني الى الاسلام فدخلت فيه واقررت به فدعاني النبي الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله ارجع الى قومي فادعهم الى الاسلام واداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا لابان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة من استجاب له وبلغ الابان الذي اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبعث اليه احتبس عليه الرسول فلم يأتته فظن الحارث انه قد حدث فيه سخطة من الله عز وجل ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لي وقتا يرسل الي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ولا ارى حبس رسوله الا من سخطة كانت فانطلقوا فتأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما ان سار الوليد حتى بلغ الطريق فرق ^(٢) فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ان الحارث منعني الزكاة وأراد قتلى فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث الى الحارث فأقبل الحارث باصحابه اذا استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال : لهم الى من بعثتم قالوا اليك قال ولم قالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم انك منعت الزكاة وارت

(١) الحارث بن ابي ضرار بن حبيب المصطلق ابو مالك الخزاعي والد جويرة أم المؤمنين وقعت ابنته في السبي فأتى في فدائها فلما كان في العقيق نظر الى بعيرين اعجبا فغيبهما في الشعب ثم اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اين البعيران اللذان غيبتهما في الشعب ، فشهد الحارث شهادة الاسلام ودخل في دين الله ، وكان سيديا من سادات قومه توفى رضى الله عنه سنة هـ ،

انظر ترجمته في الاصابة والاستيعاب على هامش : ٢٨١ رقم (١٤٢٧) ص ٩٩ هـ ١٠١
 (٢) الفرق بالتحريك - الخوف وفرق منه بالكسر فرقا : جزع وفرغ يقال رجل فرق : فزع شديد الفرق . لسان العرب مادة (فرق) ص ٣٠٤ هـ ١

قتله قال لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني فلما دخل العارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله قال : فنزلت الحجرات " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا إن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين إلى هذا المكان " فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم " (١) ،

وقال ابن عبد البر (٢) : ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل : إن جاءكم فاسق بنبأ " نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة والسلام إلى بني المصطلق صدقاً فأخبر عنهم أنهم ارتدوا وأبوا من أداء الصدقة ، وذلك أنهم خرجوا إليه فهابهم ، ولم يعرف ما عندهم فانصرف عنهم وأخبر بما ذكرنا فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وأمره أن يتثبت فيهم فأخبروه أنهم متمسكون

-
- (١) سند الإمام أحمد : ٢٧٩ هـ ٤
والروايات الأخرى التي ذكرها ابن كثير : موقوفة على مجاهد وقتاده وابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك ومقاتل بن حيان " التفسير : ٢١٠ هـ ٤
وفي أسانيد الروايات من لا يعرف ومن ضعف ،
انظر مجمع الزوائد ونبذ الفوائد للهيثمى ١٠٨-١١١ هـ ٧ .
- (٢) هو يوسف بن عبد الله بن محمد النمري الحافظ كنيته أبو عمرو اشتهر بلقبه ابن عبد البر ، من أهل قرطبة وشيخ علماء الأندلس ومحدثها ، وقد ألف كتباً مفيدة كالتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، وكتاب الاستذكار لذهاب علماء الأماص فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار .
والاستيعاب في معرفة الأصحاب وكتاب الكافي وجامع بيان العلم وفضله .
ولد في ربيع الآخر سنة ٣٦٨ هـ وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ ،
انظر ترجمته : في تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٢٨-١١٣٢ رقم ١٠١٣ هـ ٣ ،

بالاسلام * (١)

هذا ما ذكره من سبب النزول ، ولا اشكال فيه لوصحت الروايات ، وذلك
من وجوه :

اولا - ليس من الضروري ولا من منطوق الآية او مفهومها ان المعنى بالفاسق
هو الوليد رضى الله عنه !! .

ثانيا - ان الفسق له اطلاقا في القرآن يطلق ويراد به الكفر ، ويذكر مقرونا بالكفر ،
ويذكر مقرونا بالعصيان ، ويبدو والله اعلم ان الآية تعنى مثل ما يذكسه
الفقهاء لكلمة الفاسق وهومن ارتكب بعض المحظور من المسلمين وهم في هذا
درجات حسب مخالفتهم . (٢)

ثالثا - ان الروايات التي ذكرت ان الوليد هو السبب لنزول الآية قد ذكرها ابن
كثير واختار اقربها واحسنها وان لم تصح ولم يكن اختياره لها بسبب انها
ثابتة صحيحة من كلام الحارث بن ضرار الخزاعي المصطلق رضى الله عنه
فان صحت فهي رأى صحابي في حادثة وقعت لصحابي - ان صح انها
وقعت من الوليد رضى الله عنه ،

ومع هذا فان الرواية يقول ابن حجر : فيها من لا يعرف * (٣)

= الديباح الذهب في معرفة اعيان المذهب لابن فرحون : ٣٦٧ - ٣٧٠

وفيات الاعيان لابن خلكان : ٦٦ - ٧٢ رقم ٨٢٧ - ٧٠

(١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر على هامش الاصابة : ٦٣٢ ح ٣

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم : ٣٥٩ - ٣٦٠ ح ١ ،

والمفردات للراغب : ٣٠٨ .

(٣) يشير ابن حجر الى دينار * في سند الخبر المذكور ، وهو لم يرو عنه سوى

ولده عيسى بن دينار ، كما ذكره الذهبي وفي سند الخبر دينار عن الحارث

ودينار لم يرو عن الحارث وانما روى عن مولاة عمرو وعنه ولده عيسى ، =

رابعاً - ان ابن عبد البر وهو محدث كبير وحافظ وثقة يشعر كلامه بان هذه الروايات ليس منها ما هو مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم (ولا الى احد من الصحابة رضی الله عنهم ، لذلك اكتفى بقوله لا خلاف بين اهل العلم بالتأويل بالقرآن فيما علت أن الوليد هو السبب في نزول الآية) فلم يعتمد على رواية مرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعتمد على اجماع قطعي وانما قال فيما علت ، وكم من غلط اشتهر عند الناس وكم من صحيح خفى على جل الناس . . . ؟ ؟

ولقد تعلقت الشيعة بهذه الآية فذهبوا يقولون ما يشاءون عن الوليد رضی الله عنه ، ولا يبيستحون كما يقولون عن غيره ممن هو افضل منه من الصحابة رضی الله عنهم جميعا ، فنالوا من الوليد بسبب ما ذكر عنه ، في امارته على الكوفة من قبل عثمان الخليفة ، وزادوا تعلقا بذلك بسبب ما ذكر عنه من انه شرب الخمر وصلی وزاد في الصلاة ، وأقيم عليه الحد بشهادة بعض أهل الكوفة .. (١)

وغير ذلك من الاوهام التي تبحت عنها الشيعة ويروجها الروافض، وقد يكون بعضها صحيحا ، ثم تكذب معه ألف كذبه،

(١) ميزان الاعتدال : (٣١ - ٢) وفي السند كذلك محمد بن سابق وقد ضعفه ابن معين وابوحاتم (ميزان الاعتدال : ٥٥٥ - ٣) .
انظر منهاج السنة لابن تيمية : ١٢٣ - ٣
والعواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة لابن العربي : ٦٢ .

وتلصقها بالاصحاب رضى الله عنهم ، ولا منهج لهم فى ذلك سوى الفسق المتعمد . . . ! يقول القاضى ابوبكر بن العربى : ما رضيت النصارى واليهود فى اصحاب موسى وعيسى ما رضيت الروافض فى اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين حكموا عليهم بانهم قد اتفقوا على الكفر والباطل فيما يرجى من هؤلاء ، وما يستيقى منهم ؟ (١)

وما يؤسف له ان الدعاية الشيعية ضد الوليد وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم قد امتدت وانتشرت بين المؤلفين والكتاب من غيرهم ، ودست فى بعض كتب المتقدمين والمتأخرين ، فهذا الامام اللغوى ابن قتيبة (٢) يذكر ان الوليد رضى الله عنه " كان كاذبا " وذكر قصة جرت بينه وبين على رضى الله عنه . (٣) نزل بسببها قوله تعالى : **أَفَن كَانَ مَوْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ** (٤) كما ذكر كثير من المفسرين فى كتبهم دون فحص وتثبيت . (٥) وكون على طرفا فى هذه القصة وورود كلمة " الفاسق " فى الآتية ومحاولة تطبيقها على الوليد دلالة واضحة على صنيع التشيع فى ذلك . . . !

-
- (١) المصدر السابق : ١٨٥
(٢) هو ابو محمد عبدالله بن سلم بن قتيبة المروزى ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفى سنة ٢٦٧ هـ وقيل سنة ٢٩٦ هـ ، وهو من الطبقة السادسة من اللغويين البصريين . . . انظر ترجمته بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي : ٢٩١ وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي .
(٣) المعارف لابن قتيبة : ١٣٩ ط ٢ سنة ١٣٩٠ هـ احياء التراث العربى ، بيروت .
(٤) الآية من سورة السجدة : ١٨
(٥) كابن جرير الطبرى وابن الجوزيه فى زاد المسير والسيوطي فى اسباب النزول والواحدى ، ولكن فى سند القصة ضعف وجهالة .

وقد تعلق بالشئخ محمد محمود الصواف لوثة التشيع فقال عن الوليد
رضى الله عنه : وجبن الوليد بن عقبة وخوفه اظهر على لسانه تلك الكذبة التي نزلت
الآية بسببها وسماه الله عز وجل فاسقا " ؟ ! ، وقال في موضع آخر " كما فعل
بالوليد بن عقبة الذي اطلعتم على مصيره ونتيجة امره حين فضحته آيتنا التي
انزلناها على رسولنا " (١)

خامسا : واذا تعلق خصوم الوليد رضي الله عنه ومن تأثر بهم واقتدى في ترويج الكذب،
بما اشيع من انه شرب الخمر ليستدلوا بذلك على فسقه - حاشاه رضي الله
عنه - فتلك قصة لفقها بعض اهل الكوفة عليه ، من اقام الوليد عليه الحد
وعلى ابناءه ووقف في وجه باطلهم ، فلم يجدوا وسيلة للانتقام منه الا بتلفيق الكذب
عليه عند الخليفة عثمان فشهد بعض هؤلاء عند الخليفة بانه رآه يقي الخمر . (٢)
فأمر عثمان رضي الله عنه عليا ان يقيم الحد عليه وثبوت الحد بتقي الخمر سأله
خلافية بين الفقهاء (٣) واقامة الحد عليه لا تدل على انه شرب الخمر حقيقة وانما
اقيم عليه الحد بناء على شهادة الشهود لا سيما وان الانى لم يقتصر على الوليد
حتى تجاوزه الى عثمان على ايدى دعاة الفتنة حتى قتلوه . . وقد كان الوليد رضي
الله عنه موضع الثقة عند الخلفاء الثلاثة ابى بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم ،
كل استعمله وقربه ولا يمكن كما أنه لا يعقل ان تكون له هذه المنزلة عندهم وهو
معروف بالفسق في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . . (٤)

-
- (١) نظرات في سورة الحجرات لمحمد محمود الصواف : ٧٧ و ٨٤ ط ٢ سنة ١٣٩٧هـ
مؤسسة الرسالة .
(٢) انظر تاريخ الامم والملوك للطبرى : ٥٩-٦٦ ح ٥ في حوادث سنة ٣٠ ،
(٣) اقامة الحد عليه رواه سلم في كتاب الحدود ، النووى على صحيح مسلم
: ٢١٦ ح ١١ .
(٤) انظر تاريخ الامم والملوك للطبرى : ٧ ، ٢٢ و ٢٩ و ٣٠ و ١٥٥ ح ٤ .

سادسا : وان ثبتت قصة الوليد رضى الله عنه واندرجت في عموم الآية فهل معنى ذلك انه فاسق كما تزعم الشيعة في هذيانهم الذى لا يبنى على دليل

واضح ومنهج صادق يعتمد عليه . . ؟

يقول ابن العربي : وكيف يفسق رجل بمثل هذا الكلام ؟ فكيف برجل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . (١)

ويعجبنى ما ذكره الفخر الرازى ^(٢) ان الله تعالى لم يقل انى انزلتها لكذا ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه انه بين ان الآية وردت لبيان ذلك فحسب ، غاية ما فى الباب انها نزلت فى ذلك الوقت وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك ويتأكد ما ذكرنا ان اطلاق لفظ الفاسق على الوليد سى^٣ بعيد لانه توهم وطن فأخطأ ، والمخطى^٤ لا يسمى فاسقا^(٥)

وجاء فى الروايات ما يدعم ويساند ما ذكره الفخر الرازى من توهم وطن وهى رواية : فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلا يتلقونه بالجزر والغنم فرحا به ، فلما رأهم ولى راجعا الى المدينة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، انهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة^(٦)

واخرج الطبرى نحو ذلك فقال : فلما سمعوا به ركبوا اليه ، فلما سمع بهم خافهم فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ان القوم قد هموا بقتله ،

(١) العواصم من القواصم لابن العربي : ٩٣

(٢) التفسير الكبير للرازى : ١١٩ - ٢٨ وانظر تفسير الخازن : ١٨٥ - ٦ .

(٣) رواها ابن سعد فى الطبقات : ١٦١ - ٢ .

ومنعوا ما قبلهم من صدقاتهم فكثر المسلمون في ذكر غزوهم حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يغزوهم ، فبينما هم في ذلك قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله سمعنا برسوك حين بعثته الينا ، فخرجنا اليه لنكرمه ، ولنوعدي اليه ما قبلنا من الصدقة فأستر راجعا (١)

سابعاً : وليس معنى قولهم سبب نزول الآية في كذا " انه هو السبب المباشر ، وإنما هو من باب الاستدلال على الحكم بالآية لا من باب النقل ، كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية " وقولهم نزلت هذه في كذا " يراد به تارة انه سبب النزول ، ويراد به تارة ان هذا داخل في الآية وان لم يكن السبب ، كما نقول عنى بهذه الآية كذا " ،

ثم ذكر شيخ الاسلام تنازع العلماء في قول الصحابي " نزلت هذه الآية في كذا " هل يجرى مجرى المسند ، كالسبب الذي انزلت لاجله او مجرى التفسير الذي ليس بمسند .

فبعض العلماء يدخله في مجرى المسند كالبخاري ، وبعضهم لا يدخله في المسند " واكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند احمد وغيره ، بخلاف ما اذا ذكر سبب نزلت عقبه فانهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند " (٢)

(١) تفسير الطبري : ١٢٥ - ٢٦

(٢) مقدمة اصول التفسير لابن تيمية : ٤٨ ،

وانظر البرهان للزركشي : ٣١ - ٣٢ - ١ .

والذى يتلخص أن الآية ذكرت حكم قبول خبر الفاسق مطلقا ، ويصعب ان يخصص هذا ويصدق على رجل صحب النبي صلى الله عليه وسلم ووثق به النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن رجل كان شديد المناوأة للإسلام ورسوله فانفصل عن دين ابيه ودخل فى دين الله ، ومن الصعب كذلك أن يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم جابيا الى قوم بينه وبينهم عداوة ، وما تجدر الإشارة اليه ان الاطلاق فى الآية ، وقد جاءت بعد الايات التأديبية والتعليمية السابقة لها يشير الى صلة بينها وبين سابقتها ، صلة نزول^(١) ووحدة سياق وموضوع ويسوغ التخمين ان الحادث قد وقع قبل نزول السورة فكان وسيلة للتنبيه والتحذير فى سياق فصول التعليم والتأديب التى احتوتها السورة .^(٢)

ثامنا : ونحن لا نقول فى الوليد رضى الله عنه شيئا مع اننا لا نقول بعصمة غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نبرىء الوليد من الخطأ ، فاذا صحت هذه الحادثة فكل ما يقال انها وافقت نزول الآية ، واسلوب الشرط أن المفيد للتوقع لا يدل على ان حدثا وقع لاحد الصحابة ، وانما يطلب من المسلمين ان يلتزموا منهج التثبت والصدق وعدم العجلة ، على افتراض مجيء من يغير الحقائق ان عمدا أو خطأ ومع هذا فان الله سبحانه وتعالى يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة لاستقامة احوالهم ورسوخ ايمانهم وثبات عدالتهم ، فكان حسابهم فى الدنيا فقط وراحتهم فى الآخرة رضى الله عنهم .

(١) جاء فى نهاية رواية الامام احمد المابقة : فنزلت الحجرات ، وذكر الآية وقال : الى هذا المكان وهو " فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم " وفى هذا إشارة الى ان الآية نزلت مع ما قبلها فى السورة .

(٢) انظر التفسير الحديث لمحمد عزه دروزه : ١٢٣ هـ ١٠ .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية ان من اصول اهل السنة والجماعة : سلامة
قلوبهم والسنتهم لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما وصف الله المؤمنين
: **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ
وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** (١) ،

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : **لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي ، فَوَلَدِي نَفْسِي بِيَدِهِ ،
لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ** (٢) ، ويقول شيخ
الاسلام ابن تيمية : **ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والاجماع من فضائلهم ومراتبهم** (٢)

تاسعا : وهذه الآيات فيها ما يرد هذه الشبه التي تثار حول الصحابة رضی الله
عنهم والوليد من جملتهم وذلك قوله تعالى : **واعلموا ان فيكم رسول الله
لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبيب اليكم الايمان وزينه في
في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون ، فضلا
من الله ونعمة والله عليم حكيم** فالآيتان هنا تدلان على امرين هاميين
في هذا المقام : الاول : وهو ان الله كره الى الصحابة رضی الله عنهم
الكفر والفسوق والعصيان ،

الثاني : حبيب اليهم الايمان وزينه في قلوبهم وحصرهم في الرشد ، وامتن
عليهم بهذه النعمة .

-
- (١) الآية من سورة الحشر : ١٠
(٢) رواه مسلم في كتاب المناقب .
(٣) العقيدة الواسطية في الكلام على الصحابه .

والوليد رضى الله عنه من جطة هؤلاء الذين اخبر الله عنهم انه كره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وحبب اليهم الايمان ، ومن جهة اخرى فان النداء في الآية " يا ايها الذين آمنوا ، يحتمل انه موجه الى الوليد نفسه وانه ما كان ينبغي لسه التسرع في الحكم على القوم بمجرد خبر عنهم او لما ظهر له من حالتهم حينما اقبلوا اليه بجمعهم كما تفيد الرواية .

عاشرا : ان الصحابة رضى الله عنهم ومنهم الوليد بن عقبة قد اختارهم الله اصحابا وانصارا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، واشنا عليهم في كم موضع في كتابه العزيز كقوله تعالى : **مَدَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَثَرَ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** (١) .
 وقوله : **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْهُمُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٢) .

وغر ذلك من الآيات التي تعم الصحابة بفضل كبير وتخصهم بمناقب كثيرة مما لم يحصل لاحد قبلهم من اتباع الانبياء ولا لمن بعدهم من هذه الامة ، وكل ثناء

(١) الآية من سورة الفتح : ٢٩

(٢) الآية من سورة براءة : ١٠٠ .

فى كتاب الله تعالى على المؤمنين والمجاهدين والصالحين والعبادين لله تعالى على بصيرة واخلاص ، وغير ذلك من الاوصاف المحمودة ، والاعمال المقبولة ، فالصحابه اولى به وانما يشمل غيرهم تبعاً لهم ، مع ما فى كتاب الله تعالى من خصائص لهم كما فى بعض الآيات السابقة وغيرها ، ولولا خشية الاطالة لاوردناها وبيننا وجسه الخصوصية .

وأما السنة المطهرة التى نقلت الينا من فضائل اولئك الاصحاب رضى الله عنهم ، فقد وردت فيها آحاديث تبين فضلهم وتنتشر مالهم من السبق وخصوصاً به من الكرامة كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : **يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُونَ فِتَامٌ** ^(١) **مِنَ النَّاسِ ، فَيَقُولُونَ أَفِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ : نَعَمْ فَيَفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُونَ فِتَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقَالُ : فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ . ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُونَ فِتَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقَالُ : فِيكُمْ مِنْ صَاحَبٍ مِنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ نَعَمْ ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ** ^(٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : **خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ إِنْ بَعَدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْدُرُونَ**

(١) فِتَامٌ : بكسر الفاء وحكى بالهمز والياء والمراد جماعة .

(٢) رواه البخارى - فى اول كتاب فضائل اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك مسلم .

وَلَا يُؤْفُونَ ، وَيُظَهِّرُ فِيهِمُ السَّمْنَ (١) وقوله صلى الله عليه وسلم : لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي
 قَوْلِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ انْفَقَ بِمِثْلِ أَحَدٍ نَهَبًا مَا أَدْرَكَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ (٢)
 وقوله عليه الصلاة والسلام : النجوم أمانة للسماء فإذا ذهبَت النجوم أتت السماء ما
 توعَدُ وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهبَت أتت أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمانة لأمتي فإذا
 ذهب أصحابي أتت أمتي ما يوعدون (٣)

وقوله عليه الصلاة والسلام : اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي ،
 لَا تَتَّخِذُوهُمْ غُرَضًا بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِإِبْغَضِي أَبْغَضَهُمْ ،
 وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ
 يَأْخُذَهُ (٤) ،

هذه بعض الاخبار التي عمت الصحابة رضی الله عنهم وشملت عامتهم وخاصتهم ،
 بل وبعض هذه الاخبار تنص على مكانة من عرف الصحابة وعاشرهم وهم التابعون ،
 وتشير الى فريق ثالث وهم تابع التابعين . وفي كتب الصحاح والسنن فضائل ومناقب
 لافراد الصحابة ولقبائلهم وعشائرهم تخص كل واحد منهم بمحاسن ، ومعنى هذا
 ان عدالة الصحابة وفضلهم جاء في السنة اجمالا وتفصيلا كما كان في القرآن الكريم ،
 فلا يجوز الطعن في احد منهم ولا تنقصه وعيبه لان من فعل ذلك كان مخالفا
 لكتاب الله وسنة رسوله .

-
- (١) رواه البخاري وسلم في كتاب الفضائل .
 (٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل وابو داود رقم "٤٦٥٨" ح ٤ ،
 والترمذي رقم "٣٨٦١" وقال : حسن صحيح ح ٥ .
 (٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل .
 (٤) رواه الترمذي رقم "٣٨٦٢" وقال : حديث غريب لا تعرفه الا من هذا الوجه
 . . .

هذا وقد وردت آثار موقوفة على الصحابة والتابعين ومن بعدهم من اصحاب هذه الامة في تعظيم الصحابة والاعتراف لهم بالفضل ، وانهم لا ينقصون ولا يرغب عن سيرتهم ولا يقدم عليهم سواهم بعد القرآن والسنة .

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله :

" انما وضع الله عز وجل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع الذى وضعهم فيه بشئائه عليهم من العدالة والدين والامانة لتقوم الحجة على جميع اهل الملة بما أدوه عن نبيهم من فريضة وسنة فصلى الله عليه وسلم ورضى عنهم اجمعين ، فنعم العون كانوا لهم على الدين فى تبليغهم عنه الى من بعدهم من المسلمين " (١)

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله : (٢)

" والاخبار فى هذا المعنى تتسع ، وكلها مطابقة لما ورد فى نص القرآن ، وجميع ذلك يقتضى طهارة الصحابة ، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم ، فلا يحتاج احد منهم مع تعديل الله تعالى لهم ، المطلاع على بواطنهم الى تعديل احد من الخلق له ، فهم على هذه الصفة الا ان يثبت على احد ارتكاب ما لا يحتمل الا قصد المعصية والخروج من باب التأويل ، فيحكم بسقوط العدالة وقد

(١) الاستيعاب فى معرفة الاصحاب على هامش الاصابة : ٧ - ١

(٢) هو ابو بكر احمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ هـ الفقيه الاصولي المحدث الموضح اللغوي وقد أثنا عليه العلماء ثناء كثيرا وله مواقف حميدة وقد ذكرت له مصنفات كثيرة بلغت تسعة وثلاثين مصنفا توفى سنة ٤٦٣ هـ انظر ترجمته : طبقات الشافعية للسبكي : رقم ٢٥٨ ص ٢٩-٣٩ هـ ٤ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي رقم ١٠١٥ ص ١٣٥-١٤٦ هـ

برأهم الله من ذلك ورفع اقدارهم .

على انه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شئ* ما ذكرناه لا وجبست الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة ، وبذل المهج والاموال ، وقتل الاباء والاولاد والمفاسحة في الدين ، وقوة الايمان واليقين ، القطع على عدالتهم ، والاعتقاد لنزاهتهم وانهم افضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم آبد الآبدين . هذا مذهب العلماء* ومن يعتد بقوله من الفقهاء* (١) ،

وقال العلامة ابن القيم بعد كلامه في فتوى الرسول صلى الله عليه وسلم :
 * ثم قام بالفتوى بعده برك (٢) الاسلام وعصابة الايمان وعسكر القرآن وجند الرحمن ، اولئك اصحابه صلى الله عليه وسلم ، ألين الامة قلوبا ، واعمقها علما ، واقلها تكلفا ، واحسنها بيانا ، واصدقها ايمانا ، واعمها نصيحة ، واقربها الى الله وسيلة ، وكانوا بين مكثر منها ومقل ومتوسط* (٣) .

وقال في معرض الرأي :

* وحقيق بمن كانت اراهم بهذه المنزلة ان يكون رأيهم لنا خيرا من رأينا لانفسنا وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب مستكة نورا وايمانا وحكمة وعلم

(١) الكفاية في علم الرواية : ٤٨-٤٩ طبعة حيدر آبادى بالهند سنة ١٣٥٢ هـ .

(٢) برك الاسلام : البرك الصدر وقيل وسط الصدر ، ويريد به صدر الاسلام : لسان العرب : مادة برك .

(٣) اعلام الموقعين : ١١-١٢ هـ ١ .

ومعرفة وفهما عن الله ورسوله ونصيحة للامة ، وقلوبهم على قلب نبيهم ، ولا واسطة بينهم وبينه وهم ينقلون العلم والايمان مشكاة النبوة غضا طريا لم يشبه اشكال ولم يشبه خلاف ، ولم تندسه معارضة فقياس رأى غيرهم بأرائهم من افسد القياس" (١)

ويقول الطحاوى (٢) فى عقيدته :

" ونحب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نفرط فى حب احد منهم ، ولا نتبرأ من احد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم الا بخير ، وحبهم دين وايمان واحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان ونشبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا لابي بكر الصديق رضى الله عنه تفضيلا له وتقديما على جميع الامة ثم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم لعثمان رضى الله عنه ، ثم لعلى بن ابي طالب رضى الله عنه ، وهم الخلفاء الراشدون والائمة المهديون . . . ومن احسن القول فى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه الطاهرات من كل دنس ، وذرياتهم من كل رجس فقد برى من النفاق " (٣)

(١) المرجع السابق : ٨١-٨٢ - ١ .

(٢) هو ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الازدى الطحاوى ، نسبة الى قرية بصعيد مصر ، الامام المحدث الفقيه الحافظ ولد سنة ٢٣٩ وتوفى سنة ٣٢١ هـ بمصر ، وكان ثقة ثبتا عاقلا ، وعقيدته من ابرز مصنفاته انتصارا للسنة ولطريقة الصحابة رضى الله عنهم فى الايمان وشواهد . . .

انظر ترجمته : فى وفيات الاعيان لابن خلكان (٧١ : ٧٢ - ١ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي : رقم ٧٩٧ ، ص ٨٠٨ - ٣ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٤٦٦-٤٩٢ ط ٣ المكتب الاسلامي ، دمشق .

وقال القرطبي (١) :

* فالصحابه كلهم عدول ، اولياء الله واصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد انبيائه ورسله ، هذا مذهب اهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الامة وقد ذهبت شذمة لا مبالاة بهم الى أن حال الصحابة كحال غيرهم فيلزم البحث عن عدالتهم . . . ولترجع إلى الكلام في موضوع الآيات .
وأما الآيات هذه فهي في ترتيب السورة الادب الثالث ، من الآداب التي يربى الله بها المجتمع المسلم وهو ادب الرواية ، والاخبار والتثبت فيها والفحص الدقيق لئلا تظلم الجماعة المسلمة نفسها بترويج الكذب وتلفيق الانبياء ، فتنشأ على تناقضات وينهار منهجها في الحياة . . . !

ان المؤمنين الذين لا يسابقون القرآن والسنة ولا ينازعونها في الحكم لانفسهم ولغيرهم ، ولا يرفعون اصواتهم فوق صوت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقدمون شخصيته حيا وميتا ، ولا ينزلونه منزلة كمنزلة غيره من الناس ، ان هؤلاء يجدربهم الا يروجوا الباطل والكذب ، ويشيعوا بينهم مالم يكن . . . بل عليهم ان يتثبتوا ويدققوا فلا يقولوا الا الحق ، ولا يروا الا الصواب من القول والفعل متأثرين بمصدر تربيتهم وهو القرآن الكريم والسنة الطاهرة .

(١) الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر فرح الانصارى القرطبي - كان ممن عباد الله الصالحين كان كتابه من أشهر الكتب في التفسير توفي سنة ٦٧١ في ثوال ترجمته الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون : ٣٠٨-٣٠٩ ج ٢

(٢) تفسير القرطبي : ٣٩٩ ج ١٦ .

" يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيوا قوما بجهالة
فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " (١)

قرىء فتشوا بالثاء وهما قراءتان صحيحتان ثابتان ومعناها واحد ، وكل
واحدة تشهد للآخرى . (٢)

والآية في كل تراكيب جملها وكلماتها تفيد العموم ، فكما ان النداء وخطابه
يعم المؤمنين في كل زمان ومكان ، فكذلك اسلوب الشرط وما في حيزه دلالة العموم .
وقد نكر الكلمتين " فاسق ونبا " وهما في سياق الشرط وذلك من صيغ العموم ،
ولكن عموم التثبت من النبا مشروط بان يكون نبأ فاسق ، والا فمن الانبياء ما لا يحتاج
الى تثبت وما يباح فيه ؟ " لانه علل الامر بانه اذا جاءنا فاسق نبأ خشية ان نصيب
قوما بجهالة ، فلو كان كل من اصيب نبأ كذلك لم يحصل الفرق بين العدل
والفاسق ، بل هذه الادلة واضحة على ان الاصابة بنبا العدل الواحد لا ينهي
عنها مطلقا ، وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات ،
وفيه ايضا انه متى اقترن بخبر الفاسق دليل اخر يدل على صدقه فقد استبان الامر
وزال الامر بالتثبت ، فتجوز اصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة اذا تبين
بهما الامور ، فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة اخرى " (٣)

(١) النبأ في اللغة : الخبر ، ولا يقال للخبر نبأ الا اذا كان ذا فائدة عظيمة وذا
اهمية " قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون " وقوله : وجئتكم من سبأ نبأ يقين "

انظر : اللسان : ١٦٢ - ١

نادمين : الندم الغم وهو الاسف على ما وقع وفات ويقال للرفيق النديم ،
والندم ايضا الاثر

انظر اللسان : ٥٧٢ - ١٢

(٢) انظر تفسير الطبري : ١٢٣ - ٢٦

(٣) تفسير سورة النور لابن تيمية : ٣٧ - ٣٨ ط ١ سنة ١٣٩٧ هـ ، مكتبة النار ،
الكويت .

والآية هذه من الاصول التي اخذ منها السلف الصالح قبول خبر الواحد غير

الفاسق لامرين : -

الأول : انه علل عدم قبول خبر الواحد بالفسق لا لكونه خبر الواحد ، والا لزم

/ توارد العلتين على معلول واحد ، والعلة الثانية تحصيل الحاصل لان

خبر الواحد معلل رده بذاته قبل الفسق .

الثاني : ان الامر بالتبين يشترط فيه مجيء الفاسق بالخبر وهذا مفهوم الشرط

وهو معتبر على القول الصحيح فالعمل بخبر الواحد واجب اذا لم يكن

فاسقا .

بل وقد استدلت طائفة من العلماء بالآية على قبول خبر مجهول الحال

وهو الذي لا تعلم عدالته ولا فسقه ، فلا يلزم التثبت فيه ، لان الفسق شرط وقد انتفى

ظاهرا ، ورفض خبر المجهول آخرون لاحتمال فسقه ، لان انتفاء العلم بالفسق

لا يدل على عدم الفسق (١) .

بل ان الفاسق نفسه لا يرد خبره مطلقا ، لان الخبر الصادق لم تأت الشريعة

برده ابدا واذم الله من يرد الحق * وكذلك الدلالة الظاهرة لا ترد الا بما هو

مثلها او اقوى منها ، والله سبحانه وتعالى لم يامر برد خبر الفاسق بل بالتبني

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي : ١٢٠ - ٢٨ السألة (٤) ،

وتفسير ابن كثير : ٢٠٨ - ٤ ،

وروح المعاني للالوس : ١٤٦ - ٢٦ .

والتبين فان ظهرت الادلة على صدقه قبل خبره وان ظهرت الادلة على كذبه رد خبره وان لم يتبين واحد من الامرين وقف خبره * . . . والحق يقبل من ولى وعدو ، وحبیب وبغیض ، وبر وفاجر ، ويرد الباطل على من قاله كائنا من كان ، فكل ما فى الامر انه تعالى امر بالتبين فى خبر الفاسق وشهادته ، فان وجدت قرائن تدل على صدقه عمل بخبره ، وكثير من الفاسقين يصدقون ويتحرون الصدق ، ولوردت شهادته ورواية مثل هذا لتعطلت اكثر الحقوق وبطل كثير من الاخبار الصحيحة ، ولا سيما من كان فسقه من جهة الكذب فانه ينظر فى كثرته وقلته ، ويعامل معه حسب ذلك . (١)

وأما الادلة على العمل بخبر الواحد فكثيرة كهذه الآية وغيرها من النصوص وقد ذكر البخارى فى جامعه كتابا سماه " كتاب اخبار الاحاد " وذكر فيه نصوصا تدل على العمل بخبر الواحد الصدوق ، وقدم لها بهذه الآية وقبله الامام الشافعى فى رسالته التى ناظر فيها من لم يقبل خبر الواحد ، وذكر فيها الادلة المقنعة من الكتاب والسنة ، فالعمل بخبر الواحد واجب وهو موضع الاتفاق بين السلف الصالح . . . (٢)

وخبر الفاسق فى حد ذاته يدعو الى التثبت ولا يجوز رفضه الا بعد التحقق ، ومع هذا فان فى الآية تعليلا ينذر المؤمنين ويخوفهم النتائج التى تترتب على قبول الاشاعات بدون تثبت ، وهى ظلم من يكذب عليه واصابة حقه او عرضه والعدوان

-
- (١) انظر : اعلام الموقعين لابن القيم : ١٠٤ ح ١ والتفسير القيم له : ٤٤١ ط لجنة التراث العربى ، بيروت .
 (٢) انظر : فتح البارى على صحيح البخارى : ٢٣١ ح ١٣ والرسالة للامام الشافعى : فقرة : ٩٩٨-١٢٦١ ، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي : ٩٦-١٠٢ المجلد الاول .

عليه بجهالة ، فيصير من ساقته الاشاعات وحملته على ظلم غيره واتهامه بلا سبب موجب وخبر صادق ، يصير الى الغم والحزن والندم بعد فوات الاوان ووقوع الذنب منه * ان تصيخوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * (١)

* ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التحيص والتثبت من خبر الفاسق ، فأما الصالح فيؤخذ بخبره ، لان هذا هو الاصل في الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء ، والاخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لانه احد مصادره . اما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الاخبار ، فهو مخالف لاصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة ، والاسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداءً ، وهذا نموذج من الاطلاق والاستثناء في مصادر الاخبار * (٢)

ان منهج الدعوة الاسلامية ثابت الجذور ، عميق الفكرة ، ومن قواعده تربية المجتمع على الصدق والتزامه لانه مبدأ الحسنات وركيزة القوة والقيادة ، وخلاف ذلك هو الكذب الذي هو اساس السيئات ونظام الفسق والطريق المؤدى الى الضعف والعدوان ، وذلك من وجوه :-

الاول : الفارق بين الانسان والدواب هو المنطق فاذا فسد بالكذب كان الانسان أسوأ حالا من البهيمة العجماء وسلب حقيقة الانسان .

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٢٠-١٢١ هـ ٢٨ ،

وروح المعاني للالوس : ١٤٧ هـ ٢٦

(٢) ظلال القرآن للسيد قطب : ٣٣٤١ هـ ٢٦ المجلد ٦ .

الثاني : ان ابرز صفة تميز بين النبي المرسل من الله والمنتبىء هي الصدق

والكذب ، قال تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ الْيَسْرَ فِي جَهَنَّمَ
شَوْى لِلْكَافِرِينَ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * (١)

الثالث : الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي الصدق ، كما روى عن انس

رضى الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثٌ من كن
ففيه كان منافقاً إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى خان * (٢)

الرابع : الصدق هو اصل البر ، والكذب اصل الفجور كما في الصحيحين عن

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي
إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى
الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ
يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ
يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا * (٣)

الخامس : ان الصادق تنزل عليه الملائكة مؤيدة له ، والكاذب تنزل عليه الشياطين

وتزيده رهقا . قال تعالى : هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ

(١) الآيتان من سورة الزمر : ٣٢-٣٣

(٢) رواه البخارى فى كتاب الادب ، فتح البارى : ٥٠٧ هـ ١٠ ،

ومسلم والنووى على صحيح مسلم : ٤٧ هـ ٢ .

(٣) رواه طالبخارى فى كتاب الادب - فتح البارى : ٥٠٧ هـ ١٠ ،

ومسلم - النووى على صحيح مسلم : ١٥٩ - ١٦٠ هـ ١٢ .

تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَآكُثْرَهُمْ كَانِ بُونَ * (١)

السادس : الفرق بين الصديقين والشهداء والصالحين وبين المتشبه بهم من المرائين والمستمعين والملبسين هو الصدق ، والكذب *

السابع : الصدق مقرون بالاخلاص الذي هو اصل الدين في الكتاب . قال تعالى :
* وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حِنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ * (٢)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بالأكبر الكبائر الأشراك بالله ، وعقوق الوالدين * وكان متكئا فجلس فقال : * ألا وقول السزور ألا وشهادة الزور * فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت * (٣)

الثامن : الصدق هو ركن الشهادة الخاصة والعامة ، وقد ميزت هذه الأمة بالصدق فشهدت على غيرها قال تعالى : * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ * (٤) بل الصدق هو ركن النبوة والرسالة ورواية الاحاديث والاخبار والفتيا بحكم الله والمعاملات وحتى الروايات الصادقة ، كل ذلك جاءت به النصوص وكان اصلا لمنهج الدعوة .

التاسع : العارفون بالله اتفقوا على ان اساس الطريق الى الله هو الصدق والاخلاص ، ودل على ذلك اجماع الأمة ، والمجتمع المسلم لا يثبت الا اذا بنيت

(١) الايات من سورة الشعراء : ٢٢١-٢٢٣ ،

(٢) الآيتان من سورة الحج : ٣٠، ٣١ .

(٣) رواه البخارى - الفتح : ٢٦١ هـ .

(٤) الاية من سورة البقرة : ١٤٣ .

اسمه على الصدق ، وهو المطلوب منه ^(١) . قال تعالى :
 * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ^(٢) وقال تعالى :
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ
 أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِنَّ ^(٣) *

وقد ضرب سلفنا الصالح في منهجهم العلمى اروع مثل امثالا لهذا
 التوجيه من الله تعالى فى تحرى الصدق والتثبت فى الرواية وتقبل الاخبار ونعت
 الرواة وروايتهم والمخبرين واخبارهم باوصاف وشروط وضوابط تنزل كل واحد منهم
 منزلته وتوضح لغيره محاسنه وساؤه فى الصدق والضبط فى موضوعية ومنهجية لم
 تفرق بين الراوى وروايته والمخبر وخبره والتلميذ وشيخه ، بل تناول النقاسد
 المسلمون كل ذلك باسلوب ومنهج دقيق والامانة التى لم تعرف لغيرهم . . فوجد
 عندنا نحن المسلمين هذا العلم العظيم الجليل القدر * علم الجرح والتعديل
 وعلم الرجال ومصطلح الحديث ما يتعلق بالسند والمتن على حد سواء . . . ! *

هذا ويجب التحفظ والحيطه من الكذب والكذبة ومن الترويج والمروجين
 الذين يخطئون وهم لا يشعرون فكيف بالذين يشعرون بخطئهم وهم يقصدون
 الخطأ والترويج . . . ! فاذا لم نتثبت من هؤلاء وما يروجونه فاننا سنظلم انفسنا
 ونجهل على غيرنا ولا ينفعنا الندم بعدما نحمل هذه الاوزار ونحملها غيرنا ، وتفترق
 شملنا وتنسف وبوحدتنا . . . !

(١) الفتاوى لابن تيمية بتصرف : ٢٤-٢٨ - ٢٠

(٢) الاية من سورة التوبة : ١١٩

(٣) الاية من سورة النساء : ١٤٠ .

ان هذه الآية توجيه اعلامى رائع بعلمنا الله العليم الخبير فيه كيف نأخذ من أنفسنا وتلقى من غيرنا وماذا نتلقاه . . . ! ؟ وحبذا لو فهم كتابنا هذه التربية القرآنية ، واهتم العربون بها وانطلقوا من مفهومها كما كان سلفنا الصالح ، ولو كان الأمر كذلك لما راج باطل كثير فى مجتمعنا الاسلامي ، ولما حدثت فتن وحروب بين المسلمين بسبب ترويج الكذب وتلفيق الباطل .

ان الحرب النفسية التى يثيرها الاعداء فى ايماننا هذه ليست جديدة فى علاقات المجتمعات انما الجديد الاسلوب الذى يستهدف اثاره القلق وتفجير الاضطراب باعلامه ودعاياته فلا عاصم من هذا الا التعلق بالله والعمل بتوجيهه وهو التريث والتثبت من كل نبأ . قال تعالى : ^(١) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ،

فالاشاعات التى كانت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لا تزال تمتد وترجع مجتمعنا سواء منها ما كان صادرا من المسلمين او صادرا من اعدائهم فالحيطة واجبة لمصلحتنا ، ومن هذه الارجاجات والاشاعات قصة الافك التى استهدفت الرسول صلى الله عليه وسلم وبيت ابى بكر الصديق رضى الله عنه ، والصحابة جميعا ، وكل ذلك يجب ان يتجنبه المؤمنون ويكونوا على حذر منه .

(١) الاية من سورة ال عمران : ١٧٣ .

والدعوة الاسلامية تلى على المجتمع المؤمن ازاء الاشاعات موقفين :

الاول : أن يثق المؤمنون بانفسهم مع التثبت على الصدق ولا يتزعزعوا ويجتهدوا في الوصول الى الدلائل الواقعية بالاسلوب الاصلح والضحج الصادق « لَوْلَا اِنْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ » (١) وبذلك يسلم المجتمع من الهوس واثار السلبية على الروابط في وحدته ورحمه ويفلق كل النوافذ لمثل هذا .

الثاني : الحد من الشائعات وتضييق الابواب اليها فلا تنقل وتنتشر بين المجتمع ولا يخوض احد فيها « اِنْ تَقَوُّنَهُ بِالْأَسْنَتِكُمْ ۖ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » (٢)

والواجب من المجتمع ان يكون في الموقنين دائما وابدا حذرا ومتيقظا ومتلبسا بالصدق والعدالة « يَعْظُمُ اللَّهُ اَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ اَبَدًا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٣)

ان من مبادئ الايمان الصادق ، لاجل سلامة المجتمع ، ان يكف المؤمنون عن تناقل الاشاعات الكاذبة من انفسهم ومن الاعداء ، لانها تستهدف تحطيم وحدتهم والتشكيك في قيادتهم السليمة . . . والا صار المجتمع غير مترابط وغير منتج ويعيش في قلق وخوف . (٤)

(١) الآية من سورة النور : ١٢ .

(٢) الاية من سورة النور : ١٥ .

(٣) الاية من سورة النور : ١٧ .

(٤) القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهي بتصرف : ٩٥-١٠٠ ،

وانظر تفسير سورة النور للمودودي : ١٢٠١-١٢٢

ولخطورة هذا الموقف على المجتمع المؤمن الذي يجب ان يكون دائما صاحب حجة وبينة ، جاء في الآية التي نحن في صدها ما يشير الى عتابهم ويأمرهم الله فيها بالثبوت ، ولقائل ان يقول : اذا كان المسلمون الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم غزو هؤلاء والايقات بهم لم يحملهم على هذا الا الغيرة لدين الله وحب الجهاد فلا لوم عليهم . . . ! قيل له وان كان الامر كذلك وانهم بريئون من قصد العدوان على الغير ، ولكنهم لا ينبغي ان يقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا القبيل وما يتعلق بالتشريع والوحي ينزل عليه ويؤمر بما هو اصلاح وانفع ، وخاصة ما يتعلق بالدماء واستباحة الاعراض والاموال فان ذلك لا يدعو الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين الى شيء منه الا بتوجيه من الله سواء بما انزل عليه قرآنا او بما الهمة من السنة كله وحي من الله تعالى ، وما غزا رسول الله عليه الصلاة والسلام غزوة واحدة برأى الناس ، وانما كان يستشير اصحابه رضوان الله عليهم فيما يتعلق بالمسيرة والتنظيم والترتيب لميدان المعركة ، بعدما يؤمر بالغزو ،

وما يفهم من سياق الآيات والروايات في الحادثة انه صلى الله عليه وسلم لم يطلب مشورتهم في هذا وانما ابدوا استعدادهم لغزو هؤلاء وعبروا عن غيرتهم ، وارسل الرسول عليه الصلاة والسلام من يثبت ،

ولما كان هذا التسرع من بعض المسلمين ولم يكن نتيجة لمشورة استشارهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموقف ، ولا كان بنياً ثابتاً صادقاً يعتمدون عليه في اهبتهم هذه في قتال الا برأى وحمل الرسول على غزوهم ، وما كانت الغزوات السابقة برأى فرد أو افراد ، وانما لامر من الله تعالى ومن رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الامر ،

كذلك خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين في الآية الثانية معاتباً لهم ومذكراً لهم ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بين اظهرهم ويجب عليهم ان يعظموه ويوقروه ويتأدبوا معه ، وينقادوا لامره ، لانه اعظم بمصالحهم في السلم والحرب ، لان الله اعظم ، وهو اشفق عليهم ، ورأيه فيهم اتم من رأيهم لانفسهم ، كما قال تعالى : " النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ " (١) ،

ولا تخلو بعض الآراء منهم بالنسبة لمصالحهم من الخطأ وعدم اصابة الحق ، وهو لو قدم لهم الطاعة فيما يرون لاصابهم العنت ولوقعوا في حرج كما جاء في الآية : " لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم " ،

فلم تكن هذه المبادرة منهم غير الرأي المنوع في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضرة الوحي . (٢)

قوله تعالى : " وَأَعْلَمُوا أَن نَّبِيكُم رَسُولٌ لِّلّهِ لَوْ يَطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنَتُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (٣)

يبدو ان نبأ ما غير صحيح او حادثة نسبت لبعض من دخل في الاسلام ، وأثار ذلك عاطفة المسلمين وغيرتهم لدين الله ولعهده رسوله عليه الصلاة والسلام ، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل التثبيت من حقيقة الامر - غزو قوم

-
- (١) الآية من سورة الاحزاب : ٦
 (٢) انظر تفسير ابن كثير : ١٢٠ ج ٤ والكشاف للزمخشري : ٥٦١ ج ٣
 (٣) لعنتم : العنت : من المعانته كالمعاندة ، ولكن المعانته ابلغ لانها معانده فيها خوف وهلاك ، يقال عنده فلان اذا وقع في امر يخاف منه التلف يعنت عننا ، والعنت : الهلاك والمشقة والفساد ، ويقال اعنت العظم اذا كسر بعد الجبر ، وقد ورد في الآيات (لمن خشى العنت منكم النساء : ٢٥) وقوله : (ودوما عنتم آل عمران ١١٨) =

وتأديبهم لفداحة ما قيل عنهم ، ويوهم انهم ارتدوا عن الاسلام ، فمنعوا ركنا من
اركانه وارهبوا رسول رسوله صلى الله عليه وسلم . (١)

وكان اسلوب الاية البياني في غاية الدقة والوضوح لعتاب هؤلاء فيما تسرعوا
به وتقدموا به بين يدي الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، قبل ان يراجعوه ويستفتوه
في شأن من يريدون قتاله وغزوه ، فلفت انظارهم الى ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بين اظهرهم ، ونزلهم منزلة من لا يهوى عن ذلك ، لعدم مراجعته واستفتاءه ،
وذكرهم بانه بين اظهرهم ، وترك خطابهم بوجوب مراجعة الرسول عليه الصلاة
والسلام ، لانهم لا يعارضون فيه ، ويستلزمه وجوده بينهم ، وفي هذا حسن
التوجيه ، وبلاغة العتاب . (٢)

هذا وقد جرب المسلمون في بعض المواقف انهم كلما حملوا الرسول عليه
الصلاة والسلام على امر جاءت النتائج على غير ما يحبون وذلك كالكراهم الرسول صلى

- وقوله (عزيز عليه ما عنتم " التوبة : ١٢٨) وكلها بمعنى المشقة ، وقوله :
(ولو شاء الله لاعتكم " البقرة : ٢٢٠) وقوله (وعت الوجوه للحى القيوم "
طه : ١١١) اى نلت وخضعت ،
انظر : المفردات للراغب : ٣٤٩ ،
ولسان العرب مادة عنت : ٦١ ح ٢ والقاموس : ١٥٩ ح ١
، الفسوق : الفسق العصيان والترك لامر الله عز وجل ، والخروج عن طريق
الحق والميل الى المعصية ، يقال فسقت الرطبة من قشرها ،
والفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على الناس ، ولم يسمع في كلام الجاهلية
ولا في شعرهم فاسق ، والفسق قد يكون شركا ويكون ذنبا كقوله تعالى :
(اوفسقا اهل لغير الله " ١٤٥) وقوله في الاية التي معنا (بشئ الاسم
الفسوق بعد الايمان) وقال في شأن ابليس (فسق عن امره " الكهف . ٥)
اى خرج عن طاعة الله ، وسميت بعض الحيوانات فواسق لخيشهن .
انظر : لسان العرب في مادة فسق : ٣٠٨ ح ١٠ والقاموس : ٢٨٥ ح ٣ .
(١) انظر : زاد السير لابن الجوزي : ٤٦ ح ٧ وروح المعاني للالوس : ١٤٨ ح ٢٦ .
(٢) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٢٣ ح ٢٨ وروح المعاني للالوس : ١٤٨ ح ٢٦ .

الله عليه وسلم الخروج يوم احد وكان من رأيه الا يخرج بل ان يقاتل المشركين من داخل المدينة . (١)

ومن هذا التعليم والتوجيه الرباني نجد ارفع اساليب الدعوة في القرآن فقد تحدد خطاؤهم ووجه الخطأ وهو ارادة حمل الرسول عليه الصلاة والسلام على ما لم يؤمر به بالوحي المنزل عليه او الطهيم له ، في حضرة الوحي ، ولا داعى لمسايقته كما علموا في اول السورة * يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله * (٢) فهذا ادب عزيز يسمو بالمؤمنين ولا ادل على هذا من وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع الكتاب والسنة دون الرأى السابق لهما أو اللاحق بعدهما الى يوم تقوم الساعة ، فليس هنا مجال للاستحسان .

واستمرت الآيات في بيان كان من دلالتة أن الصحابة رضى الله عنهم ، لا يريدون غير الحق ، ولا يحيون الا ما يحيه الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا يقصدون مخالفتها ، فاذا بدر من بعضهم ما يدل على نقص الانسان وعدم عصمتهم ، فان واقعهم الاسلامي وعبوديتهم الكاملة لله يحد من ذلك ، ففي نهاية الآيات ما ثبت الثناء عليهم بعد العتاب وهو * ولكن الله حبيب اليكم الايمان وزينه فسى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون *
فهذا يرد كيد الكائدين ويبهت مقالة من ينساق وراء الشبهات ولا يحسب للنبيوة

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٤٧ ج ٣

(٢) راجع الفصل الثالث من هذه الرسالة *

وصحبتها حسابا كالذين نالوا من الوليد بن عقبة بسبب توهمه وظنه - ان صح -
والذين يخوضون في شأن الصحابة بسبب ما جرى بينهم وكانوا فيه مجتهدين . . . !

وقد ركب بعض المفسرين صعبا والتزم ما لا يلزم ، فرأى ان هذا الاستدراك
استثناء والمخاطبين به غير المخاطبين في اول الآية ورأى ان ذكر صفتهم أغنى عن
ذكرهم ليحتاط بذلك عن المعنى " لكن " الواقعة محل أداة الاستثناء ، وهو
مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا . (١)

والحق أننا لم نجد في سياق الآية ودلالاتها الظاهرة ما يدل على هذا
التفريق والتمييز بين الاصحاب رضى الله عنهم ، وان كانوا لا يشتركون في ذلك
الخطأ غير المقصود ، وهم مشتركون في حب الايمان وتزينته في نفوسهم . وان تفاضلوا
في ذلك وتفاوتوا ، كما انه لم يرد نص من الكتاب العزيز والسنة الطاهرة على
أن قوله تعالى : " واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم "
خطاب لفريق ، وقوله : " ولكن الله حبيب اليكم الايمان . . . " خطاب لفريق آخر
يغاير الآخرين في الصفات " الفريق الاول " .

وأما اسلوب " لكن " في العربية التي تنزل بها القرآن ، فهي ترد للاستدراك
وللتوكيد ولا بد ان يناقض ما قبلها لما بعدها وثبت لما بعدها حكم يخالف الحكم
لما قبلها . (٢)

(١) كالزمخشري في كشافه : ٥٦١ ح ٣ وقلده الرازي في تفسيره الكبير : ١٢٢ ح ٢٨
والقرطبي : ١١٤ ح ١٦ .
(٢) انظر مغنى اللبيب لابن هشام : ٢٩ ح ١ .

والذى قبلها هو قوله : (لويطيعكم) فالاستدراك واقع منه فيكون
التقدير (لكنه لم يطعمكم لان الله حيب اليكم الايمان ،
ولكن هنا لمجرد العطف ، لترابط الآية في سياقها وخطابها ، فالمخاطبون بقوله
" لويطيعكم " هم المخاطبون بقوله " ولكن حيب اليكم " ولا يستلزم هذا انهم
جميعا ارادوا الوقعة بأولئك القوم .

وكانت كلمة " الفاسق " في الآية الاولى ، فرصة سانحة لصاحب الكشاف
ليبنى عليها كل الهنات ، فاذا كان الفسوق في القرآن له مدلولات ويرد لمعان
فانه عند المعتزلة ليس له الا مدلول واحد وهو الخروج من الايمان ، يقول صاحب
الكشاف : والفسوق الخروج عن قصد الايمان ومحجته بركوب الكبائر " وهو قد ذكر
ان الآية نزلت في الوليد رضى الله عنه ، ومن مغالطاته استدلاله بقوله تعالى : ولكن
الله حيب اليكم الايمان " بخلق العبد فعله فقال : وَكُلُّ ذِي لَبٍِّّ رَاجِعٌ إِلَى
بصيرة وذهن لا يقضى عليه ان الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها
يوعدى الى ان يثنى عليهم بفعل الله " (١)

فقد عكس مدلول الآية وحرف المقصود بها ، فهي عند المفسرين رد على من
يزعم أن الانسان يخلق افعاله ، (٢) والله يقول : وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ " (٣) ولكن
صاحب الكشاف فيما يظهر من كل عباراته في هذه الآيات يريد ان يصنع البضاعة

(١) الكشاف : ٥٦٢ ح ٣ ،

(٢) انظر تفسير القرطبي : ٣١٤ ح ٣

(٣) الآية من سورة الصافات : ٩٦ .

المزجات في المصانع الاعتزالية الخاصة ، تلك الهضاعة هي البدعة المعروفة فـسـى
جدلهم * المنزلة بين المنزلتين * والمقصود بها : لا مؤمن ولا كافر . (١)

فاذا كان الفسق في الآية الاولى وصفا اخرج من اتصف به من الايمان فسـى
منهج الاعتزال فهذه منزلة عندهم بين الايمان والكفر وقد ارادوا عزل اول الايات
عن آخرها حتى يتم لهم ما ارادوا * والامر ليس بعجب لانه يوافق اصل منهجهم
وهدفهم وهو صرف كتاب الله عن مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم .
وانما العجب ان تخفي هذه اللوثة الاعتزالية هنا في تفسير الآية على من يرد على
الزمخشري في كشافه . . . ! (٢)

هذا ولو فرضنا ان اسلوب * ولكن * في الآية استثناء فهو اشبه بالاسلوب
البيتين : -

الاول للنايبة الزباني (٣)

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ * بَيْنَ فُلُوقٍ مِّنْ قِرَاعِ الْكُتَّائِبِ (٤)

والثاني للنايبة الجعدى رضى الله عنه (٥)

فَتَى كَلِمَتِ خَيْرَاتِهِ غَيْرَ أَنَّهُ * جَوَادٌ فَلَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

-
- (١) انظر الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل : ١١ - ١
(٢) كأحمد بن المنير في انصافه فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، وكابى حيان في
البحر المحيط والقرطبي .
(٣) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبباني من مضر من فحول شعراء الجاهلية ،
انظر ترجمته في مختارات الاغانى لابن منظور : ٣٤٢ - ٣٥٥ - ٥
(٤) البيت في ديوانه : ٥١
(٥) الشاعر المشهور المعمر وهو صحابى جليل وقد اختلف في اسمه قيل قيس بن
عبد الله وقيل عبد الله وهو من ربيعة عاش مئة وعشرين سنة وقيل مات وله مئتان
وعشرون سنة وقيل وثلاثون في زمن الزبير باصبهان ، انظر ترجمته في الاصابة
: ٥٢٢ - ٥٤٠ - ٣ ومختارات الاغانى لابن منظور : ١٣١ - ١٤٨ - ٣ .

لان الخطاب الاول فى الاية فى قوة نفى طاعة الرسول لهم ، صلى الله عليه وسلم ، وما له انهم لم يقعوا فى العنت والخطاب الثانى تأكيد لذلك لانهم حيب اليهم الايمان وكرهوا نواقضه .

ولم يكتف الله سبحانه وتعالى فى الشفاء على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيه بحبيبهم للايمان فحسب ، بل وبإيمانهم الايمان الراسخ وكأنه زينة فى قلوبهم وبعمالهم قولية وفعلية ، وقد ذكر الله تعالى الامور الثلاثة الكفر والفسوق والعصيان فى مقابل ذلك الايمان وبه يعلم كمال ايمانهم لاجتماع ثلاثة امور فيه :

الاول : تصديق بالجنان فقوله : وكره اليكم الكفر ، فى مقابلة قوله " حيب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم " وهو التصديق بالجنان .

الثانى : اقرار باللسان ، فالفسوق وهو الكذب فى مقابلة الاقرار باللسان ، فكره الى المؤمن الكذب وهو الجحود ، وحبب اليهم الاقرار بشهادة الا اله الا الله وان محمدا رسول الله " وهى شهادة الحق والصدق .

الثالث : عمل بالإركان ومقابلة العصيان ، فكره اليهم وحببهم العمل الصالح بالاركان . او يقال المعاصى على ثلاثة انواع : منها ما هو كفر ومنها ما هو فسوق ومنها ما هو مطلق عصيان وقد جنب الله الصحابة كل هذه الانواع وقد جمعوا بهذا محاسن الاعمال والاقوال ومكارم الاخلاق ، اولئك هم الراشدون المهتدون ، وفقهم الله بذلك تفضلا منه وكرما وانعاما وهو العليم الحكيم فى توفيقهم وما اختارهم اصحابا لرسوله عليه الصلاة والسلام

الا لحكمة يعلمها هو . (١)

وخلص القول في الحادثة ، أن بعض المسلمين اراد ان يحملوا الرسول عليه الصلاة والسلام على غزو بني المصطلق قبل ان يتثبت من امرهم ، هل هم مرتدون عن الاسلام أم ثابتون على دينهم ، فلم يوافقهم الرسول عليه الصلاة والسلام بل ارسل من يتثبت في الأمر ، وعلم انهم على اسلامهم ، ونزلت الايات عامة شاملة وأدبت المسلمين ووجهتهم الى ان طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام لكم دون التقيد بالوحي ما يصيبكم به العرج والشدة ، ودون التثبت والتحقيق في الأمر ، كل ذلك يؤدى الى عواقب وخيمة ونتائج سيئة ، ولغت الله سبحانه وتعالى انظارهم الى ان حبهم للايمان ورسوخه في نفوسهم ، وكونه زينة وجمالا في قلوبهم واهوائهم ، وكراهتهم لما يناقضه وبغضهم له ، كل ذلك ينهى المؤمنين عن ترك التثبت ويصرفهم عن محاولة حمل الرسول صلى الله عليه وسلم عن موافقة الرأى المسابق للوحي ، فكان آخر الآيات ثناء عطرا عليهم ، دليلا على استجابتهم لله تعالى وطاعتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وان ما بدر من بعضهم نتيجة التوهم والظن والعجلة في الانتقام للاسلام غيرة منهم ، كل مر ولم يعلق شيء منه بهم ، فأصاب التوجيه الربانى الهدف فيهم ، ولبوا نداءه وعادوا كما كانوا محبين للايمان وراسخين فى لوازمه وكارهين نواقضه .

(١) انظر تفسير الخازن : ١٨٥ ج ٦ مع البغوى .

وبعد فانه لا بد لنا من وقفة هنا ، فقد عرفنا من منهج الدعوة ثلاثة اصول من
اسس بناء المجتمع المسلم الفاضل كما يريدہ الله ، ويحبہ ، وارسل به رسله عليهم
وعلى رسولنا افضل الصلاة والتسليم ،

الاصل الاول : منهج الدعوة الاسلامية في تربية المجتمع على الصدق والتثبت في
الرواية الاخبارية ، والاعلامية ، والاعتماد على الصادقين من المجتمع المسلم
والتثبت من غيرهم مهما كانت منزلته .

الاصل الثاني : منهج الدعوة الاسلامية التنبيه على ان من الخراب والدمار
للمجتمع ، ان تحمل الرعية ولى الأمر على ما تهوى وتطيه عليها عاطفتها ، من
غير رجوع الى الحق ومراجعة لولى الامر المطلع واهل الرأي والمشورة والعلم
والتقوى . والطامة الكبرى كذلك هي ان يقوم ولى الامر بهذا الدور نفسه مع من
يسانده فيحمل الرعية على رأيه وعاطفة بطانته ضاربا الصفع عن المجموعة
السلمة التي يقودها ، فيترتب من هذين الموقفين فساد كبير وضياع وظلم
وضعف وهوان ، وهذا كتاب الله يحذرنا من الامرين ، قرأ ابو سعيد الخدرى
رضى الله عنه ^(١) هذه الآية : **وَاطِئُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي سِي
كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ** . **ثُمَّ قَالَ : هَذَا نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوحى إِلَيْهِ ،
وَخِيَارُ أَيْمَتِكُمْ لَوْ اطَاعَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُوا فَكَيْفَ بِكُمْ الْيَوْمَ** . ^(٢)

(١) هو سعيد بن مالك بن سنان الخدرى الانصارى وامه آنسه بنت ابى حارثة من
بنى النجار ، وهو من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على
الا تاخذهم في الله لومة لائم ، وكان يوم احد ابن ثلاث عشرة سنة فلم يقبل في
الغزو . توفي سنة ٧٤ هـ وقيل قبل ذلك ،

انظر ترجمته : في الاصابه ٣٥ - ٢ والاستيعاب لابن عبد البر على هامش الاصابة
٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٢) اخرجه الترمذى : ٣٨٨ رقم ٣٢٦٩ - ٥ وقال : حديث حسن صحيح غريب .

الاصل الثالث : منهج الدعوة في حماية المجتمع من ذلك كله هو الايمان الراسخ الذي صار حبا وزينة وهوى في نفوس المؤمنين والعمل الصالح .

ان مقارنة هذه الاصول الثلاثة في الآيات بما يعيше المجتمع الاسلامى اليوم في كل بلاد و بين كل شعب من شعوبه ، تبين أن داءه من امور ثلاثة :

الاول : الصراع بين الرعايا والحكام من جهة وبين الرعايا مع نفسها من جهة وبين الحكام مع بعضهم من جهة اخرى ، كل يريد ان يحمل غيره على هـواه ويدعو الى ما يظيه عليه عقله فقط وتزينه له افكاره واخلاقه من غير اعتبار لغيره ولا للحق من اى جهة كان ، فهو "الاحكام المستبدون الحاكمون بفسير ما انزل الله ، والجاهير الغوغاء الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا كل اولئك شر يدمر نفسه وينهك الامة الاسلامية ويسوقها الى الخراب والخسران .

الثانى : الدعاية الاعلامية التى يبثها الاجانب بواسطة الجماهير الغوغاء والحكام الفاسدين داخل الامة الاسلامية وخارجها لتثبيت الفرقة وتدعيم البدع ونشر الفساد وتمجيد الشرك والعصيان واطراء الفسق وتزينه .

الثالث : دعم العقائد الفاسدة والالحاد كالنظريات الشيوعية والاشتراكية والعنصرية والصليبية بين المجتمعات الاسلامية بطريقة مباشرة او غير مباشرة وتغطية الاعلام لهذه النظريات وهى تتمكن تربويا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا

والعاصم من هذه القواصم انما هو تلك الاصول التى تضمنتها الآيات الكريمة " التزام الصدق واستعمال الصادقين المؤمنين " والتزام الطاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام وعدم سابقة الكتاب والسنة ، والتزام حب الايمان والتزين به وحسب

المؤمنين ، وكراهة الكفر والعصيان والفسوق مع بغض ومجاهدة الكافرين والعصاة
والفاسقين ودعوتهم وهدايتهم .

ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم وولاية الامور من بعده في أى مكان وفى
أى زمان اطاعوا اولئك لجهدنا ، ووقعنا فى فساد كبير وهلاك عظيم ، ولكن الله
سبحانه وتعالى دعا المؤمنين ورياهم على الا يفعلوا ولا يقولوا الا ما دعا اليه
القرآن والسنة ، وحبب اليهم الايمان والصلاح والمؤمنين والمصلحين . وكره اليهم
الكفر والعصيان والعصاة ، فكنا بنعمته من الراشدين المهتدين تفضلا وكرما منه ، وهو
العليم الخبير بالصادقين من الكاذبين ، والحكيم فى ان وفق هذا بالصدق
والاصلاح فى القول والفعل ، وجعل ذاك كاذبا وفاسقا ، ولا يفلح من حيث اتى ،
ولا ينيئك مثل خبير .

• مسؤولية المجتمع السلم نحو فريقين منه يختلفان أو يقتتلان •

• الآياتان التاسعة والعاشرية •

قال تعالى :

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى
الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَبْغِيَ تَغْيًى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا
بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . (١)

انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .

...

سبب نزول الآيتين :

أخرج الامام البخارى أن انسا رضى الله عنه قال * قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَوَاتَيْتَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ أَبِي (٢) فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَرَكِبَ حِمَارًا ، فَاَنْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ ، وَهِيَ أَرْضُ

(١) بغت : البغى : التناول والفساد ، ومجاوزة الحد فى الطفيان والظلم ،
والخروج عن جادة الحق ،

قال تعالى : ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم * (القصص ٧٦) وقوله
: بغى بعضنا على بعض * (ص ٢٢) ، وفى الحديث : ويح عمار تقتله الفئة
الباغية * رواه الترمذى رقم : ٣٨٠٠ وقال حسن صحيح غريب .

تغى* : اى تعود الى الطاعة ، وفا* بمعنى رجع ومنه قوله تعالى : فان فا*
وافان الله غفور رحيم * سورة البقره ٢٢٦) ومنه الفى* وهو ما عاد الى
المسلمين من المال من الكفار دون حرب كقوله : وما أفاء الله على
رسوله * سورة الحشر ٦) ،

المقسطين : هم العادلون وهو من الرباعى * اقسط * بمعنى عدل ، واما
الثلاثى * قسط * معناه الظلم والجور .

انظر المفردات للراغب : ٤٠٢-٤٠٣ ، والصاح للجوهري : مادة بغى : ٢٢٨١

٦ و قسط : ١١٥٢ ح ٣ ولسان العرب : ٧٥ ح ١٤ و ٣٧٧ ح ٧ .

(٢) عبد الله بن ابي بن سلول الخزرجى رأس النفاق وداعيته وقد دخل قسى =

سَيْخَةٌ (١) فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ قَالَ إِلَيْكَ عَنِّي ، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ . فَقَالَ .
 رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ (٢) مِنْهُمْ وَاللَّهُ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ
 فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَتَشَاتَمَا فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ ، فَكَانَ
 بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ فَبَلَّغْنَا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَظْلِمُوا بَيْنَهُمَا * (٣) ،

وفى رواية اخرى فى البخارى تشبه هذه الرواية من وجه وان لم يصح فيها
 أنها سبب النزول للآية ، وهى حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه (٤) ،
 وخلاصة الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب الى سعد بن عباد رضى
 الله عنه (٥) لعيادته وأردف معه أسامة ، وكان ذلك قبل معركة بدر ، فمررسول

= الاسلام بعد غزوة بدر ظاهرا وبقي على كقرباطنا وقد اثار كثيرا من الفتن
 كقصة الافك ودعم اليهود بما امكنه ، ومن مواقفه الدالة على كقره هذه القصة
 وقد انشد فيها بيتين :

متى ما يكن مولاك خصك جاهد * تذل ويصدعك الذين تصارع
 وهل ينهض البازى بغير جناحه * وان جذ يوما ريشه فهو واقع

انظر : سيرة ابن هشام : ٢١٦ و ٢١٨ هـ ٢ .

(١) سيخة : السيخة الارض المألعة ، تسوخ فيها الاقدام ، ولا تكاد تنبت الابعض

الشجر ، انظر : لسان العرب : ٢٤ مادة سيخ هـ ٣ .

(٢) صح به فى رواية اسامه ، وهو " عبدالله بن رواحة رضى الله عنه .

(٣) رواه البخارى ، فتح البارى على صحيح البخارى : ٢٩٧ فى كتاب الصلح هـ ٥ .

(٤) اسامة بن زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله وسلم وابن حبه ولد فى الاسلام

وتوفى الرسول عليه الصلاة والسلام وله عشرون سنة وقيل ثمانى عشرة سنة ، وكان امره

الرسول عليه الصلاة والسلام على جيش لغزو الروم فى موته وانفزه ابو بكر رضى الله

عنه وقد اعتزل اسامه الفتن وسكن الشام ثم عاد الى المدينة ومات بالجرف سنة

٥٤ هـ ، انظر ترجمته فى الاصابة : ٣١ هـ ١

(٥) سعد بن عباد بن دليم بن حارثة سيد الخزرج يكنى ابا ثابت وابا قيس ، وامه

عمرة بنت سعد لها صحبه ماتت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم سنة خمس ، =

الله صلى الله عليه وسلم بجمع فيه عبدالله بن ابي واخلاق من المسلمين والمشركين واليهود ، وذلك قبل ان يسلم ثم وقف فنزل ، فدعاهم الى الله ، وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله ابن ابي : ايها المرء انه لا احسن ما تقول ان كان حقاً فلا تؤذنا في مجلسنا ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبدالله بن رواحه رضى الله عنه ^(١) : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا ، فإننا نحسب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثارون ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ^(٢) .

وشئت رواية اخرى تشارك حديث انس رضى الله عنه في قصة الاصحاح وهي حديث سهل بن سعد رضى الله عنه ^(٣) : " ان اهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة ، فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : اذ هبوا بنا نصليح

= وشهد سعد العقبة وكان احد النقباء وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يكتب بالعربية وهو مشهور بالجوهر ، وكانت جفنة سعد تدور مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيوت ازواجه ، وكان يحمل راية الانصار وقد رويت احاديث في فضائله وتوفى سنة ١٥ هـ وقيل سنة ١٦ هـ بحوران . انظر ترجمته في الاصابة : ٣٠ - ٢ ، وانظر طبقات لابن سعد : ١٦٢ - ١٦٣ - ٨ .

(١) عبدالله بن رواحه بن ثعلبة الخزرجي الانصارى الشاعر والفارس وهو من السابقين واحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرا وما بعدها حتى استشهد يوم موته وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين المقداد وله مناقب كثيرة رضى الله عنه ،

انظر ترجمته في الاصابة ٣٠٦ - ٢ والطبقات لابن سعد : ٥٢٥ - ٣ .

(٢) رواء البخارى ، فتح البارى على صحيح البخارى : ٢٣٠ - ٢٣١ - ٨ .

(٣) سهل بن سعد بن مالك الساعدي الانصارى وكان اسمه حزنا فغيره النسبى صلى الله عليه وسلم وسماه سهلا ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس عشرة سنة وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة سنة ٩١ هـ وزعم بعض الرواه انه مات بمصر ، انظر ترجمته في الاصابة : ٨٨ - ٢ .

والتوفيق بين هذه الروايات ؟ وتحرير ما يكون سببا لنزول الآيتين وان

كانتا عامتين كما يلي :

اما حديث انس وحديث اسامة فقصتهما متحدة ، وان تغايرا في سياقهما ، فمن المحتمل ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان في طريقه لعبادة سعد ، وقال له بعض الانصار : لو أتيت ابن ابى لدعوته ونصحه فأناه* ، ولكن الاشكال لا يزال قائما من وجه آخر لقوله تعالى : " وان طائفتان من المؤمنين " فابن أبى وفريقه من المشركين واليهود لا ينطبق عليهم الوصف بالايان ، ويقال : يمكن ان يحمل على التغليب ، غير انه في حديث اسامة التصريح بان ذلك كان قبل اسلام ابن أبى ، وسورة الحجرات نزلت متأخرة سنة الوفود ، والاشكال هذا يمكن دفعه بأن الآية التي في الاصلاح نزلت قبل ذلك . وأما حديث انس وحديث سهل فالمغايرة بينهما واضحة ، لان قصة حديث سهل في بنى عوف (٢) وهم من الاوس وكانت منازلهم بقباء (٣) وقصة حديث انس في رهط ابن ابى وهم من الخزرج ومنازلهم بالعالية (٤) والظاهر ان وصف الطائفتين بالايان ينطبق على اهل قباء وهم مؤمنون جميعا وقد ركب الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم لقصد الاصلاح وأصلح ثم عاد حتى كادت الصلاة ان تغوته وقدم المسلمون ابا بكر الصديق فسي

-
- (١) رواه البخارى - فتح البارى على صحيح البخارى : ٣٠٠ هـ .
 (٢) في رواية اخرى عن سهل ذكرها البخارى في كتاب الصلح هي : ان ناسا من بنى عمرو بن عوف كان بينهم شىء* فخرج اليهم النبي صلى الله عليه وسلم فسي اناس من اصحابه يصلح بينهم . . . الحديث*
 الفتح : ٢٩٧ هـ ٥ و ١٨٢ هـ ١٣ .
 (٣) قباء ضاحية في جنوب المدينة وقد اتصل بها العمران وتجاوزها وقد نزل فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يوم قدم من مكة مهاجرا .
 (٤) ضاحية من الناحية الغربية في المدينة المنورة

(١) الصلاة فهذه القصة أقرب لان تكون هي السبب المباشر لنزول الآية .

هذا وقد ذكرت اسباب اخرى لنزول الآية ، جرت بين رجلين او فريقين من الانصار رضى الله عنهم . . . (٢) ومهما كان من ذلك فان الرسول عليه الصلاة والسلام من صميم رسالته الاصلاح بين الناس ، والصلح خير كما فى نصوص من الكتاب العزيز والسنة الطاهرة ، ولا يخفى ان كل ما ذكر من الاسباب لنزول الآية وما لم يذكر ما يوجب الاصلاح بين المختلفين من المؤمنين ، فان الآيتين تشملان ذلك وهما عامتان فى كل خلاف وعدوان بين المسلمين افرادا وجماعات وقبائل وشعوبا ، لان العبرة بعموم اللفظ وشمول الحكم لا بخصوص السبب .

وقد رويت قراءات فى الآيتين وكلها تتفق على المعنى المقصود من الآيتين فقد قرئ : " اقتلتا " اعتبار اللفظ الطائفتين المشى ، وقرئ : " اقتلتا " بالتذكير للفعل باعتبار الفريقين او الرهطين ، واما قراءة الجمهور " اقتلتوا " فيقصد بها ان كل طائفة جماعة معها انصارها ومؤيدوها ، وقوله : أخويكم " بالثنية ، فرئ " أخواتكم " وأخوتكم " بالنون والتاء جمعاً ، واذ وقع اختلاف بين مسلمين ووجب الاصلاح بينهما كما فى قراءة الجمهور فالاصلاح بين جموع وجماعات أوجب لان فساد اكثر . (٣)

-
- (١) انظر فتح البارى على صحيح البخارى ٢٩٨-٢٩٩ هـ ٥ وعمدة القارى للعينى على صحيح البخارى : ٢٦٧ هـ ١٣ .
- (٢) انظر تفسير الطبرى وزاد المسير لابن الجوزى وتفسير القرطبى فى تفسير الآية واسباب النزول للواحدى .
- (٣) انظر تفسير ابن الجوزى زاد المير : ٤٦٣ - ٤٦٤ هـ ٧ ، وفتح القدير للشوكانى : ٦٣ هـ ٥ ط ٢ .

وللايتين ارتباط وثيق الصلة بينهما وبين الآيات التي قبلها في ترتيب السورة ، وذلك لان الله سبحانه وتعالى لما حذر المؤمنين من تصديق الانبياء الكاذبة لما يترتب عليها من النتائج التي قد يكون منها الاختلاف والقتال بين فرديين او جماعتين او شعبيين من المجتمع المؤمن ، ذكر ما يزيل تلك المفاصد ان وقعت ، واثارتها الانبياء الكاذبة وهو الاصلاح ، فعلى جماعة المؤمنين ان تقف موقف الاخوة الناصحة كما امرها الله ، وتمعيد العلاقات والاخوة الاسلامية ولو ازمها بين فريقين اقتتلا او اختلفا ، باى سبب من الاسباب ، وان ادى ذلك الى الوقوف على جانب الفريق المظلوم وسانده على الفريق الظالم . (١)

لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أَنْصُرُ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، قَالَوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ : تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ * وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : قَالَ : تَحْجِزُهُ أَوْ تَنْعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ * (٢)**

ودلالة الحديث واضحة متطابقة لما تفيد الآية الكريمة ويوجه الله به المؤمنين الذين يجب عليهم ان ينصروا المظلوم المعتدى عليه بلا حق من ظلمه ، بالدفاع عنه واخذ حقه له ، كما يجب عليهم نصر الظالم من نفسه فيحولوا بينه وبين الظلم والعتو ، واسلوب " تأخذ فوق يديه " في الحديث يشير الى الاخذ بالقوة والاستعلاء ، وهذا خلاف ما تفعله الجاهلية التي كانت تنتصر لبعضها تعصبا

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٢٦ - ٢٨

(٢) رواه البخاري - انظر فتح الباري على صحيح البخاري : ٩٨ - ٥ و ٢٢٣ - ١٢

ومسلم - النووي على صحيح مسلم : ١٣٨ - ١٦ .

(١) ويقف الى جانب الظالم اهله كما يوقف الى جانب المظلوم .

كما يقول شاعرهم :

إِذَا أَنَا لَمْ أَنْصُرْ أَخِي وَهُوَ ظَالِمٌ * عَلَى الْقَوْمِ لَمْ أَنْصُرْ أَخِي حِينَ يَظْلِمُ

وكما يقول الآخر :

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَاوَتْ * غَوَيْتَ وَإِنْ تَرَشَّدَتْ غَزِيَّةٌ أَرَشَّدَتْ

والآيتان يدور منهنج الدعوة الاسلامية فيهما من خلال معالم تطبيقية لايمان الجماعة المؤمنة ، الذي جعله الله الرباط بين الفئات السلمة :

المعلم الاول : الاصلاح ، وقد ورد في الآية الاولى والثانية ليكون الاصلاح هو

البداية والنهاية والهدف المقصود لتدخل المؤمنين سلميا وحربيا في التوفيق

بين الفريقين المختلفين ، وقد كان الاصلاح جانبا من جوانب الامر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، توعدى به الجماعة المؤمنة دورا في كل حالة من الاحوال

التي تنشب بين فردين او جماعتين او طائفتين او شعبيين ، فهو في هاتين

الآيتين منهنج من مناهج الدعوة لتسكين الفتنة وازالة الفرقة وترابط الاخوة

وتقوية الوحدة التي يجب ان تبقى فوق كل اعتبار لا تنفصع عراها ، وقد

أثنا الله سبحانه وتعالى على المصلحين ورغب في الاصلاح ، فقال عز من قال :

(١) انظر : فتح الباري على صحيح البخارى : ٩٨ ج ٥ .

ذكر الحافظ بن حجر هذين البيتين ولهمندهما الى أحد ووجدت الثاني للشاعر

الجاهلي دريد بن الصمة وهو شاعر هوازن ومخل من شعرائها وفارس شجاع وقد

جعله محمد بن سلام أول شعراء الفرسان والبيت في قصيدته يرثى بها أخاه عبد الله

حين قتلته عرس وأولها أرت جديد الجبل من أم معبد بعاقبة واخلفت كل موعود

انظر : مختارات الاغاني لابن منظور : ١٠٧ - ١١١ ج ٥

: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بَصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * (١)

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله :

* فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضى الله سبحانه
ورضى الخصمين ، فهذا اعدل الصلح واحقه ، وهو يعتمد العلم والعدل ،
فيكون المصلح عالما بالوقائع ، عارفا بالواجب ، قاصدا للعدل ، فدرجة هذا
افضل من درجة الصائم القائم * (٢)

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

* أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ، قَالُوا : بَلَى :
قَالَ : صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإِنَّ فِئَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ ، لَا أَقُولُ
تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ * * (٣)

وفى الحديث * إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَبَرَجَعَ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغَرِيبِ الَّذِي يَصْنَعُ
يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي * (٤) ويقول الرسول صلى الله عليه
وسلم : كَيْسَ الكَذَابِ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَمْنِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا * (٥)

(١) الاية من سورة النساء : ١١٤

(٢) اعلام الموقعين لابن القيم : ١٠٩ - ١١٠ هـ ١

(٣) رواه الترمذى رقم : ٢٥٠٩ - ٢٥١٠ ، وقال : حديث حسن صحيح هـ ٤ ،
وابوداود : رقم ٤٩١٩ هـ ٤ .

(٤) رواه الترمذى : ١٨ هـ ٥ رقم ٢٦٣٠ وقال : حديث حسن صحيح .

(٥) رواه البخارى - فتح البارى على صحيح البخارى : ٢٩٩ هـ ٥ وسلم - النووى

على صحيح مسلم : ١٥٢ هـ ١٦ .

فالأهمية الإصلاح بين الناس في الخير جاز الكذب لقصد الإصلاح عند كثير من العلماء استدلين بهذا الحديث ونحوه وهو الكذب الذي ليس فيه مضرة ، والذي لا يجيزونه على الإطلاق إنما سماوا هذا من باب التورية أو التعريض . (١)

المعلم الثاني : العدل والقسط في الإصلاح ، هذا هو المضمون الحقيقي لشعار الإصلاح بين جماعة المؤمنين مع نفسها ومع غيرها ، فالعدالة هي الرائد الصدوق واللواء المرفوع لجماعة المؤمنين في كل تصرفاتها ، ولقد كان العدل السيمة البارزة لمنهج الدعوة الإسلامية ، والخلق الذي يرغب غير المؤمنين بالانضمام اليهم وعنى به القرآن والسنة في تربيتهم ودعوتهم ، كقوله تعالى :
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَسُومٍ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٢)
 وقوله : وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نكَلِفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ (٣)
 وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْاٰمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٤)
 وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين الناس صدقة (٥)

(١) انظر فتح الباري على صحيح البخارى : ٣٠٠ ج ٥ والنووى على صحيح مسلم :

١٥٨ - ١٦٠

(٢) الاية من سورة المائدة : ٨

(٣) الاية من سورة الانعام : ١٥٢

(٤) الاية من سورة النساء : ٥٨

(٥) سلامي بضم المبهلة وتخفيف اللام أى مفصل ووقع في حديث أبي ذر // تفسيره عند مسلم بذلك وأن الانسان فيه ثلاثه وستين مفصلا - انظر فتح الباري : ٣٠٩ ج ٥

(٦) رواه البخارى - فتح الباري : ٣٠٩ ج ٥

وقوله : **إِنَّ الْمَقْسِطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرٍ مِّن لُّؤْلُؤٍ بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا** * (١)

وقوله : **الْمَقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِّن نُّورٍ عَنِ يَمِينِ الْعَرْشِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا زَالُوا** * (٢)

المعلم الثالث : الاخوة الاسلامية ، وهي البديل الذي تحمله الدعوة الاسلامية في

منهجها وتجمع عليه البشرية جمعاء دون التفريق العنصري والشعبارت
الجاهلية ، والاخوة هي روح الدعوة الاسلامية والبذرة الاولى التي نمت عليها
المجتمع الاول للاسلام ، وما من شيء في التعاليم الاسلامية الا ومظهره
ومضمونه الاخوة الاسلامية ، التي كانت مبررا لتدخل المؤمنين بين فريقين
منهم يقتتلان او يختلفان كما في الاية الكريمة ، وليست الاية هذه فقط هي
التي رفع فيها علم الاخوة ، بل هناك آيات كثيرة كقوله تعالى : **وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَنْزَلْنَا نِعْمَةً عَلَىٰكُمْ أَنْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بِسْمِ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** * (٣)

وقوله : **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَتَمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَأَنْ تَخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** * (٤)

- (١) يقول ابن كثير رواه النسائي ولم اجده في سنته ، وقال ابن كثير بعد ذكره
الحديث وسنده : وهذا اسناد جيد قوى رجاله على شرط الصحيح ،
التفسير : ٢١١ هـ - ٤ .
- (٢) رواه مسلم في باب الامارة - النووي على صحيح مسلم : ٢١١ هـ - ١٢ ،
والنسائي ١٩٩ هـ - ٨ ط ١ سنة ١٣٨٣ هـ وما زالوا اي مستمرين على ذلك .
- (٣) الاية من سورة آل عمران : ١٠٣ ،
- (٤) الاية من سورة البقرة : ٢٢٠ .

وقوله : فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأَخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصَ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * (١)

وقوله : أَدْعُوهُمْ لِأَيَّامِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَيَّامَهُمْ فَأَخْوَانَكُمْ
فِي الدِّينِ * (٢)

والسنة النبوية جاء فيها ما يشفي ويكفي في ان الاخوة مبدأ القوة والترابط لجماعة المؤمنين ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا ففى بيان لوازم الاخوة وعقد ها بين المسلمين افراد ا وجماعات لينسخ بذلك ما تعارفت عليه الجاهلية واعاداته ، فيقول عليه الصلاة والسلام : مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَقِّ وَالسَّهْرِ * (٣) وقوله : الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا . ثم شبك بَيْنَ أَصَابِعِهِ * (٤) وقوله : إِنْ الْمُؤْمِنُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بَنْزِلَةَ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ يَأْلَمُ الْمُؤْمِنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ كَمَا يَأْلَمُ الْجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ * (٥)

تلك المعالم اذا اتصف بها فرد أو جماعة من المسلمين لزم عليه أن يتقدم لفض النزاع وتسكين الفتنة بين المختلفين من المسلمين وازالة عوامل الفرقة وتحقيق الحق والعدالة ، وكان من منهج الدعوة الاسلامية أن يكون كل فرد من المسلمين

-
- (١) الاية من سورة التوبة : ١١
(٢) الاية من سورة الاحزاب : ٥
(٣) رواه مسلم - النووى على صحيح مسلم : ١٤٠ هـ - ١٦
(٤) رواه البخارى - فتح البارى على صحيح البخارى : ٤٥٠ هـ - ١٠ ،
وسلم - النووى على صحيح مسلم : ١٣٩ هـ - ١٦ .
(٥) رواه الامام احمد فى سنده : ٣٤٠ هـ . وقال الحافظ ابن كثير : تفرد به احمد ولا باس باسناده ، التفسير : ٢١٢ هـ - ٤ .

حبا للإصلاح وعادلا في أقواله وأفعاله ومقدرا جانبا الأخوة الإسلامية وموفيا بحقها .
 فإذا نجم الاختلاف بين فريقين من المسلمين ، وساءت العلاقات ، واشتدت
 الفرقة آل الأمر إلى القتال وسفك الدماء ، وقطع ما أمر الله بوصله من رحم يمين
 الأخوة المؤمنين ، كان ذلك يلزم البقية من المجتمع المؤمن الموهل منهم بتلك
 الأوصاف * حب الإصلاح والعدل واحترام الأخوة الإسلامية واعتبارها مبدأ *
 يلزمهم التدخل بين الفريقين ودعوتهما إلى حكم الله والتقيد بحدوده ، والانصاف
 بمقتضى حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن يأبى حكم الله من الفريقين
 ولم يستجب له فهو الباغى وحينئذ يجب على المؤمنين أن يجاهدوه ويقاثلوه ،
 حتى يعود إلى أمر الله ويقرب حكمه ، وإذا أقر الفريقان بحكم الله ورضيا به فعلى
 الوسطاء من المؤمنين أن ينصفا بينهما بالعدل ، ويقسطوا في إعطاء كل ذي حق
 حقه ، ووضع كل شيء في موضعه ، ولا يتركوا شجرة وفجوة لاختلاف آخر في
 المستقبل . . . ! (١)

ذلك لكلا تسفك الدماء السلطة وتحل الأعراض بغير دليل من الله ورسوله
 صلى الله عليه وسلم لاجل ذلك * أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين
 المقتلتين أولا فان بغت احدهما على الاخرى فحينئذ امر بقتال الباغية لا بالصلح
 فانها ظالمة ، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحق الطائفة المظلومة ، وكثير من

(١) انظر تفسير الطبري : ١٢٧ وما بعدها ح ٢٦ .

الظلمة المصلحين يصلح بين القادر الظالم والخصم الضعيف المظلوم بما يرضى به القادر صاحب الجاه ، ويكون له فيه الحظ ، ويكون الاغاض والحييف فيه على الضعيف ، ويظن انه قد اصحح ، ولا يمكن المظلوم من اخذ حقه ، وهذا ظلم ، بل يمكن المظلوم من استيفاء حقه ثم يطلب اليه برضاه ان يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه ، ولا يشتبه بالاكره للآخر بالمحاباة ونحوها " (١)

وفى عبارة ابن جرير الطبرى ما يفيد انه لا يرى الاصلاح بالقتال حتى ولو بغى الباغى ، فقال رحمه الله بعد ذكر سبب النزول وان ما حصل من التدافع بغير السيف " ولم يكن قتال بالسيوف فأمر الله أن تقاتل حتى تغىء الى أمر الله : كتاب الله ، والى حكم نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست كما تأولها اهل الشبهات ، واهل البدع ، واهل الفراء على الله وعلى كتابه ، انه المؤمن بحل لك قتله ، فوالله لقد عظم الله حرمة المؤمن حتى نهاك ان تظن بأخيك الا خيرا " (٢)

فانما كان امام المفسرين يريد القتال الذى لا يبدأ بالاصلاح ، ويتذرع به بعض الطوائف المسلمه لقتال اخوانهم المسلمين ولا يقصد به تأديب الباغى والانتصار للمظلوم ، فهو كما قال ، وانما كان يقصد منع القتال بالسيف بعد ظهور الباغى ووضوحه من الفريقين فليس الامر كذلك .

(١) اعلام الموقعين لابن القيم : ١٠٩ - ١٠٨ ،

(٢) تفسير الطبرى : ١٢٩ - ٢٦٠ .

لان ظاهر الآية قد اقتضى قتال الفئة الباغية حتى تعود الى رشدها والى حكم الله تعالى وهذا أمر عام لجميع ضروب القتال ، فان عادت الفئة الباغية بقتالها بما دون السيف قتلت بما دون السيف ، واذا لم يردعها الا السيف قتلت بالسيف ، فان السيف اداة من ادوات تغيير المنكر واقامة الامر بالمعروف ، وليس في الآية حجة لمن زعم ان البغاة يقاتلون بالعصى ونحوها ما هو دون السيف ، لان سبب نزول الآية في قوم تقاتلوا بالعصى والجريد والايدي ، بل الآيـة شاملة لكل اساليب القتال وادواته فكل طائفة بغت ولم ترتدع بالنصح والاصلاح ، تقابل بما بغت به وقاتلت ، وذلك هو العدل ، وكما ان البغى يشمل التعدي في القتال والعدول عن الصلح الذي امر الله به فان امر الله برد البغى يشمل الصلح ان قبله البغاة او القتال بالسيف ردعا عن البغى وزجرا عن المخالفة .^(١)

ومهما يكن من الامر فان هذه الآيـة هي الاصل في قتال المسلمين البغاة ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عول الصحابة ، واليهما لجأ الاعيان من أهل السنة في قتال البغاة والخارجين على الامام الشرعي ، وقد اوجب الله فيها على المجتمع المسلم اصلاح ذات البين والا الوقوف جانب الامام الشرعي او الفریق المظلوم ، ضد المعتدى الذي يريد تفريق جماعة المؤمنين ، وزعزعة وحدتها وتشتيت شملها التي لا تجتمع الا تحت امانة واحده برة او فاجرة ، ويقاء الجماعة على هذا

(١) انظر احكام القرآن للجصاص : ٤٩١-٤٩٢ ح ٣ والاحكام السلطانية للماوردي

خير من الفرقة ، وانفع من التناحر والتقاتل ، والاختلاف ، ولقد علمنا الله سبحانه وتعالى في الآية ألا نلجأ الى القتال الا بعد النصح ومحاولة الاصلاح ، واقامة الحججة ، كل ذلك فعله الامام على رضى الله عنه ، ومن معه من المؤمنين ، وهو الامام الشرعى ، في وجه البيعة وفي وجه الخوارج فحصل القتال بالسيف ، وندم بعد ذلك من اعتزل من الصحابة ولم يقاتل الفئة الباغية ، ولم يسع في النصح والاصلاح ، وهذه الآية من الحجج الدامغة لموقفهم هذا . . . وقبل ذلك قاتل ابو بكر الصديق رضى الله عنه البيعة الذين منعوا الزكاة بتأويل وهو انها سقطت بموت النبي صلى الله عليه وسلم كما قاتل المرتدين عن الاسلام جملة . (١)

ان ترك قتال البيعة المفسدين لا يجوز اعتمادا على ادلة تحرم دم المسلم وتجعل قتاله كفرا كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ (٢) وقوله : سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ (٣) وقوله : كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ ، إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا (٤) لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْتَقًا صَالِحًا مَا لَمْ يَصِبْ دَمًا حَرَامًا فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ (٤) وقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا (٥) وغير ذلك من النصوص التي لا شك في دلالتها على حرمة ما حرّمته ، ولكن ليس فيها حجة لترك

-
- (١) انظر احكام القرآن لابن العربي : ١٧٠٥ - ١٧٠٩ ح ٤ .
 (٢) رواه البخارى - فتح البارى : ٢٦ ح ١٣ ،
 (٣) المصدر السابق : ٤٦٤ ح ١٠ وسلم - النووى : ٥٤ ح ٢ .
 (٤) رواه ابو داود رقم ٥٨٤ ح ٤ ومعنا : معتقا : سريح السير وخفيف الظهر ،
 وبلغ : بالتضعيف اى أعيا وانقطع .
 (٥) الآية من سورة النساء : ٩٣ .

الباغي يعيث في الارض فسادا ، لانه استحل الدماء والاعراض وتلك النصوص تخصصها نصوص اخرى كقوله عليه الصلاة والسلام : مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا ^(١) ، وابن جرير حكى عنه قوله : لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل ، لما اقيم حد ولا ابطل باطل ، ولوجد اهل النفاق والفجور سبيلا الى استحلال كل ما حرم الله عليهم من اموال المسلمين وسبى نساءهم وسفك دماءهم ، بان يتحزوا عليهم ويكف المسلمون ايديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله عليه السلام " خذوا على ايدي سفهاءكم " ^(٢)

هذا ولا تخلو الفئات المتناحرة من امور :

الاول : ان تقتتل الفئتان على سبيل البغى منهما ، وفي هذه الحالة يجب على مجتمع المؤمنين الاصلاح بينهما وتسكين عدوانهما بالتى هي احسن ، واذالم تستجبا اوقفتا على الحق وعند حدهما باى وسيلة من الوسائل الرادعة .

الثاني : اذا كان القتال بين طائفتين لشبهة وقعت بينهما فالواجب ازالة الشبه بالحجج القاطعة والبراهين الواضحة ، واذا اُبتا وركبتا متن اللجاج لحقتا بالباغيتين وحيل بينهما وبين الفساد .

الثالث : اذا كانت احدهما باغية والاخرى محقة ، وجب الاصلاح كذلك والا لزم قتال الباغي المعتدى . . ^(٣)

(١) رواه البخارى - فتح البارى : ٢٣ - ١٣ وسلم - النووى : ٨ - ٢ وفي لفظ

لمسلم : من سل السيف علينا فليس منا .

(٢) نقلا عن تفسير القرطبي : ٣١٧ - ١٦

(٣) الكشاف للزمخشري بتصريف : ٥٦٤ - ٣ وتفسير القرطبي ٣١٧ - ١٦ .

ويُفرق بين قتال الكفار والمرتدين وبين قتال البغاة من وجوه :

- ١- قتالهم يقصد به ردعهم .
- ٢- يقاتلون مقبلين ويكف عنهم مدبرين .
- ٣- لا يجهز على جريحهم .
- ٤- لا تقتل اسراهم ومن أسنت رجعتة الى القتال منهم اطلق والا حبس حتى تنتهى الحرب .
- ٥- لا يستعان لقتالهم بغير المؤمنين .
- ٦- لا يهادنون الى مدة ولا يواعدون على مال .
- ٧- ما كان من خالص اموالهم لا يؤخذ ، وانما تؤخذ الصدقات والغنى منهم .
- ٨- لا ينصب عليهم ما ينصب على الكفار ولا تحرق دورهم واشجارهم^(١)

والعمدة في هذا التفريق وصف الله للبغاة بالايان * وان طاعتان — المؤمنين * وسامهم اخوة ، والاخوة الاسلامية لا تكون الا للمسلمين وفي هذا رد على من يكفر البغاة او المتأولين ، كما هو شأن بعض اهل البدع .^(٢)

ان منهج الدعوة الاسلامية في السورة ليرسم لنا الله جلا جلاله به * قاعدة شرعية عظيمة لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات* وهذه القاعدة المحكمة يترتب عليها اقرار العدل في الجماعة المؤمنة ، فالله يكلف

(١) الاحكام السلطانية للماوردي : ٦٠ ،

وانظر احكام القرآن لابن العربي : ١٧١٠ ح ٤ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٢٢٣ ح ٦ ،

والتفسير الكبير للرازي : ١٢٨ ح ٢٨ .

المؤمنين غير المتقاتلين التدخل بين الطائفتين لتثبيت السلام الدائم بين اخوانهم
 " ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء
 الرابطة الوثيقة بينهم ، والتي جمعتهم بعد تفرق ، والقت بينهم بعد خصام ،
 وتذكيرهم بتفري الله والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه " ،

" وما يترتب على هذه الاخوة ان يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي
 الاصل في الجماعة المسلمة ، وان يكون الخلاف او القتال هو الشذوذ الذي يجب
 ان يرد الى الاصل فور وقوعه ، وان يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الاخرين
 للبغاة من اخوانهم ليردوهم الى الصفا ، وليزيلوا هذا الخروج على الاصل
 والقاعدة وهو اجراء صارم وحازم " .

والاصل في الامة المسلمة ان يكون الامام فيها واحدا ومن نازعه يقاتل، ومع
 هذا الاصل فان النص القرآني يمكن بل يجب اعماله في كل الاحوال ، حتى عند
 تعدد الائمة في الاقطار الاسلامية " فواجب المسلمين ان يحاربوا البغاة مع الاسلام
 الواحد ، اذا خرج هؤلاء البغاة عليه . او اذا بغت طائفة على طائفة في امامته
 دون خروج عليه ، وواجب المسلمين كذلك ان يقاتلوا البغاة اذا تمثلوا في احدى
 الامامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية بتجمعهم ضد الفئة الباغية
 حتى تفي الى امر الله ، وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والاحوال" (١)

(١) ظلال القرآن للسيد قطب : ٢٢٤٣ - ٢٢٤٤ - ٢٦٠ المجلد السادس ببعض
 التصرف .
 والتفسير الحديث لمحمد عزه دروزه : ١٢٧ - ١٠٠ .

ان محتوته الآيتان من وجوب تدخل الفريق الثالث فى اى نزاع بين فريقين من المسلمين ليحرم على المسلمين ان يقفوا موقف المتفرع الصامت وفريقان من المسلمين او اكثر يحصدهم الاقتال ويشتتهم الاختلاف ، وقد تكون الطائفتان " قبيلتين " او اسرتين او مدينتين فى نطاق دولة واحدة ، ويمكن ان تكونا جماعتين ليس لاحدهما سلطان على الاخرى او دولتين كل منهما ذات سلطان مستقل بل ويبدو ان الاكثر تواردا للاقتال والاختلاف دولتان او جماعتان ليس لاحدهما على الاخرى سلطان ، لان الامر لو ظل بين عائلتين فى بلد ما او قبيلة او قبيلتين او مدينتين لا يبدو القتال لطرف ثالث ان الدولة واحدة وسلطانها قادر على الاقتصار من الباغى والزاه حدود الله ولا تعد الحكومة هذه طرفا ثالثا فكون الآيتين فى دولتين او جماعتين اسلاميتين لا تخضعان لدولة واحدة اقوى . (١)

لاجل ذلك كانت الآيتان تخاطبان الامة الاسلامية اليوم كما خاطبتا سلف هذه الامة فى ابسط خلاف وقع بين اثنين او اكثر يوم نزلت هذه الامة اليوم تدمرها حروب بين فئاتها ، وذهبت ريحها باختلاف لا يكاد ينقطع ، ليس فى المسائل الفرعية فحسب ولا فى القضايا العادية فى اساليب الحياة فحسب بل تجاوز هذا الاختلاف الى ما لا يجوز فيه كاصول الدين وانتماء الجماعة المسلمة ، التى قال الله فيها : **اِنَّ هَذِهِ اُمَّةٌ وَّاحِدَةٌ وَاَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** (٢)

(١) التفسير الحديث لمحمد دروزه : ١٢٦ - ١ بتصرف

(٢) الآية من سورة الانبياء : ٩٢ .

كل ذلك مع الاسف ، اشغل المسلمين عن الجهاد فذلوا وعن تبليغ الرسالة

الى غيرهم فاحرفوا . . . !! ،

” فالمسلمون وقد فرغوا او كادوا يفرغون من مواجهة العدو الذى كان يحيط بهم من المشركين واليهود والمنافقين ، فان ذلك من شأنه ان يتيح فرصة لطبيعة العدوان فى النفس البشرية ، فاذا لم يجد المسلمون من يقاتلون من اعدائهم ، لم يسلم الامر من ان يقع الشريينهم هم انفسهم ويقاتل بعضهم بعضا . . . فتلك هى الطبيعة الانسانية ، والتى يثقلها ما نجده ونراه من حروب وقاتل بين الاخوة المسلمين” ومن هنا نبه القرآن الكريم الى حماية المسلمين من هذا الشر الذى قد يرد عليهم من ذات انفسهم ، ولم ينبه الى عدم وقوع الشر والقتال اصلا ، لان ذلك مما لا تحتلمه النفوس احتمالا لازما مطلقا . . . فالقرآن يسلم وان كان ذلك على غير ما لا يرضاه للمؤمنين ، يسلم بالامر الواقع فى الحياة ، ويفترض وقوع القتال بين المؤمنين ، ولكنه يدعو الى اطفاء وقدة هذا الشر ، ويدعو المسلمين جميعا الى المشاركة فى اخماده ، قبل ان يتسع ويستغلظ . (١)

والآية الثانية ” **رَأٰى الْمُؤْمِنُونَ اِخْوَتَهُمْ** ” تعقيب على الآية السابقة وعلى

ما دعت اليه المؤمنين من حسم الخلاف الذى يقع بين جماعاتهم ثم هو لفت نظر الى ان الاخوة القائمة بين المؤمنين لا تتغير صفتها ولا تنقطع آثارها بتلك العوارض

التي تعرض لهم في حياتهم فإنما هي موجات من ريح عابرة لا تلبث أن تزول ثم يعود الى البحر سكونه وصفاءه وجلاله . . . ومن جهة اخرى فان الفئة الباغية لا يزال مكانها في المؤمنين ، ولا تزال لها اخوتها فيهم وان فلا يجار عليهم لانهم جاروا * (١)

هذا وللأساليب البلاغية واللطائف البيانية دور في نسج المعنى المراد ، في كل آيات القرآن الكريم ، لانه ابلغ كلام يقرأه الناس واجود اسلوب يعجز البلغاء . وقد وصل جملة * واقسطوا * بما قبلها لان القسط اساس في الاصلاح ، وفصل بين جملة * ان الله يحب المقسطين * على ما قبلها لانها جواب لسؤال نشأ من الاولى كأن ساءلا قال : لماذا نقسط ونعدل ؟ فأجيب بقوله : ان الله يحب المقسطين * والمؤمنون الحقيقيون لا يحبون الا ما يحبه الله وفصل ثانية بين قوله : انما المؤمنون اخوة * وما قبلها لانها جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا : لماذا نصلح بين المتاجرين من المؤمنين ؟ فاجيبوا بقوله : انما المؤمنون اخوة * والاخوة تدعو الى الاهتمام بالاخوان .

ان الاصلاح بين الناس بالتى هي احسن باى اسلوب ووسيلة يمكن استخدامها لهذا الغرض النبيل ، انما هو جانب من جوانب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما الدعوة الكفيلة لبناء الروابط بين افراد المجتمع المسلم وبقائها على اساس ،

(١) التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب : ٤٤٧ ح ٢٦ الكتاب ١٣ .

يكون من عايدها الطمانينه والسلام فى النفوس ، والدعوة من هذه الوجهة واجيسة
 وضرورية فى المجتمع المسلم ، وهى العلاقات الاساسية النظيفة بين افراده ، ولا تكون
 سببا لاحتراف المحترفين ، فرسالة الله تطالب المجتمع المسلم بهذا المستوى ، وان
 تكون مجموعة تنبه على الاخطاء والانحرافات التى تقع بين افراده ، سواء كانت من
 الحاكم او المحكوم ، وليست هذه الجماعة حزبا يولف ولا صنيع رجل سياسة
 او حكم ، انما هى جماعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تقصد غير المصلحة
 العامة واذا كانت ديمقراطية الحكم فى النظم المعاصرة تدور فى اطار الحزبية
 السياسية ، فان الرأى الذى تعطيه الرسالة السماوية يجب ان يكون عاليا صريحا
 وهو من خلال الدعوة الاسلامية ، وهى الدعوة التى اذا تركت ستطلى على الانسان
 مراد الله ، واذا حملها الانسان على رأيه وبيت بها غدرا لم يكن ما تعطيه لله
 انما هو للشيطان الذى سيطر على هوى الانسان . . . (١)

ان هذا المبدأ والادب الرفيع من شرع الله وحكمه من استهان به وعطله
 واخذ بغيره فقد ترك حكما وادبا أمرنا الله به وارشدنا اليه والزنا اياه ، والمسلمون
 اليوم تشتتوا بين حلول مستوردة من ملل الكفر ومع الاسف - فى شأن ما وقع
 بينهم من الاختلاف والافتتال بعدما اتخذوا منها نظاما لحياتهم الا ما شاء الله
 فناشدوها التدخل فيما بينهم والنظر فى اختلافاتهم ، وكأنهم بهذا يؤمنون بشرعيتها
 ومصلاحيه تلك الخزعبلات وانهم سيعيشون تحت سلطان محكمتها ويققى لهم ايمانهم

(١) انظر : القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهى : ١٣٥ - ١٤٠ .

ويثبت اسلامهم ولا تتأثر وحدتهم وقوتهم وهيبتهم ، والواقع يقول لهم هيهات هيهات لما تزعمون . ألم يتأمل المسلمون قوله تعالى في شأن بنى اسرائيل وهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، يَوْمَ تَحَاكَمُوا إِلَى الْجِبِّ وَالطَّاغُوتِ وَعِنْدَهُمْ حُكْمُ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى : أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبِّ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * (١)

وقوله تعالى : أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * (٢)

فنحن واياهم من آدم وآدم من تراب ، ولقد اختار الله اصولهم بنبوات كثيرة واغثروا بذلك من جهة دون ان يعملوا بما جاءهم من الله تعلقى فيزعمون انهم شعب الله المختار وابناؤه الاحياء . ومن جهة وقفوا امام النبوات موقف الخصم الجاحد ، واستحلوا قتل الانبياء واستحبوا تحريف الكتب المنزلة على اولئك الانبياء . . . فاذا وقفنا نحن المسلمين اليوم في كل مسرح وميدان ونزعم اننا ابناء الضيم واننا من سلف كان كذا وكذا . . . ولم نعمل بهذا الكتاب العزيز فانا واليهود سواء . غير انهم حرفوا وعطلوا كتبنا موقته ونحن عطلنا كتابا لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه محفوظا معجزا ، واذا كانت اجيال بنى اسرائيل قبل الاسلام

(١) الآيتان من سورة النساء : ٥١-٥٢ ،

(٢) الآية من سورة آل عمران : ٢٣ .

تلقوا التوراة والانجيل محرفين وكانت المسؤولية على من قبلهم في التحريف والتبديل ومن بعدهم من سلالة القردة والخنازير لا يدري بين الصواب والخطأ قبل نزول القرآن . . فان أجيالنا نحن المسلمين اليوم وغدا وصلها القرآن والسنة ونقلنا اليها مصونين ومنوعين من التبديل والتحريف . . فما العذر وما الجواب . . !

ان هذه الآيات التي ترسم السياسة للمسلمين في اختلافهم واقتتالهم محكمة اصيلة نابعة من الحب في الله تعالى رائدها الايمان الذي كان دوما وصفا يرشحهم في اى قضية من قضاياهم ، وكانت هذه السياسة شاملة ، تنطلق من بين الفردين المسلمين الى الجماعتين والى الدولتين والى الشعوب والقبائل التي يجمعها الاسلام والايمان ، واذا كان الله سبحانه وتعالى دعا المؤمنين واوجب عليهم الوقوف ضد المعتدى منهم والانتصار للمظلوم منهم فكيف اذا كان احد الفريقين المتخاصمين من غير المسلمين بأن كان يهوديا او نصرانيا او شيوعيا ووثنيا وماديا ، فالامر هنا بالاصلاح والانتصار للاخ المسلم المظلوم المستضعف أكد واوجب على المؤمنين عامة . . هذا نظام الله سبحانه وتعالى وتعاليم القرآن الكريم والسنة الطاهرة ،

اما نظام الجاهلية فانه يقول : لكل احد أن يهتم بنفسه ولا يبالي بغيره وهو النظام المضاد لحكمة الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المحكمات الواضحات في ان الله سبحانه وتعالى اوجب على كل مسلم ان يهتم بأخيه المسلم في اى مكان وفي اى زمان ينصره وينصحه ويكفر به سواده ويقوى به قوته ولا يختلف معه ويتدخل في شؤونه لان الله سبحانه وتعالى ادخله في شؤونه ، واما نظام الجاهلية، فانه يقول لا يتدخل احد في شأن الاخر ولو كان الاخر هذا أخاه في الايمان يشتتهم

ويشردهم ويصادرهم املاكهم وحررياتهم فريق الجاهلية وهو لا خوف عليه ولا هو يحزن لانه كما تقول الجاهلية لا دخل لاحد بينه وبين من فو قبضته وجبروته . . . !

ورب الكعبة كم انتصر الكفر وجماهيره الغربية ومن والاه من يزعم الاسلام من الطوائف البدعية الجاثمة على صدور اهل السنة والاسلام الصحيح ، تحت هذه النظرية الفاسدة التي لا تحقق للمسلمين المشتتين والمستمتع بخلافهم في العالم بين دول الكفر ، لا يحق لهم ان ينتصر بعضهم طبعه في الوقت الذي كانت الجاهلية والكفر تتساند وتتعاطف باخوتها المادية وعلاقتها الشركية فتنتصر لبعضها من داخل بلادها وداخل بلاد المسلمين . . . !

ورب الكعبة كم خسر المسلمون حقوقا وتساندا وتعاطفا بينهم وهم اشكتات في العالم بسبب هذه النظرية التي سلبت المسلمين صلاحية خولهم الله سبحانه وتعالى اياها ، وندبهم اليها فتعطل وترك بذلك حكم الله سبحانه وتعالى القائل " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي" الى امر الله فان قامت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون " .

الفصل السادس

التدابير الوقائية لبقا الروابط بين افراد المجتمع المسلم وحمايته من سوء

الاخلاق *

تمهيد :-

ان علاقة السلم بافراد مجتمعه المؤمن ومظاهره الاجتماعية يجب أن تكون مستمدة من الايمان ونامية من الاخوة الاسلامية ، ورافعة في كل مظاهرها علم الاخوة وانما المؤمنون اخوة لا سخرية في هذه العلاقة ولا ظن سوء ولا تجسس ولا غيبة ، انما المؤمنون فيها كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحس والسهر ،

وإذا كنا في الفصل السابق عرفنا اسباب الفرقة وعلاجها عندما يدب الاختلاف والافتتال بين المجتمع المؤمن ، ففي هذا الفصل نتعرف بأبعد من ذلك . ونتعلم من السورة العظيمة جانبها آخر ومنهجها من مناهج الدعوة الاسلامية لبناء المجتمع المسلم بنا اسلاميا ، فهي دعوة تهني ولها مواد البناء كاملة وفي نفس الوقت تقدم منهاج لصيانة هذا المجتمع في بناة ، فالوقاية خير من العلاج وذلك من خصائص الدعوة الاسلامية ، ومن مرونتها انها تحتاط للشر قبل وقوعه ويقضى على بذره قبل نائه ويطفى ناره قبل اشتعالها .

ان في شريعة الله تعالى جانبها هاما في هذا السبيل ، وهو سد الذرائع ، وان لكل قاعدة فيها حس ، سواء في الاصول او الفروع ، فاذا وجد المجتمع في هذه الشريعة ضاية بما لم يعملوا اليه من الخير والكمال ليقع ويعرفوه ، وضاية بالشر من حيث رده وعلاجه لئلا يقع ويعرف ، فهذا هو صلاحها لكل زمان ومكان وكالها . وفي ذلك كله لا يوجد تناقض في بنائها المجتمع المؤمن ، فسي

علاج اسباب الفرقة وتدبيرها الوقائية لبقاء البناء شامخا قويا ، لا تعصف به العواصف ولا تلبى قواعد وتهون عزائمه ويساه من في فطرته بقية ولديه مسكة من العقل . . . ! . . . خلاف النظريات البشرية فانها غباء مدمر وتناقض لا يسزول ، لان اصحابها لا يعرفون فسادها الا بعد وقوعه - ان عرفوه - فاذا النظرية كلها فساد ، واصلاحها بابدالها بنظرية اخرى تناقضها . . . ! وهكذا دواليك نظرية بعد اخرى وفساد متتابع ولا يكاد ينتهي . . . ! . . . !

وقد بينا في مناسبات ان السورة تنقلنا من ارشاد الى ارشاد ومن ادب الى ادب ، والسورة يوجه الله فيها المؤمنين الى ما ينبغي ان يكونوا عليه مع الله تعالى ومع نبيه عليه الصلاة والسلام ومع من يخالفها ومعصيها كالفاسق والباغى ، وفي الآيتين الاتيتين توجيه المؤمنين الى ما ينبغي ان يكونوا عليه ويتكئون به المؤمن ويتظاهر به نحو اخيه المؤمن الحاضر والغائب ، والحق والمهتد ، والغريب والبعيد . . . (١)

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٣١ - ٢٨٠ .

• الايتان الحادية عشرة والثانية عشرة •

قال تعالى :
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ
 مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ
 بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ •
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
 وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ •

ما قيل في سبب نزول الآيتين :-

لقد ذكر كثير من المفسرين اسبابا لنزول الآية الاولى وارادوا اقوالا بلا
 سند وكانهم يفرضون على انفسهم انه لا بد من سبب وان لم يصح ولم يرفع
 الى النبي صلى الله عليه وسلم . (١)
 واصح ما روى من ذلك ما رواه ابو جبرة بن الضحاك (٢) ان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قدم المدينة واهلها قل احد الاوله اسمان او ثلاثة
 فيجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه فيغضب فنزلت هذه الآية ،
 وفي رواية : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يا فلان فيقولون :
 له : يا رسول الله انه يغضب من هذا الاسم فانزلت هذه الآية

(١) كالواحدى في اسباب النزول ، وابن الجوزى والزمخشري والخازن والسيوطى
 وهم في هذا كثيرا ما كانوا حطاب ليل .

(٢) ابو جبرة بن الضحاك بن خليفة الانصارى اخو ثابت بن الضحاك اسمه
 لا يعرف وقيل انه لا صحبه له وصنيع ابن حجر يدل على انه يراه صاحبها

ولا تتابزوا باللقاب * (١) ،

وأما الآية الثانية فقد ذكر المفسرون في سبب نزولها اخبارا من اشهرها
فيما يذكرون ما روى عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت العرب تخدم
بعضها بعضا في الاسفار وكان مع ابي بكر وعمر رضى الله عنهما رجل يخدمهما
فناما فاستيقظا ولم يهين لهما طعاما فقالا ان هذا النووم فايقظاه فقالا له ائت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له ان ابا بكر وعمر رضى الله عنهما يقرئانك
السلام ويستادمانك ، فقال صلى الله عليه وسلم * انهما قد ائتدما * فجا * فقالا
يارسول الله بأى شىء ائتدما ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ويلحم اخيكما والذى
نفسى بيده انى لأرى لحمه بين ثنايا كما * فقالا رضى الله عنهما استغفر لنا
يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : مرأه فليستغفرا لكما * (٢) وظنى ان هذا
ليس من الشيخين ،

وفي روايتين عند المفسرين ليس فيهما التصريح بالشيخين وانما يذكر

= لانه ترجم له في القسم الاول في حرف الجيم من باب الكنى ، وقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم واخرج حديثه البخارى في الادب المفرد
كما اخرجه اصحاب السنن .

انظر ترجمته في الاصابه : ٤١ هـ ٤ .

(١) رواه الامام احمد في السند : ٤٩ هـ ٤ وابوداود : ٣٩٨ رقم ٤٩٦٢ *
هـ ٤ والترمذى : ٣٨٨ رقم ٣٦٨ * وقال حسن صحيح هـ ٥ .

(٢) ذكره ابن كثير وقال : اخرجه الحافظ الضياء المقدسى في كتابه المختاره ،
وذكر سنده * التفسير : ٢١٦ هـ ٤ ، وقال الالوسى في روح المعانى :
وهذا خبر صحيح ولا طعن فيه على الشيخين سواء كان ما وقع منهما قبل
النزول او بعده حيث لم يظننا بنا على حسن الظن فيهما ان تلك الكلمة مسا
يكرهها ذلك الرجل * ١٥٩ هـ ٢٦ .

فيهما رجلان تكلموا في سلمان . (١)

ومهما يكن الامر من ذكر الاسباب فان الآيتين بكل ما تتضمنان من المعانى وتشملان من الجزئيات توجيه عام شامل للمؤمنين في كل زمان ومكان ، صيانة لهم ووقاية لافرادهم واسرهم ومجتمعهم الكبير من ان ينزلقوا في هذا السداسى الجاهلى " السخرية واللمز والنبز والظن السيء والتجسس والغيبة " الذى تناصفته الآيتان بالسوية " السخرية واللمز والنبز وسوء الظن والتجسس والغيبة " انه ادب يقيم سياجا قويا حول حرمة المسلمين فلا تحلل ، وكراماتهم فلا ينال منها ، واعراضهم فلا تنتهك ، وحرىاتهم الممنوحة لهم شرعا فلا تقيد وتصادر انه توجيه من الله الحكيم الخبير بما فى النفوس يربى جماعة المؤمنين ومجتمعهم على اسس نظيفة بعيدة عن التهمة والشورر نقيه نهضة بريئة من كل الهواجس والشكوك ، فلا يعكرون وينغصون حياتهم واخوتهم الاسلامية وترايطهم بقلق وارجاف ونهب لنفوسهم . . والآيتان تترابطان وتتساندان فى تهذيب المجتمع ورسم المنهج القويم له ، فالآية الاولى اخصت بعلاج مرض السخرية واللمز والنبز بالالقاب ، والثانية بالظن والتجسس والغيبة ، وتلك لبنات الشرر وصورة الجهل والدمار ، وكلها آخذ بعضها ببعض ، فالسخرية وشقيقها اللمز واللمز والنبز بالالقاب لا يسلم منها الا من سلم من الظن وهو مقدمه التجسس

(١) ذكرهما الالوسى وعزا واحدا قالى ابى حاتم عن السدى والاخرى الى ابى المنذر ابن جريج وكتاها بلا سند .

ومن تجسس لا شك انه سيفتأب ويقول ما في اخيه وما ليس فيه .

وسيقع في اعراض الاخرين وحقوقهم ودمائهم وذلك هو اكل لحم المسلم بعينه . . . ! ومن يأكل لحم الآدمي الا سبع ضار مفترس ؟ ! بل الحيوان المفترس في غالب الامر لا يأكل لحم اخيه من جنسه . . . ! ولكن الظان المتجسس المفتاب تفوق على السبع المفترس في الشره والوحشية لانه يأكل لحم اخيه ميتا . . . ! وعلى كل فكل ما ذكر في الآيتين تشمله السخرية وهي اول ما ذكر في الآية الاولى ، وتشمله الغيبة من وجه آخر وهي آخر ما ذكر في الآية الثانية . . . !

وسوف اتناول ان شاء الله تعالى هذا السداسي الخطير على المجتمع جزئية بعد الاخرى حسب ترتيبها في الايتين الكريمتين من خلال منهج الدعوة الاسلامية .

١- السخرية :

" يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن "

ان السخرية قد ورد بيانها في الكتاب العزيز ، كما وردت اوصاف الساخرين والسخور منهم وسبب السخرية اثنتين واربعين مرة في احدى وعشرين سورة . (١)

(١) وهذه السور كالتالي : ١- البقرة : ١٦٤ ، ٢١٢ ، ٢٠٢ - الانعام : ١٠ ، ٣- الاعراف : ٥٤ ، ٤٠ - التوبة : ٧٩ ، ٥٠ - هود : ٣٨ ، ٦ - الرعد : ٢ ، ٧- ابراهيم : ٢٢-٣٣ ، ٨- النحل : ١٢ ، ١٤ ، ٧٩ ، ٩٠ - الانبياء : (٤١ ، ٧٩ ، ١٠١) - الحج : ٣٦-٣٧-٦٥ ، ١١- المؤمنون : ١١٠ ، ١٢ - المنكبوت : ٦١ ، ١٣ - لقمان : ٢٠-٢٩ ، ١٤ - فاطر : ١٣ ، ١٥ - الصافات ١٢ ، ١٤ -

وكل ذلك يدور في القرآن الكريم ويقصد به أربعة معاني :

الاول : التذليل وهو معنى التسخير كقوله تعالى : **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ** (١)

الثاني : التسليط وهو من معاني التسخير كقوله تعالى : **وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِيَرْحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** (٢)

الثالث : الاستهزاء وهو معنى ما في الحجرات وكقوله تعالى : **وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** (٣)

الرابع : الاستخدام كقوله تعالى : **لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا** (٤)

فكل الصيغ الواردة في القرآن تعود الى تلك المعاني الاربعة والمبها يعود معنى مادة " سخر " (٥) ،

واخطر هذه المعاني السخرية بمعنى الاستهزاء وهو المقصود في آية الحجرات والمستهزى لاشك انه مذلل غيره ومتسلط عليه ويستخدم له ، فكل معاني العدوان والظلم جمعها الساخر في سخريته من غيره وتلك خصال اهل الكفر والنفق ولاهل التأويل اقوال في الآية في تحديد المنهين عن السخرية في الآية

١٦ - ص : ١٨ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٧ - الزمر : ٥٦ ، ٥٨ ، ١٨ - الزخرف : ١٣ ، ٢٢ ، ١٩ - الجاثية : ١٢ ، ١٣ ، ٢٠ - الحجرات : ١١ ، ٢١ - الحاقة : ٧ .

(١) الآية من سورة الجاثية : ١٣ ،

(٢) الآية من سورة الحاقة : ٧ .

(٣) الآية من سورة البقرة : ٢١٢ ،

(٤) الآية من سورة الزخرف : ٢٢ ،

(٥) انظر اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن للدانغاني : ٢٣٣ ط الاولى ، والمفردات للراغب : ٢٢٧ ، ولسان العرب في مادة سخر : ٣٥٢ ح ٤ ، والقاموس :

الكريمة ، فمنهم من يرى ان المقصود سخرية الغنى من الفقير وهى من البلوى
التي يبطل بها كثير من الاقوياء والاغنياء في نظرهم الى الضعفاء والمساكين
والفقراء الا من شكر الله سبحانه وتعالى وتواضع . ويرى آخرون من المفسرين ان
المراد بالمنهيين هم من ستره الله في الدنيا من المؤمنين بالا يسخر من كشف
ستره في الدنيا لسبب من الاسباب ، وغير ذلك من الاقوال التي تشملها الآية
ولا تختص بها فالحق سبحانه وتعالى " عم بمنهية المؤمنين عن ان يسخروا من مؤمن
لا لفقره ولا لذنب ركب ولا لغير ذلك " (١)

ولقد كان اسلوب الآية يشير الى ذلك العموم في كل كلمة من كلماتها وتركيب
من تراكيها فقله " قوم من قوم " لا يخص قوما دون قوم آخرين وكذلك " نساء"
من نساء " فان التنكير في الموضعين ان قصد به التبعيض فهو تبعيض يطلق
على كل رجل وكل امرأة من المؤمنين وان قصد به العموم فهو نهى لكل جماعة
من المؤمنين ان تسخر من جماعة اخرى منهم وعلى هذا فقد نهى الله المؤمنين
عن السخرية على أية حاله سواء كانوا افرادا او جماعات . (٢)

وسا يزيد لهذا الشمول عمقا ان الله سبحانه وتعالى ، ذكر جنس الرجال
في جانب وجنس النساء في جانب آخر ونهى كل جنس من أن يسخر بعضه من
بعض ويفهم من ذلك ان سخرية جنس الرجال من جنس النساء او العكس في متساول

(١) انظر تفسير الطبري : ١٣١

(٢) انظر الكشاف للزمخشري : ٥٦٥ ح ٣ .

النهي كذلك .

فلم يكن الاسلوب هنا كما عهدنا في القرآن وهو تغليب الرجال على النساء لانهن تبع للرجال ، وذلك لخطورة السخرية على المجتمع المؤمن فوجب التفصيل في كل اعتبار ليكون المؤمنون على بينة من الامر فلا يعتدى بعضهم من بعض بأى نوع من السخرية وما يلفت النظر في دقة الآية في التفريق بين الجنسين ، ان الاستحقاق والسخرية في الغالب يصدران من الرجال بالنسبة الى الرجال ومن النساء بالنسبة الى النساء اكثر من ان يصدرا من احد الجنسين الى الآخر والمرأة في نفسها ضعيفة لا يلتفت الرجل اليها كثيرا لعناقتها او تفوقها ليسخر منها بسبب ذلك ، وهي بدورها في امس الحاجة الى الرجل فلا تنظر اليه بعين السخرية وانما تنظر اليه اجلالا وتقديرا . (١)

وذكر النساء خاصة دون أن يغلب عليهن الرجال يبدو لى والله اعلم انهن في هذا المقام اشد من الرجال واقوى في كيد السخرية والاستهزاء وتغليب الرجال عليهن يسوى بينهن وبين الرجال . (٢)

ان منهج الدعوة الاسلامية لا يقف عند الامر والنهي فقط بل انه يعمل الامر والنهي فما يذكر من ذلك شيء الا والله فيه حكمة بالغة وطة التحريم

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٣٢

(٢) انظر تفسير القرطبي : ٢٢٦ - ٢٦٠ .

او الوجوب فيه واضحة ، وان خفيت على بعض الناس . فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن السخرية لم يقف عند هذا الحد فحسب بل تجاوزه الى اسلوب اوضح ومنهج ادق في التحذير من السخرية ، فقد علل الله سبحانه وتعالى النهي للجنسين من الرجال والنساء بقوله : عسى ان يكونوا خيرا منهم " و " عسى ان يكن خيرا منهن " فهذا التفصيل يقصد به استئصال مرض السخرية من المجتمع المؤمن بما يعلمه الساخرون بانفسهم لو انهم فكروا او حاسبوا انفسهم الامارة بالسوء ، فالسخور منه لاشك انه قد يكون خيرا من الساخر ، وان لم يكن خيرا منه فهو مثله في الانسانية والايمان فلا وجه للسخرية للامرئين الا اذا صح ان يسخر الانسان من نفسه ويكون الساخر والمسخور منه شيئا واحدا والميزان العقلي يابى ذلك ويفهم من الوجهين وجه ثالث وهو ان الساخر ان كان خيرا من السخور فان هذا ينافي الخيرية ان لم يبطلها وينقلب السخور منه خيرا من الساخر (١)

وبكل ذلك قطع الله سبحانه وتعالى الحجة على كل من يتذرع بشئ " من الدعوى ليسخر من غيره ، وخاصة ان المجتمع المؤمن تعلم من منهج الدعوة الاسلامية : ان العظمير الخارجى لا يدل على ما فى باطن الانسان ، كما يشير اليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : ان الله لا ينظر الى صوركم واماؤلكم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم " (٢) .

(١) انظر التفسير الكبير للرازى : ١٣٢ .

(٢) الحديث مر تخريجه ص ١٧٠ .

" فهذا حديث عظيم يترتب عليه الا يقطع بعيب احد لما يرى عليه من صور اعمال الطاعة او المخالفة ، فلعل من يحافظ على الاعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الاعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه . فالاعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه افعالا سالمة وعدم الاحتقار لسلم رأينا عليه افعالا سيئة ، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة لا تلك الذات السيئة . (١)

وهذا لا شك انه نظر دقيق فاذا لم يسخر من اساء في الطاعات وتهاون في الواجب عليه وانما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويذم الشر ولا يسخر من الذوات ، فمن باب اولى الا يسخر من احد لاجل شيء قدر عليه في خلقته او في ضرب من ضروب حياته . . . !!

يقول جار الله الزمخشري عند تفسير هذه الاية موضحا تعليل النهي عن السخرية فيقول :
 " والمعنى وجوب : ان يعتقد كل احد ان السخور منه ربما كان عند الله خيرا من الساخر ، لان الناس لا يطلعون الا على ظواهر الاحوال ولا علم لهم بالخفيات ، وانما الذي يزن عند الله خلوص الضائر وتقوى القلوب وطمئنتهم من ذلك بمعزل فينبغي الا يجترى احد على الاستهزاء بمن تقتحمه

(١) القرطبي في تفسيره : ٣٢٦-٣٢٧-١٦٠ .

عنه اذا رآه رث الحال او ناعاهة في بدنه او غير لبق في محادثته، فلعله
 اخلص ضميرا واتقى قلبا من هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقيق من
 وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله * (١)

وبذلك التفصيل والتعليم في الآية الكريمة جاء منهج الدعوة الاسلامية لوقاية
 المجتمع المؤمن من الانحلال والانفكاك ، فلا يهدم ما بناه الله فيه بالايمنان
 والترابط بالاخوة الايمانية لا يهدمه بالسخرية والاستهزاء ، والسخرية واضحة
 المعالم مكشوفة المثالب وهي * الاستهانة والتحقير والتتبيه على العيوب والنقائص
 على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة
 والايماء ، واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة ،

ولكنه لاشك انه سخرية اذا كان يتأذى به ويتضمن استحقاره واستصفاراه،
 كالضحك على كلامه وافعاله وطى صناعته او خلقتة او هيئته وشيابه او جنسه ونوعه،
 واذا لم يتأذى بذلك او جعل نفسه سخرة ويفرح بذلك فهو من باب المزاح المكروه
 الذي قد يورى الى عواقب وخيمة . (٢)

ولقد بلغ بالسلف الصالح الخوف من السخرية حدا بعيدا صيانة لانفسهم
 وتوقيا لها من الوقوع في شرور السخرية ، حتى ذكر عن بعضهم انه لو رأى رجلا

(١) الكشاف : ٥٦٥-٥٦٦ ج ٣ .

(٢) احياء العلوم للغزالي ببعض التصرف : ١٢٨ ج ٣ ط الحلبي القاهرة

يرضع عنزا فضحك منه لخشى ان يصنع مثل ذلك ، وروى عن بعضهم : انه لسو
 سخر من الكلب لخشى ان يحول كلبا * (١) . وكل ذلك انما هو طمراعاتهم ما
 نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه ، ولعلمهم بان السخرية مما قضى الله
 على احد من خلقه قضاء كونيا انما هي سخرية في الحقيقة من الله تعالى ، وما
 اشنعها واقبحها من ان يسخر الانسان من صنع وقدر خالقه . . . ! . . . وعندما نستنتج
 من موقف السلف الصالح ذلك ونعلم انه لم يمنعهم ذلك من الامر بالمعروف
 والنهي عن المنكر وتميز الخبيث من الطيب قولا وعملا ، ولم يلتبس ذلك عليهم
 بما امروا به من القول والعمل وتغيير المنكر وانكاره ورد القبيح وبغضه عندئذ سنعلم
 حقيقة ذلك المجتمع المؤمن الذي يحى بالقرآن والسنة ولاجلهما . . . ! . . . ويتدبر
 ما جاء فيهما من الويل والشبور ، كقوله تعالى موضعا استهزاء الكفار من المؤمنين
 وجزاءهم فقال عز من قائل : **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ .**
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَخَامِرُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُ
قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ
الْكَفَّارِ يَضْحَكُونَ ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (٢)

وقوله تعالى في استهزاء المنافقين بالمؤمنين * **وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ**
إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . (٣) ،

(١) انظر الكشاف : ٥٦٦ هـ ٣

(٢) الآيات من سورة الطغفان : ٢٩-٣٦ .

(٣) الآية من سورة التوبة : ٦٤ .

وقوله تعالى حاكيا استهزاءهم بالايان والمؤمنين : **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ اللَّهِ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** (١)

وأما السنة النبوية فقد جاءت منددة بالسخرية والساخرين ومحدرة من شر وسواسها وهي بيان للقرآن الكريم وتفصيل لمجمله ، ومن ذلك ما جاء في خطبه الرسول صلى الله عليه وسلم بنى " أتدرون أى يوم هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن هذا يوم حرام ، أتدرون أى بلد هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهر حرام ، قال : فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " (٢)

فالتعرض للسلم بالسخرية وغيرها خطير على الساخر نفسه وعلى المجتمع المؤمن عامة ، وخاصة عندما يتخذ من السخرية وسيلة لحمل الآخرين على عدوان غيرهم ، واقعج من ذلك اذا كان في السخرية ارضا لستمع الساخر في سخط الله ، كما بينت ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها في كتابها الى معاوية رضى الله عنه عندما كتب اليها " ان اكتبى الى كتابا توصينى فيه ، ولا تكثرى على " فكتبت عائشة الى معاوية : سلام عليك اما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **مَنْ التَمَسَ رِضَى اللَّهِ يَسْخَطِ النَّاسَ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْثِقَةَ النَّاسِ ، وَمَنْ التَمَسَ**

(١) الآيتان من سورة البقرة : ١٤-١٥ .

(٢) رواه البخاري - فتح الباري : ٤٦٣ ج ١٠ .

(٣) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الاموي أمير المؤمنين ولد قبل البعثة بخمسين سنين وقيل بسبع أو بثلاث عشر والاول أشهر وحكي أناسلم بعد الحد يديه وكنم اسلامه حتى اظهره يوم فتح مكة وهو من كتاب الوحي الفصحاء وكان حلما وقورا داهيه ولا عمر الشام وأقره عليه عثمان واستمر حتى ولى الخلافة سنة ٤١ هـ وتوفي سنة ٦٠ في رجب. الاصابه

: ٤٣٣-٤٣٤ - والاستعاب : ٣٩٥ - ٤٠٣ ج ٣

رضى الناس بسخط الله ، وكله الله الى الناس ، والسلام عليك * (١)

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَعَايَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا
وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ
لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَهْنَا وَيَشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسَبِ
أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ
وَعَرَضُهُ * (٢)

٢- اللمز

* ولا تلمزوا أنفسكم *

اللمز هو الآفة الثانية التي ورد النهي عنها في الآية بعد النهي عن السخرية وهو داخل في السخرية ويكون في تناولها مع كل الآفات التي ذكرت في الآيتين ، واللمز هو * الطعن والضرب باللسان وهيب الغير في غيبته * ويشبه الغمز فسي الوجه وأصله * الإشارة بالعين والرأس والشفه مع كلام خفي * وقيل هو الاغتياب ولا فرق بينه وبين الغيبة . وفرق بينه وبين الهمز بأن اللمز من يعيب في حضره الملموز والهمز من يعيب في غيبته ، وفرق آخر وهو : أن اللمز باليد والعممين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون الا باللسان * وقيل انهما سواء * (٣)

(١) رواه الترمذى ولم يرفعه في نهاية كتاب الزهد رقم ٢٤١٤ هـ ٤

(٢) رواه سلم - النووى على صحيح مسلم : ١٢٠-١٢١ هـ ١٥

(٣) انظر لسان العرب في مادة " لمز وهمز " : ٤٠٦ و ٤٢٤ هـ ٥ ،

والفردات للراغب : ٤٥٤ ، والكشاف للزمخشري : ٥٦٦ هـ ٣ و ٢٨٣ هـ ٤

والتفسير الكبير للرازى : ١٣١ هـ

وتفسير القرطبي : ٣٢٧ هـ ١٦ .

وقيل : اللزم السب خلف الانسان ، والهمز : العيب في وجه الانسان ،
 وقيل : بل الامر بالعكس لان من تقاليد همز هزم ، وهو يدل على البعد ،
 ومقلوب اللزم اللزم وهو يدل على القرب فيشمل العيب بالاشارة ايضا ^(١) .

وهل النهى في " ولا تلمزوا " هو النهى الاول في " لا يسخر " ؟ أو
 بينهما مغايرة وان كانا في الهدف سواء وان اللزم يدخل في السخرية ، وكلاهما
 خاص بالمؤمنين كما ان السورة تخص في منهجها المجتمع المؤمن ، فالسخرية . .
 " احتقار الشخص مطلقا على وجه مضحك بحضرتة ، واللمز التنبه على معاييسه
 سواء كان على وجه مضحك ام لا وسواء كان بحضرتة ام لا كما قيل في تفسيره " .
 وعطف " ولا تلمزوا " على " لا يسخر " من باب عطف العام على الخاص ،

من هذا الوجه ، واذا كانت السخرية كما قيل

" الاحتقار واللمز التنبه على المعايير او تتبعها " فالعطف من باب عطف العلة
 على المعلول ، واذا كان اللزم مخصوصا بما كان من السخرية في الخفاء كالاشارة ،
 فهو من باب عطف الخاص على العام ، ولاهية الخاص هذا خص بالذكر ، وهذا
 احب الي واقرب لدقة القرآن وشموله ، فالسخرية شاملة لجميع انواع اللزم والهمز
 والنبز ونحوها . ^(٢)

وعلى كل فاللمز والهمز كلاهما من فروع السخرية والاستهزاء ، وقد نهى الله

(١) غرائب القرآن للنيسابوري : ٦٦ - ٢٦

(٢) تفسير روح المعاني للالوسي يتصرف : ١٥٣ .

سبحانه وتعالى عن كل ذلك المؤمنين في غير هذه الآية ، كما قال في المنافقين
الذين يلزمون المؤمنين ويسخرون منهم ، بل هم يلزمون رسول الله صلى الله
عليه وسلم ويطعنون في حكمه مع حرصهم على ان يعطوا من الصدقات وغيرها مما
يقسمه كقوله تعالى : **وَمِنْهُمْ مَّن يَلْعَنُ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** (١) وقوله : **الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٢)

فهاتان الايتان تشيران الى ان اللزم من صفات النفاق ومن علاماته ، فالمنافقون
ان رأوا بعض المؤمنين يتصدق بكثير قالوا مرائي ، وان تصدق احد المؤمنين
بقليل وهو لا يجد غيره ، سخروا ولمزوا وقالوا : ماذا يصنع الله بهذا ، وان
قسم الرسول عليه الصلاة والسلام بين المسلمين قالوا : قصة غير عادلة .. (٣)

والمنافقون جاءت اوصافهم في منهج الدعوة الاسلامية المثل في كتاب الله
وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ليحذر المؤمن من صفاتهم وذواتهم وهي علل بادية
لمن تدبرها لان الكتاب والسنة اعتنيا بالنهي عنها ، وقد درسه العلامة
ابن القيم وفي النهاية قال : **زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب
وساقية الرياء ، ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة ،**

(١) الآية من سورة التوبة : ٥٨

(٢) الآية من السابقة : ٧٩ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ٣٦٣ ، ٣٧٥ ج ٢

فازا تت هذه الاركان الاربع استحکم نبات النفاق ونباته ، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هاز فاذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر وكشف المستور ويعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق ان حواصله التي حصلها كانت كالسراب ، قلوبهم عن الخير لاهية واجسادهم اليها ساعية ، والفاحشة في فجاجهم فاشية .

واذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية ، واذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت ابصارهم وكانت آذانهم واعية ^(١) .

واذا كان اللمز وصفا لأهل النفاق في الآيتين المدينتين المذكورتين ، فانه لاشك انه خلق من اخلاق الكفار من المشركين واليهود وهم اساتذة النفاق والمريون للمنافقين ، وهو لا جميعا موقفهم امام الدعوة الاسلامية كله سخرية ولمز وهمز ، ومن الطريف في منهج القرآن الكريم وهو منهج . الدعوة الاسلامية ان ما وصف الله به اولئك في السورة المدنية ، هو الذي وصف به اساتذتهم من قبل في السورة المكية ، فقال تعالى : **وَلَا تَطْعَمُ كُلُّ حَلَاْفٍ مَّهِيْنٍ هَمَازٌ مَعَاً بِنَمِيْمٍ مِّنَاعٍ لِلْخَسِيْرِ مَعْتَدٍ اَثِيْمٌ عَتَلٌ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيْمٌ** ^(٢) وقوله : **وَيْلٌ لِّكُلِّ هَمَزَةٍ لَعْنَةٌ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ اَنْ مَّالَهُ اَخْلَدَهُ** ^(٣) .

وما يلاحظ ان اسلوب الآيتين يتميز بالقوة البيانية " هاز " كلمة من صيغ المبالغة ، وفي الآية الثانية جمع بين الهمز واللمز ، وفي الآيتين في سورة براءة

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم : ٣٤٧-٣٥٩ - ١ .

(٢) الايتان من سورة القلم : ١٠-١٣ .

(٣) الآيات من سورة الهمزة : ١-٣ .

عبر بصيغة المضارع وهي تدل على الاستمرار، وفي كل ذلك تعليم من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بان اللمز والهمز صفتان من صفات غير المؤمنين، ومن جهة اخرى قد تعبدنا الله نحن المؤمنين بان نستعيز به ونستجير من همزات الشياطين من الجن والانس فكيف يكون ذلك من خلق المؤمنين حيث قال : وقسَل رَبِّ اعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ واعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١)

فالنهي عن السخرية واللمز ليس فقط لسبب ما في الآيتين من الاضرار وفقدان التفرة والعدوان على الاخرين ، وانما كذلك لما علمنا من منهج الدعوة الاسلامية من خلال الآيات والاحاديث النبوية انهما " اى السخرية واللمز " من معالم الكفر والنفاق والمعاول التي يهدمون بها الدين وينالون من المؤمنين وهل يريد المؤمنون ان يفعلوا ذلك بانفسهم ودينهم ؟ لذلك كانت الاية تخاطب نفوس المؤمنين في عمق وتسترحم ضاعثهم لانفسهم ، وتشير عاطفتهم فيقول تعالى : ولا تلمزوا انفسكم .

وقد دارت كلمات المفسرين في معجمها حول كلمة " انفسكم " وتناولوها بالتحليل وتحديد المقصود والهدف المنشود ، ولم يكن ذلك لغاية في كلمة : " انفسكم " وانما اثارهم المعنى الذي يورثه ظاهرها ، وهوان الانسان يطفئ حتى ينسى نفسه فيطفئ عليها ويطعن فيها ويسبها ويسخر منها وهو

(١) الايتان من سورة المؤمنون : ٩٧-٩٨

لا يدري ، فمن المفسرين من يذكر ان من سخر ولمز غيره سبب بذلك ان يسخر منه ويلمز منه ومنهم من راي ان المؤمنين كنفس واحدة مترابطة فمن سخر ولمز وهو من المؤمنين من بعض المؤمنين فقد فعل ذلك بنفسه . (١)

ولهذا الاسلوب في الآية نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * (٢) وقوله تعالى : فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً * (٣) فجعل القاتل هو المقتول والمسلم هو المسلم عليه فكل ما صدر من المسلم الى اخيه المسلم فانما هو من نفسه الى نفسه .!!

وما يشبه المعنى الاول لهذا الاسلوب في الآية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم * إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ * . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ : يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ * (٤) وما يشبه المعنى الثاني من السنة كذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : الْمُؤْمِنُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَمِي وَالسَّهْرِ * (٥)

(١) انظر تفسير الطبري : ١٣١ هـ - ٢٦ والتفسير الكبير للرازي : ١٣٢ هـ - ٢٨

وتفسير القرطبي : ٣٢٧ هـ - ١٦ .

(٢) الآية من سورة النساء : ٢٩ (٣) الآية من سورة النور : ٦١

(٤) رواه البخاري - الفتح : ٤٠٣ هـ - ١٠ .

(٥) الحديث مر تخريجه ص ٣٧٨

وما يفهمه بعض المفسرين في قوله " ولا تلمزوا انفسكم " ان غير المؤمنين يجوز ان يلمز ويمخر منه لان النهي عن سخرية ولمز المؤمنين بعضهم بعضا اما غيرهم ممن لا يدين بدينهم ولا يسير بسيرتهم فلا عليهم حرج فيه " لانه لا حرمة له كما للمؤمنين ولا حق له . . . ! (١)

وهذا الفهم في الآية غير شديد لان الله سبحانه وتعالى انما نهى عن السخرية واللمز والنيز لما تدل عليه هذه الصفات من رذالة الاخلاق وسوء الطويبة ولما تدل عليه من استباحة اعراض الاخرين بلا حق ، وغير المؤمنين لا يجوز ان ينال احد منه الا بحق في حدود الشرع وباسلوبه في دعوة غير المؤمنين الى الاسلام وجهادهم وحملهم على الدين ولا يكون هذا الا باخلاق فاضلة ومنهج اسلامي ، والسخرية واللمز ليسا من آساليب منهج الدعوة الاسلامية وهما في حد ذاتهما مقوتان وهما في هذا الباب كالغدر والغش والكذب والغصب واللعن وكل لا يجوز في حق المؤمنين وغيرهم ، والتزم المسلمون بذلك في منهج الدعوة الاسلاميه مع الامم التي دعوا الى الاسلام من ابرز الاسباب التي فتحت لهم قلوب الناس واختاروهم عن سواهم ، وانما خص الله سبحانه وتعالى هنا المؤمنين في النهي عن اللمز لان ذلك اعظم وان احتكاك المؤمنين بعضهم ببعض اكثر ، والمجتمع المؤمن في الاصل لا يتصف بهذه الصفات واكثر ما ورد في القرآن في النهي

(١) انظر الكشاف : ٥٦٦ - ٣ .

عن السخرية انما هو كما تقدم في الكفار والمنافقين لان الايمان يستلزم —
المؤمنين الطهاره الكاملة من تلك الاخلاق الرذيلة .

٣- النسب واللقب :

” ولا تتابزوا بالالقباب بيئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك
هم الظالمون ” .

وهذا هو النهي الثالث في الآية ، نهى عن التنايز بالالقباب ، والآية
فيما يبدو والله اعلم تندرج من الاخطر الى الاقل خطورة فالسخرية كما قلنا اشمل
للجميع واشد نكالا ويليها اللمز بل هو من شعبها ، واما النبز فهو دون اللمز
لان اللمز وصف يريد به اللازم ما يوجب النقيضه والحط من منزله الطموز ، واما
النبز فهو مجرد التسمية وان لم يكن يستحقه في نظر الملقب ، كما ان اللقب
الحسن والاسم المستحسن اذا وضع لاحد وطلق عليه ليس من الضروري ان يكون
معناه مطابقا الملقب والمسمى ، فمن تسمى بسعد او سعيد او حسام الدين او
محي الدين لا يفهم منه انه كذلك وانما هو علامة وزينة ، وكذلك النبز واللقب
لا يفهم منه ان الملقب كذلك . (١)

والنبز بالتحريك هو اللقب وجمعه الانباز ، واما النبز بالتسكين فهو
المصدر ، والتنايز بالالقباب هو التداعي بها ويكثر في الذم ، وهو تلقب

(١) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٣١ .

الانسان بما يكرهه من اسم او صفة . . (١) هذا ولم يرد في القرآن الكريم
كلمة التنايز باى صيغة فى غير هذا الموضع .

والتنايز بالالقب تناوله المفسرون بالتحليل والتعيين فى اقوالهم وآراءهم
والتحقيق ان كل ما ذكره يدخل فى النبز بالالقب ، لان الله تعالى ذكره
نهى المؤمنين ان يتنايزوا بالالقب . . وهو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم
او صفة وعم الله بنهيه ذلك ، ولم يخصص به بعض الالقب دون بعض ، فـ
جائز لاحد من المسلمين ان ينبز اخاه باسم يكرهه او صفة يكرهها ، واذ كان
ذلك كذلك ، صحت اقوال اهل التأويل فى ذلك كلها ، ولم يكن بعضها اولى
بالصواب من بعض لان كل ذلك ما نهى الله المسلمين ان ينبز بعضهم بعضا . (٢)
ولا فرق فى ذلك بين اللقب والكنية التى تشعر بالذم ، فالاتفاق حاصل بين
اهل العلم " على تحريم تلقيب الانسان بما يكره .سواء كان صفة له أو لبيه أو لامة
أو لغيرهما " والدين يرفض هذا ولا يجيزه تسكا بهذا النهى من رب العالمين
" ولا تنايزوا بالالقب " ،

ولم يستثن من هذا الا ما كانت الحاجة اليه ماسة ولا يعرف الطقب الا بلقبه ، لا
لقصد نبزه بلقب ، كما هو العمل عند علماء الجرح والتعديل . (٣)

واما الالقب والكنى الحسنة فانها ما برحت تأخذ مجراها بين الامم عربيا
وعجميا ، فى مخاطباتهم ومناداتهم من غير نكير بل ان هذا مندوب اليه واشاعته

(١) لسان العرب فى مادة " نيز " ص ٤١٣ ح ٥ والمفردات للراغب : ٤٨١ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٣١-١٣٣ ح ٢٦٠ .
(٣) انظر احكام القرآن لابن العربى : ١٧١١ ح ٤ .

بين الناس يقضى على الالقاب والكنى النكرا* ، وينبه على خلق من القول رفيع
وتفاهل حسن كريم ، وينبت الثقة بين الناس ، وينسج العلاقة بينهم بأدب جم
وقول كريم . (١)

واللقب الذى لا يتأذى به الملقب ولا يقصد به من لقبه ذما ولا تنقيصا
فيما يظهر ليس فيه شى* ، ولهذا عقد الامام البخارى بابا فى جامعه فقال
" باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير " وقال النبى صلى الله
عليه وسلم " ما يقول ذو اليمين " (٢) ومالا يراد به شين الرجل " ثم ذكر
البخارى بسنده الحديث المشهور فى نقص الصلاة ،

قال الحافظ ابن حجر : هذه الترجمة معقودة لبیان حكم الالقاب ومالا يعجب
الرجل ان يوصف به ما هو فيه ، وحاصله ان اللقب ان كان ما يعجب الملقب
ولا اطرا* فيه ما يدخل فى نهى الشرع فهو جائز او مستحب وان كان
ما لا يعجبه فهو حرام او مكروه الا ان تعين طريقا الى التعريف به حيث
يشتهر به ولا يتميز عن غيره الا بذكره * وما ذهب اليه البخارى هو
مذهب الجمهور . (٣)

تلك ثلاثة مظاهر واعلام جاهلية نهى الله عز وجل عنها المؤمنین فى هذه
الاية " السخرية واللمز والنهز " ووجههم بالا تكون من مظاهر ادبهم ومعالم

-
- (١) انظر الكشاف للزمخشري : ٥٦٦ ح ٣ وتفسير القرطبي ٣٣٠ ح ١٦
(٢) ذو اليمين السلمى يقال اسمه الخرباقى - ترجم له ابن حجر فى الاصابه :
٤٨٩ وابن عبد البر فى الاستيعاب طى هامش الاصابه : ٤٩١ - ٤٩٤ ح ١ .
(٣) فتح البارى على صحيح البخارى : ٤٦٨ ح ١٠ .

مجتمعهم المؤمن ومداخل نفوسهم الطمئنة ، وهي معاول الهدم واسباب
الفرقة ، وقد جاءت في الآية مرتبة ترتيباً بديعاً ، والنهي عنها اكدته الله
سبحانه وتعالى في نهاية الآية بان سماها فسوقاً وما كان فسوقاً يجب على المجتمع
المؤمن الابتعاد عنه ، لانه مجتمع الصلاح والايمان والروابط الانسانية .

واسلوب الذم هنا " بئس الاسم الفسوق بعد الايمان " رادع آخر وزاجر
قوى يردع المؤمنين بعد اجتناب المنهيات الثلاثة في اول الآية ، يردعهم
عن ان يسخروا ويلمزوا وينبذوا المؤمنين ، ويصفوهم بما يكرهونه من الاسماء
والصفات ، وفي هذا التوجيه الدقيق ما يتناسب مع وصف الايمان ، كما ان شموله
محيط في تبرئة المؤمن الساخر والمسخور منه بناءً على وصفهم بالايمان ، فالمؤمن
لا يسخر ولا ينبذ باللقب ويلمز ولا يصدر منه ذلك ولا يوجه اليه ويرى فاذا كان
من تاب من كفر ودخل في الايمان واتصف به لا يوصف بما ركب قبل التوبة فمن
باب اولي الا يوصف بذلك ولم يسبق له ، وينشأ له لقب ولمز وسخرية من اصل
المجتمع المؤمن . (١)

هذا على ما ذكره المفسرون من تلك المنهيات التي ارتكبتها بعض المؤمنين
في حق من آمن وتاب من دين غير الاسلام او من ارتكب ذنباً في الاسلام ثم تاب
منه ، فلا يليق ان يعير كل اولئك بما سبق لهم من افعال واقوال تابوا عنها .

(١) انظر تفسير الطبري : ١٣٤ والكشاف للزمخشري : ٥٦٧ ،
والتفسير الكبير للرازي : ١٣٣ .

وإذا كان الانسان لا يسخر منه ويلقب بما ارتكبه من الخطأ بمحض ارادته ، فالسخرية واللمز والنبز بما قضاه الله تعالى على عبد من عباده من فقر أو عاهة أو قلة أو ضعف أو دماه ، ونحو ذلك ما هو خارج عن ارادة الانسان من بساب اولى كذلك ان يتناوله النهي . . . وبهذا كله تبين ان منهج الدعوة الاسلامية يرفض رفضا كاملا ان يكون في المجتمع المؤمن من يسخر أو يسخر منه او من يلمز ويلمز منه او من يلقب ويلقب تلقيا مذموما ، وكان تحريم هذا بين المؤمنين اقبح واشد ولا يجوز ان يعاملوا به غيرهم لان ادبهم يجب ان يجاوزهم السى غيرهم .

ان المجتمع الفاضل بينه منهج الدعوة الاسلامية بتوجيهات الله تعالى ففى سورة الحجرات مجتمع له آداب رفيعة " لكل فرد فيه كرامته التى لا تنس وهى كمن كرامة المجموع ، ولمز أى فرد هو لمز لذات النفس ، لان الجماعة كلها واحسدة كرامتها واحدة . . . وفى التعبير ايحاء خفى بان القيم الظاهرة التى يراها الرجال فى انفسهم وتراها النساء فى انفسهن ليست هى القيم الحقيقية التى يوزن بها الناس . فهناك قيم اخرى قد تكون خافية عليهم يعلمها الله ويزن بها العباد ، وقد يسخر الرجل الغنى من الرجل الفقير ، والرجل القوى من الرجل الضعيف ، والرجل السوى من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكى الماهر من الساذج الخام ، وقد يسخر ذو الاولاد من العقيم ، وذو العصية من اليتيم ، وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة . . . ولكن هذه وامثالها من قيم الارض ليست هى القياس ، فيزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين !! " . . . والآية بعد الايحاء بالقيم الحقيقية فى ميزان الله ، ومد استجاشة شعور الاخوة ، بل شعور الاندماج

فى نفس واحدة تستشير معنى الايمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنايز " بئس الاسم الفسوق بعد الايمان " فهو شئ يشبه الارتداد عن الايمان !! وتهدد باعتبار هذا ظلماً ، والظلم احد التعبيرات عن الشرك " ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " وبذلك تضع قواعد الادب النفسى لذلك المجتمع الفاضل الكريم " (١)

ان تفاضل الافراد فى المجتمع فى الرزق او فى المظاهر الاجتماعية والمستويات الانسانية تفاضل ضرورى وتفاوت ظاهر فى طبيعة كل مجتمع ، وان كانوا فى الاعتبار الانسانى سواء لهذا يجب على كل احد ان يوفر من نفسه استعدادا للمقابلة انسانية الاخرين بنفس رضية بمقادير الله على عباده ، نفس تؤمن بان الله تعالى هو الذى خلق التفاوت وقدره بين الناس فى مظاهر ذواتهم وتباين حياتهم ، فاذا علم المؤمن ذلك واقرب به فانه لا يقابله فى الاخرين بالنقيصة والسخرية واللمز والنبز ، لان هذا الاعتبار سمة من سمات المجتمع الاسلامى تميزه عن الجاهلية والوثنية المادية التى كان شعارها السخرية . وما عدا الاعتبار الانسانى ، يقر منهج الدعوة الاسلامية تفاضل الافراد فيه كتفاضلهم فى التقوى ودرجة الايمان كما انهم ليسوا بمتساوين فى الطاقات البشرية ومن ذلك امتد تفاوت الناس فى الارزاق والملكية . (٢)

(١) ظلال القرآن للسيد قطب : ٣٣٤٤ - ٣٣٤٥ - ٢٦ من المجلد السادس .

(٢) انظر القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهى : ١٦ - ١٨ .

" فالاسلام لا يعرف تصنيفا لطبقات في المجتمع على اساس من الغنى والفقير، او الجاه والشرف ، او نوع العمل الذى يباشره الانسان . وانما اذا ميزنا انسانا عن انسان فميزته عند الله بالمستوى الانسانى فيه على معنى ان صاحب المستوى الرفيع في التهذيب والسلوك واداء الواجب ، والمشاركة للاخرين في عواطفهم ومعاوناتهم على سد حاجاتهم اقرب في القبول عند الله ، من انسان آخر هو ادنى منه في هذا المستوى " ان اكرمكم عند الله اتقاكم " ولكن في المجتمع يجب ان يتوافر الاعتبار البشرى للافراد جميعا على السواء . فلا يسخرو فرد من فرد ولا ينتقص انسان انسانا آخر ، ولا يدعو انسان انسانا بما يكره ان يناديه به احد " (١)

٤- الظن

" يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم "

لا يزال المنهج الاسلامي من خلال هذه السورة الجامعة يواصل بنا في تربية المجتمع المؤمن وتهذيبه ، وينقلنا من صورة الى صورة لاستكمال المنهج الشامل المتكامل للدعوة الاسلامية ويبعدنا عن مآهات الجاهلية ومظاهر الطغيان والعدوان .. فقد رأينا في الاية السابقة لهذه الاية كيف كان هذا المجتمع الكريم في عصره

(١) انظر القرآن والمجتمع للدكتور محيى البهي : ١٦-١٨ .

وتكوينه والنظيف في اديه والنبيل في تفكيره ، كيف كان لا ينبغي ان تسود فيه السخرية بكل شكل من اشكالها ، ولا يهمس فيه باللمز وينادي افراده وجماعاته بألقاب سيئة سواء كانت اسما او صفات . والاية الاخيرة هذه توجه آخر وشيق الصلة بما ذكر في الاية التي قبلها بل الآيتان تتناصان سداسية خطيرة على الجماعة المؤمنة (السخرية واللمز والنمز والظن والتجسس والغيبة) وهذه الامور في مجموعها معالم الجاهلية ، وغريبة عن مجتمع الايمان ولا تتناسب مع وصف المؤمنين به ودعوتهم الى الوحدة وتربطهم كالجسد الواحد ، لذا كان منهج الدعوة الاسلامية في هذه السورة منها موضوعيا يحذر المجتمع المؤمن من تلك الوسوس الشيطانية وعواقبها قبل ان يستحكم سلطانها ويحيط بالمجتمع سرادق نارا ثم يشتعل فسادا وينسكب دمارا .

والاية هذه قد افتتحت المنهيات فيها - بعد النداء الحبيب والوصف الكريم - بالظن وهو واسطة العقد والبذرة الاولى في ذلك السداسي الذي تناصفت الآيتان . والظن هو الهاجس والوسواس الذي كان سببا لما قبله وباعثا لما بعده ، والنهي عنه في اول الاية الثانية نهى عما في الاية الاولى كما انه نهى عما يأتي بعده في الآية الثانية .

* لان الظن هو السبب فيما تقدم وظيفه تبني القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل اذا اوقف امره على اليقين فقلما يتيقن في احد عيبا فيلمزه به ، فان الفعل في الصورة قد يكون قبيحا وفي نفس الامر لا يكون كذلك ، لجواز ان يكون فاعله ساهيا او يكون الرأي مخطئا * (١) والظن شك ويقين الا انه ليس بيقين

(١) التفسير الكبير للرازي : ١٣٤ - ٢٨ .

عيان ، وانما هو يقين تدبير ، فاما يقين العيان فلا يقال فيه الا علم " وليس المقصود بالظن : مبادئ الظنون التي لا تملك وخواطر القلوب التي لا تدفع " ومنه الظنة وهي : التهمة ، والظنين المتهم كقوله تعالى : **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ** (١) " والعرب تقول للرجل الضعيف أو القليل الحيلة هو ظنون " والظنون : الرجل السيء الظن ، وقيل : السيء الظن بكل أحد . " (٢)

وعلى كل فالظن اسم لما يحصل عن اشارة ومتى قويت ادت الى العلم ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد التوهم " (٣)

وعلى كل حال فالمعنى الاصلى لهذه المادة " ظن " يدل على عدم الثقة وقلة الحصول على المطلوب سواء كانت هذه الكلمة " الظن " وصفا لذات أو ووصفا لتفكير وبحث عن شيء يطلبه الظان ، والظن ورد في القرآن الكريم بوجوه — المعاني (٤) :

الوجه الاول : العلم كقوله تعالى : **وَظَنَّ دَاوُدُ اَنَا فِتْنَاهُ** (٥) وقوله تعالى : **رَإِنِّي ظَنَنْتُ اَنْيُّ مَلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ** (٦) بل الظن في هذه الاية وصل الى درجة اليقين .

(١) الاية من سورة التكويم : ٢٤ على قراة بالظاء .

(٢) لسان العرب في مادة : ظنن " : ٢٧٢-٢٧٥ - ١٣

(٣) المفردات للراغب : ٣١٧ .

(٤) الوجوه والنظائر في القرآن للدامغاني : ٣١١-٣١٢ ،

(٥) الاية من سورة ص : ٢٤

(٦) الاية من سورة الحاقة : ٢٠ .

الوجه الثاني : الشك كقوله تعالى : **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ** (١)

الوجه الثالث : ظن بمعنى الحسبان كقوله تعالى : **إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنْ رِيَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا** (٢)

وقوله : **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٣)

الوجه الرابع : الظن بمعنى التهمة كقوله تعالى : **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا** (٤)

وقوله تعالى : **بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بِرُءُوسِهِمْ** (٥)

والوجوه الثلاثة الاخيرة يتضمنها الظن الذي معنا في الآية ومن ظن هكذا فانه يساوره الشك ويحسب ما ليس بواقع والظن بهذا الوصف ينهى الله سبحانه وتعالى عنه المؤمنين ويوجههم الى تبني الحقائق واستكشاف الوقائع والاحداث بمنهج

-
- (١) الآية من سورة الجاثية : ٢٢
 (٢) الآية من سورة الانشقاق : ١٥
 (٣) الايتان من سورة فصلت : ٢٢-٢٣
 (٤) الآية من سورة الاحزاب : ١٠
 (٥) الآية من سورة الفتح : ١٢

علمي بعيد عن الحدس والظن ، يتخذ من العلم واليقين واسطة ، ويحسب
الظن بالآخرين ولا يجوز للمؤمنين ان يتبعوا منهج المشركين والمنافقين الذين
كان الظن السيء معلما يعرفون به كقوله تعالى : وَيَعَذَّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * (١) ٤

وقد فرق أبن العربي بين الظن والعلم والشك فقال :

" ان حقيقة الظن تجوز امرين في النفس لاحدهما ترجيح على الاخر .
والشك عبارة عن استوائهما . والعلم هو حذف احدهما وتعيين الآخر " (٢)

اذا كان الكلام غيبة اللسان فالظن غيبة القلب والمقصود به هنا " عقود
القلب وحكمه على غيره بالسوء " فاما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك ايضا
معفو عنه ولكن المنهى عنه ان يظن والظن عبارة عما تركز اليه النفس ويميل اليه
القلب . . . وسبب تحريمه ان اسرار القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب فليس لك
ان تعتقد في غيرك سوء الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك
لا يمكنك الا ان تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهد بعينك ولم تسمعه بأذنك
ثم وقع في قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغي ان تكذبه فانه أفسق الفساق " (٣)

-
- (١) الآية من سورة الفتح : ٦
(٢) احكام القرآن للقاضي ابي بكر بن العربي : ١٧١٢ هـ - ٤
(٣) احياء العلوم للغزالي : ١٤٧ هـ - ٣ .

ووساوس الشيطان لا يجوز تصديقها والتسليم بها ، وظن السوء بالفسير لا يستباح الا بما يستباح به المال وهونفس مشاهدته او بينة عادلة فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وساوس سوء الظن فينبغي ان تدفعها عن نفس وتقرر عليها ان حاله عندك مستور كما كان وان ما رأيت منه يحتمل الخير والشر* ولكن كيف السبيل الى معرفة عقد الظن السي* وتميز علاماته لنفرق بينه وبين خوالج النفوس وشكوكها التي لا تخلو منها نفس . ؟

لعلنا نعرف* ان اماراة عقد سوء الظن ان يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته واكرامه والاعتناء بسببه فهذه امارات عقد الظن وتحقيقه* (١) وما يوقف ويحول بين المؤمن وغاية الظن ما روى : ثلاث لازمات لامتى : الطيرة والحسد وسوء الظن* فقال رجل وما يذهبهن يارسول الله من هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم* اذا حسدت فاستغفر الله ، واذا ظننت فلا تحقق ، واذا تطيرت فامض* (٢) ،

فالامر هذا يشير الى ان هذه الامور الثلاثة من امراض القلب التي يجب التداوى منها ، وعلاجها ما ذكر وهو الا يحقق من سوء الظن بالقلب ولا بجارحة من جوارحه الاخرى بل يصم عنه ويكرهه . (٣)

-
- (١) المرجع السابق : ١٤٧ هـ - ٣
 (٢) رواه الطبراني عن حارثة بن النعمان في المعجم الكبير : رقم ٣٢٢٢ ص ٢٥٨ هـ - ٣ ط الاولى سنة ١٣٩٩ هـ . ولكن السند فيه ضعف لان فيه اسماعيل ابن قيس بن سعد الانصارى وهو منكر الحديث وضعيف ،
 انظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي : ٢٤٥ هـ - ١ المجلد الاول .
 (٣) انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير للناوى : ٣٠٤ هـ - ٣ ط الاولى سنة ١٣٥٦ هـ .

فإذا كان الامر كذلك فان حسن الظن من المؤمن وفي المؤمن خلق رفيع
 وضح من مناهج الدعوة الاسلامية في المجتمع المؤمن ، ولا يمنع من ذلك فطنة
 المؤمن للشر ومحايرته كيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم روى عنه انه قال :
 حسن الظن من حسن العباد .^(١) وذلك كحسن الظن في الله تعالى السدى
 يستمد منه المؤمن حسن الظن في المؤمنين ، كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث
 قدسي : " يقول الله عز وجل : انا عند ظن عبدي بي وانا معه حين يذكرني ،
 فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ،
 وان اقترب الى شجرة اقتربت منه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه
 باعا ، وان اتاني يمشي اتيته هرولة " ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم محذرا من
 سوء الظن بالله : لا يموتن احدكم الا وهو محسن بالله الظن .^(٣)

وقال عليه الصلاة والسلام : اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ولا تحسسوا
 ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله
 اخوانا .^(٤)

-
- (١) رواه ابو داود رقم ٤٩٩٣ في كتاب الادب ، ومهنا في سنده وان تكلم
 فيه قال ابو داود : مهنا ثقة بصري
- (٢) رواه الترمذي رقم ٣٦٠٣ في كتاب الدعوات وقال : حديث حسن صحيح
 ح ه .
- (٣) رواه مسلم - النووي : ٢٠٩ ح ١٢ .
- (٤) رواه البخاري - فتح الباري على صحيح البخاري : ٤٨٤ في كتاب الادب
 ح ١٠ ، ومسلم - النووي : ١١٨ - ١١٩ في كتاب البر والصلوة
 والادب ح ١٦ .

عن عبد الله بن عمر رض الله عنهما ، قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : " ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وان يظن به الا خيرا " (١)

وعن سعيد بن المسيب (٢) قال : كتب الى بعض اخواني من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ضع امر اخيك على احسنه مالم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شرا وانت تجد لها في الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلوم من الا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بعثل ان تطيع الله تعالى فيه ، وعليك باخوان الصدق فكن في اكتسابهم فانهم زينة في الرخاء وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تهاون بالحلف فيهنك الله تعالى ولا تسألن عمال م يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك الا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وان قتلك واعتزل عدوك واحذر صديقك الا الامين ولا امين الا من خشى الله تعالى وشاور في امرك الذين يخشون ربهم بالغيب " (٣)

(١) رواه ابن ماجه رقم : ٣٩٣٢ ج ٢ ، وقال ابن كثير تفرد به ، ولكن الترمذى ذكر بعضه ولم يرفعه في كتاب البر والصلة باب ما جاء في تعظيم المؤمن " : ٣٧٨ ج ٤ .

(٢) الامام السلفي فقيه المدينة سعيد بن المسيب أبو محمد المخزومي وهو من أجمل التابعين ولد لسنتين ضتا من خلافه عمر وسمع من عمر وعثمان بن ثابت وعائشه وسعد وأبي هريرة توفي سنة ٩٤ هـ - ترجمته في تذكرة الحفاظ رقم ٣٨ ج ١ ، والطبقات لابن سعد : ٣٧٩ ج ٢

(٣) اخرجه البيهقي في شعب الايمان .

وخلاصة القول فيما ذكر في الظن وتشمله الآية ونحوها من النصوص لا يخرج عن الامور :

الاول : الظن المحرم وهو سوء الظن بالله تعالى ويقابله وجوب حسن الظن بالله .
الثاني : حرمة الظن كذلك بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة ، والمطلوب حسن الظن فيهم .

الثالث : الظن المباح وهو الذي يعرض في قلب المسلم في اخيه بسبب ما يوجب الريبة ، وهذا الظن لا يحقق .

الرابع : الظن المندوب اليه وهو حسن الظن بالاخ المسلم وعليه الثواب .

الخامس : الظن المأمور به وهو الظن فيما لم ينص عليه دليل يوصلنا الى العلم ، وقد تعبدنا الله بالاعتصام على الغالب الظني فيه ، كقبول شهادة العدول وتحري القبلة وتقويم المستهلكات واروش الجنائيات التي لم يرد نص في تقديرها . (١)

وهذه الانواع وردت نصوص كثيرة في القرآن والسنة في تحرير القول فيها ، وايدها العلماء في تفسيرهم لمصدرى التشريع " القرآن والسنة " ولولا خشية الاطالة لاوردت من ذلك شيئا كثيرا ، ومن هذا يعلم كذلك ان من الواجب

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزى : ٤٦٩ - ٤٧٠ ، وانظر تفسير الخازن : ١٨٩ هـ ٦ .

على المجتمع المؤمن أن يسيء الظن في الكفار من أي جنس ولون كانوا ويلحق بهم من يقلدهم ويحبهم .

ومع هذا للتفريق والتوجيه الذي يجب على المجتمع المؤمن التزامه ليكون نصيبه الحق ، والحق بين الافراط والتفريط . . فان الصورة الاخلاقية العامة والسمة الادبية الشامل لكل مؤمن يجب ان يكون بعيدا عن الظن قريبا السى العلم واليقين متخذاً من البراءة اصلا ، والنزاهة باطنا وظاهرا منهجا ، كما يوجهنا الله نحن المؤمنين في هذه الصورة ، وجاءت السنة الصحيحة تنهج بالمؤمن هذا النهج الرفيع وتزكيه وتزكية تبرز شخصيته شخصية مؤمنة بارزة واضحة ليست مريبة ولا تبحت عن الريب في الاخرين كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم " (١)

والغر هو " الذي لم يجرب الامور ، وانما جعل المؤمن غرا نسبة له السى سلامة الصدر ، وحسن الباطن ، والظن في الناس فكأنه لم يجرب بواطن الامور ، ولم يطلع على دخائل الصدور ، فترى الناس منه في راحة ، لا يتعدى اليهم منه شر ، بل لا يكون فيه شرفيتعدى " واما الخب فهو " الخداع المكار الخبيث ، ولذلك قابل به " الغر " لان الناس يتأذون به لما يصلهم من شره " (٢)

(١) رواه ابو داود في كتاب الادب رقم ٤٧٩٠ هـ ٤ والترمذي في كتاب السبر والصلة : رقم ١٩٦٤ هـ ٤ وقال : حديث غريب لا نعرفه الا من ههنا الوجه .

(٢) جامع الاصول لابن الاثير : ٧٠١ هـ ١١ .

ومعنى الحديث : أن المؤمن من كان طبيعه وشيمته الفراره وقلة الفطنة للشـر وترك البحث عنه ، وان ذلك ليس جهلا منه لكنه كرم وحسن خلق ، وان الفاجر من كانت عاداته الخب والدهاء ، والوفول فى معرفة الشر وليس ذلك منه عقلا ولكنه لوئم وخبث " (١)

ومهما يكن الامر من تجنب الظن فان للشيطان مداخل كثيرة فى النفس الانسانية فعلى المؤمن الاحتراز منه ما امكن ، فمن مداخله انه قد يلقى على قلب الانسان بهمس خياله بان يسىء الظن بغيره " ويلقى اليه ان هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وان المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بفرور الشيطان وظلمته " واذ كان الظن من خبر العدل فتصديقه اولى من تكذيبه ظنا به ، والتثبت فى هذه الحالة هو البحث هل بين المخبر والمخبر عنه عداوة وحسد وسوء تفاهم ، واذ لم يكن من ذلك شىء فلا يجوز رد خبر العدل واساءة الظن به فى الوقت الذى يتخرج من الظن فى غيره . . . (٢)

وفى الآيه توجيه دقيق لا يدع المؤمنين يذهبون مع الظن فى كل واد يهيون ، او يحسنون الظن فى كل احد ، بل الواجب عليهم تجنب كثير من الظن لا كله لثلا يقيموا فى الاثم ، فلا يجترى احد من المؤمنين على الظن بدون تحقق " وتميز بين حقه وباطله بأماره بينه مع استشعار للتقوى والحذر . . . والذى يميز

(١) تعليق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد على سنن ابى داود على الحديث المذكور : ٣٤٧ ح ٤٠ .
(٢) احياء العلوم للغزالي ببعض التصرف : ١٤٨ ح ٣٠ .

الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ان كل مالم تعرف له امانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب وذلك اذا كان المظنون ممن شوهد منه الستر والصلاح وانست منه الامانة في الظاهر فظن الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث * (١)

وما تقدم ذكره من نصوص قرآنية ونبوية ، ومقالات للمفسرين نعلم ان الدعوة الاسلامية في منهجها التربوي للمجتمع المؤمن اهتمت بعنصر الظن في المؤمن اهتماما لا يدع مجالاً لاحد ليسترسل في الظن ويخلط بين المحرم منه والمباح ، وفسى هذا تحرير لفكر المؤمن وتطهير لداخله وربطه باليقين وتعامله بالآخرين بالصدق والعلم . . . وليس معنى هذا ان الدعوة الاسلامية ترفض الظن مطلقا بل انها ترفضه في جانب السوء والتهمة والتخمين ، وتعتمد به في كثير من جوانب الاحكام الشرعية كالقياس بل ان في تفسير غالب النصوص المحتملة وقبول بعض دلالتها عملا بالظن حتى ولو ثبتت هذه النصوص المحتملة ثبوتا قطعيا فان دلالتها ظنية ، والذين يرفضون العمل بالظن من هذا الوجه انما هم يلغون عقولهم ، والله سبحانه وتعالى لم يرد الظن كله وانما ذم بعضه لانه من خلجات النفس الامارة بالسوء ومن وساوس الشيطان وهمساته وقد امرنا الله تعالى بالظن الحسن كقوله تعالى : لَوْلَا اِنْ سَمِعْتُمْهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * (٢)

(١) الكشاف للزمخشري : ٥٦٧ ج ٣

(٢) الآية من سورة النور : ١٢

وبالجملة فالظن يعمل به بموجب الأدلة ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على الظن ، وإذا لم يكن للظن دليل مع وقوعه في النفس فهو الذي يتناوله النهي^(١) . وهذه الآية من سورة النور توجهه كريم يدعو المؤمنين ألا يظنوا بأنفسهم إلا خيرا وخاصة عندما يدعوهم أهل سوء إلى إساءة الظن في أحد منهم ، كما حدث في قصة الإفك ،

ومن عجائب القرآن وأسراره التي تدل على أنه من الله تعالى وأنه ليس من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم أن ترتيب هذه الآية من سورة النور بين آياتها هو نفس ترتيب آية الحجرات من بين آياتها . . . ! ! والآيتان تلتقيان في النتيجة ، وإن كانت آية الحجرات أعم واشمل لأنواع الظن ، الذي قال فيه سفيان الثوري رحمه الله :
الظن صنان : فظن اثم ، وظن ليس باثم ، فأما الظن الذي هو اثم فالذي يظن ظنا ويتكلم به وأما الظن الذي ليس باثم فالذي يظن ولا يتكلم به^(٢) .

(١) انظر أحكام القرآن الكريم لابن العربي : ١٧١٢ ح ٤ ،
وتفسير القرطبي : ٣٣٢ ح ١٦

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصله باب ما جاء في ظن سوء : ٣٥٦ ج ٤ .

ومن وجه آخر يقسم الظن وينظر اليه باعتبار نوعه ، فاذا كان الظن اختياريا فالامر فيه كما سبق لا يخلو من سعي ، أو حسن ، واذا لم يكن اختياريا فالمنهي عنه العمل بموجبه من احتقار المظنون به وتنقيصه وذكره بما ظن فيه " ونظيره في هذا الحسد اذا كان بغير اختيار ، والعمل بهذا النوع من الظن اذا كان من باب الاحتراس والانتباه بدون ان يلحق الضرر المظنون قد لا يكون ضارا " وقيل المنهي عنه الاسترسال معه وترك ازالته بنحو تأويل سببه من خير ونحو والا فالامر بالغير الاختياري نفسه لا يكون مورد التكليف " (١)

وقد عقد الامام البخارى في جامعه " بابا " ساء " باب ما يجوز من الظن " واخرج تحت هذه الترجمة عن عائشة رضی الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما اظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا " وفي رواية " يعرفان ديننا الذي نحن عليه " وذكر البخارى عن الليث : (٢) كانا رجلين من المنافقين " قال الحافظ ابن حجر : وحاصل الترجمة أن مثل هذا الذي وقع في الحديث ليس من الظن المنهي عنه ، لانه في مقام التحذير من مثل من كان حاله كحال الرجلين والنهي انما هو عن الظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه " (٣)

(١) روح المعاني للالوسي : ١٥٦ ج ٢٦
 (٢) ابو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن امام أهل مصر في الفقه والحديث كان مولي قيس بن رفاعه وأصله من أصبهان وكان ثقة ثريا سخريا ولد سنة ٩٢ بقلقشند وتوفي سنة ١٧٥ هـ. انظر الوفيات لابن خلكان : ١٢٧-١٣٢ ج ٤ وتذكرة الحفاظ رقم ٤١٠ ج ١ وميزان الاعتدال : ٤٢٣ ج ٣ وتهذيب التهذيب : ٤٥٩ ج ٨ ، وخطبة الاوليا : ٣١٨ ج ٧

(٣) فتح الباري على صحيح البخارى : ٤٨٥ ج ١٠ .

وأما هذا السباج الذي يرفع صرحه حفاظا لكرامة الاشخاص وحرماتهم وحررياتهم فانه اسلوب دقيق وتوجيه كريم وجيه للمجتمع المسلم الذي يرسى على الايـدع افراده وجماعاته نهبا للظنون والهواجس وشبهات الشكوك ، ومن الواضح ان النهي يوجه الى الظن السيء* ، وما اجمل الحياة واعطرها في مجتمع مؤمن برى* — من الشكوك والظنون* ولكن الامر لا يقف في الاسلام عند هذا الافق الكريم الوضئ في تربية الضائر والقلوب ، بل ان هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف فلا يؤخذون بظنه ولا يحاكمون بريئة ، ولا يصبح الظن اساسا لمحاكمتهم ، بل لا يصح ان يكون اساسا للتحقيق معهم ولا للتحقيق حولهم . . ومعنى هذا ان يظل الناس ابرياء ، مصونة حقوقهم وحرياتهم واعتبارهم حتى يتبين بوضوح انهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه . ولا يكفى الظن بهم لتعقبهم بغية التحقيق في هذا الظن الذي دار حولهم ، فاي مدى وصل اليه منهج الدعوة الاسلامية في صيانة كرامة الناس ، واين ما وصلت اليه النظم الديمقراطية في ارقى البلاد من هذا النهج العجيب الذي قام عليه المجتمع المسلم (١) ! ؟

(١) ظلال القرآن للسيد قطب: ٢٣٤٥ - ٢٦٠ .

٥- ولا تجسسوا

ان من شررات سوء الظن التجسس فالقلب عندما يبتلئ بسوء الظن فانسه لا يقتنع بهواجسه الظنية ، بل يبتد به الظن الى طلب التحقيق تجسسا وتحسسا ، ولما كان هذا غاية من غايات ظن سوء تناول النهى ثانيا التجسس بعد الظن ، وكلاهما يستلزم الآخر فالظن عندما يحقق لا مفر من التجسس وكل تجسس الباعث والداعي اليه هو الظن . . (١)

والجسس هو اللمس باليد ، وجسس الشخص بعينه احد النظر اليه ليتبينه ، وجسس الخبير البحث عنه ، وقيل التجسس بالجسس طلب الشيء للغير والحائى طلبه للنفس ، وقيل الاول البحث عن العورات والثانى الاستماع . والجاسوس هو صاحب سر الشر والناموس صاحب سر الخير ، ومن هذا الجساسة وهى الدابة التى تجسس الاخبار للدجال . (٢) والحس والحسيس الصوت الخفى ، ويقال احسست الخبر اذا عرفت منه طرفا ، ومنه الحواس الخمسة للانسان وعلى كل فهاتان المادتان " جسس وحس " يدور معناهما على طلب الشيء بالقوة والخفا وكشفه واستخراجه . (٣)

هذا وان اتفق معنى القرامتين فى الاية فلا بد من تفريق لطيف بينهما كما اشارت اليه سابقا وهو ان " التجسس غالبا يطلق فى الشر ومنه الجاسوس ، واما

- (١) انظر تفسير القاسمى : ٥٤٦٣ هـ - ١٥
 (٢) كما روى مسلم فى صحيحه من خبر تميم الدارى رضى الله عنه فى قصة الجساسة فى كتاب الفتن .
 (٣) لسان العرب لابن منظور : ٣٨ ، ٤٩-٥٤ هـ - ٦ .

التحسس فيكون غالباً في الخير كما قال عز وجل اخباراً عن يعقوب انه قال : يا بني
 إِذْ هَبُوا فْتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ^(١) وقد يستعمل كل
 منهما في الشر كما ثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 " لا تجسسوا ولا تحسسوا " ^(٢) . فالجمع بينهما في الحديث يدل على تباين
 بينهما ، ويعقوب عليه السلام لا يأمر ابناؤه الا بما فيه الخير ولا يدعو الى الشر
 فيبدولي والله اعلم ان كلمة التجسس تزيد عن كلمة التحسس التي يبدو ان فيها
 معنى التحفظ عن منوع وان ثم بحثاً خلاف كلمة التجسس التي هي الكشف المبالغت
 . . . ومعنى التجسس طلب الأمارات المعرفة فالامارة ان حصلت بلا طلب وورثت
 المعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الامارة المعرفة فلا رخصة فيه اصلاً ^(٣)
 " ذلك بأن لا يترك عباد الله تحت ستر الله بل يتوصل الى الاطلاع وهتك الستر
 حتى ينكشف له ما لو كان ستورا عنه كان اسلم لقلبه ودينه " ^(٤) فالله يخاطب المؤمنين
 أن " لا يتبع بعضهم عورة بعض ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على
 عيوبه ، ولكن اقتنعوا بما ظهر لكم من أمره وبه فاحذوا أودموا على ما تعلمونه
 من سرائره " ^(٥) ،

وقد وردت اخبار غير ما سبق في تحذير المؤمنين من هذا الداء الخطير
 كقوله عليه الصلاة والسلام : انك ان تتبعت عورات الناس افسدتهم او كدت ان تفسدهم ^(٦)

-
- (١) الآية من سورة يوسف : ٨٧ .
 (٢) تفسير ابن كثير : ٢١٣ هـ ٤ .
 (٣) احياء علوم الدين للغزالي : ٣٢١ هـ ٢ .
 (٤) المصدر السابق : ١٤٨ هـ ٣ .
 (٥) تفسير الطبري : ١٣٥ هـ ٢٦ .
 (٦) رواه ابوداود منفرداً به رقم ٤٨٨٨ هـ ٤ .

وقوله : " ان الامير اذا ابتغى الريبة في الناس افسدهم " (١) .

ولم ترد في القرآن الكريم هذه الصيغة الا في سورة الحجرات في هذه الآية

والقراءة التي قرئ بها في قوله : يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا
تأسوا من روح الله " فقد قرئ بالجيم " فتحسسوا " ولسائل ان يقول لمانا
لم تكرر هذه الصيغة في القرآن والجواب ان يقال : يبدو والله اعلم ان ذلك
يعود الى انضباط المجتمع الاسلامي الاول ، ونظافته من هذه الاخلاق الرديئة
ووضوح ظاهر الفرد المسلم وباطنه نحو اخيه المسلم . . .

وأما صيغة التحسس بالحاء بمعنى التجسس فقد قرئ بها في الآية التي معنا ،
ومعنى القرأتين في الآيتين واحد ، ولكن صيغة " التحسس " وردت في القرآن
في مواضع لمعان : (٢)

احدها : بمعنى البحث والتجسس كما في القرأتين المذكورتين في الآيتين .

ثانيها : الحس والحسيس بمعنى الصوت كقوله تعالى " لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ
فِيمَا اشْتَبَهتْ اَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ " (٣)

ثالثها : الحس بمعنى القتل كقوله تعالى : " وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ اِذْ تَحْسُونَهُمْ
بِاٰذِنِهِ " (٤)

(١) رواه ابوداود منفردا به رقم ٤٨٩٠ ح ٤

(٢) انظر : اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للداعقاني : ١٢٩-١٣٠

(٣) الآية من سورة الانبياء : ١٠٢

(٤) الآية من سورة آل عمران : ١٥٢ .

رابعها : احس بمعنى علم ورأى كقوله تعالى : فلما احس عيسى منهم الكفر قال
 مَن اَنْصَارِي اِلَى اللّٰهِ (١) وقوله : فَلَمَّا احْسَنُوا بَاْسَنَا اِذَا هُمْ مِنْهَا
 يَرْكُضُونَ (٢) وقوله : هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ اٰحِدٍ اَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٣)

ومن جملة توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين وتنقيتهم من داء
 التجسس ما جاء في السنة من تربية المسلم بان يستر نفسه ولا يتجسس عليها مادام
 الله سبحانه وتعالى ستره ، كقوله عليه الصلاة والسلام " كل أمتي معافي الا المجاهورين
 وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول :
 يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه " (٤)
 فستر الله لعبده في الدنيا نعمة كبرى كان من الواجب على العبد المستور ان ينعىها
 بستره على نفسه وعلى غيره ليحظى بستر الله تعالى يوم تبلى السرائر كقوله صلى الله
 عليه وسلم : يدنو احدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول : عملت كذا وكذا ؟
 فيقول : نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم . فيقرره ثم يقول :
 انى سترت عليك في الدنيا ، فأنا أغفرها لك اليوم " (٥) ومن هذا الادب الرفيع
 يفيض المسلم بها ، وخلقاً يرتسم في ملامحه وضأة وتزكو نفسه طهارة في قوله وصمته ،
 تعلقو جبهته حياءً ، رائده الايمان وسمته مع ربه ثم نفسه وغير الصدق والامانة
 فاذا لم يوفر المسلم في نفسه هذا الادب وذلك الخلق والحياء ، ولم يكن بينه وبين

(١) الاية من سورة آل عمران : ٥٢

(٢) الاية من سورة الانبياء : ١٢

(٣) الاية من سورة مريم : ٩٨ .

(٤) رواه البخارى في كتاب الادب باب ستر المؤمن على نفسه .

(٥) رواه البخارى في كتاب الادب باب ستر المؤمن على نفسه .

ربه تعالى ، فانه لا يرجى منه الخير للآخرين ولا يسلم احد من ظنه وتجسســـه . . لذا كان منهج الدعوة الاسلامية الذى لا يتناقض اسلوبه ولا تتعارض توجهاته فى الفرد المسلم وجماعته المؤمنين محيطا بكل عناصر التكوين الاجتماعى ذللك المنهج يربى المسلم فى نفسه ويكون شخصيته بتلك الصورة الكريمة والتربية الدقيقة والسلوك الرفيع ، ويريد قاعده سليمة تتفرع منها العلاقة مع الآخرين ويكون سياجا وسترا لآخوانه المسلمين لا يظن فيهم ظن السوء ولا يحقق الظن بتجسس . كما قال صلى الله عليه وسلم : من رأى عورة فسترها كمن أحيأ مؤودة " (١) وقولـــه : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة " (٢)

ان هذا الستر يدور مع الصلحة واذ لم يكن كذلك ، وكان الكشف اصلح واقوم للدين فانه اولى من الستر ، على ان الستر المندوب اليه ليس على الاطلاق لكل احد بل هو لمن لا يعرف بالاذى والفساد " فأما المعروف بذلك فيستحب الا يستر عليه بل ترفع قضيته الى ولى الامر ان لم يخف من ذلك مفسدة لأن الستر على هذا يطمعه فى الايذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله هذا كله فى ستر معصية وقعت وانقضت اما معصية رآه عليها وهو متلبس

(١) رواه ابو داود رقم ٤٨٩١ ح ٤
 (٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة :

بها فتجب المبادرة بانكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك ولا يحل تأخيرها فان عجز لزمه رفعها الى ولي الامر اذا لم تترتب على ذلك مفسدة" (١)

ولمنهج الدعوة الاسلامية في سياسة الرعية حكمة بالغة في تهدئة جماعة المؤمنين والتدبير الوقائي هذا وهو النهي عن التجسس ، وهو الداء الذي لم يقبله الرسول صلى الله عليه وسلم لاحد من اصحابه وموقفه من المنافقين معلوم وهو انه قبل علانيتهم ووكّل سرائرهم الى الله تعالى وان ظهر له شيء أو اظهره له الوحي اخذ به حسب المصلحة ، ومن هذا الاصل كان المسلمون لا يأخذون الا بما ظهر لهم وقامت عليه بيعة ، ولم يجهروا من اهل البدع الا من تظاهر وجاهر ودعا الى بدعته ومعصيته فانه هو الذي يعاقب بحسب ما يناسبه من العقاب ، واما من استتر وانطوى على باطله فانه لا يعاقب ولا يهجر ، ولهذا الاصل كانوا لا يقبلون رواية الداعي الى بدعة ولا يجالسونه بخلاف الساكت، وقد اخرج اصحاب الصحيح عن جماعات ممن رمى ببدعة من الساكتين ، ولم يخرجوا عن الدعاة الى البدع " فصاحب المعصية اذا اظنها تضربه وبغيره ، واذا اخفاها لا تضرب سواه ، لهذا كان ترك التجسس عليه انفع . . . (٢)

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يحمل فيه كل من رأى منكرا مسؤولية تغييره بالمرتبة التي يستطيع من مراتب الانكار ، هذا الحديث لا يدعو

(١) النووي على صحيح مسلم : ١٣٥ - ١٦٠ .

(٢) انظر الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية : ١٢٥ - ٢٤٠ و ٢٠٥ و ٢١٥ و

٢٢٠ - ٢٢٨ .

الى التجسس وانما يلحق المسؤولية على من رأى وظهر له الأمر وذلك بدون تجسس ،
فقال صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ،
فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان " (١)

ولقد كان النهى عن التجسس ذا أثر ومنهج فى حياة الصحابة رضى الله
عنهم ومن تبعهم باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم لعلمهم بعظمة النهى فى
الآية والاحاديث النبوية ، ولا صفائهم لقوله صلى الله عليه وسلم وقد رفع صوته
حتى اسمع العواتق فى بيوتهن خطيبا فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل
الايمان قلبه لا تفتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من اتبع عورتهم
يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته " (٢) وهذا عبد الله بن مسعود
رضى الله عنه . أتى فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمر فقال عبد الله
انا قد نهينا عن التجسس ، ولكن ان يظهر لنا شيء نأخذ به " (٣) ،

هذا وقد يوعى الحرص على تغيير المنكر ونشر المعروف الى استطلاع يشبه
التجسس ، فاذا كان ذلك من ولى الامر الذى لا يريد الا الخير ويحرص على أمن
الرمية وسلامة افرادها من المنكرات ، ووجد علامات تدعوه الى ذلك فانه يبيد
والله اعلم انه لا مانع من ذلك اذا لم يترتب عليه فساد اكبر . . . وقد روى عن
عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يدل على ذلك فى مواقفه العادلة وخاصة فى

(١) رواه مسلم فى كتاب الايمان .

(٢) رواه ابو داود رقم ٤٨٨٠ ح ٤

(٣) رواه ابو داود رقم ٤٨٩٠ ح ٤

حراسته وهو يعس في المدينة المنورة بنفسه مع انه كلما ذكر وقيل له قربت الى
التجسس احجم وعفا واخذ بجانب الستر المأمور به . . .^(١) عمر يفعل هذا
لا ليتعرف المنكر ويغيره بنفسه فقط ولكنه كذلك يتعرف على المحتاجين والمحرومين
والمظلومين فيواسمهم ويرفع من شأنهم ويقضى حاجتهم . . . !

٦- الغيبة

" ولا يفتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه
واتقوا الله ان الله تواب رحيم " .

قد تدرجت الاية في اسلوبها من نهى الى نهى ، وهذا هو النهى الثالث،
وكل في نسق وترتيب بديع وتوجيه كريم لمجتمع فاضل اراد الله به خيرا وارسل
اليه خيرا وانزل عليه وحيا ليكونوا خيرا ما اخرجت للناس " ،
ووصف هذا المجتمع بالايمان ونداءه بالوصف الغالى واللقب الحبيب " يا ايها
الذين آمنوا " فيه الكفاية في ان هذا المجتمع لا تسود فيه المنكرات وتنوشه
الظنون ويمزق وحدته التجسس ، وياكل بعضهم بعضا ، ولكن لخطورة هذه
المعالم الجاهلية وفداحة اثرها في الفرد والجماعة السلطة اراد الربى الكريم
سيحانه وتعالى ان يزيل كل الشكوك والارتباب عن المؤمنين بمنهج مفصل لا يدع
لاحد من المؤمنين مجالا في ان القول بلا علم بناه على الظن واستكشاف المظنون

(١) انظر روح المعاني للالوسي وقد ذكر بعض الروايات في ذلك واسندها :

بتجسس ونشر ما علم من المعاييب بدون تجسس ، كل ذلك لا خير فيه ولا يتناسب مع منهج المجتمع المؤمن في حياته الاسلامية ، ويجافى وصفهم بالايمان ، ويبيح اعراضهم التي هي اعلى من الدماء والاموال وقد حرمها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ^(١) بل العرض يفدى بالمال والدم وماذا بقى بعد العرض ؟ وفي اسلوب الآية ما يشير عاطفة الاخ السلم المغتاب لتشنيع ظاهرة الغيبة وتقيحها ، وهوان من يغتاب اخاه السلم كانما يأكل وينهش جثته وهو ميت ، وكل يشمئز من هذا ويكرهه . . . ! ^(٢)

وانا كان الكتاب العزيز قد عني بوصف الغيبة وضرب المثل لها بعسد النهى عنها ، فان السنة المطهرة التي هي بيان للقرآن الكريم ، جاء فيها تعريف الغيبة تعريفا جامعاً مانعاً وتفصيل لحالة المغتاب حينما يكون في اغتيابه صادقاً او كاذباً ، فقال عليه الصلاة والسلام : " أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله اعلم . قال : ذكرك اخاك بما يكره ، قيل : افرأيت ان كان في اخي ما اقول ؟ قال : ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته " ^(٣) ولنعلم ان السنة شرح للقرآن ، وما ادل على ذلك هنا من توافق اسلوب الاستفهام في الآية " ائحب " وفي الحديث " اتدرون " فعن طريق الاستفهام التقريرى رسخت الفكرة وعرفت الغيبة بكل ما تحمله من الشر والدمار ، وانما كان في الآية كلمة الغيبة

(١) راجع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ص :

(٢) انظر : التفسير الكبير للرازي : ١٣٤-١٣٦ هـ - ٢٨٠ .

(٣) رواه سلم في كتاب البر والصلة وابوداود في كتاب الادب رقم ٤٨٢٤ هـ - ٤٠ .

وشرحها وهو اكل لحم الانسان المسلم الذى بينه وبين المغتاب اخوة فالحديث كذلك ذكرت فيه كلمة الغيبة وشرحها وهو ذكر الاخ بما يكره ، والكراهية فى الآية " فكرهتموه " تشمل كراهية الاكل والماكول فالتعريف هذا فى السنة المطهرة يلتقى مع الصورة الفطرية البشعة التى وصف الله بها الغيبة فى الآية " ائحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله " .

ان الغيبة كما فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم " ذكرك اخاك بما يكره " وزاد لها بيانا ان فرق بينها وبين البهتان وهو الكذب " فالكذب على الشخص حرام كله ، سواء كان الرجل مسلما او كافرا ، برا او فاجرا ، لكن الافتراء على المؤمن اشد ، بل الكذب كله حرام " وما ذكره عليه الصلاة والسلام موافق للآية وان كانت الآية تنص على الغيبة فقط دون الكذب ولكن الغيبة نوع من الكذب ، وكلاهما فى حق الاخ المسلم حرام ، وكلما كان المغتاب اعظم ايمانا كانت الغيبة والكذب عليه اشد جرما وغلظة . (١)

قال ابن جرير الطبرى : ائحب احدكم ايها القوم ان ياكل لحم اخيه بعد ماته ميتا ، فان لم تحبوا ذلك وكرهتموه ، لان الله حرم ذلك عليكم ، فكذلك لا تحبوا ان تغتابوه فى حياته ، فاكرهوا غيبته حيا ، كما كرهتم لحمه ميتا ، فان الله حرم غيبته حيا كما حرم اكل لحمه ميتا . (٢)

(١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام بن تيمية : ٢٢٢ - ٢٢٥ - ٢٨

(٢) تفسير الطبرى : ١٣٧ - ٢٦ .

عذا ومع وضوح المقصود في الآية ، فان لقوة اسلوبها البياني في تركيب كلماتها ونسج جملها وسياقها بهذا الاداء اعجازا في تحديد المعنى المراد في الغيبة ، ولهذا اهمية كبرى في بلاغة الكتاب العزيز والسنة المطهرة لنشل الباطل من النفوس ، وغرس الحق فيها ، وتربية المؤمنين تربية فاهمة واعية ولذا نظر كثير من المفسرين والكتاب الى الآية ستكشفين هذه الحقيقة يريدون اظهار وتحليل هذا المرض الخطير وهو الغيبة ، وما احوج الداعية الى التزود من البيان القرآني والنبوي ليكشف الباطل فيدغمه في وجه ذويه ، ويستتير بالحق وحجج قوية دامغة ليرفعه ويجمع الشمل تحت لوائه وسأختصر على مقال مفسر ومقال كاتب وانقل نصيبا . اما المفسر فهو جار الله الزمخشري ان يقول : تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على افطع وجه وافحشه . وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها اسناد الفعل الى احدكم والاشعار بان احدا من الاحدين لا يحب ذلك ، ومنها ان لم يقتصر على تمثيل الاغتياب باكل لحم الانسان حتى جعل الانسان اخا ، ومنها ان لم يقتصر على اكل لحم الاخ حتى جعل ميتا . . . ولما قرره عز وجل بان احدا منهم لا يحب اكل جيفه عقب ذلك بقوله تعالى : فكرهتموه ، معناه فقد كرهتموه ، واستقر ذلك وفيه معنى الشرط : اي ان صح هذا فكرهتموه وهي على الفاء الفصيحة : اي فتحققت بوجود الاقرار عليكم وانكم لا تقدرون على دفعه وان نكاره لا باء البشرية عليكم ان تجحدوه كراهتكم له وتقدركم منه ، فليتحقق ايضا ان تكرهوما هو نظيره من الغيبة والظعن في اعراض المسلمين (١)

(١) الكشاف : ٥٦٨ ح ٣ .

. ومن خلال هذا التحليل الدقيق الذى اخذ به كثير من المفسرين يستخلص الباحث والقارىء تعريف الغيبة .

واما الكاتب فهو ابن الاثير ^(١) اذ يقول فى تحليل دقيق وتفصيل اشمل وان استفاد من الزمخشري : " فانه كنى عن الغيبة باكل الانسان لحم انسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ثم جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، فهذه اربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من اجله ، فاما جعل الغيبة كاكل الانسان لحم انسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا لان الغيبة انما هى ذكر مثالب الناس وتمزيق اعراضهم ، وتمزيق مآثر لاكل الانسان لحم من يفتابه ، لان اكل اللحم تمزيق على الحقيقة واما جعله كالحم الاخ فلما فى الغيبة من الكراهة لان العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمان بتركها والبعد عنها ، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الاخ فى كراهته ، ومن المعلوم ان لحم الانسان ستركه عند انسان آخر ، الا انه لا يكون مثل كراهته لحم اخيه ، فهذا القول مبالغ فى استكراه الغيبة ، واما جعل اللحم ميتا فمن اجل ان المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها ، واما جعله ما هو فى الغابة من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جعلت عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها ، فانظرايها التأمل الى هذه الكناية تجدها من

(١) ابو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الاثير الموصلى ، كاتب ووزير بليغ توفى سنة ٦٣٧ هـ ، انظر ترجمته فى وفيات الاعيان لابن خلكان : ٣٨٩-٣٩٧ هـ . ٥ .

اشد الكنايات شيها ، لانك اذا نظرت الى كل واحدة من تلك الدلالات الاربع التي اشرنا اليها وجدت مناسبة لما قصدت له * (١)

ومن هذا المضمون للآية والبيان المفصل من الحديث النبوي المذكور ، انطلق اهل العلم معرفين بالغيبة ومفصلين لجوانبها ومحذرين المجتمع المؤمن ، ويرون ان النصوص الواردة في هذا الشأن عامة لم تتغير بغيبة شخص معين حاضر أو غائب ، وان ثم ترجيحاً واختصاصاً بالغائب مراعاة لاشتقاق مادتها كما عند اهل اللغة لا يمنع ان ما كان في المواجهة من الغيبة " حرام لانه داخل في السب والشتم " (٢) وقد روى عن الحسن ان للغيبة ثلاثة اوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغيبة (٣) والافك (٤) والبهتان (٥) . فأما الغيبة ان تقول في اخيك ما هو فيه . واما الافك فان تقول فيه ما بلغك عنه . واما البهتان فان تقول فيه ما ليس فيه * (٦)

وهذه الامور لا تتقيد بحضوره ولا بغيبابه والمقصود فيها حاصل ومعناها ثابت على اية حال كان المفتاب من حضور وغيبة . . . وقول الرسول عليه الصلاة والسلام " ذكرك اخاك بما يكره " من اجمع التعاريف واشملها لكل ما يذكرونه

- (١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الاثير : ٢٠٣-٢٠٤ هـ ٢ ط الحلبية سنة ١٣٥٨ هـ ، القاهرة
- (٢) انظر فتح الباري شرح البخاري : ٤٦٩ - ٤٧٠ هـ ١٠ لسان العرب في مادة " غيب " .
- (٣) آية الحجرات التي معنا .
- (٤) كقوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ** * (النور ١١) .
- (٥) كقوله تعالى : **مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** (النور ١٦) وقوله : **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَلَوْا بُهْتَانًا** * (الاحزاب ٥٨) .
- (٦) نقلا عن تفسير القرطبي : ٣٣٥ هـ ١٦ .

ويفصلونه من حالات الغيبة وتنقيص الآخرين ، سواء كان ذلك فى بدن المفتاب
أو نسيه ، أو فى خلقه وخلقته ، أو فى افعاله واقواله ، أو فى دينه ودنياه ، وكل
ما يتعلق به من ذرية واقارب وازواج وخدم ، وسكن ومركب وطيبس ومشرب ومأكـل ،
وفرح وحزن ، وضعف وقوة ، وطول وقصر ، وجمال وقبح ، ووطن وجنس ، ولون
ولسان . . . (١)

ولم تكن الغيبة قاصرة على ما يقال باللسان كما يظن كثير من المفتابين ، بل
كل ما يفهم منه تنقيص المسلم فهو غيبة " فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول
والإشارة والإيحاء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل
فى الغيبة وهو حرام ، وحتى المحاكاة أسلوب من أساليب الغيبة ، بل إنها
أشد لما فيها من الجمع بين الحركة والتشيل . . . وقد جاء عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ان امرأة دخلت على عائشة رضى الله عنها فلما قامت لتخرج اشارت
عائشة رضى الله عنها بيدها الى النبي صلى الله عليه وسلم اى انها قصيرة
فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اغتبيتها " (٢) وفى رواية " لقد قلت كلمة
لو مزجت بها البحر لمزجته " ،
قالت وحكيت له انسانا فقال صلى الله عليه وسلم " ما احب انى حكيت انسانا
وان لى كذا وكذا " (٣)

(١) انظر : احياء العلوم للغزالي : ١٤٠ ح ٣ والاذكار للنووى : ٢٨٨ ،

ومنهاج القاصدين لابن قدامة : ١٧٦ ط ٤ سنة ١٣٩٤ هـ .

(٢) رواه ابن جرير الطبرى فى التفسير : ١٣٦ ح ٢٨ .

(٣) رواه ابو داود فى كتاب الادب رقم ٤٨٢٥ ح ٤ .

ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح

وقد يتخيل بعض العرائين فيفتاب غيره بأسلوب الإنكار ولا يريد اظهار عيب غيره وسوا بنفسه وفي هذا جمع بين فاحشتين " الغيبة والرياء " وبعض المفتابين يقدم لغيبته مدحا ثم يستدرك ويفتاب او يمدح نفسه متشبيها بالصالحين يذم نفسه فيجمع بين ثلاث منكرات " الغيبة والرياء وتزكية النفس " وهذا من لعب الشيطان باهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم ، وبعض هؤلاء اذا لم يتنبه له الناس تعجب مما يقول ليلفت انظار المخاطبين اليه ، ليصفوا له ، والاصفاء بهذا غيبته لا مخرج ولا نجاه للمصفي من اثمه " الا بالانكار بقلبه ولسانها اذا استطاع او يفارق من يفتاب او يقطع بكلام آخر ليس فيه غيبة " (١)

ومن هذه الحيل المحرمة ان يقال : فعل كذا بعض الناس ، او بعض الفقهاء ، او بعض من يدعى العلم ، او بعض المفتين ، او بعض من ينسب الى الصلاح او يدعي الزهد ومن ذلك غيبة المتفقيين والمتعبدين فانهم يعرضون بالغيبة تعريضا يفهم به كما يفهم بالصريح " (٢)

هذا وقد انعقد الاجماع على تحريم الغيبة والنميمة ، وبذلك جاءت الادلة وصرح كثير من اهل العلم بانها كبيرة من الكبائر لان حد الكبيرة يصدق عليها بثبوت الوعيد الشديد فيها ، والذين قالوا انها من الصغائر لا حجة لهم " واذا لم يثبت الاجماع فلا اقل من التفصيل فمن اغتاب وليا لله او عالما ليس كمن اغتاب مجهول الحالة مثلا " ،

(١) احيا العلوم للغزالي بتصريف ١٤٢-١٤٣ هـ - ٣٠

(٢) الاذكار للنووي : ٢٩٠ - ٢٩١ .

والغيبة نوع من النسيئة ، لان النسيئة عليه لو سمع بما نقل عنه لغمه ذلك ،
وكرهه ، ويقال : ان الغيبة توجد في بعض صور النسيئة وهو ان يذكره في غيبته
بما فيه ما يسوؤه قاصدا بذلك الافساد " والاحتمال وارد في قصة الذي كان
يعذب في قبره ، وان البخاري اعتمد في ترجمته للاية وهذا الحديث " بسباب
الغيبة " على ما ورد في بعض روايات الحديث وذكره في الادب المفرد " بلفظ
الغيبة صريحا " (١)

والحديث هو ان الرسول صلى الله عليه وسلم : مر على قبرين فقال انهما
ليعذبان وما يعذبان في كبير اما هذا فكان لا يستتر من بوله ، واما هذا فكان يمشي
بالنسيئة . ثم دعا بعسيب رطب فشقه باثنين ، فغرس على هذا واحدا وعلى هذا
واحدا ، ثم قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا " (٢)

وللغيبة اسباب وبواعث ، وفيما يلي اذكر خلاصتها :

- ١- شفاء المغتاب غظه بذكر مساوي من يفتابه .
- ٢- مجاملة الاقران والرفاق ومشاركتهم فيما يخوضون فيه من الغيبة .
- ٣- ظن المغتاب في غيره ظنا سيئا مدعاة الى الغيبة .
- ٤- ان يبيري المغتاب نفسه من شيء وينسبه الى غيره او يذكر غيره بانسه
مشارك له .

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٤٧٠ - ١٠ ،
والقرطبي : ٣٣٧ - ١٦ ، والاذكار للنووي : ٢٨٨ ،
والكرمانى على صحيح البخاري : ١٩٤ - ٢١ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الادب .

- ٥- رفع النفس وتزكيتها بتنقيص الغير .
- ٦- حسد من يثنى عليه الناس ويذكرونه بخير .
- ٧- اللقب والاستهزاء والسخرية وتحقير الآخرين .
- ٨- المطايبه وتضحيك الناس على سبيل المحاكاة . (١)

ان الغيبة مرض خطير ، وداة فتاك . ومعمل هدام ، وسلوك يفرق بسين الاحباب ، ويهتان يغطى على محاسن الآخرين ، ويذره تنبت شرورا بين المجتمع المسلم ، وتقلب موازين العدالة والانصاف الى الكذب والجور ، وعلاج هذا المرض لا يكون الا بالعلم والعمل بمقتضى العلم فاذا عرف المغتاب انه تعرض لسخط الله يوم القيامة باحباط عمله واعطاء حسناته من يفتابه او يحمل عنه اوزاره ، وانه يتعرض لهجوم من يفتابه فى الدنيا وقد يسلطه الله عليه ، اذا علم هذا وعمل بمقتضاه من خير فقد وفق للعلاج ، وكذلك اذا عرف انه بحسد غيره كان فى عذابين " عذاب الحسد فى الدنيا وعذاب الآخرة الذى اعداه الله للمغتائبين ، فهذا خسران للدنيا والآخرة ، والاستهزاء بالناس بقصد اخزائهم هو اخزاء المغتاب نفسه عند الله ، فالواجب تجنب ذلك عليها . . ومن جره الغضب لله الى الغيبة فقد خسر ثواب الغضب لله ، واذا اخذ العجب بالانسان الهى ان استهان بالآخرين فعليه ان يفكر فى نفسه ما هى الزيادة التى يحملها عن يفتابه تحقيرا له ، فان شئت فهى نعمة من الله تدعو الى الشكر والخوف من ان تسلب

(١) الاحياء فى علوم للغزالي : ١٤٣ - ١٤٤ - ٣ ،
ومنهاج القاصدين لابن قدامة : ١٧٧ .

منه بالعدوان وإذا لم تكن الزيادة فعلية ان يعلم ان غيره ممن يغتابه مثله أو خـير منه ، فما موجب الغيبة ؟!

فالمعرفة السنية على الايمان القوى الذى يزداد والعمل الصالح ، والالتزام بما امر الله به واجتناب ما نهى عنه كل ذلك هو علاج الغيبة " فلينظر فى السبب الباغث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه فان علاج العلة يكون بقطع سببها " فالغضب يجب ان يعالج بعدمه وبما عالجه به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلاج موافقة جليس السوء مفارقتة او الانكار عليه مع العلم بان من رضى بسخط الله برضى الناس سخط الله عليه واسخط الله عليه الناس ، وهكذا تعالج جميع اسباب الغيبة بما عالجه منها منج الدعوة الاسلامية . (١)

ومن انجح العلاج ليلوى الغيبة وعى ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى تحذيره عن الغيبة كقوله عليه الصلاة والسلام : من اكل برجل مسلم الكفة فان الله يطعمه مثلها فى جهنم ، ومن كسا ثوبا برجل مسلم فان الله يكسوه مثله فى جهنم ، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فان الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة . (٢)

وقال : ان من اكبر الكبائر استطالة المرء فى عرض رجل مسلم بغير حق ومن الكبائر السبتان بالسبة " وفى رواية " ان من ارى الربا الاستطالة فى عرض المسلم

(١) انظر : الاحياء بتصرف : ١٤٥ - ١٤٧ ج ٣

ومنهاج القاصدين لابن قدامة : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) رواه ابو داود فى كتاب الادب رقم ٤٨٨١ ج ٤

وتفرد به كما قال ابن كثير فى التفسير .

بغير حق^(١) . وفي هذا الحديث دلالة واضحة على ان الغيبة كبيرة من الكبائر وليست من الصفائر . وقال عليه الصلاة والسلام : لما عرج بنى مررت بقوم لهم اظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين ياكلون لحوم الناس ويقعون في اعراضهم^(٢) . كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه^(٣) حتى ارتفعت ريح خبيثة منتنة فقال : اتدرون ما هذه ؟ هذه ريح الذين يفتابون المؤمنين^(٤) وفي رواية : ان ناسا من المنافقين اغتابوا اناسا من المسلمين فبعثت هذه الريح لذلك^(٥) .

ولما اقيم الحد على ماعز رضى الله عنه^(٤) قال رجلان : الم تر الى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل لهما شيئا حتى مر بجيفة حمار شائلة رجله فقال لهما : كلا من هذا^(٥) . قالا : من جيفة حمار يارسول الله . قال : فالذى نلتما من عرض اخيكما آتفا اكثر والذى نفس محمد بيده انه فى نهر من انهار الجنة

(١) المصدر السابق رقم ٤٨٧٦ .

(٢) رواه ابوداود وتفرد به رقم ٤٨٧٨ ح ٤

(٣) اخرجه البخارى فى الادب المفرد ، انظر فضل الله الصمد فى توضيح

الادب المفرد : ٢٠١ رقم ٧٢٢ ح ٢

(٤) ماعز بن مالك الاسلمى صحابى ويقال اسمه غريب وماغز لقب وقد روى ان

النبي صلى الله عليه وسلم قال : استغفروا لماغز^(٥) رضى الله عنه وقصد

اخلدت توبته ذكره واختار ما عند الله من لذة الحياة فى العاجلة وحادثته

هذه ترشد الى ماينبغى ان يكون عليه المؤمن اذا اذنب فانه ضميره

هو الذى يقوده وذنبه ينقص عليه الحياء حتى يتطهر منه ،

انظر ترجمته فى الاصابة : ٢٣٧ رقم ٧٥٨٧ ح ٣

ينغمس" (١)

وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه (٢) يسير مع نفر من اصحابه فرعلى بغل
بيت قد انتفخ فقال والله لان ياكل احدكم هذا حتى يملأ بطنه خير من ان ياكل
لحم سلم" (٣)

ولم يقف التوجيه النبوى عند ذلك الحد فى تقبيح الغيبة وتحذير المسلمين
من فسادها وخطرها فى الدين والدنيا ، وانما تجاوز منهج الدعوة الاسلامية
ذلك الى الزام الفرد المسلم اذا سمع غيبة سلم" ان يردا ويهجر قائلها ،
فان لم ينزجر بالكلام زجره بيده ان استطاع فان لم يستطع باليد ولا باللسان ،
فارق ذلك المجلس" فان سمع غيبة من له عليه حق اكثر كالوالدين فى حكمهما
واهل الفضل فى الدين والعلم والصلاح كان ذلك اوجب" (٤) وفى هذا نص
للاخ المسلم المظلوم بالغيبة ونسخ للاخ الظالم باغتيابه غيره . واذا كان منهج

(١) اخرجه البخارى فى الادب المفرد - فضل الله الصدق فى توضيح الادب
المفرد : ٢١٠ رقم ٧٢٢٧ ج ٢ قال فيه الحافظ ابن كثير فى التفسير:
اسناد صحيح ، وقد صححه ابن حبان .

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي أمير مصر وفاتحها يكتنق أباعبدالله وأبامحمد أمه
النايغ من بني عترة أسلم قبل الفتح في صفر سنة ٨هـ . أمر بالرسول صلى الله عليه
وسلم والخلفاء من بعده وكان من الدواهي والعقلاء توفي سنة ٤٣هـ .
الاصابه : ٢-٣ ج ٣ والاستعاب على هامشه : ٥٠٨-٥١٥ ج ٢

(٣) اخرجه البخارى فى الادب المفرد ، فضل الله الصدق فى توضيح الادب المفرد

: ٢١٠ رقم ٧٢٦ ج ٢ .

(٤) انظر الاذكار للنووى : ٢٩٤ .

الدعوة الإسلامية في بناء المجتمع المسلم يطالب من أفراد المسلمين كذلك ويربيه
فيهم ، فمن باب أولى ان يهذبهم وينقيهم من مرض الغيبة ، ويبعدهم عن كل
دواعي وطرائق اليها كالظن والتجسس . . . !

فانظر معنى الی قوله صلى الله عليه وسلم : من حمى مؤمنا من منافق
يفتأبه بعث الله تعالى اليه ملكا يحى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى
مؤمنا بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج ما قال^(١)
وقال : ما من امرىء يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه
من عرضه الا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء ينصر مسلما في
موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة الا نصره الله في موطن يحب نصرته^(٢)

وقال عليه الصلاة والسلام : من رد على عرض اخيه رد الله عن وجهه النار
يوم القيامة^(٣)

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم الى الصلاة النافلة في بعض بيوت الانصار
وكانوا وراءه صفوفا فسأل رجل منهم عن مالك بن الدخش^(٤) فقال رجل : ذلك
منافق لا يحب الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقل ذلك

(١) رواه الامام احمد في السند : ٤٤١ ح ٣ ،

وابو داود في كتاب الادب رقم ٣٨٨٣ ص ٣٧٣ ح ٤

(٢) المصدر السابق رقم : ٣٨٨٤ وتفرد به .

(٣) رواه الترمذی في كتاب البر والصلة رقم ١٩٣١ وقال : هذا حديث حسن .

(٤) مالك بن الدخشن او الدخشم ، قيل بالنون والميم ، وهو من بنى عوف بن

عمرو بن عوف الانصارى الاوسى وقد شهد بدرا وهو الذى أسر سهيل بن

عمرو وهو الذى ارسله النبي صلى الله عليه وسلم مع معن بن عدى الى المسجد

الضرار فاحرقاه ولا يصح عنه النفاق لان اسلامه حسن وشهد المشاهد كلها =

الا تراه قد قال لا اله الا الله يريد بذلك وجه الله " (١) وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك عن كعب بن مالك فقال : ما فعل كعب بن مالك " (٢) فقال رجل من نبي سلمة : يارسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه " فقال معاذ بن جبل رضى الله عنه بعث ماقلت ، والله يارسول الله ما علمنا عليه الا خيرا ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣) ،

وقد كان امر الغيبة دقيقا خطيرا وخاصة عندما تلتبس الغيبة بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر فالغضب لله والعجب في انكار المنكر والرحمة لمن ابتلى بشئ من كوارث الدهر ، كل ذلك قد يخلط به الشيطان شيئا من ملحه " الغيبة " ويخبى فيه شرورا في معرض الخيرات ، فهذه الامور الثلاثة " مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام فانهم يظنون ان التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عفرا في ذكر الاسم وهو خطأ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم " (٤) ،

-
- مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
انظر ترجمته في الاصابة : ٣٤٣ والاستيعاب على هامشه : ٣٧٢ هـ ٣
- (١) رواه البخارى في كتاب الصلاة باب صلاة النوافل جماعة ، وسلم في باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر .
- (٢) كعب بن مالك بن ابي كعب ابوعبدالله او ابو عبد الرحمن الخزرجى الانصارى شهد العقبة الثانية واختلف في حضوره بدرا وقد تخلف في تبوك وهو من الثلاثة الذين تاب الله عليهم في سورة التوبة ، وكان كعب شاعرا من شعراء الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد آخى بينه وبين طلحة بن عبيدالله توفي سنة ٥٠ هـ وقيل سنة ٥٣ هـ في خلافة معاوية .
- انظر ترجمته في الاصابة : ٣٠٢ والاستيعاب على الهامش : ٢٨٦ هـ ٠٣
- (٣) رواه البخارى في كتاب المغازى باب غزوة تبوك ، وسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار .
- (٤) احياء العلوم للغزالي : ١٤٤ هـ ٠٣

وقد روى " ان رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم
فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم انى لا يخض هذا فسى
الله تعالى ، فقال اهل المجلس ليس ما قلت والله لننبئته ثم قالوا : يا فلان
لرجل منهم قم فأدرکه واخبره بما قال فأدرکه رسولهم فاخبره فاتى الرجل رسول
الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله ان يدعو له فدعاه وسأله فقال :
قد قلت ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه ؟ فقال : انا جاره وانا به
خابر ، والله ما رأيتہ يصلى صلاة قط الا هذه المكتوبة قال فاسأله يارسول الله
هل رأتى اخرتها عن وقتها او اسأت الوضوء لها او الركوع او السجود فيها
فسأله فقال : لا فقال : والله ما رأيتہ يصوم شهرا قط الا هذا الشهر الذى
يصومه البر والفاجر قال : فاسأله يارسول الله هل رأتى قط افطرت فيه او نقصت
من حقه شيئا فسأله عنه فقال : والله ما رأيتہ يعطى سائلا ولا يسكينا قط ولا رأيتہ
ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله الا هذه الزكاة التى يومئذ بها البر والفاجر .
قال : فاسأله يارسول الله هل رأتى نقصت منها او ما كست فيها طالبها الذى
يسألها ، فسأله فقال : لا . فقال صلى الله عليه وسلم للرجل : قم فلعلـــــــــه
خير منك . (١)

(١) رواه الامام احمد باسناد صحيح : ٤٥٥ ح ٥ عن ابى الطفيل عامر بن واثله .

الاسباب المرخصة للغيبة

ان الغيبة كما ذكرنا جاء الوعيد الشديد عليها ، وتضافرت النصوص على تحريمها وتحريم ما يوصل اليها كالظن السيء والتجسس وانعقد الاجماع على ذلك ، وقد تقدم ما يدل على ذلك ، ولكن الحق لا بد من بيانه ، وان كان فيه ذكر ما يسيء بعض الناس مما لا يتقيدون به ، وقد استثنى اهل العلم بعض الامور بالادلة ورجحان المصلحة كالجرح والتعديل والنصيحة لمن استنصح^(١) ونفى الحقيقة ان ما ذكره لم يكن لاساءة احد وانما لبيان الحق الذي هو المصلحة لكل احد ، وقد تأملت ذلك فوجدته يندرج تحت قواعد كلها من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودفع الضرر والخطر ببيان الاسباب المؤدية الى نتائج سيئة وخلاصة ما ذكره واستثنوه كالتالى :

- ١- المظلوم . فانه يجوز لكل مظلوم ان يذكر من ظلمه بظلم للسلطان او القاضي وكل من له ولاية او قدرة على انصافه من ظالمه والا انتهز المعتدون فرصة السكوت من جانب المظلومين خوفا من الغيبة ، وعلى من قدر على انصاف المظلوم ان ينصره ولا يقول هذا غيبة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان لصاحب الحق مقالا^(٢) وقال : لى الواجد يحل عقوبته وعرضه^(٣)

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢١٤ هـ ٤

(٢) رواه البخارى فى كتاب الاستقراض باب استقراض الابل - الفتح : ٦٢،٥٦

• ه •

(٣) ذكره البخارى تعليقا ليفسر به الحديث " ان لصاحب الحق مقالا " .

والواجب على ذوى الاختصاص ان ينصروا المظلوم ويستمعوا له ولا يردوه متذرعين بانهم لا يقبلون الغيبة ولا ينصتون للنسيمة ، كما ان على المتظلم ألا يأخذ من ذلك سببا الى غيبة الاخرين وواضح فى هذه الحالة أن المرخص له فى نوع الغيبة هذا هو المتظلم ومن فى حكمه .

٢- المشورة . اذا استشار احد الرعايا ولى الامر او من فيه اهلية المشورة وينصح له فيمن استشاره فيه فعليه ان يذكر له ما يعرفه من العيوب والمحاسن ويرشده الى الاصلح كمن استشار فى زواج فلان او فلانة او فى صداقته ومعاملته فعلى المستشار الناصح ان يتقيد بالصواب دون ان يأخذه جانب العاطفة او الحسد او التعصب فى ذلك ، والاصل فى هذا ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سألته فاطمة بنت قيس ^(١) رضى الله عنها قالت : ان ابا الجهم ^(٢) ومعاوية خطباني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اما معاوية فصعلوك لا مال له . واما ابو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه * ^(٣) والاستشار هنا هو الذى له ان يذكر ويحذر من بعض العيوب .

(١) فاطمة بنت قيس بن خالد الفهرية القرشية من المهاجرات رضى الله عنها . وكانت ذات جمال وعقل وقد تزوجت باسامة بن زيد بعد ابي بكر بن حفص المخزومي فى بيتها اجتمع اصحاب الشورى عند مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه روت احاديث كثيرة وروى عنها التابعون ،

انظر ترجمتها فى الاصابة : ٣٨٤ ، والاستيعاب فى الهامش : ٣٨٣ هـ ٤٠ .
(٢) ابو الجهم بن حذيفة بن غانم ، اسمه عبيد وهو من سلالة الفتح وشيخة قريش ومن المعمرين ، وهو من الذين تاخذ عنهم قريش النسب حضر بنا الكعبة مرتين حين بنتها قريش وحين بناها ابن الزبير ، ومن الذين تولوا دفن عثمان رضى الله عنه وتوفى فى آخر خلافة معاوية ،

انظر الاصابة : ٣٥ ، والاستيعاب فى الهامش : ٣٢ هـ ٤٠ .

(٣) كناية عن كثرة ضربه للنساء

وليس هذا من باب الاستفتاء وإنما من باب المشورة والاستنصاح والمرأة فى أسس الحاجة الى هذا وكذا من فى حكمها من ذوى العقل الناقص والتجارب المحدودة والذين قد تغلبهم العاطفة وسلطان الهوى كالمرأة ، فما اعظم هذا التوجيه والمنهج السليم . . . !

٣- الاستفتاء . فاذا تقدم به من تدعوه الحاجة الى ذكر بعض المعايير فى شريكه بأى نوع من انواع المشاركة فجاز له ان يذكره وعلى المستفتى ان يفتى بناءً على ذلك كما جاء فى قصة هند (١) امرأة ابي سفيان (٢) ان قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : ان ابا سفيان رجل شحيح وليس يعطينى ما يكفينى وولدى الا ما اخذت منه وهو لا يعلم ، قال : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف (٣)

٤- الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي الى الصواب ، وهذا يستدعى ان يوصف المخالف بما يستنكر منه كما هو موقف كثير من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عندما يستدعون الخلفاء والشرطة للمخالفين .

٥- تحذير المسلمين من مبتدع وفاسق ونحوهما فعلى من يعلم ذلك نصح الأمة مع نصح المبتدع والفاسق اولاً ، ثم تحذير من يتردد اليه لئلا يتأثر بمجالسته

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشية وهى ام معاوية اسلمت عام الفتح بعد اسلام زوجها ابي سفيان وكان لها دور فى قتل حمزة رضى الله عنه ، انظر ترجمتها فى الاصابة : ٤٢٥ هـ ٤ والاستيعاب : ٤٢٤ .

(٢) هو صخر بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ابو سفيان القرشي الاموي وهو اسن من النبي صلى الله عليه وسلم بعشرين سنة وهو والد امير المؤمنين معاوية اسلم عام الفتح وتزوج الرسول عليه الصلاة والسلام ابنته سيمونة قبل ان يسلم وتوفى سنة ٣٤ هـ وقيل سنة ٣١ هـ ، الاصابة : ١٧٨ - ١٨٠ هـ ٢ .

(٣) متفق عليه : فتح البارى على صحيح البخارى : ٩ ج ٥٠٧ من كتاب النفقات والنوى على صحيح مسلم : ٧ ج ١٢ من كتاب الاضيئه .

وخاصة الذين يؤخذ منهم العلم والتوجيه وتنقل منهم الاخلاق والتربية ويؤثرون في غيرهم ، لكن لا بد ان يكون هذا التحذير خالصا لا يشوبه الحسد ولا تكدره الالهواء والحزازات ، وقد ابدع السلف من الائمة واهل العلم المتجهين والموجهين فبينوا في كتبهم ما فيه الكفاية في بيان اهل الزيف والابتداع ومن لا ترضى سجاياه عقيدة وفكرا وسلوكا حتى تميز السسى من غيره ، واتضحت اصول كل فرقة في كل زمان ومكان واخيرا تميز الشرعى من العلمانى والمؤمن من الملحى . . . !

والاصل في هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام في رجل استأذن عليه فقال : اعذنوا له بئس اخو العشيرة * فلما دخل الان له الكلام ، فقالت عائشة : يا رسول الله قلت الذى قلت ثم التت له الكلام . قال : اى عائشة ، ان شر الناس من تركه الناس - او ودعه الناس - اتقاء فحشه * (١) وقد بوب الامام البخارى لهذا الحديث بقوله : باب ما يجوز من اغتياى اهل الفساد والريب * يقول الحافظ ابن حجر : وانما هونصيحة ليحذر السامع ، وانما لم يواجه المقول فيه بذلك لحسن خلقه ولوواجه المقول فيه بذلك لكان حسنا ولكن حصل القصد بدون مواجهة * (٢)

٦- التحذير من يولى ولاية او اى سوية ولا يخلص فيها ولا ينصح للمسلمين

(١) رواه البخارى في كتاب الادب .

(٢) فتح البارى على صحيح البخارى : ٤٧١ ح ١٠ .

وليس بصاحب امانة ولا وفاء بالعهود . اما لانه ليس بكفو لها ، او لانه فاسق او مغفل ونحو ذلك . " يجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولى من يصلح ، او يعلم ذلك منه ليعالطه بمقتضى حاله ولا يفخر به وان يسعى فى ان يحثه على الاستقامة او يستبدل به " .

٧- جرح المجرهين من الوراة والشهود وذلك جائز باجماع المسلمين بل واجب للحاجة ، وقد كان فى هذا علم قائم بنفسه وهو علم الجرح والتعديل وطسم الرواة والرواية صيانة لما اثر عن المصطفى عليه الصلاة والسلام وروى عن السلف الصالح . والاسناد والتثبت فى التاريخ من خصائص هذه الأمة التى حفظت بها دينها من تحريف الكاذبين .

٨- المجاهر بالباطل كالفسق والبدعة والمسكرات والربا والمهن الباطلة واخذ اموال الناس بالباطل والحيل فى المعاملات ونشر الاراء الخبيثة والافكار الماجنة فهذا واجب الحذر منه وبيان حاله ، ولا غيبة له لانه خلق جلباب الحياء .

٩- التعريف . اذا كان لا يعرف المعرف الا بلقب ليس فيه مدح وانما يشير الى نوع من العيب او العاهة فانه يجوز ان يعرف به على وجه البيان ولا يعرف الا به لحاجة من غير تنقيص ولا حرج منه . (١)

(١) انظر: احياء المعلوم للغزالي : ١٤٨-١٥٠ ح ٣ ، والنووى فى رياض الصالحين : ٦٧٣ ط الراجحى ، وشرحه لصحيح مسلم : ١٤٢ ح ١٦ ، والاذكار له : ٢٩٢ - ٢٩٤ ، وفتح البارى على صحيح البخارى : ٤٧٢ ح ١٠ ، ومجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية : ٢٢٩-٢٣٦ ح ٢٨ كل بتصريف .

والاصل في هذا كما اخرج الامام البخارى ويوب له بقوله " باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير " لما نسي النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة وفي القوم رجل كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ذا اليمين فقال : يا نبي الله انسييت ام قصرت الصلاة ؟ فقال لم أنس ولم تقصر قالوا : بل نسييت يا رسول الله قال : صدق ذو اليمين " (١) وذكرت هذا عند اللقب (٢) ، هذا وقد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله عن الغيبة ففصل فيها وقسمها الى قسمين فقال :

" اذا تبين هذا فنقول : ذكر الناس بما يكرهون هو في الاصل على وجهين : احدهما : ذكر النوع .

والثاني : ذكر الشخص المعين الحي او الميت . وذكر رحمه الله ما يتعلق بكل نوع من خلال مناقشة الادلة وتوجيه المصلحة في منهج الدعوة الاسلامية وقال واصفا النوع الاول :

" اما الاول فكل صنف ذمه الله ورسوله يجب ذمه ، وليس ذلك من الغيبة ، كما ان كل صنف مدحه الله ورسوله يجب مدحه ، وما لعنه الله ورسوله لعن ، كما ان من صلى الله عليه وملائكته صلى عليه " ، ثم قال : فاذا كان المقصود الامر بالخير والترغيب فيه والنهي عن الشر والتحذير منه فلا بد من ذكر ذلك " ويقول في النوع الثاني : واما الشخص المعين فيذكر ما فيه في مواضع " (٣) وهي المواضع التي ذكرناها وكانت مرخصات في الغيبة .

(١) اخرجه البخارى في كتاب الادب .

(٢) راجع ص ٤١٦ من هذا الفصل .

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٢٢٥-٢٢٩ هـ - ٢٨٠ .

ولبشاعة هذه الصورة ، وقبح هذا المنظر جاء اسلوب الاية فى غاية الدقة وحسن السبك ليعي المفتابون الساخرون حقيقة الامر ويستدركوا قبل فوات الاوان ، ويتجلى هذا الاسلوب فى الاستفهام فى قوله " ايجب " فمن الواضح بعده والسلم به ان يقال بالكراهية " فكرهتموه " ومع كراهتهم لهذا وانه فى ظاهره لا يكون من احد فهو تمثيل لمن يتجسس ويفتاب وهما واقعان . .

وهذا السلوك الخطير لا يعصم منه الانسان غير التقوى ولكن هل من يزاول شيئاً من الامور الستة ، بدأ بالسخرية وانتهى الى الغيبة هل تبقى معه التقوى وتلابسه ويلاسها . . . ؟

اسلوب الآيتين يشير الى انه ليس من الاتقاء ، فقد فصل بين الجملة " واتقوا الله " وجملة " ان الله تواب رحيم " لان التقوى غير حاصله لمن كان خلقه نحو اخوانه المسلمين كذلك الا بعد التوبة والانسلاخ من ذلك كله ، فالجملة الاولى نشأ منها سوءال وهو كيف ينتهى من ابتلى بما ذكر والجواب ان يتوب ولا يظن ولا يتجسس ولا يفتاب !

التوبة

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين الجامعتين ستة معالم جاهلية كما ذكرت وهي " السخرية ، واللمز والنمز والظن والتجسس والغيبة " واليه يعود كل فساد وخراب في المجتمع الجاهلي في عقائده الفاسدة واخلاقه الماجنة ومعاملاته السيئة ، فانهار بكل ذلك في سحق الله تعالى ، وهذا هو المعلم البارز لمجتمع الكفر والنفاق في كل زمان ومكان ، كما قال تعالى بعد ذكره تعالى خوض الكفار والمنافقين في سورة التوبة فقال عز من قائل :

" كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " (١)

ولما كانت هذه الصورة هي الصورة الادبية لمجتمع غير اسلامي ، وكانت تلك معالمه ومباهجه ، الظاهرة والباطنة ، لما كان الامر هكذا في حقيقته ، نهج منهج الدعوة الاسلامية في هاتين الآيتين طريقا تعليميا وتربويا ، يبعد المجتمع المؤمن افرادا وجماعات عن كل ما يفكك وحدته ويسوس بناؤه الذي كانت قواعده الايمان والشعور بالوحدة واتباع سبيل الحق المبين ، فحرى بهذا المجتمع ان يبتعد عن كل مظهر من مظاهر الجاهلية والنفاق ويولي شطره نحو الايمان والسلام والوثاق . . . !!

(١) الآية من سورة التوبة : ٦٩ .

ولم ينته المنهج الاسلامي عند هذا الحد في تعليم وتربية المجتمع المؤمن فحسب ، بل انه ينهج به الى ان يكون مجتمعا تائبا منيبا الى الله تعالى ، كلما تعلق به شيء من اضرار الجاهلية والنفاق ، ولم به خوض غيرهم ممن لا يعبأ به الله تعالى .. فهو مجتمع متجدد دائما بالتوبة وينمو بالرجوع الى الله .. !!
لهذا ختمت الآيات بالتوبة ، وفي نفس الوقت التوبة بناء آخر للفرد المسلم ولمجتمعه ورحمة مهداة للعباد وطجأ يوصل الى العلم الخبير ويعيد كل شيء الى مجراه .. واسلوب الآيتين في الخاتمتين بديع وعميق في يقظه العقل التائب والفكر الساج والمنهج الهادف .. !

وقد ختمت الآية الاولى بالنفي وهو شبهه النهي الذي بدئت به
" لا يسخر " فقال في الخاتمة : ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " وفي هذا الاسلوب من التهديد مالا يخفى ، لما ذكرنا من أن السخرية ورفيقها " اللمز والنسب " ايذاء واضح وعدوان فاضح ، صارخ في حضرة من يوترى به في الغالب ، فناسبه هذا التهديد في سياق الدعوة الى التوبة ، واما الآية الثانية فقد بدئت بالامر " اجتنبوا " وختمت بالامر كذلك ومضمونه التوبة وطالبه التواب الكريم " واتقوا الله ان الله تواب رحيم " والامر في حد ذاته صيغته لا يتضح الا بوضوح الأمور به . والغيبة وسببها " الظن والتجسس " لا تخلو من خفاء وعدم العلم بكثير من جوانبها واهدافها .. (١)

(١) انظر روح المعاني للالوسي : ١٦١ هـ ٢٦٦ .

وعلى كل فان خاتمة الآيتين تلزم من ارتكب شيئا من هذه الامور الستة التوبة،
فانه تعالى يهدد من لم يتب بوصفه بلقب الظلم وزجه في زمرة الظالمين . . . ومن
صدر منه هذا التوجيه ودعا المؤمنين الى تزكية انفسهم بالتوبة من اسمائه وصفاته
التواب فالتوبة اليه مغفرة والمتوسل بها اليه موفق فهو لا محالة ان احسن في
الطلب واخلص في الرجوع واستغفر واناب وانسلخ من الذنب لا محالة انه مقبول
ويشمله الخير العميم الذي تتضمنه صيغة المبالغة " تواب " على وزن فعال . . . !

فالتوبة مطلوبة ممن ارتكب شيئا من الامور الستة او غيرها ، بناء على الخاتمتين
الموجهتين في منهج الايتين . وقد اختلفوا في توجيه التوبة من الغيبة ، وهل من
شرطها استحلال المغتاب من اغتابه . ؟ او انه يتوب فقط دون ذلك ، لانه
لم يأخذ من ماله ولا اصاب شيئا من بدنه ودمه ، والمظلمة ما يكون منه البسود
والعوض في المال والبدن ، وانما يكفي الاستغفار لمن اغتابه والمبالغة في ذلك
مع حسن التوبة بينه وبين الله تعالى ، وفريق من اهل العلم يذهب الى انه لا بد
من استحلال المغتاب من ذكره بسوء لان العرض اشد حرمة من المال والدم ولا فرق
في ذلك بين المظالم في المال والدم والعرض ، ولا ادل على هذا من حسد
القاذف وهو مغتاب ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك
ويدعو الى استحلال كل ظلم بالطرق التي جاءت في منهج الدعوة الاسلامية في
القضاء على الظلم وتنمية الروابط بين المجتمع المسلم فقال عليه الصلاة والسلام : من
كانت له مظلمة لاخيه من عرضه او شيء فليتحلل منه اليوم قبل ان لا يكون دينار
ولا درهم ، ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم تكن له
حسنات اخذ من سيئات صاحبه فعمل عليه " (١)

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم باب من كانت له عند الرجل فحلها له هل
يبين مظلمته .

وقد جاء معنى هذا الحديث من وجه آخر وهو أوضح سياقاً من هذا
ولفظه (١) : أتدرون ما المغلس قالوا المغلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال :
ان المغلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف
هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا
من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحست
عليه ثم طرح في النار * (٢)

وعندما يفصلون هذا الاستحلال فان بعضهم لا يراه واجبا ، وان اوجبوا
الآخرون بظاهر هذه النصوص ، واغرب قول ما ذكر عن بعض السلف من انه لا يحلل
من اغتابه مخافة ان يجيز الغيبة . . . !

وخلاصة القول في هذا ان ما كان حقا لله تعالى تكفى فيه التوبة الصادقة
وما كان حقا للآدمي يضاف اليها الاستحلال . . (٣)

وقد لخص الحافظ ابن كثير ذلك فقال : قال الجمهور من العلماء طريق
المغتاب للناس في توبته ان يقطع عن ذلك ويعزم على ان لا يعود ، وهل يشترط
الندم على ما فات ؟ فيه نزاع وان يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون
لا يشترط ان يتحلله فانه اذا اطمه بذلك ربما تأذى اشد ما اذا لم يعلم بما كان
منه فطريقه اذن ان يثنى عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وان يرد عنه

(١) فتح الباري : ١٠١ ح ٥

(٢) رواه طلم في كتاب البر والصله والادب .

(٣) انظر : علوم الاحياء للغزالي : ١٥٠ ح ٣ وتفسير القرطبي المسألة الثامنة

٢٢٧ ح ١٦ والاذكار للنووي ٢٩٧ ، وروح المعاني للالوسي : ١٥٩ ح ٢٦٦ .

الغيبية بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك * (١)

وعلى كل التوبة شرط سبق عند الجميع سواء كان استحل من اغتابه اولم يستحل ، وللتوبة شروط لا بد منها وهي واجبة من كل ذنب ، فان كان الذنب بين العبد وبين الله ولا تعلق له بحق آدمي فلا بد من ثلاثة شروط :

- ١- المغارقة التامة الشاملة للمعصية .
- ٢- ان يندم التائب من ارتكاب المعصية ويسوءه ، ماضى من غواينه .
- ٣- العزم الكامل والجد الصابر من التائب على الا يعود .
- ٤- اذا كانت المعصية تتعلق بحق آدمي يضاف الى الشروط الثلاثة شرط رابع وهو الاستحلال من المظلوم ورد الحق له وتمكينه من ظالمه . (٢)

وما يلاحظ ان المفسرين ومن سلك منهجهم من الفقهاء ينصون على التوبة وشروطها وطرائقها من الغيبية فقط دون الامور الخمسة في الآيتين مع انها كلها القاب للغيبية ،

ولست ادري ما منشأ هذا عند هؤلاء المفسرين واولئك الفقهاء . . . ؟ هل يعود الى ان ما قبل الغيبية في الآيتين دونها في الخطورة فلا تطلب التوبة الا من المغتاب ؟ وهذا الاحتمال مردود بظاهر الآيتين ، لان الاولى بعد ما ذكر

(١) تفسير ابن كثير : ٢١٦ - ٤ .

(٢) الاذكار النووية : ٢٩٧ ، ورياض الصالحين له : ١٩ .

سيحانه وتعالى فيها السخرية واللمز والنبز ختمها بقوله : " ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " قبل ان ياتي النهى عن الغيبة فى الآية الثانية التى عطف فيها الغيبة على التجسس والظن قبله ، والنص على التوبة فى الآية الاولى اوضح من النص عليها فى الآية الثانية ، لانه من مفهوم الصفة " التواب " فقط دون النص على طلب التوبة . ولكنه فيما يبدو لى والله اعلم ، من صنيعهم هذا هو ان الغيبة تتضمن كل ما سبقها فى الآيتين لما رأينا فى توجيه الكلمات الخمس ومدلول كل منها ينتج منه مدلول الثانية التى بعدها وهكذا حتى تراكم المنهج الجاهلى وتكون بعناصره ثم لقب فى النهاية بالغيبة . . . !

وتعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى سبق للغيبة " ذكرك اخاك بما يكره " اوضح دليل على هذا لان هذا التعريف شامل لكل ما ذكر فى الآيتين من الامور الستة ،

رحم الله سلفنا الصالح من المفسرين والمحدثين والفقهاء ما أدق منهجهم وأعمق نظرهم فى النصوص .

الخاتمة

لا يستطيع احد مهما أوتي من البيان وفصل الخطاب أن يقارب أو يماثل هذه الصورة المعجزة في السيرة فقله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله " هذه الجملة هي موضوع السورة وما جاء بعدها الى نهاية السورة كله تفصيل وتطبيق للتقدم بين يدي الله ورسوله فرفع الصوت والجهـر بالقول والمنادات خير الأدبية والنبأ الكاذب وترك النصح لفريقين من المسلمين اختلفوا ، والسخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة والمفاخرة ودعوى الايمان باللسان دون العمل كل ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله . . . وای وحدة موضوعية أبلغ واعمق من هذا الايجاز " لا تقدموا ، وبعده هذا التفصيل الآخذ بعضه بعضا . . . !؟

والسورة بعد ذلك يعرض الله سبحانه وتعالى فيها ثلاث قضايا على المسلمين وأدب مع القرآن وأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته وأدب مع المسلمين " ومجموع هذا هو الأدب مع الله اجمالا وتفصيلا . وفيما يظهر انه سبحانه وتعالى صنف المؤمنين الى صنفين في السورة :

صنف تجاوز درجة الاسلام الى درجة الايمان منهم المسلمون المؤمنون ، وهذا الصنف عقابه كثير وحسابه عسير في الدنيا لأنه هو الذي عرف الايمان وخالط بشاشة قلوبهم ، وهو " لا يحرض منهج الدعوة الاسلامية في السورة عليهم اشد الحرص فلا يدع لهم المجال ليسترسلوا في مخالفة الآداب الثلاثة المذكورة . وكانت مناداة هو " لا داعيا بالوصف المحبب الى نفوسهم والمحدد درجاتهم والمشعر بعظم المسؤولية المبنية على علم من عرف الايمان ونواقضه ومنه تدرج خطابهم في عتاب لم يفرق بين الحكم بما انزل الله والتوجيه اليه والعتاب فسي

كلمة لا يلقي لها بال في السخرية او في الظن او في الغيبة ، كل ذلك يعنى به منهج الدعوة الاسلامية فهولاء ينادون بنداء الايمان دائما في السورة . وهم بالايمان الصق وجماله وأدبه أقرب ، وبتربيته وتهذيبه كانوا مؤمنين . وماعسدا الايمان انما هو طارض في الشريق كسحاب تصيف سريعا ما تنقشع وكلما عرقلت بعض العوارض سيرتهم هذه . ووقع احدهم في هفوة من الهفوات أزاحها الايمان وطرحها المؤمنون عن انفسهم وترفعت آدابهم الجمة وأخلاقهم الحسنة عنها انهم المؤمنون الذين لا يذمون الا على الحق ، ولا يفارقون التوبة لانهم عبيد غير معصومين يخطئون فيتوبون ويطلبون الحق فيفوقون . ويدعون الله في السراء والضراء فيستجابون . . . ان وصفهم بالايمان لا ينتقل عنهم لانهم من الايمان أما تلك العوائل والهفوات فهي تزول عنهم وينفصلون عنها كلما سمعوا هذا النداء الحبيب . نداء الرحمن الرحيم . وتلقفته أفئدتهم الحية ونفوسهم المتصلة بالله واستبشرت به جماعتهم المترابطة ووجدتهم المتماسكة واخوتهم المتراحمة ، انهم جماعة هي عقبة العقبات في طريق الظلم والعصيان والجهل والعدوان ، جماعة لا يمسه من الشيطان ولا تذر الرياح الجاهلية ريحها ، فهم اصلب من الجبال الشوامخ وأدوم من الزمن الدوار على ايمانهم أو لك هم المفلحون وأولئك هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . رضي الله عنهم وهم صورة الايمان تمشي على الأرض هونا (في صورة الرجال) واذ خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما . وهم أساس المجتمع البناء للمجتمع الاسلامي وبدون هذا الأساس لا بناء ولا ظل ،

وأما الصنف الثاني : الذي تعرضت له السورة في الآيات الاخيرة فهم المسلمون الذين لم يصلوا الى درجة الايمان فهولاء كانت الوقفة معهم في ذات الايمان

وفي أدب دعوى الايمان ليعرفوا بالايمان وأنه ليس بدعوة . ولا بقضية مؤقتة
وانما هو يقين وجهاد وانفاق في سبيل الله وهو لا المسلمون في
الحقيقة جنس آخر واوئكك جنس آخر . وان كانوا جميعا تجمعهم كلمة
الاسلام - فبينهم من التفاوت كما بين درجات الجنة وهي كلها من
الجنة .

هذا وقد توصلت الى بعض النتائج في هذا البحث المتواضع من العقل

وهي :

١- أن القرآن الكريم يتضمن كل ما فيه اسعاد البشر وبنائهم الحضارى بناه
يربطهم بالله سبحانه وتعالى . هذا ما نجده في سور القرآن مفردة
فكيف في القرآن جميعا .

٢- هذه السورة من السور التي حوت وتضمنت نظاما كاملا ودستورا شاملا
لمجتمع فاضل وهو المجتمع المؤمن ومن خلال دراستها في الفصول الستة
المكون منها البحث تبين مايلى :

(١) البشرية وحدة من أصل واحد اساسها الاول النبوة . لا تنتمى
الى اصل غير هذا ولم تتعدد أصولها ، ومن يزعم غير ذلك فهو ملحد .
(٢) جميع المخلوقات بما في ذلك فئة البشرية خالقها واحد تقر به في
أصل الفطرة ، وان تباينت أساليب البشر في التعبير عن هذا الخالق
العظيم سبحانه وتعالى ومن يساوره الشك في هذا قلة كل ما يقال فيه
أنه متردد .

(٣) بنا^١ على ذلك كله وهو الوحدة البشرية في النشأة ووحدة الخالق ليس هناك ما يفضل جنسا على جنس أو فردا على فرد الا بشي^٢ خارج وهو التقوى وهي لها عوامل وأسباب .

(٤) الايمان أبرز أصل من أصول بناء المجتمع المؤمن .

(٥) والايمان له شواهد وضوابط وهي العمل بالكتاب والسنة واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٦) درسنا في السورة ما يجعل المجتمع الذي وجد على هـذـه الأسس يدوم على قوته تلك ويستمر على ايمانه يزيد فيه ولا ينقص . وذلك هو عدم الفرقة وقبول ما يسببها والسخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة ، وعلاج هذا كله ان وجد في المجتمع وسد الذريعة لئلا يوجد .

ان الأمة الاسلامية اليوم اذا أرادت أن يكون لها مجتمع مترابط قوى ينمو على مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم . عليها أن تعود الى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فان فيهما الكفاية والمنشود .

كشاف الغريب

<u>الصفحة</u>	<u>الكلمة</u>	<u>الصفحة</u>	<u>الكلمة</u>
١٢٢	١٩- ردى	٣٤٤	١ - برك
٣٦٩	٢٠- سبخة	٣٦٨	٢ - بفت
٣٩٩	٢١- السخرية	٣٨٢	٣ - بلّح
٣٧٦	٢٢- سلامي	٨٧	٤ - التراب
١١٣	٢٣- الشعب والقبيله	٤٣٥	٥ - تجسس
٨٧	٢٤- الصلصال	١٣٥	٦ - تسفهم الطل
٣٠٨	٢٥- ضبة	٣٦٨	٧ - تفوء
١٦٩	٢٦- طف الصاغ	١٢٤	٨ - الجاهلية
٨٦	٢٧- الطين	١٢١	٩ - الجعلان
٤٢٢	٢٨- الظن	٢٩٩	١٠- جهر
١٢٠	٢٩- عمية	٣٠٠-٣٠١	١١- حبط
١٢٣	٣٠- عمية	٣١٣	١٢- الحجرات
٤٢٩	٣١- الغر	١٠٣	١٣- الحديث القدسي
٣٠٦	٣٢- الغض	٨٧	١٤- الحما السنون
٤٤٧	٣٣- الغيبة	٨٤	١٥- الحيوانات الفقارية
٣٤١	٣٤- فثام	٤٢٩	١٦- الخب
٣٣	٣٥- فرق	٢٤	١٧- خلق
٣٥٨	٣٦- الفسوق	١٤١	١٨- الديمقراطية

تابع / كشف الغريب

<u>الصفحة</u>	<u>الكلمة</u>
١٥٩	٣٧- كبوة
١٢٥	٣٨- كسع
٣٥٧	٣٩- لعنتم
٤٠٧	٤٠- اللمز
٣١٦	٤١- السوح
٣٦٨	٤٢- المقسطون
٣٨٢	٤٣- معتق
٣٤٧	٤٤- نادمين
١٨	٤٥- الناس
٣٤٧	٤٦- النبأ
٤١٤	٤٧- النبز
٣٢٦	٤٨- النشر
٣١٦	٤٩- وراء
٤٠٧	٥٠- الهمز

كشاف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
٢٠٤	١ - ابراهيم بن يزيد النخعي
٢٠٩	٢ - احمد بن شعيب النسائي
١٢٣	٣ - احمد بن عبد السلام بن تيمية
١٣٢	٤ - احمد بن علي بن حجر
٣٤٣	٥ - احمد بن علي الخطيب
٤٠	٦ - احمد بن علي المقرئ
٢٠٠	٧ - احمد بن محمد بن حنبل
٣٤٥	٨ - احمد بن محمد الطحاوي
٣٦٩	٩ - اسامة بن زيد بن حارثة
٥٦	١٠ - اسماعيل بن عمر بن كثير
٢٧١	١١ - اسود بن كعب العنسي
١٩٦	١٢ - الاقرع بن حابس
١٣٠	١٣ - أنس بن مالك
٢٣	١٤ - أوس بن حذيفة
١٠	١٥ - بلال بن رباح
٢٩١	١٦ - ثابت بن قيس
١٧٠	١٧ - جابر بن عبد الله
١٢٢	١٨ - جبير بن مطعم
١٨٧	١٩ - جرول بن أوس * الحطيثة *

تابع / كشف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
٣٠٨	٢٠- جميلة بنت عبدالله بن أبي
١٢٩	٢١- جندب بن جنادة " أبوذر "
١٢٥	٢٢- جهجاه بن قيس
٣٣٠	٢٣- الحارث بن ابي ضرار
١٦٩	٢٤- حبيب بن خراش العصدي
٣٢٣	٢٥- حسان بن ثابت الانصاري
٦٦	٢٦- الحسن بن يسار البصري
١٢٥	٢٧- الحرورية
٤١٦	٢٨- الخرياق السلمي " ذو اليمين "
٨١	٢٩- داروين
٢٠٠	٣٠- الخواج
١٧٠	٣١- دره بنت أبي لهب
٥٩	٣٢- الدهريون
٨٢	٣٣- دوركايم
١٠٥	٣٤- رالف لنسون
١٨٧	٣٥- روية بن العجاج
٣٢٢	٣٦- الزرقان بن بدر
٢٦٠	٣٧- الزبير بن العوام
٣٩٢	٣٨- زياد بن معاوية الذبياني

تابع / كشاف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
٢٠٣	٣٩- السائب بن يزيد الكندي
٢٦٩	٤٠- سعد بن عباد الانصاري
١٣٠	٤١- سعد بن ابي وقاص مالك
٢٦٥	٤٢- سعيد بن مالك بن سنان
٢٤٨	٤٣- سفيان بن سعيد الثوري
١٦٠	٤٤- سلمان الفارسي
٢٤	٤٥- سليمان بن عبد الله آل الشيخ
١٢٥	٤٦- سنان بن وبرة الجهني
٦٥	٤٧- سمرة بن جندب
٣٧٠	٤٨- سهل بن سعد بن مالك
٤٦٠	٤٩- صخر بن حرب
٢٦٠	٥٠- صفية بنت الزبير
١٢٧	٥١- صفية بنت عبد المطلب
٢٤٨	٥٢- الضحاک بن مزاحم
١٧٠	٥٣- عامر بن الحارث
١٨٩	٥٤- عاصم بن بهدله الاسدي
١٣٥	٥٥- عائشة بنت ابي بكر الصديق
١٥٩	٥٦- العباس بن عبد المطلب
٢١	٥٧- عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

تابع / كشف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
٢٩	٥٨- عبد الرحمن بن صخر ابو هريرة
٣٦٨	٥٩- عبدالله بن ابي بن سلول
٣٧٠	٦٠- عبدالله بن رواحة
٢٤٢	٦١- عبدالله بن عثمان ابوبكر الصديق
١٨٩	٦٢- عبدالله بن كثير ابو معبد المكي
١٢٠	٦٣- عبدالله بن عمر بن الخطاب
١٥٢	٦٤- عبدالله بن قيس * ابو موسى الاشعري *
٣٣٤	٦٥- عبدالله بن مسلم بن قتيبة
٤٥٩	٦٦- عبيدالله بن حذيفة ابو الجهم
١٣٣	٦٧- عثمان بن عفان
٢٦٠	٦٨- عروة بن الزبير
٣١١	٦٩- عروة بن مسعود
٢٦٩	٧٠- عرياض بن ساريه
٣١٨	٧١- عطار بن حاجب
١٦٩	٧٢- عقبه بن عامر الجهني
١٣٤	٧٣- علي بن ابي طالب
٩٤	٧٤- علي بن احمد بن سعيد بن حزم
٢٤٧	٧٥- علي بن سالم
١٣٣	٧٦- عمر بن الخطاب

تابع / كشف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
١١٧	٧٧- عمر بن عبد العزيز
٤٥٤	٧٨- عمرو بن العاص
١٦٤	٧٩- عويمر بن مالك ابو الدرداء
٣١٥	٨٠- عينية بن حصه
٢٩١	٨١- غالب بن عبد الرحمن
٤٥٩	٨٢- فاطمة بنت قيس
١٢٧	٨٣- فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم
٥٢	٨٤- فرعون
٨٢	٨٥- فرويد
٢٠٤	٨٦- قتادة بن دعامة
٢٤٢	٨٧- القعقاع بن معبد
٣٦٢	٨٨- قيس بن عبد الله الجعدي
٤٥٦	٨٩- كعب بن مالك
٤٣٣	٩٠- الليث بن سعد
٨٢	٩١- ماركس
٤٥٣	٩٢- ماعز بن مالك الاسلمي
٤٥٥	٩٣- مالك بن الدغشن
٣٤٦	٩٤- محمد بن احمد القرطبي

تابع / كشف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
٤٠	٩٦- محمد بن ابي بكر بن ايوب ابن القيم
٦	٩٧- محمد بن ادريس الشافعي
١٩٣	٩٨- محمد الامين الشنقطي
١٨٢	٩٩- محمد بن اسماعيل البخاري
١٨٨	١٠٠- محمد بن جرير الطبري
١٤٨	١٠١- محمد بن عبد الله بن العربي
٢٥٤	١٠٢- محمد بن عبد الوهاب
٧٠	١٠٣- محمد عبده
١٨٣	١٠٤- محمد بن عمر الرازي
١٩٤	١٠٥- محمود محمد بن مسلم الزهري
١٨٣	١٠٦- محمد محمود بن عمر الزمخشري
٢٧١	١٠٧- سيلمة الكذاب بن حبيب
٢٤٩	١٠٨- معاذ بن جبل
٤٠٦	١٠٩- معاوية بن صخر
٣٠٨	١١٠- موسى بن أنس
٤٤٦	١١١- نصر الله بن محمد ابو الفتح
٤٨	١١٢- نمرود بن كنعان
٤٠٦	١١٣- هند بنت عتبة
١٤٤	١١٤- هولاءكو بن نولي

تابع / كشف التراجم

<u>الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
١٢٩	١١٥- وائلة بن الاسقع
٣١٦	١١٦- الوليد بن عبد الملك
٣٢٩	١١٧- الوليد بن عقبة
٢٢٠	١١٨- ابو حاتم بن حبان بن احمد
٣٩٥	١١٩- ابو جبير بن الضحاك الانصارى
١٨٦	١٢٠- أبو عمرو بن العلاء

كشاف المصادر والمراجع

- ١ - الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية
ط الثالثة سنة ١٣٩٩ هـ .
- ٢ - الاتقان في علوم القرآن ،
لجلال الدين السيوطي ، ط الاولى سنة ١٣٨٧ هـ .
- ٣ - الاحكام السلطانية للماوردي .
- ٤ - الاحكام في أصول الاحكام لابن حزم
ط الثانية سنة ١٣٨٠ هـ .
- ٥ - الأحكام في أصول الأحكام للأمدى ،
ط الاولى سنة ١٣٨٣ هـ .
- ٦ - أحكام القرآن لابن العربي
ط الاولى سنة ١٣٧٦ هـ .
- ٧ - أحكام القرآن للجصاص
- ٨ - أحياء العلوم للغزالي
- ٩ - الآداب الشرعية لأبن مفلح ط سنة ١٣٩١ هـ
- ١٠ - الأدب المفرد للبخارى .
- ١١ - الأذكار للنووي .
- ١٢ - أسباب النزول للواحدى ، ط الثانية سنة ١٣٨٧ هـ
- ١٣ - استخراج الجدل في القرآن لابن الحنبلي ، ط الاولى .
- ١٤ - الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر .
- ١٥ - أسد الغاية لأبن الأثير .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ١٦- اسرار التكرار في القرآن ،
لمحمود حمزة الكرمانى ، ط الاولى سنة ١٣٩٤ هـ .
- ١٧- الاسلام على مفترق الطرق ، ط الرابعة .
- ١٨- الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر .
- ١٩- أصول علم النفس للدكتور احمد عزت راجح ، ط الحادية عشر .
- ٢٠- أصول النظام الاجتماعي في الاسلام لمحمد طاهر عاشور .
- ٢١- أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الامين الشنقيطي .
- ٢٢- أضواء على الحركة التضامن الاسلامي للمودودي .
- ٢٣- اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم لابن تيمية .
- ٢٤- الأنساب لعبد الكريم محمد التميمي ، ط سنة ١٣٨٢ هـ
- ٢٥- الانسان بين المادية والاسلام ، لمحمد قطب ، ط الثالثة سنة ١٣٨٩ هـ
- ٢٦- الانسان في ظلال الاديان للدكتور عمارة نجيب سنة ١٩٧٦ م .
- ٢٧- الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ، ط الثالثة سنة ١٣٩١ هـ
- ٢٨- الايمان لابن تيمية .
- ٢٩- البحر المحيط لأبي حيان .
- ٣٠- البداية والنهاية لابن كثير .
- ٣١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ط الاولى سنة ١٣٤٨ هـ .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ٣٢- البرهان في علوم القرآن للزركشى ، ط الثانية .
- ٣٣- بغية الوعاة في طبقات النحاة واللغويين
- ٣٤- بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية للمودودي .
- ٣٥- تاريخ الأمم والملوك للطبرى
- ٣٦- تجريد التوحيد للمقرئى ، ط الاولى .
- ٣٧- تدريب الراوى فى شرح تقريب النووى للسيوطى ، ط الاولى سنة ١٣٧٩ هـ
- ٣٨- تذكرة الحفاظ للذهبي ، الطبعة الاولى .
- ٣٩- التشريع الجنائي الاسلامي، لعبد القادر عودة .
- ٤٠- التطور والثبات في حياة البشر لمحمد قطب ط سنة ١٣٩٤ هـ .
- ٤١- تفسير ابن كثير ، ط الثانية .
- ٤٢- تفسير الحديث ، لمحمد عزت دروزة ط سنة ١٣٨٣ هـ
- ٤٣- تفسير سورة النور لابن تيمية .
- ٤٤- تفسير سورة النور للمودودي .
- ٤٥- التفسير الفريد للقرآن لمحمد عبد النعم الجمال
- ٤٦- التفسير القيم لابن القيم
- ٤٧- تفسير القرآن للقرآن لعبد الكريم الخطيب
- ٤٨- التفسير الكبير للرازى ، ط الطانية طهران .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ٤٩- تفسير المراغي ، ط الرابعة سنة ١٣٩٣ هـ
- ٥٠- تفسير المنار لمحمد رشيد رضي .
- ٥١- تفسير الواضح ،
للدكتور محمد محمود حجازي ، ط الخامسة سنة ١٣٩٥ هـ
- ٥٢- تقريب التهذيب لابن حجر .
- ٥٣- تنظيم الاسلام للمجتمع ، لأبي زهرة .
- ٥٤- تهذيب التهذيب لابن حجر .
- ٥٥- تيسير العزيز الحميد لسليمان آل الشيخ .
- ٥٦- جامع لاحكام القرآن للقرطبي .
- ٥٧- جامع الاصول لابن الاثير .
- ٥٨- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري .
- ٥٩- جامع الترمذي
- ٦٠- الجامع الصحيح للبخاري
- ٦١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية .
- ٦٢- جلاء الافهام لابن القيم .
- ٦٣- جاهلية القرن العشرين ، ط الاولى سنة ١٣٨٤ هـ .
- ٦٤- الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهرى ، ط الثانية سنة ١٣٥٠ هـ
- ٦٥- حاضر العالم الاسلامي لشكيب أرسلان ، ط ٤ سنة ١٣٩٤ هـ
- ٦٦- الخطاب في فقه المالكية .
- ٦٧- الحسنه والسيئة لابن تيمية
- ٦٨- حقوق الانسان ، للدكتور على عبد الواحد وافي ، ط ٤ سنة ١٣٨٧ هـ .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ٦٩- حقيقة القومية العربية واسطورة البحث العربي ،
محمد الفزالي ، ط الثانية ، سنة ١٣٩٧ هـ
- ٧٠- حياة الحيوان للدسيري
- ٧١- الخلاصة للخزرجي ، ط الثانية.
- ٧٢- دائرة المعارف للبستاني
- ٧٣- دائرة المعارف الاسلامية .
- ٧٤- دائرة معارف القرن العشرين
- ٧٥- دراسة الانسان ،
للدكتور رالف لنتون ، ترجمة عبد الملك الناشف ط سنة ١٩٦٤ م
- ٧٦- الدرر الكائنة لابن حجر .
- ٧٧- الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي .
- ٧٨- دفاع عن الشريعة لعلال الفاسي ، ط الثانية سنة ١٩٧٢ م
- ٧٩- دلائل الاعجاز للجرجاني ، ط الاولى سنة ١٣٨٩ هـ
- ٨٠- الديباج الذهب في معرفة أعيان علماء الذهب لابن فرحون ،
ط الاولى سنة ١٣٥١ هـ .
- ٨١- الدين للدكتور محمد عبدالله دراز سنة ١٣٨٩ هـ .
- ٨٢- رسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية ،
لحسن محمد الجسر الطرابلسي ، ط سنة ١٣٥٢ هـ .
- ٨٣- رسالة في اصول الدين لابن تيمية .
- ٨٤- الرسالة للامام الشافعي ، ط الاولى .
- ٨٥- روح البيان لاسماعيل حقي ، ط سنة ١٩٢٦ م

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ٨٦- روح المعاني للالوسي ط الثانية
- ٨٧- روضة المحبين لابن القيم سنة ١٣١٣ هـ
- ٨٨- رياض الصالحين للنووي .
- ٨٩- زاد المعاد لابن القيم .
- ٩٠- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .
- ٩١- سنن ابي داود ط سنة ١٣٧١ هـ .
- ٩٢- سنن ابن ماجه
- ٩٣- سنن النسائي .
- ٩٤- سيرة ابن هشام .
- ٩٥- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض .
- ٩٦- شرح السنة للبخاري
- ٩٧- شرح النووي على صحيح مسلم .
- ٩٨- صحيح البخاري بشرح الكرامي .
- ٩٩- صحيح مسلم .
- ١٠٠- صحيح ابن حبان
- ١٠١- طبقات لابن سعد ط سنة ١٣٩٨ هـ
- ١٠٢- طبقات الشافعية للسبكي .
- ١٠٣- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي
- ١٠٤- عارضة الاحوزي على جامع الترمذي لابن العربي .
- ١٠٥- عقائد الاسلاميين للسيد سابق ط الثانية .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ١٠٦- عقيدة المؤمن لابي بكر الجزائري ، ط الاولى سنة ١٣٩٧ هـ
- ١٠٧- العقيدة الواسطية لابن تيمية .
- ١٠٨- العمدة في محاسن الشعر وأدبه لابن رشيق
- ١٠٩- عمدة القارىء على صحيح البخارى للمعين
- ١١٠- المواسم من القواصم لابن العربي
- ١١١- عون المعبود على سنن ابي داود
- ١١٢- غرائب القرآن و غرائب الفرقان للنيسابورى ، ط الاولى سنة ١٣٨١ هـ
- ١١٣- فتح البارى على صحيح البخارى
- ١١٤- فتح البيان لصديق حسن خان ط سنة ١٣٨٣ هـ
- ١١٥- فتح القدير للشوكاني .
- ١١٦- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ط الخامسة سنة ١٣٩١ هـ
- ١١٧- فى ظلال القرآن للسيد قطب ط ١٩٧٤ م
- ١١٨- الفصل فى المثل والاهواء* والمحن لابن حزم
- ١١٩- الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ،
للدكتور محمد البهي ، ط الخامسة سنة ١٣٧٠ هـ
- ١٢٠- الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر .
- ١٢١- فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد شاکر الکتبى
- ١٢٢- فيض القدير على الجامع الصغير للناوى .
- ١٢٣- القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهي .
- ١٢٤- قصة الايمان لنديم الجسر ، ط الثالثة سنة ١٣٨٩ هـ .

تابع / كشاف المصادر والمراجع

- ١٢٥- القاموس لفيروز آبادي
- ١٢٦- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي
- ١٢٧- الكافية في النحو لابن حاجب
- ١٢٨- الكامل في اللغة والأدب للمبرت
- ١٢٩- الكشاف للزمخشري
- ١٣٠- الكافية في علم الرواية لابي بكر الخطيب البغدادي
- ١٣١- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ، ط الثانية سنة ١٣٧٥ هـ
- ١٣٢- لسان العرب لابن منظور
- ١٣٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير
- ١٣٤- من روائع حضارتنا للمصطفى السباعي ، ط الثانية
- ١٣٥- مجاز القرآن لابن عبيدة
- ١٣٦- مجمع الزوائد للهيثمي
- ١٣٧- مجموع الفتاوى لابن تيمية .
- ١٣٨- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ط الاولى سنة ١٣٧٦ هـ
- ١٣٩- المحلى لابن حزم
- ١٤٠- مختارات الأغاني لابن منظور
- ١٤١- مختصر الصواعق المرسله على الجهمية .
- ١٤٢- مدارج السالكين لابن القيم .
- ١٤٣- مدخل الى القرآن للدكتور محمد عبدالله دراز ط الثانية سنة ١٣٩٤ هـ
- ١٤٤- مروج الذهب للمسعودي ط الرابعة سنة ١٣٨٤ هـ .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ١٤٥- ماذا خسرت العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوى ط ٧ .
- ١٤٦- سند الامام احمد
- ١٤٧- مشاهير علماء نجد وغيرهم لعبد اللطيف آل الشيخ ط الاولى سنة ١٣٩٢ هـ
- ١٤٨- معالم التنزيل للبقوى على هامش الخازن .
- ١٤٩- معالم في الطريق للسيد قطب .
- ١٥٠- المعارف لابن تيمية .
- ١٥١- معجم الطبراني الصغير .
- ١٥٢- معجم الطبراني الكبير .
- ١٥٣- معرفة القراء الكبار للذهبي .
- ١٥٤- مغني اللبيب لابن هشام .
- ١٥٥- المغني لابن قدامة
- ١٥٦- مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية ط الاولى سنة ١٣٩٠ هـ
- ١٥٧- الملل والتحلل للشهرستاني ط الثانية سنة ١٣٩٥ هـ .
- ١٥٨- منهاج الجدل في القرآن للدكتور عواض اللمعي ط الاولى .
- ١٥٩- منهاج السنة لابن تيمية .
- ١٦٠- منهاج القاصدين لابن قدامة .
- ١٦١- الموافقات للشاطبي ط الثانية سنة ١٣٩٥ هـ .
- ١٦٢- موطأ الامام مالك ط الاولى سنة ١٣٨٢ هـ .
- ١٦٣- موسوعة الثقافة العربية .
- ١٦٤- موقف العقول والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين ،
لمصطفى صبرى .

تابع / كشف المصادر والمراجع

- ١٦٥- نحو مجتمع اسلامي للسيد قطب .
- ١٦٦- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .
- ١٦٧- الوابل الصيب لابن القيم .
- ١٦٨- وفيات الاعيان لابن خلكان .
- ١٦٩- وهذا الدين للسيد قطب .
- ١٧٠- الوجوه والنظائر في القرآن لحسن محمد الدامغاني ط الاول سنة ١٣٧٠ هـ .

فهرست الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	أ - المقدمة
٩-١	ب - التمهيد
٤	١- مناسبة السورة وعلاقتها بالسورة التي قبلها .
٦	٢- موضوعات السورة .
١٧٨-١٠	الفصل الاول : الوحدة البشرية في النشأة وحدة الخالق " الآية الثالثة عشرة "
١٠	ما قيل في سبب نزول الآية
١٢	ارتباط الآية بما قبلها
١٨	عموم النداء في قوله : " يا ايها الناس "
٢٤	اقرار الفطرة بالخالق .
	المتشككون :
٤٨	١- نمرود
٥٢	٢- فرعون
٥٦	٣- الدهريون
٦٢	آدم اصل البشرية
٧٠	نظرية المتشككين في وحدة أصل البشرية الادلة العقلية في رد هذه النظرية
٨١	النظرية الدارونية
٨٦	اصل الانسان الاول .
٩٣	شبهت نبوة البشرية جميعا في كتاب الله لآدم
١٠١	البنوة ثابتة بالسنة الصحيحة
	تباين الشعوب والقبايل بين الوحدة الاسلامية والفرقة العنصرية
١١٣	
١١٦	التنوع يدعو الى التفارق
١١٩	الحسب لا اثر له في كرم الانسان وشرفه عند الله
١٣٢	منافع النسب وواجباته
١٣٨	العنصرية دين الغربيين
١٤٤	عدوى القومية والعنصرية تنقل الى المسلمين

تابع / فهرست الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١٤٦	عناصر القومية ١- النسلية ٢- الوطنية ٣- الوحدة اللونية ٤- الوحدة الاقتصادية ٥- الوحدة السياسية ٦- الوحدة اللغوية .
١٥٧	التفاضل بين الاجناس مبناه على زيادة الخير فيها
١٦٥	التناسب الخلقي بالتقوى كفاءة معتبرة في المجتمع المسلم
١٦٨	التقوى مفترق الطرق .
٢٣٨-١٧٩	الفصل الثاني : دور الايمان في بناء المجتمع المسلم
١٧٩	التمهيد
١٨٠	ارتباط المسلم بالايمان
١٨٦	الايمان رباط مظهر المسلم بباطنه ودعواه باستحقاقه الآيات من الرابعة عشرة الى الثامنة عشرة .
١٩٠	ما قيل في سبب نزول الآيات
١٩١	ارتباط الآيات بما قبلها
١٩٢	هل هؤلاء الاعراب مسلمون أم منافقون .
٢١٥	المؤمنون
٢١٩	الصفحة الاولى .
٢٢٧	الصفحة الثانية
٢٢٩	الصفحة الثالثة
٢٨٨-٢٢٩	الفصل الثالث :
٢٢٩	العمل بالكتاب والسنة
	تمهيد
٢٤٢	الآية الاولى من السورة

تابع / فهرست الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٢٤٢	ما قيل في سبب نزول الآية
٢٤٥	علاقة المجتمع المسلم بدستوره
٢٥٧	السنة كالكتاب في وجوب التحكيم
٢٩٥	السنة مع القرآن لا تخلو من ثلاثة وجوه
٢٧٧	احاطة الشريعة وقصور القوانين الوضعية
٣٢٧-٢٨٩	الفصل الرابع :
٢٨٩	الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا وميتا التمهيد
	الآيات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة
٢٩٥	١- ادب الكلام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
٣٠٣	٢- حرمة صلى الله عليه وسلم بعد موته .
	غض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والحياء منه
٣٠٦	كيف قابل الرسول عليه الصلاة والسلام جفا* الضالين
٣١٣	من وراء الحجرات
٣٩٢-٣٢٨	الفصل الخامس :
٣٢٨	اسباب الفرقة وعلاجها التمهيد
	تربية المجتمع الاسلامي على لزوم الصدق والتثبت في النبا* الاعلامي
٣٢٩	الآيات السادسة والسابعة والثامنة
٣٢٩	سبب نزول الآيات
٣٦٥	ثلاثة أصول من اسس بنا* المجتمع المسلم
٣٦٨	مسؤولية المجتمع المسلم نحو فريقين يختلفان أو يقتتلان

تابع / فهرست الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٤٧٠ - ٣٩٣	الفصل السادس :
٣٩٣	التدابير الوقائية لبقاء الروابط بين افراد المجتمع المسلم وحمايته من سوء الاخلاق
٣٩٥	التمهيد
٣٩٨	الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة
٤٠٧	ما قيل في سبب نزول الآيتان
٤١٤	١- السخرية .
٤٢٠	٢- اللمز .
٤٣٥	٣- النبز
٢٤٢	٤- الظن
٤٥٠	٥- التجسس
٤٥٨	٦- الفبيسة
٤٦٥	وللغيبة أسباب وبواعث .
٤٧١	الاسباب المرخصة للغيبة.
	التوبة
	الخاتمة
٤٧٥ - ٤٩٧	الفهارس
٤٧٥	أ - فهرست الغريب
٤٧٧	ب - فهرست التراجم
٤٨٤	ج - فهرست المصادر والمراجع
٤٩٤	د - فهرست الموضوعات

